

جبرا ابراهيم جبرا

البحث  
عن  
ولييد مسعود

رواية



جبرا ابراهيم جبرا

الى الاصدقاء في منتدى ليلاسه..

بدر

# البحث عن وليد مسعود

رواية



مكتبة الشرق الاوسط

الحقوق محفوظة

هذه الرواية من خلق الخيال . وإذا وجد أي  
شبه بين أشخاصها أو اسمائهم وبين أناس  
حقيقيين أو اسمائهم ، فلن يكون ذلك إلا من  
محض الصدفة ، وخالياً من كل قصد .

منشورات وتوزيع  
مكتبة الشرق الاوسط  
بغداد كمب سارة محلة الرياض  
شارع خالد بن الوليد  
هاتف ٧١٨٨٣٢٧

الطبعة الثالثة ١٩٨٥

آه لماذا

علينا أن نكون بشراً ، وإذ فراوغ القدر

-

نتوق الى القدر ؟

لا لأن السعادة حقاً

قائمة ، ذلك النبي المتعجلُ بوشيك الخسارة ....

بل لان الكينونة هنا كبيرة ، ولأن كل هذا الذي

هو هنا ، وهو السريع زوالاً ، يبدو أن به حاجةً اليها ،

وما أغرب ما بهمتنا - نحن ، أسرع الكل زوالاً ...

مرةً فقط ، كل شيء ، مرةً واحدةً فقط .

مرةً لا غير . ونحن أيضاً ، مرةً واحدة .

مرةً لا عودَ لها أبداً . ولكنْ

هذه الكينونةُ مرةً ، ولو واحدةً فقط ،

هذه الكينونةُ مرةً على الأرض - هل يمكن أبداً أن تمتحي ؟

- ريلكه

« من المراثية التاسعة »

إلى

تلك التي رأت من الحياة ما رأت

وبقيت على كبرياتها ، تقاوم ..



- ۱ -

د. جواد حسینی یتسلم ترکیه صعبه

« تمنيت لو أن للذاكرة اكسيراً يعيد إليها كل ما حدث في تسلسله  
الزمني ، واقعة واقعة ، ويجسدها الفاظاً تنهال على الورق . »

لعل من حقي الآن أن أبدأ إلى عبارة ولید مسعود هذه التي كثيراً ما  
كررتها في أشهره الأخيرة . نحن العوبة ذكرياتنا ، مهما قاومنا .  
خلاصاتها ، وضحاياها معاً . تسيطر علينا ، تحلّي المرارة ، تراوغنا ،  
تذهب أنفسنا حشرات ، عن حق أو غير حق . كيف نمسك بهذه  
الاحلام المعكوسة ، هذه الاحلام التي تجتهد الماضي وتطلقه معاً ، هذه  
الصور المتناثرة أحياناً كالغيوم فوق سهوب الدهن ، المصنوعة أحياناً  
كالماسات الثمينة بين تلافيف النفس ؟

في الشباب نخجل من الاستغراق في الذكريات ، لأن الحاضر والمستقبل  
أهم واضخم . ولكننا مع تقدّم السنين ، يقلّ فينا الخجل من الانزلاق  
نحو الذكريات . لا لأن الحاضر والمستقبل يفقدان الأهمية والضخامة –  
ولو أن ذلك أيضاً ممكن – بل لأننا لا نتحمل منها الكثير إلا بطلب من  
المدد من تجاربنا العتيقة – تلك التجارب ، سارّها وأليها ، التي تشتد  
في الدهن بريقاً وتشتد إهاباً ، في آن واحد . وهات يا صبر ، وهاتي  
يا مثابرة ، وهاتي يا كلمات ، لتبينها بشيء من الوضوح ، لأقحمها  
في أسطر مفهومة .

أسطر مفهومة ؟ كل سطر بستة ، أو بشهر ، أو على الأقل بيوم .

كيف يمكن لسطر كهذا أن يكون مفهوماً ، وكل كلمة فيه مشدودة إلى اوتار متباعدة في فيافي النفس القسيحة ، الملائى بأوتاد خيام ضربت ورفعت بالمئات ؟

كانت معرفتي بوليد مسعود لا تنأى عمقاً في الزمن فحسب ، أو في المكان فحسب : كانت تنأى عمقاً في ذلك البعد الانساني المتفرع المبتسبك بعشرات من حيوات الرجال والنساء . كان هو اشد عمقاً مني في ردود فعله تجاه هؤلاء الرجال والنساء : كانت علاقاته تختدم وتتردد بتلقائية فطر عليها ، وأبقى انا أدارى تلك العلاقات بما كان يسميه عبقريتي الخاصة في منع التناقضات من الاصطدام ، بل حتى في دمج التناقضات دون أذى لأحد ، أو على الأقل للآخرين . كثيراً ما اتهمني بأنني لا بدّ غير موال لأحد ، ان كنت أستطيع الحفاظ على ولائي لكل هؤلاء الأناس ، وهم الذين ينجذبون الى المرء ويندفعون عنه بقوى مغناطيسية متضاربة . وأبقى أنا في الوسط ، والشعرة بيني وبين كل منهم لا تنقطع .

من المحتمل ان ذلك وهم من أوهامي . من المحتمل انني كنت امسك بيدي بخيوط علاقات وصداقات أفلتت أطرافها البعيدة وتاهت ، رغم بقاء الاطراف القريبة بيدي . غير انني كنت اتصرف كأنما الخيوط متصلة ، وكأنما الولامات متبادلة ، رغم كل شيء . لا انكر انني كنت أضدم بين حين وآخر ، اذ اجد الشخص الآخر يتصرف فجأة كأنه لم يعرفني قط ، كأننا لم نأكل خبزاً وملحاً معاً ، أو كأنني حملت له جفء يصير على مقابله بالجفاء . ولكن امثال هذا الشخص كانوا ، في تجربتي ، قلائل ، وعلى الأرجح غير مهمين . أما أن ارى ذلك في رجل أعزّه - فتلك كانت الحية المرّة والجرح العميق . ومثل ذلك حدث لي مرة أو مرتين مع وليد نفسه ، وحملت منه الحية والجرح صامتاً الى ان جاء اليّ ضاحكاً ، معانقاً ، مرة أخرى . كنت أغضّر له كل شيء ، حتى مقدّره على الجفوة

الفجائية . أجد له تبريرات قد لا تخطر بباله هو ، بل قد يرفضها . ففي السنوات الأخيرة كنت ارقبه ، واخشى عليه : أرى خطوطاً جديدة تتكاثر كل يوم حول عينيه ، حول فمه . عشرين سنة عرفته ، والتراب يتحول الى ذهب بين يديه . ورأيت وهو يرفض ذلك كله ، وشيء اشبه بالتصدّع يتبدّى في كيانه ، كان تفاعلاً كيميائياً داخلياً جعل يكشف عن نفسه في صوته ، في كلماته ، في عينيه .

كان وليد يبحث دائماً عن ذلك التوازن الذي تحدث عنه طوال حياته ، ولم يجده قط . كان يقول ان « التوازن » كلمة تقريبية ، ولكنها تفي بالغرض قبل ان يخوض المرء في التفاصيل . في عالم من الرعب ، والقتل ، والجوع ، والكراميه ، كيف تجد توازنك الذهني ، او النفسي او الجسدي ، او الاجتماعي - سمّه ما شئت - دون ان تشعر بانك تقف من الانسانية على طرف بعيد ؟ كيف تكون انسانياً ، وتخطى المشاكل الانسانية ؟ التوازن بالطبع كان سراباً ، يغري ولكنه لا يندفع طويلاً . ومع ذلك ، لم ييأس وليد . أو أنني رفضت الظن بأن اليأس يستطيع الاخذ منه . كان يمر بازمات عسيرة : يكفر ، يسدّ اذنيه ، يعلن سطوة الشر على الحياة ، ينال منه الغضب لأيام متوالية . ولو وقف عند ذلك الحد ، لما كان في أمره ما يستحق الذكر . يجلسون في المقاهي ويتكلمون كلاماً كهذا . يلتقون في البيوت ، وينتهون الى مثل هذه النتيجة . وذلك كله أمر عادي في هذه الأيام . المهم هو أن وليد لم تكن تطول به الأزمات الى حدّ تلك البلاده تجاه الحياة وتقلباتها التي ما هي الا وجه من وجوه اليأس المكتوم الذي يعيشه معظم الناس .

والتفاؤل ، بالطبع ، يمكن هو ايضاً أن يكون ضحلاً وتافهاً كالنشاؤم . « التفاؤل ماذا بالضبط ؟ »

الواقع أن تساؤلاً كهذا لا يوقف وليد طويلاً . للطلاب الجامعيين ان

يشتموا ويتفألوا ، أن يشتموا ويفضوا ، ويتصوروا أن ثمة بديلاً  
رائعاً يستطيعون تحقيقه . هذا من حقهم . من واجبهم . أما وليد فقد  
مّر بذلك منذ سنين بعيدة ، وانتهى منه .

ماذا اذن بقي له ؟ التوازن . كيف ؟ على أية نقطة من نقاط  
الخطّ المتعرج الرجراج يقيمه ، وعالاه زلق ، مقلقل ، في صعود  
وهبوط مستمرين يتخطيان العقل والمنطق ؟ كان يقول احيلنا انه لو عاش  
في عصر مضى ، لربما استطاع أن يتحدث عن امكانية إيجاد التوازن في  
الفن ، في الدين ، في التوحد بالجمال مثلاً - على طريقة بعض قدامي  
المتصوفين . التوحد بالجمال بعبادته : المبالغة في العبارة ، يقول ، تبدو  
مضحكة . أعبادة ، وهو لم يعرفها حتى في الديسن ؟ أعرق بخوراً ؟  
أيكذب قصائد لا يقرأها لاحد وتلوها ساعات الفجر كالأدعية ؟ أيعانق  
امرأة جميلة ، ويتحسسها ويتشاهها حتى لحظة القذف ، ويزعم أنه  
عبيدها ؟ وبعد ذلك ؟ ومسح ذلك ، بعد التحدي ، والعنف ، بعد  
الصراع والضرب والمغامرة بكل شيء ، فان الجمال ، في النهاية ، هو  
الاهم ، كان يقول . التأمل فيه ، كتأمل الصوفي في ذات الله . في وسط  
الضجيج ، صوت قرير . في خضمّ المتناقضات ، تناغم خفي محسوس :  
وبين اطراف الجذب والدفع ، نقطة ساكنة عميقة : عين العاصفة ،  
الشوة التي يعجز عنها الكلام في عالم من الهذر والخوف المقتنع .  
« عندما رأيت لأول مرة ، وكنت في اول الشباب ، جاعة من  
الناس يتحدثون ، ثم يلتفتون حولهم مذعورين ويسألون : هل سمعنا  
أحد ؟ أصابني الملح . أمكنا نخاف أن يعرف الآخرون ماذا نقول ؟  
ومع السنين تكرر التلفت المذعور ، والسؤال القلق ، إلى أن أصبح امرأ  
عادياً . أصبح الرعب جزءاً من حياتنا ، نعايشه ، ونتحايى عليه ،  
كيفنا اتفق ، وأصبح الجزء الأكبر من تفكيرنا تفكير المتأمر ، تفكير  
الخائف ، تفكير المتقي شرّ الناس . تحت تأثير هذا الضرب من التفكير ،

يطلبون اليك ان تبسّط ، أن تلقي بالآلاء الأصالة لنهر أعين الذين  
عشيت اعينهم منذ زمان . سأبحث عن عين العاصفة ، واخلص من  
هذا التفكير كله . »

هذا ما قاله في احدى الصحف جواباً على سؤال احد الصحفيين  
اللوجين ، قبل اختفائه ببضعة أشهر . وعندما ألح عليه الصحفي  
بسؤال آخر أجاب :

« أرجوك ، لا تحدّثني عن الشجاعة . الشجاعة امر شخصي بحث ،  
قائم بين المرء ونفسه . أصبح الجهر سخفاً لا يقنع احداً ، بل لا  
يسمعه أحد ، كمن يضرب طبلًا بين الطرشان . الشجاعة الوحيدة التي  
تستحق الممارسة هي مجابهة الموت بالعضل ، بالفعل العنيف ، حيث  
يكون في الموت نفسه غلبة على الموت . موت الفدائي مثلاً . أما انتم ،  
فاسمحوا لي أن اقول لكم : انكم جميعاً جبناء تضربون للحوت طبولكم  
وصفاحكم ، لعله يقدف من حلقة القمر . »

في الآونة الأخيرة كان عنفه في اشتداد ظاهر . لم اشك قط في  
شهوته ونهمه للحياة والمستقبل ، غير انني لحظت أنه غداً أميل إلى  
الصمت ازاء كلام الآخرين ، وجعلت أحسن أن البلوغ اليه ، إلى  
جوهره وسريته ، غداً أمراً عسيراً : لقد جعل يمتس نفسه وراء جدار  
من الأممات ، كأنه يتمتع هناك بمعاصرة شراب سري غامض يرفض  
أن يشاركه فيه أحد .

خابرني وليد صباح يوم اختفائه . كنت في فراشي عندما دعّني حالة  
إلى التلفون - حوالي السادسة صباحاً . « خير ؟ » قلت ، والنوم ما  
زال في عيني .

قال : « جواد ، انا مسافر اليوم بسيارتي . »

- « اليوم ؟ هكذا فجأة ؟ »

- « نعم . أريد أن اودعك ، آسف لأنني ايقظتك مبكراً ،

ولكن اردت أن اضمن وجودك في المنزل ، قبل خروجك إلى الكلية .

- « متى تعود ؟ »

- « اعود ؟ لا أدري . كالعادة ارجوك أن تهتم بما يردني من بريد . أوصيت خادمي فرات بأن يسلمك رسائلي . قد أغيب طويلاً هذه المرة . »

لم أسأله عن وجهة سفره ، ولو أنني خمنت أنه سيذهب على الأرجح إلى لبنان ، ومن ثم إلى إيطاليا . أكثر من مرة فعل ذلك في السابق ، حين كان يطيل الغياب . وهو كل سنة يجدد وكالتي الخاصة عنه في عدد من شؤونه ، نخشيت من أن أمراً قد يحدث له فيعيقه عن العودة إلى بغداد . أما هذه المرة فراح فعلاً ولم يعد . وكسان لاختفائه تلك الضجة التي لم اتوقعها قط . قال البعض إنه هاجر إلى كندا ، أو استرايا . قيل انه قتل . قيل إنه عاد إلى فلسطين المحتلة سراً . المهم أنه اختفى . وفي الأشهر الستة الأخيرة اتعبني شؤون كثير . واضطرت إلى الأجابة على الكثير من رسائله الواردة إليه ، فضلاً عن مئات الاسئلة التي طرحت حول اختفائه . ترك سيارته على قارعة الطريق الصحراوي المذهب إلى سوريا ، على بعد حوالي خمسين كيلومتراً غرب الرطبة ، ولم يترك كلمة تشير إلى ما حدث . ولكنه ، بحبه للمواقف اللغزية ، ترك شريطاً داخل المسجلة ، في سيارته ، قال فيه اشياء كثيرة ، ولم يقل الشيء الوحيد الذي تحرق الجميع إلى معرفته : إلى أين ذهب ؟

عندما راجت الشائعات بعد ذلك بإسابيع بأنه وجد مقتولاً في لبنان - وجدت على السفح من ظهر البيدر جثة مشوهة لم يستطع احد التعرف عليها ، ولكن البعض ذهب إلى أنها جثة وليد مسعود - شعرت ، بحسد ربما كان صادقاً لطول ما عرفت وليد ، بأنه فعلاً قد مات . اخذت أفكر فيه ميئاً : رأيت يتجندل بين الصخور في إحدى هاويات

لبنان ، وبقيت إياماً لا استطع إلا التفكير فيه . عشرون سنة من صداقة بيننا انتشر عقدها ، ورحت أبحث عن الحيات واحدة واحدة لعلي أجد مفتاحاً لسر اختفائه على هذا النحو .

لم يكن لديّ إلا الذكريات ، وأوراقه المكدسة ، المحشوة في اغلفة كبيرة ، والتي كلما فتحت غلافاً منها أحسّت كأن الزمن ينهال عليّ من كل صوب فأخنت تحت ركامه ، فأعيد الأوراق إلى الغلاف ، لكي استعيد حرية تنفسي .

وبقدر ما صدمت أنا بما حدث ، صدم أيضاً عدد من اصدقاء وليد . عامر عبد الحميد ، الذي لم أراه يوماً يشير إلى موت أحد ، أو إلى زواج أحد ، كأنه في معزل عن عواطف الناس في حالاتها القصوى ، كان يتصور - أو كنت أنا اتصور - انه لن يحزن على موت انسان أو فراقه . وإذا الحزن بهزه ، فينطلق على نفسه إياماً ، ويرفض رؤية الناس ، ويقطع لأسابيع عديدة عن اقامة حفلات العشاء الكبيرة التي كانت حياتنا الاجتماعية تغني بها فيما مضى .

وجاءني ابراهيم الحاج نوفل مساء دون سابق انذار ، وشفاه ترتجفان ، غضباً وحدة ، وأنا لا أدري إن كان على وشك الانفجار حقداً أو اجهاشاً بالكاء . وراح يضرب بقضبته ذراع الكرسي الكبير الذي جلس فيه ، وهو يردد : « مستحيل ! مستحيل ! هذه خدعة يا جواد . وليد ضحية خدعة رهيبه ! أهممني الشرط الذي تركه في السيارة ، ارجوك .. » ولكنه لم يكن في حالة يستطيع معها الاصغاء حتى إلى صوت وليد . جاءتنا هالة بكاسين من الويسكي ، فجرع ابراهيم كأسه ، ثم نهض إلى حيث الزجاجاة وملأ الكأس إلى أكثر من نصفها .

وفي ذلك المساء تلقى اليّ الدكتور طارق رؤوف يسألني عن الاشاعات

التي أخذت تردد ، ثم قال :  
« أتعلم يا جواد ؟ ربما اكون انا آخر من رأى وليد ؟ »  
فدهشت ، لأنني لم اكن اعتقد أن العلاقة بينها على تلك الدرجة من  
الصمیمية ؛ فقلت :

« هل رأيت ليلة سفره حقاً ؟ هل ودعته ؟ »  
فجلاً صوته غريباً عبر اسلاك الهاتف :

« ودّعته ، نعم . ولكن أندري أين ؟ في الرطبة ! كنا انا وكاظم  
معاً . ألم يخبرك كاظم ؟ »  
« لم أره منذ عودته . »

« كنا انا وكاظم مسافرين في سيارتي إلى اليونان . وعندما  
انتهينا من معاملات جواز السفر في الرطبة عند منتصف الليل - لعلك  
تعرف تلك القاعة الكبيرة البذينة التي لا هي بالمحطة تماماً ، ولا هي  
بالمقهى تماماً - هناك رأينا وليد يدخل ويده جواز سفره . حينها ،  
وودّعناه هناك . وكان اشبه بالضائع منذ تلك اللحظة . »

وعندما التفت إلى ابراهيم لآخره بما قال طارق ، وجدت أنه كان  
يتسمع بناتيه شديد إلى سماعة التلفون وهي على اذني . وقال :

« غداً سأذهب إلى كاظم اسماعيل ، لاعرف منه التفاصيل . »

وأية تفاصيل تلك التي سيعرفها ابراهيم من صديق رأى وليد ربما  
للدقيقتين ، وكل منهما على وشك الدخول في سيارته ، في منتصف ليل  
مظلم ، في محطة صحراوية ؟ التفت كاظم بنفسه بعد يوم أو يومين ،  
وتحدثنا عن وليد طويلاً . أما عن اختفائه ، فلم نعر على أي جديد .

مرات عديدة عدت الى الشريط الذي وجد في السيارة ، أعزفه مقطعاً  
مقطعاً ، وأنامل فيه . وقد عثرنا على الشريط عندما وجدنا مسجلة حمراء  
صغيرة ، من صنع ياباني . وفيها كاسيتة لم تنتبه اليها أول الأمر .

وكانت هذه المسجلة ملقاة على أرضية السيارة ، اضافة الى المسجلة الأخرى  
التي تحت راديو السيارة ، والتي كان فيها شريط موسيقي عزف الى  
نهايته . أما المسجلة الحمراء ، فكانت متصلة بميكروفون مثبت بسكان  
السيارة ، وكان زر التسجيل مضغوطاً . من الواضح أن وليد كان  
يسجل بصوته وهو يسوق ، قبل أن يحدث ما حدث .

عندما عزفت هذا الشريط وجدت انه ينقل ، أولاً ، الموسيقى التي  
كانت تصل الميكروفون من المسجلة الأخرى المثبتة ، وهي « متواليات  
الماربسيكورد » لهري بورسيل ( كان اقتناها في الآونة الأخيرة ويكثر  
من عزفها ) ثم يبدأ الكلام . وهو ليس دائماً كثير الوضوح لأنه مشوب  
لا بالموسيقى فحسب ، بل بهدير السيارة . أي ان وليد كان يسجل ،  
وهو يسوق - على الأرجح بسرعة فائقة . ولكن الكلام يسترسل ،  
يتقطع أحياناً ، ويتواتر أخرى . انه صوت وليد نفسه ، دونما ريب .

أدهشني الشريط عندما سمعته أول مرة ، وبقي يدهشني . لسبب لا  
استطيع تحديده ، شعرت أن وليد أراد تضليلنا جميعاً بهذا الشريط  
« الأخير » . أم انه أراد ، وللمرة الأخيرة أيضاً ، أن يصارحنا جميعاً ،  
ويضع أوراقه على الطاولة ؟ أين الوجه وأين القناع ؟ أي الاثنين عرف  
منه طوال عشرين سنة طارت وكأنها يومان ؟ وحتى إذا اعترفنا بأن  
وليد كان تحت تأثير تجربة أليمة جداً ، بل بين فكي كاتبة سوداء تجعل  
لكلامه سيولة الهذيان ، كضرب من آلية دفاعية حاول أن ينقذ نفسه  
بها ، فان الشريط يحمل كلاماً يجب وضعه في الحساب . لم يكن فيه ما  
قد نعتبره أشبه بافادة متهم ، أو أشبه برسالة « الى المحرر » يدافع بها  
رجل عن نفسه ضد طعن ما في مجلة أو جريدة . ( على كل ، لم يكن  
وليد ليفعل شيئاً من هذا القبيل طوال أيام حياته . فكما هاجمه أحد ،  
أجابه بصمت ملؤه الاحتقار . ) لقد تعمّد وليد أن يتخلى عن المنطق -

على الأقل ظاهرياً . ومن الصعب أن نعرف ما الذي بالضبط جعله يسجل كلاماً كهذا على نفسه - وفي ذلك اليوم بالذات ، يوم اختفائه .

بعد أكثر من شهرين مرّ بنا عامر في إحدى الأمامي وطلب إليّ أن اسمعه الشريط . وسألني : « هل يذكر أسماء عديدة ؟ »

قلت : « يذكر خليطاً من الأسماء . »

- « معروفة ؟ »

- « بعضها فقط . اشاراته اليّ حقيقيّة . فربّما كانت اشاراته الى الآخرين أيضاً حقيقيّة . »

وعزفنا الشريط ، وعامر يدرّج ويصني بتركيز شديد . ووجدنا أن أسماء اصدقائه في طفولته لا تعني لنا شيئاً ، وكذلك اسمان أو ثلاثة لم نعرف كلاهما من المراد بها ، وبخاصّة ذلك الاسم الواحد الذي يتردد أكثر من غيره ، والذي ينتمي على الأرجح الى الفترة الأخيرة من حياته : شهد .

من هي شهد ؟ لست أدري . ولم يعرفها عامر أيضاً ، مع ان بيته كان ملتقى معظم الرجال والنساء الذين يُخطب بهم وليد . لمّ حجب ذكرها عني ، وكان يبدو أنه يصارحني بكل خفاياه ؟ من هي هذه العسيلة التي أصرّ على التكمّ بشأنها حتى في لحظاته الأخيرة ؟

ضحك عامر . « اربعون غرفة لنا أن ندخلها كلها ، ولكننا نصر على دخول الغرفة الوحيدة التي اغلقت دوننا ! لا بأس ! سندخلها . عندي فكرة . »

- « وهي ؟ »

- « إذا كنت لا تمنع ، فاني اقترح أن ادعو عدداً من اصدقاء وليد إلى منزلنا يوم الخميس القادم ، ونفاجئهم بعزف الشريط ... »

- « ولكن لا أظن أنك ستحصل على جديد . وليد لا يتهم احداً . ولا يفضح احداً . »

- « لو كان في الأمر فضيحة ، أعتقد اني كنت افكر في امر كهذا ؟ »

لم اكن مطمئناً إلى غرض عامر ، فهو لا يخلو من ميل إلى اللعب الماكر دون ان يبدو على وجهه أنه يضحك في سرّه . قال : « أجد كلام وليد هنا غامضاً ، يائساً ، بريئاً فرحاً - كلها معاً . فلنجعل من الشريط مناسبة للحديث عن صديق يهنا جميعاً . على كل ، سنجعل الحلقة مقصورة على القريبين فقط . »

وافقت بعد تردد . لم أعط عامر الشريط ، وقلت إنني سآتي به معي في مساء السهرة . وجلست انقل كلامه المسجل على الورق ، كما جاء بالضبط ، سيّالاً متداخلاً ، لكي أقرأه واتقرّى تفاصيله ، وأضيفه إلى اوراق وليد الأخرى ، وكتبه ، لعله يساعدني في الدراسة التي قررت أن اكتبها عنه .

كان الخميس يوماً قافلاً . وجاء الليل واعداً بشيء من نسيم ، عندما تلقّنا عامر عبد الحميد بباب داره مرحباً ، وعانقت هالة زوجته آن بحرارة . وسرنا رأساً نحو الحديقة الكبيرة ، من خلال الجهنميّات وسعف النخيل المتهذلة ، إلى بقعة بليلة الليل ، وعلى مقربة منها تنفث بضع نوافير مياهها في الجوف فتساقط كالمسابع الفضية في حوض ازرق مستطيل ، ترتعش أضواؤه من خلال الماء . وقد جعلت الكراسي - على غير العادة - في دائرتين صغيرتين في ركن من الحديقة ، مما اوحى إليّ أن المدعوين لن يكونوا كثيرين هذه المرة .

ناولني فاضل كأساً ، وناول هالة عصيراً ، وبعد قليل دخل الدكتور طارق رؤوف مع زوجته سميرة واخته الصغرى وصال ، التي لم تكن -

أنا وزوجتي - نعرفها مه . ثم جاء إبراهيم الحاج نوفل ، وبعده بقليل كاظم اسماعيل ، تلامساً في منتهى الأنساق ( هؤلاء العزّاب المساكين ! ) ، وسرّ إبراهيم جدّاً عندما رأى مريم الصفّار تدخل ( اعجابه بها لم يعد يخفى على أحد ) ، وبرفقتها جنان الثامر وسيدة فلسطينية لم أكن رأيتها من قبل ، عرفتها مريم علينا باسم رباح كمال . وكان آخر القادمين احسان البصري وزوجته نهاد . لم أدر إن كان عامر قد اخبر ضيوفه مقدماً بما كنا قد اتفقنا عليه ، ولكنه ، مهما يكن من امر ، قد أفلح في دعوة عدد من الناس لم يكونوا في الآونة الاخيرة ليجتمعوا تحت سقف واحد ، سواء لديه او لدى غيره . وبدقته المعهودة ، تأكدت من استحضر مجموعة من الرجال والنساء يعلم أن كلمات وليد قد تهيمهم ، أو أنهم فعلاً مذكورين في الشريط ( صراحة او ضمناً ) ولم يغب عني أن النساء كنّ أكثر من الرجال بقليل .

لم تكن مريم تثير اهتمام إبراهيم فقط - بل اهتمامي أنا أيضاً ذلك المساء ، لأنني اشتبهت منذ البداية ، في انها هي المقصودة باسم شهد . وقد تقصّدت الذهاب إليها مباشرة قبل أن تأخذ مقعداً لها قرب أحد ، وإذا هي تفأخخي بقولها :

- « دكتور جواد ، هل التقيت بالسيدة رباح ؟ »

ولما قلت لا ، قالت :

- « أتدري من عرفني عليها ؟ وليد مسعود . في لبنان ، قبل خمس سنوات . »

فقلت رباح : « من المؤسف انني لم آت الى بغداد إلاّ بعد أن ... بعد أن ... غاب عنها وليد . حينما ذهبت وجدهم يذكرونه ، كما في بيروت تماماً ، لم أكن أتصور أن له هذا العدد الكبير من المعارف هنا أيضاً . »

فكرت لنفسي : ماذا ؟ امرأة أخرى في حياة وليد ؟

قلت : « إذن كنت تعرفينه ؟ »

قالت بشيء من الاستحياء لم يحجب لمعة غريبة في عينيها :

« قليلاً ... منذ زمان ... »

- « منذ زمان ؟ ... »

- « منذ أن كان في القدس . في أواخر الأربعينات . » ثم اردفت :

« كنت مراقة ايامئذ . »

فهتفت : « رائع ! »

غير انها هزّت رأسها . « لا ، لا تتوقع مني منجماً للمعلومات عنه . اخبرني مريم انك تكذب عنه كتاباً . لعلك تعرف أنت عنه ، حتى في تلك الأيام ، أكثر بكثير مما اعرف أنا . »

وأحسست أن في صوتي نبرة صريحة من الترجّي حين قلت : « اريد أن اعرف شيئاً أكثر عن ... خلفيته ... طفولته ... أبيه ... أمه ... » وهنا ضحكت رباح : « لا ، انا لم أعرفه في تلك الأيام المبكرة . »

قلت يائساً : « من إذن كان يعرفه ؟ »

- « هناك فلسطينيون كثيرون كانوا يعرفونه . أتدري من يستطيع أن يخبرك عن طفولته ؟ صديق قديم من اصدقاء عائلته ، التقيت به قبل سنوات في عمان . بمحض الصدفة . كنا نؤث بيتاً لأخي ، فذهبتا الى نجار معروف هناك اسمه عيسى ناضر . علته مشهور . ولما علمت انه من بيت لحم ، سألته ، كما قد تسألني أنت : أتعرف رجلاً اسمه وليد مسعود ؟ ففرح لسؤالي ، وقال : وهل تعرفينه أنت ؟ قلت : صديق قديم عزيز ... قال : حسناً ، سأرنب لك خصماً عشرة بالئة ، من اجل وليد . »

- « وهل اخبرك شيئاً عن حياته ؟ »



— « لم ادخل معه . بل . ولكنه حدثني اكثر من مرة عن معرفته بأبيه ، وأمه ، وأخيه . على كل ، إذا لم يكن قد اصيب بأذى في احداث ايلول ، فانه ما زال في عمان ، ولا شك . »

— « ما اسمه ، رجاء ، مرة اخرى ؟ »

— « عيسى ناصر . »

واخرجت دفترتي الصغير وسجلت اسمه . ثم التفت إلى مريم .  
« اتعرفين حكاية الشريط ؟ »

فاندھشت . « أي شريط ؟ »

— « الذي تركه وليد في سيارته ؟ »

— « وماذا به ؟ »

— « يتحدث به عن ماضيه ، عن طفولته ، وغير ذلك »

أحسست رغم خفوت اضواء الحديقة ، بأن لونها انحطفت ، إذ قالت : « وغير ذلك ؟ مثلاً ؟ »

— « عن حبه ، مثلاً . »

— « حبه ؟ هل بإمكانني أن اسمعه ؟ »

— « مستمعينه . »

يبدو أن عامر لم يستطع الانتظار إلى ما بعد العشاء ، إذ في تلك اللحظة جاءني مقاطعاً ، واعتذر للسيدات ، وجرّني من ذراعي ، ثم اخرج قلماً من عيبه وجعل يضرب به كاسه ، ورفع صوته قائلاً :  
« يا جاعة ! يا جاعة ! »

فانقطع اللغط ، واتجهت الوجوه صوبه ، وهو يجيل بصره بين الضيوف . ثم قال :

« أنا والدكتور جواد هيأنا لكم مفاجأة صغيرة ، نعرف انها مستمركم جميعاً . لعلكم ستمتع أن وليد مسعود ، يوم اختفائه ، ترك في سيارته

شريطاً سجل فيه كلاماً ممتعاً ، سيروق لكم أن تسمعه . والشريط في حوزة جواد . وسيحدثكم هو عنه . ارجو أن تجلسوا جميعاً . »

ومد يده إلى ذراعي ، قائلاً : « تفضل . قدم الموضوع . »

أحسست بحرج شديد ، بل بحزن مفاجيء حتى كدت أشهق قبل أن ابدأ بالحديث . قلت : « الواقع ، بأن الشريط هو الذي سيحدثكم ، وقد سجله وليد في السيارة في سفرته الأخيرة المشؤومة . ولو لم تكونوا جميعاً اصدقاء وليد ، لما ضيعنا وقتكم به ... » وفي تلك اللحظة وقعت عيني على وصال رؤوف ، اخت الدكتور طارق ، لقربها مني ، ولحظت أن فكها سقط ، وعينها اتسعنا بشكل غريب . وخيل اليّ أن ذهشة غير سارة بسدت على معظم الوجوه . فسارعت إلى تطمين الجميع . « ارجو أن تعلموا مقدماً أن وليد لا يذكر احداً منكم الا بالخير . العفو ! أنه يكاد لا يذكر احداً منكم باسمه سوى — على كل ... تفضلوا ، واسمعوا . »

وناولت عامر الشريط ، فأخذه إلى المسجلة التي كانت على مائدة قريبة ، وأقبحه فيها . وقبل أن يضغط على زر العزف ، التفت وقال :  
« جددوا كؤوسكم ، رجاء . » ودار فاضل عليهم بصينية عملة بالشراب ، ثم انسحب ، وشغل عامر المسجلة .

بدأت الموسيقى ، بغير ما وضوح كثير . رفع عامر الصوت أكثر . وجلست نبرات وليد من سماعي الستيريو الكبيرتين : نبرات آليّة ، غريبة ، نرفها ولا نرفها . والكل يصغي ، ولا يتحرك احد في مقعده . والصوت ينطلق في فضاء الحديقة ، مع الهدير والانغام التي تتنوره ، كأنه قادم من فضاء آخر عديم الصلة بنا اولاً ، ولكن الصلة شيئاً فشيئاً تشد ليتيمي الكلام ، بشكل ما ، البنا :

كيس للكتب أخضر بلون الزيتون ممتلئ بالكتب والدفاتر والأقلام  
 الرصاص والأقلام الملونة أيام المدرسة يعلق بالعنق وينتفخ تحت الذراع على  
 الخصر بأسراره الطفلية كتاب سير الأبطال أساء غريبة هرقل ويوليسيس وأخيل  
 وفطرخلس وفريام ما صدر البيت وقد ولى الظلام هارباً فالشكر لله الأحد  
 شكراً عظيماً واجباً أخذت الكيس وأفرغته من الكتب على عتبة الشباك  
 وربحتنا أنا وسليمان وعبد نفقز في الحواكير إلى أشجار الزيتون جدد الزيتون  
 مستمر ونحن نلقت البقايا الباقية الناهية بين الأشواك والحجارة والتراب أو  
 العالقة بالأغصان العالية تهتز وتضطرب والأقدام تنشب بدرابة والعالم كله  
 أشجار زيتون عارية ومقلّة يا ولد ابعدوا عن تلك الشجرة لم نصلها بعد نحن  
 نصيف فقط والغيوم البيضاء كالحلمان السارحة في حقول السماء الزرقاء  
 أه جون كيتس أياها النجم الساطع ليخي مثلك ثابت ونحن أطفال عمري  
 ثمانني تسع عشر سنين لو كان لدي مال قال الشيخ سالم بكلّ جدية لعلمت  
 هذا الولد على حسابي نأكل الأرز مع قطعة من لحم والكاهن بلحيته البيضاء  
 الكبيرة المنتشرة على جبهته السوداء اللامعة خلّج أسنانه المستعارة ليضعها في  
 كوب من الماء ويغسلها أمام الجميع ويخفي فمه تحت شاربه الكبير قلت لها  
 لا أريد شارباً ساحلقه دائماً قالت لو نجعل لك شارباً كخط أسود فوق شفتك  
 العليا كأنه مرسوم بالفحم فتشبه أبطال السيّا ولا سباً الأنذال الوسيمين الذين  
 يغمون الفلوس وشفاه النساء ولكني احبك بشارب وبدون شارب وهي  
 غارقة في الكرسي الكبير ونهداها ككرتين من عاج وتنورها حاسرة ملمومة  
 حول خصرها وفخذاها يستقبلان حرارة النار الالهية على مهل في الموقد  
 الأسود الكبير أيام كنا نذهب إلى البحر ونلتقي الريح العاصفة الجليدية وأفراس  
 الزبد تنبثق من أواسط البحر وتراكض إلى الساحل لتتلاشى على أقدامنا  
 المكافحة في الرمل الطري الناعم الليل وشفتاها باردتان عاطرتان مرصعتان  
 بالرداذ وخدتي على شعرها الطائر وشعري يطير رغم أصابعها المغرورة فيه  
 ونغد رأسينا من نافذة القطار الضجاج الصافر الهادر عبر الأراضي الخضراء

عندي هل تعذني بالأنا تكبر بالأنا تشيخ وأنا أعدك بأن أبقى كما تراني الآن  
 وسمة العينين كبيرة الفم وجسدي كالحشيش الأخضر أتمرغ فيه كما حملت  
 بك وأنا أسمع الموسيقى في هو المدرسة أراك جالسة بن أغصان محملة بأوراد  
 ككتل من الثلج وقدمك تتدلى وتهتز شجرة زيتون لا لم تكن شجرة زيتون  
 لا أستطيع أن أنسى أشجار الزيتون والتربة الحمراء والكهوف الظليلة الباردة  
 نأكل فيها: التين والعنب تتدلى العناقيد الكبيرة من الكروم وتستلقي كالحيلى  
 على الأرض الحمراء وطنين النحل والذبّابير قضينا النهار نحاول حرق المدبرة  
 وهاجمتنا الذبابير ولدغني وورم وجهي لماذا لم تغطّ وجهك بمنخل أو غربال  
 من أين لنا منخل في الوادي وهم يتصايحون حولنا من جبل إلى جبل حتى  
 النساء يتخاطبن عبر القضاة الزرقاء بلا سلكي أهواء مريم مريم!!!! جيسي  
 الغدا لا يوي صرة صغيرة فيها رغيف من خبز الطابون وبيضة مسلوقة وزيتون  
 وخيار مخلل يضحك ويقول الدنيا مثل الخيارة أبي الذي قبل أن يموت كان  
 ملقى على أرض الغرفة كسندبانة ضخمة أسقطتها الريح وكانت له حكايات  
 عن خبز البلوط أيام السفر بورك والمجاعة ولدت بعد المجاعة والطريق  
 تركض تتباعد بنا كنا في لوري والطريق البيضاء تتساب من خلال الغبار  
 نهرب منّا منّي والتلال تهرب والحجارة حجارة الكيلومترات التي تعلمت  
 قراءتها بعد أن كبرت واستطعت أن أقرأ الرزنامة التي كُتب عليها ١٩٢٧  
 أب أيلون تشرين وياسمين وريّا حننت إلى ريتا ونفسك باعلت مزارك أم  
 أنني كنت هارباً فالشكر لله الأحد من صوته يديها أصابعها الصغيرة تسج  
 قماشه البالي وتطبع القبيلات وتكشف عن سرّة كرسية الخلد في بطن أمّس  
 كتلة من تلال الأفق البعيد حيث لا نرى إلا طيوراً سوداء تسبح وتتلاشى  
 هل الجنة هناك وراء السماء حيث تلتقي السماء بالأفق ولو بلغت ذلك الأفق  
 بنفسني على الجبال الزرق لفتحت نفرة في السماء ودخلت منها الجنة أه  
 يا مسكين يا جاهل إلى متى تبقى تحمل بالعبور إلى عوالم أخرى وما لديك إلا  
 هذا العالم القاسي العنيد عليك أن تقارعه ولا تخشاه تعلمت ذلك في المدرسة

وأصابني تعجز عن المسك بالقلم لشدة البرد فأنفخ فيها وامسك بالقلم  
وأكتب ولا تأتي الأسطر مستقيمة كما أريد ولا يسجل القلم كل الكلمات  
التي تنهاري من دماغي وشفتي أكاد أراها تتبعثر على المنضدة وتساقط  
حولني والتقطها من جديد وأصابني متجمدة والمعلمون يروحون ويجيئون  
وأحذيتهم تنقر الأرض العارية وينظرون من خلف رؤوسنا المطأطة على  
الورق وأقول للمعلم الدنيا برد فينسم ويقول شاب مثلك يشكو من البرد  
عيب يا شيخ اكتب اكتب فأكتب وأكتب ونخرج الى الطريق البيضاء بالنلج  
سبلان وعبد ويوسف وبشارة وصالح وأولاد الهي كلهم وتصيبي كرة من  
النلج هشة ناعمة على صدري وأحفن النلج وأكوره وأضرب وأصيب وأحفن  
وأكوره وهو بارد جداً أولاً ثم لا أحسه بارداً وأشعر بالدفع في أصابعي  
وكرات النلج تنطابر بيننا تضرب الوجوه والظهور والحدران والنلج يخشخش  
تحت الأقدام وأدوس في حفر من تلج ذائب ويتسرب الى رجلي وأشعر  
بالدفع والبرد معاً وامي تصبح من الباب لا أدري على من ربما علي والساء  
زرقاء نظيفة والشمس بيضاء باردة آه على كوب من الشاي يا شهد اسمك  
غريب مثلك آكلك الحسك كالشهد أنت رجلي المثالي منذ سنين الا تدري  
أم انك تقصد الحرب مني سأهرب أنا منك أيضاً بعد أن أوقعني سأهرب  
لأنني دائماً أهرب أركض الى ان أقع على وجهي وأنا آخذ وجهها القريب  
بن يسدي ولا تمن في عينيها وأنفها وفيها البارد الطيب لن أهرب بعد  
بعد اليوم وفي اليوم التالي هربت وسافرت وأرسلت الي بطاقة من بروت  
أجبتها برسالة في سطرين أو ثلاثة قال الله فليكن الحب فكان النعم والحجيم  
واذا الواحد يشبه الآخر فأحب الله كليها وهذا جوابي على سؤالك القديم  
لم الحب عملاء الحزن كأنه بداية الفراق وجاءني رسائلها الطويلة الثقيت  
بابنك مروان ما أجمل عينيه وهما تلتصقان من خلال الكوفية الملتفة حول رأسه  
وقلت له خذوني معكم وعلموني ضرب النار يبدأ الحب وتكرر البداية  
والنهاية في الاقفا البعيد حيث الساء تنطق على الأرض في الأيام الصاحبة

والشمس كتار منهمرة وأنا أبحث عن ظل أريد أن أقرأ أن افكر أن أبكي  
لأحزان أعرفها ولا أعرفها وكلها ساعرفها يوم يتم الفراق وبعوت الأجزاء  
وتختل البيوت بالضجيج وفي الليل يتجاوب العواء والنباح من تل الى تل  
ومن واد لواد وأنا مستلق على سطح الدبر العتيق قرب الأجراس أعانق حجراً  
سقط عن عموده ما أجمل الأعمدة واقفة أو مضطجعة وفيها صدوع الشمس  
وبثور الأمطار شتاء بعد شتاء لقرون تلو قرون أنها الموسيقى التي لا أستطيع  
التخلي عنها كالمذمن سرّاً لا يستطيع اطلاق أحد على أحلامه اللذيذة المأكورة  
الرهبة وشهد تمر بي في سيارتها وتعود لتخطف أمني واطمئنتاني وتهدد بأنها  
لن تعيدها الي إلا إذا نقدتها ألف كلمة تضعها في عبتها بين نهديها أنا الغني  
وأموالي الكلمات :

قلت لها خيـة خيـة اسقيني شـربة مـيـه  
وأنا رايـح ومروـح ومتقي درب القـبـليـه  
قالت لي اشرب وانهي يا ريتو صحـة وهنيـه

وأتكلم بكسل لغات الأرض وبشارة يقول هذا كلام أبيك وحكاياته  
وأشعاره ونحن نختبئان في شجرة اللوز الكبيرة المشرفة على الطريق الجديدة  
نقرش اللوز الأخضر الكبير بأسنان نقرس أحياناً للحموضة اللذيذة ومريم  
في الحاكورة تطعم الدجاج ثم تلتفت حولها وتشم عن ردفها الصغيرين  
وتقرص قرب الحدار الى أن تسمع كركرتا وتنهض مذعورة وتهرب  
كاحدى دجاجاتها وتأتي بيضة ما تزال حارة وتقول الآن باضتها الدجاجة  
البيضاء أعرفها صديقة ذلك الديك الأحمر السمين الذي يروح ويغدو مختللاً  
بين انائه وكأنه ملك مزابل الدنيا كلها ولكنه على الأقل كديك ربابة ربة  
البيت ديك حسن الصوت ومريم تفاخره بصوتها القوي الحاد وتزعم انها  
تستطيع أن تصرخ فيسمعها الناس من على جبل خريطون ولكن جبل خريطون  
نادراً ما يكون فيه اناس ليسمعوها من جبل الفرديس ألعنه الفردوس الذي آ

أذكر تفاح المجانين الذي تحمله شجرات صغيرة بين الصخور أحمر برافاً صقيلاً تستقر التفاحة في الكف كالجوهر مغرية بنعومتها وحمرتها وأخشى أن أدوقها والمجنون الذي رأيناه مغلولاً في تلك الغرفة الحجرية المظلمة في دير مار جريس كم كان وديعاً وكثيف الشعر واللحية ثم صار شرساً أهوج صرخ وعاط إلى أن انهارت قواه ومثّ خوفاً منه كما مثّ خوفاً على ريمه ألعله أكل من تفاح المجانين الذي يملأ فراديس الدنيا كما أكلت ريمة حتى العريانة العتيقة التي ركبناها ظهيرة يوم من أيام تموز في طرقات بغداد من الكرادة إلى الزبورية وكان في قربي منها والتفاح الأخضر في كيس الورق في حضانها برودة الجبال ونسأت الربيع ونحن نخشى أن يلتفت إلينا العربنجي مع انه كان يعلم أننا نتغازل وراء ظهوره وهو ينوش حصانه المسكين برقت وهل من يريد أن يستعجل الزمن أو يختصر المسافات وعندنا تفاح يكفي لحسين حواء :

قلت لها خيّه خيّه اسقيني شربة ميه

ولكن ساهرة لا تعرف للخطيئة الاصلية معنى وعذرتها في ريعانها كوردة من ورود بغداد الحمراء الخنوية وعيناها الواسعتان تشعان بخواطر محرقة كالتيران الحائثة في ليالي الخفاف الذي يبدو أحياناً انه لن ينتهي وهل ينتهي مثلاً في الرابعة صباحاً عندما ينطلق أول صغير متردد من عصفور حبي في الحديقة ثم يعود الصغير مرة أخرى فأخري ويشجع البلبل وينوع اغنيته قليلاً وينضم اليه عصفور آخر فأخري إلى أن تصدح أوركسترا العصافير بكاملها من على مجامعها في الأشجار التي أخذت تستيق مع أول خيوط الفجر ما أكثر ما رأيت تلك الخيوط وهي تتحول من الأسمر إلى الأشهب فالأزرق فالبنفسجي وكأنما الدنيا ستذيب همومها في مساحات الألوان الساطعة التي تسبق بزوغ القرص الأصفر الدامي ولكن ليس هذا ما أردت قوله هذا الذي خبرته آلاف المرات حتى ما عاد يدهشي وإن كنت دائماً مهياً

للهشة نفسها كأنني كلما سمعت النغم نفسه عاودتني العواطف نفسها عذبتها العتيدة الزائلة الباقية كمياء النهر الحارية تراكض بعيداً وهي ما زالت حول رجلي المتدليتين من الزورق وأنا اطرطشها وهي تبرز رأسها لترفع الشعر الطويل عن عينيها وتلو Margaret are you grieving over goldengrove unleaving أنخزين يا شهد على آجام الذهب وهي تنضو عنها أوراقها كما نضوت عنك ثيابك ورقة ورقة حتى الورقة الأخيرة والحزن يترقق على وجهك ونهديك وبطنك وتقولن لا هذا كثير مستحيل أتراني جميلة كشجرة هزت الريح عنها أوراقها والحب لها حزن كالظر المنهمر والصبح غريب يرى من النافذة الكبيرة كصور مجمدة على شاشة سينائية يهوج فيها الحنين والغموض والتوق والسر والألم مروان مروان ها وبقي الألم أدري أدري كما في بعض الصور السريالية عين على عين حوراء كحيلة دامعة والمطر يضرب التوافذ ويترقق سيولاً على الزجاج والباب مفتوح أو نصف مفتوح ثم ينغلق صمماً كباب سجن قديم لا تدري بالبراكين التي تضطرب وراءه يبكي كعاشق لم يعتد البكاء وكل دمعة كالسكين في الجرح يا مروان وفجأة تملأ الشمس الدنيا وتزمر السيارات وتهذر مارقة خلال الغبار صائحة ها وبقي الألم حتى في المشاهد النائية القسيحة حيث البحر والمراكب والصيادون وحيث الغابة وآجام الذهب تنضو عنها أوراقها لتكشف عن الوحوش التي داهمتها رياح الخريف ففرت معها الملائكة وهي تصيح ها وبقي الألم أف لا ليس هذا ما أردت أن أقوله فلأقلب الشريط .

أستأهل هل أريد الموت أنا أيضاً ولكني أعرف الجواب منذ زمن طويل ولم تبق ضرورة للوقفة المسرحية أخذت جمجمة يوريك بين يدي وجاجم أخرى تقذف بها مسحة الحفار كل لحظة لأتذكر أن الضحك كله والروعة كلها ستلتهمها سيدتي المصون دودة وما هنني من يلتهمها بعد اليوم وطريقي الصحراوية لا تنتهي ولا أريدها أن تنتهي فهي أروع من الروثوس كلها والعيون كلها والشفاه كلها كما كان يقول إبراهيم عندما اكتشف وزجاجة

العرق بين يديه ان الحياة أحلام ثم قال بل كوايس لأنه تذكر المرأة التي رآها تطير أشلاء في لحظة انفجار القنبلة لا لذنب جنته وركز عينيه في الزجاجية والكلمات كالضجيج بين شفتيه المتمردتين قائلا كلنا أنذال وقلت وأوفيليا قال وأوفيليا وان كانت أشرف مني ومنك لأنها في عالم من الأنذال والخوثة استطاعت على الأقل أن تنتحر ولكن الحياة تبقى أهم منها ومني ومنك أهم من الرؤوس البديعة والعيون الواسعة والشفاة العريضة كان دائما يناقض نفسه وكنت أحسب أنني أكثر منه انسجاماً مع منطقي الى أن أف لا أريد أن اذكر ذلك وهكذا بضربة واحدة ينقصم الظهر وطار المنطق وتهمش العالم وانتهى وليقل ابراهيم ما يشاء عن أهمية الحياة بين حشود الأنذال والخوثة وسط لزوجة الوحل والأسن ووجه شهد كالخوهره كشاحة المجانين وهي تعرض لي حلميتها ككذبين بالثواب والعقاب التقمهما وأجن وهي ترفع ثوبها أكثر فأكثر لتقنعني أن لها أجمل فخذين على ضفاف دجلة منذ أن أخفقت عشتار في إغراء كلكامش وأنا القرد المشعر في صدري صرخة الغابات الأولى تتصاعد إلى حنجرتي فأذيتها كلمات من لبن وعسل وحضارة ورقة لا تحتاج إلا إلى مونتسارت ليلحنها لكي تغنيها زرلينا وبيني وبينها هذه الصحراء العريضة وأغار من يدي لأنها فعلت ما فعلت وأحست ما أحست وقلت لو أستطيع أن أضع الأحاسيس اللذيذة في صندوق تخفي لشعشت كالماص في ليل بهم في عالم من البهائم يقرطون الحصى ويلعبون بخصيهم فيما عدا جواد حني يأتي كل يوم بقصة وأعلم أن حبه هو الوحيد الذي لا يحمض ولا أستطيع أن أقنع بأن توازني قد تدمر ورجحت في كلمة الظلام والبهائم ما هذا لعله صقر لا غراب أو حداة تحوم السور في سماء الوديان العريضة بين جبل وجبل لا تكاد الشمس تنخفض حتى ينطلق نسران أو ثلاثة وإذا هوت على طر أو حيوان لا هذا غراب أكيد هذه غرابان تختصر العمر كله من أقاصيص كيلة ودمنة وحكايات لافونتين إلى وقائع الحث التي ملأت الأرض حية كانت أم ميتة وأفعم النتن منها الخياشيم وزكم أنوف أهل الفضيلة وأهل الذيلة معاً

ولكن كيف تميزهم بأنوفهم المعقوفة كالسيوف ها ها أبأذانهم المسطحة كالمناسف هاها أبراظمهم المدورة كفتحات البوالع وهذا غراب آخر وآخر غراب آخر أينما أنظر لا أرى إلا الغرابان فطبع ضرب الزجاجية كيف لو تخطمت أهي رائحة الموت تحملها حتى ربح الصحراء كريح المستنقعات قالتها بلهجة أدهشني. أنت بطة بريّة ما الذي تفعله بين هذه الطيور القعيدة في المستنقعات أهرب أيّها البطة البرية أهرب أهرب أهرب قبل أن وضحت أنا من شاعريتها وقلت أين أهرب قالت أهرب أينما يأخذك جناحك وكبت ذلك فيما بعد بخط انكليزي أتيق في رسالة وعنونت الغلاف توذي وايلد ذلك وسلمتني الرسالة من سيارتها وأنا واقف على الرصيف وانطلقت بالسيارة وهي تقول أهرب قبل أن يفوت الألوان وفات الألوان دائماً يفوت الألوان دائماً فصل متأخرين حيث لا يفيدنا طيران ولا أجنحة وتغزونا الغرابان في وضح النهار وحلقة الليل لا فرق لا فرق لا فرق لا فرق لا لالا لا لا لا قبل عشرين عاماً كنت أقولها بكبرياء وقبلها بعشرة أخرى كنت أقولها بغرور وعناد والآن أقولها بغر ما أكثرات ولكن جذورها في الصدر والكبد والأحشاء ولا يهمني من يسمعها فالمثل ما عاد يهمني من هم هؤلاء الخالسون في القاعة بل لا يهمني إن كانت هناك قاعة مادام هو في وسط الخشبة يطلق صرخته في رحم الظلام قبل أن ينسد الستار وتأتي شهد عبر الفرات وعبر البادية لتلقى حبيبها وهو يقذف بالكلمات في رحم الظلام الأثني التي تحبل بالمستحيلات وتحفظ باليوم والغرابان والبلابل بين فخذيها حتى ساعة القذف والموت وإحسان ما زال يناقش ابراهيم ولسانه يكاد يعجز عن الحركة في فمه ويده ترتجف كيد ابراهيم وقد بلغ ذروته إذ صاح وعيناه مترعنان بالدموع كلهم خوثة كلهم خوثة ولم يبق له بعد ذلك إلا الهبوط إلى مهاوي واقعه الذي هو كابوسه اللامتتهي حتى مقدم ليل آخر وظلام آخر وأثنى أخرى بين فخذيها اللذة والرعب والموت يوماً بعد يوم كمسرحية ملودرامية بذينة لا بد من تمثيلها إلى ما لا نهاية والغرابان تملأ الطريق ولا أرى في الأفق إلا الغرابان وغابت الشمس

ولم تصل بعد لست أدري متى ستصل مرياً ١١١١١١١١م جيبي الغدا لأكله مع مروان تحت الزيتون الكبيرة وأنام على التراب الأحمر ورأسي على صخرة وأنا رايح ومروح ومنقني درب القبلية إلى أن تصل شهد وتقف فوق رأسي وترفع تنورتها لأرى كل ما عندها وينهم عليّ ضحكها كالبكاء إذ تركب أفكاري كفارس شيق وتلكزها في اتجاه أهوائها لالالا ليس هذا ما أردت أن أقوله ولو أنني أردت أن أقول بعضه إذن متى أين أقول ما أريد قوله وكل ما قلت ما هو إلاّ الخواشي « المتن ضائع فلأجرب مرة أخرى ربما على طريقة الفلاسفة بأن أحدد السؤال فيرضى عنه عامر ولا يرى فيه كاظم لغماً طوباويا وليكن الجواب ما يكون من جبل خريطون إلى عين سفني حيث انفجرت المياه وبدأ الطوفان ولم يجد نوح من يسعفه في صنع سفينته وغرق الانسان وكل ما صنع زوجاً وزوجاً أمامه كيف تنقذين أولادك هذه المرة إلاّ بكبريالك الرائعة التي وزعتها عليهم جزافاً لا تخشين الاسراف لأن الكبرياء كان مملكتك الوحيدة وعنادك يفتت الحجاره ويجفف البحار ويملاّ الجبال ينابيع مهما قلت وكيفما قلته وجواد يكتم دهشته لكثرة من عرفت من النساء باحثاً عن تلك التي لها عناد أمي وكبرياؤها ويزعم أنه ما عاد يفهمي وأنا الذي ما فهمت يوماً أحداً فلأجرب أن أحدد السؤال » .

ما كاد الشريط ينتهي حتى شعرت بأنني ارتكبت حماقة لا مبرر لها بانصياعي لرغبة عامر في عزفه علناً تلك الليلة . لحظت أن السيدات ، كلهن ، يشهقن بالبكاء وجعلن يحققن عيونهن وانوفهن بالمناديل . وبدا لي أن العملية أخرجت الجميع ، ذكرت اسمائهم ام لم تذكر .

كان ابراهيم اول من تكلم ، إذ قال : « فطبع هذا الحزن . لقد رثي وليد نفسه قبل أن يرثيه الآخرون . وأنا اغفر له ما قاله عني . »

غير أن الدكتور طارق كان له رأي آخر : « هذا الشريط يكاد يكون فضيحة - بالنسبة لوليد . كنت أفضل لو لم يعزف على هذا الشكل . »

سأله عامر : « لماذا ؟ »

« لأنه ، لأنه .. شخصي جداً ، صميم جداً . مسلياً برموزه الخاصة . كلام كهذا يجب أن يسمعه الواحد منا وهو مختل بصاحبه ... »

فعلق كاظم اسماعيل : « ولكن هذه الرموز التي تذكرها ، الا تستحق منّا شيئاً من التأمل الواعي الدقيق ؟ إنها كنت دائماً أقول إن وليد لا يفصح عن نفسه إلاّ وهو في غيبوبة عن نفسه - كما فعل هنا . »

وقالت مريم : « أية رموز هذه التي تتحدثون عنها ؟ كلام الرجل واضح وضوح الشمس . انه يبكي ابنه ، ويعود بنفسه وابنه ، معاً ، إلى أمه ، إلى الأرض التي لم يستطع يوماً أن يكف عن التفكير فيها . »

وفجأة ، ارتفع صوت جنان ، رفيعاً ، مليئاً بالدمع : « ولكن من هي شهد ؟ »

وأدهشني ابراهيم إذ قال : « أنها ... انن جميعاً يا سيدات ... المعذرة أقصد ... أنها المرأة في حياته ، هرب منها واصطدم بها في كل طريق سلكه - »

فقاطعه احسان : « هذا تهرب من محاولة معرفة الجواب . ربما كان في لبنان صديقة بهذا الاسم . »

قالت رباح : « لا ، لا اظن أنه كان يعرف احداً بهذا الاسم هناك . »

فقال كاظم : « وهل من الضروري أن نعرف من هي بالضبط ؟ عندما يلخص الانسان حياته كلها - لا سيما حياته الخصوصية جداً - تبطل لضرورة لتحديد الهويات . الهويات هنا متداخلة جداً ، لا شك . »

« إلى حدّ ما ، نعم » قالت مريم : « الغريب أن اسمي يرد - إذاً هو اسم طفلة كان يعرفها ايام طفولته ... وهسل مرغريت ، في بيت الشعر الانكليزي الذي يذكره هي شهد ايضاً ؟ ومن هي ساجده ؟ »

« واستدارت إلى الفتاة التي كانت بقرها ، وأسالتها : « ماذا تقولين يا وصال ؟ »

لم تجب وصال . هزت رأسها ، ثم قالت بصوت خافت : « أنا لا أعرف هؤلاء الذين يتحدثون عنهم ... أنا لا أعرف شيئاً . »  
ونفض الدكتور طارق عسل قدماه ، وهو يقول : « في الشريط أشياء أهم من ذلك كله . كان وليد ، كما يقول يونغ ، مصاباً بعقدة الأم ... فاضل ! » وسار باتجاه الخادم الذي كان واقفاً قرب طاولة الشراب . « وما هي هذه العقدة ؟ »

نهضوا جميعاً الواحد تلو الآخر . وانسحب عامر وآن إلى المطبخ ، من باب المشرف على الحديقة ، وجاءتني جنان ، وهمت : « ليتك لم تلعب هذه اللعبة ! » ثم دخلت إلى المطبخ ، لتعين أهل الدار بإخراج أطباق الطعام ، ووضعها على المائدة الطويلة ، المهيأة بصحنها وملاعقها وشوكاتها . وصال وحدها بقيت جالسة . ولما نادتها سميرة لتقوم وتأخذ صحنها ، سمعتها تقول : « بعدين ... لا اشتهي طعاماً الآن . » ثم قامت واتجهت نحو طاولة الشراب . أخذت كأساً فارغاً بيدها ، ثم وضعتها عنها ثانية . واتجهت نحو النوافير ، وأنا أقربها من زاوية عيني . سارت بين النخلات ، وتوغلت في المنطقة المظلمة من الحديقة ، حتى لم اعد أتبينها .

عندما وضعت شيئاً من الطعام في صحن ، رأيتها تعود ، وتسير رأساً في اتجاهي ، فتحركت نحوها ، مدرِكاً أنها تريد الحديث اليّ .

« ما الذي اردت أن تكشف هذه الليلة ، دكتور جواد ؟ » قالت بصوت منخفض .

قلت ضاحكاً : « لا شيء بالضبط . »

« لا أصدقك ! »

« إذن دعيني اقولها . أردنا أن نعرف من هي شهد . »  
« وما الذي ستحققه أنت ، أو يحققه عامر ، إذا عرفنا من هي شهد ؟ »

« الفضول ، يا آنسة وصال ، الفضول قتال . »  
« هب انني اخبرتك من هي شهد ؟ »

« هل هي إحدى النساء الحاضرات هنا ؟ »  
كان الآخرون منهمكين في التعليق على روعة الطبخ الذي اشتهرت به آن - أو بالأحرى ، طبّاخها عيدان . الكل يريد نسيان الموضوع - أو تناسيه .

وكررت وصال : « هب انني اخبرتك من هي شهد ، ما الذي تكون قد اكتشفت ؟ »

« بصراحة ؟ أكون قد اكتشفت أنني لا أعرف عن وليد إلا ما هو اقل من القليل . أنت محقة ... لماذا نريد دائماً أن نبرهن على جهلنا ؟ هل آتيك بشيء من الطعام ؟ »  
« لا ، لا ، شكراً . يبدو أن وليد سيجعلنا كلنا نبرهن على جهلنا . »

« هل كنت تعرفينه - جيداً ؟ »

« أنا ؟ بالكاد . وأنت ؟ »

فضحكت ولم أجب . فأردفت : « وعامر ؟ وأخي طارق ؟ والسيدة مريم ؟ وجنان ؟ والآخرون ؟ »

« آنسة وصال . أنت مغضبة . على شيء لا أعرفه . أم أنني أعرفه ؟ »

« لا ، لا ، لا تعرفه دكتور جواد . غير مهم . أنا مغضبة ، وكفى . وبعض السبب ، هو أن وليد مسعود ، صديقكم العزيز ، ذهب ولم يخبرنا لماذا ذهب ، ولا إلى أين . غريب ، أليس كذلك ؟ هل التقيت يوماً بابنه مروان ؟ »

- « أيام كان طفلاً كنت صديق العائلة أيامئذ . أما بعد أن  
كبر مروان ، فلم أره قط . تعرفين أنه بقي في لبنان . »  
- « أعرف . والتقيت به في بيروت . قبل استشهاده بـعده قصيرة . »  
وشعرت فجأة كأن الأرض تنشق تحت قدمي . تذكرت كلمات الفتاة  
في شريط وليد : « خذوني معكم وعلّموني ضرب النار ... » فدنوت  
بشفتي من أذن وصال ، وشعرها القصير يكشف عن دقة صنعها ورهافتها ،  
والقرط الماسي الصغير يلتصق على لحمها ، وهمست : « هل أنت ... شهد ؟ »  
فاستدارت بوجهها بعنف نحوي ، وكادت تصيح : « هل جننت ؟ »  
وأسرعت إلى مائدة الطعام ، وتناولت صحناً ، وافرغت لنفسها فيه قطعة  
من لحم . وبقيت واقفاً مكانها ارقبها . لم أدرك روعة جمالها الا في  
تلك اللحظة . شهد ؟ رائعة حقاً ! حزينة ، وحزنها بديع ، فاتن ...  
وهل أعيد كلام وليد فيها ؟  
تقدم نحوي عامر ، وقال بصوت عال مرح : « أهنا أنت ؟ كنت  
أبحث عنك : » ثم خفض صوته . « ها ؟ هل اكتشفت شيئاً ؟ »  
فقلت : « لا شيء . وأنت ؟ »  
قال : « دماغي عاطل اليوم . لم أفهم شيئاً . عندما ينصرف الضيوف  
سأراجع كتابين أو ثلاثة عندي ليونغ . »  
- « لتعرف ما هي عقدة الام ؟ »  
- « نعم . أقول ، أنت لم تشرب نبيذاً مع طعامك . لا بأس !  
عندي زجاجة « بوجوليه » أخرى هنا . تعال . العشاء بلا نبيذ لا يساوي  
فلساً . هاك . »  
وصب لي كأساً من أجود خوره .

- ٢ -

د. جواد حلسني يبدأ البحث مستخدماً بـشـمـيـم  
من منظور كاظم اسماعيل ولبراهيم الحاج نوفل



لئن يكن وليد مسعود قد أثرى في السنوات الأخيرة من حياته - أو  
انه أعطى الآخرين انطباعاً بذلك - فقد كان ذلك بمحض المصادفة .  
كانت المهنة التي فرضت نفسها عليه هي مهنة المالك - الصيرفة . عمله في  
البنك العربي خمس عشرة سنة ، أو أكثر ، جعله على اطلاع بأساليب  
التنمية الرقمية التي تجري بالأسود والأحمر على أوراق وبطاقات ملونة ،  
وهو وراء منضدة وتلفون . هذه النسب المتوالية التي تصعد وتهبط بتقدير  
وتدبير من أدمعة تعمل كلها معاً ، كشبكة متناسقة تحيط بالكرة الأرضية  
ويستجيب بعضها لبعض بذلك الحلق ، أو ذلك الدهاء ، الذي أوجده ،  
أغلب الظن ، المرابون اليهود عبر عشرين قرناً من العدا والحساب  
والمضاربة - هذه السب وضعت بغض سرّها في يده في بغداد الخمسينات  
وعرف كيف يسترق هذا العلم الباطني في دبي وأبي ظبي في الستينات ،  
حين درّت رمال الخليج بنفطها على عالم يتلهف له .

غير انه كان مبتلي بعلّة تمنع عنه ركض الشوط الى آخره : فهو  
يقنع بأقل مما يمكن أن يحصل عليه فعلاً لو انه يرضى بمتابعة الصفقات  
الكبيرة بكل دقائقها والتواءاتها متابعة كاملة . وليد جعل من الكثيرين  
غيره أغنياء تراكت لهم حسابات وأسهم في مصارف وشركات في لندن  
وبيروت وزوريخ ونيويورك ، فلسطينيين وغير فلسطينيين ، وقع هو  
بالقليل السذي حوّل الى بغداد أو بيروت ، فيما أعلم . ولست أذيع

سراً حين أذكر ان صديقه عامر عبد الحميد واحد من هؤلاء الذين أفادوا من صلتهم بوليد ، إذ كان وليد هو الوسيط بينه وبين عدد من شيوخ أبي ظبي والسعودية وقطر . ولم يكن عامر لينكر ذلك قط ، وبقي محباً مخلصاً لوليد حتى النهاية ، محبه ويخلص له كما لم يفعل تجاه أي من أخوته أو أصدقائه . ولعل الذي كان ينكر ذلك هو وليد نفسه ، ولطالما سمعته يقول : « عامر عبد الحميد يتمتع بذهن أشبه بالدماغ الإلكتروني : تلقمه المعلومات فيعطيك نتائج ليست في الحسبان ، وفي غاية الدقة . وكل ما حصل عليه لم يكن إلا بذكائه هذا ، الذي جعله جزءاً من المعجزة التكنولوجية في مجتمع لا يفهم التكنولوجيا » .

هذا الزهد من وليد يرجع ولا ريب الى مزاج أصيل فيه ، لم يكن له أن ينفونه . الكثيرون ممن أعرفهم كانوا يتصورونه داهية من دهاة المال ، لا يتورع عن شيء في سبيل ما يسعى اليه . أما انا فما زلت عند ظني بأنهم واهمون ، أولاً لأنهم لم يعرفوه من الداخل قط ، ولم يعرفوا من خلفيته إلا ما يتصورون انه برهان على دهائه ، وثانياً لأن وليد كان يوحى بسخائه ، بأسفاره ، بتزواته ، بالإشاعات التي تروّج حوله ولا يحاول تكذيبها ، بأنه مملك الدنيا في جيبه . لا أحسب إلا أن القلائل فقط كانوا يعرفون شيئاً عن نشأته ، عن دراسته ، عن كدسه طوال حياته لتحقيق حلم أو اثنين من أحلام طفولته . وما كنت انا لأطلع على الكثير من ذلك لولا الصداقة التي توطدت فيما بيننا عبر السنوات الطويلة — وهي صداقة لم تشبها علاقة مال ، أو مصلحة . تملقي به كان فكراً محضاً : أعجبت بكتاباته ، وأنا في أول عهدي بالكتابة ، فذهبت اليه لأجلس عند قدميه ، وأسمع . اسأل ، فيجيب .

وبعد حصولي على الدكتوراه ، توثقت العلاقة فيما بيننا أكثر مما مضى ، فتشكّفت لي تفاصيل في حياته لا يتحدث عنها إلا في ساعات من الاسترسال

مع أقرب الناس اليه . ووجدتني بعد قليل انخرط في مجتمعه : أدخلني فيه وليد وكأنه يريدني أن أكون مؤرخاً له ، وهو يعلم انه هو نفسه في الأصل غريب عنه . لست أدري كم انسجم هو مع ذلك المجتمع ، الذي لم انسجم انا معه كثيراً لأسبابي الخاصة ، ولو اني ، مع الزمن ، صرت جزءاً منه . غير انه لم يجعل من ذلك قضية خاصة : فيحكم كونه فلسطينياً ، يستطع الزعم دائماً بأنه يتصل بمجتمع كهذا ويتفصل عنه دونما عسر أو ألم ، لأن جذوره الحقيقية في جبال ووديان أخرى تغذيه سرّاً وباستمرار . ولن يزعم أن مجتمعاً عشائرياً في جوهرة ، زراعياً في أفضل الأحوال ، غيبياً في معظمها ، لم يدخل المرحلة المدنية إلا متأخراً وبعوامل تاريخية اقحمت عليه اقحاماً بدخول الانكليز حكاماً في بلد أرهقهم وأرهقوه — لن يزعم ان مجتمعاً كهذا بعد الانذار الذي حل به لأكثر من خمسة قرون طويلة ، قد ثبت على قاعدة حضارية صلبة بنيت عليها قواعد لاحقة صلبة مثلها . وبانعدام قواعد كهذه ، كان يقول من السفخ ان تصور المدينة ومجتمعها كأنهما قائمان في أقطار أوروبا ما بعد النهضة ، وما بعد نشوء الطبقة البورجوازية ، وما بعد الثورة الصناعية . مجتمع خام ، موزع ، مضطرب ، مانع ، ينطلق في كل اتجاه ، ولا ينطلق في أي اتجاه : هكذا رأيته أنا في أثناء دراستي له ، وهكذا رأيته وليد يعتبره دونما وعي منه . غير انه بمثابة العنيدة ، التي لم يتنازل عنها إلا أحياناً في أحلك ساعاته بؤساً ، كان يريد لهذا المجتمع أن يحقق ذاته عن طريق العقل ، والحريّة ، والابداع ، وهذه بعض الكلمات التي كانت تتردد على لسانه وقلمه أكثر من غيرها . غدير أن الكثيرين كانوا يجدون ان هذه المثالية نفسها هي أضعف ما في شخصيته ، لأنها بدورها ضرب من الغيبة كان يجب أن يتغلب عليها ، باستعمال العقلانية التي يؤمن بها . أما هو فلم يكن يفهم هذا التشكك لدى الآخرين ، بل يجد فيه تشاوماً يبرّر ، في نهاية الأمر ، التخلف ، وبرر القسوة

— على مستوى الأفراد ومستوى السلطة معاً .

كان يقول إن جميع أنواع التصنيع مثلاً ، عندما ندرسها في المجتمعات المتقدمة ، نجد أنها كانت أشبه بثورات فرضت على هذه المجتمعات من فوق ، وأنها كانت من عمل أقلّيات عسّاتية لا تحيد عما صممت عليه ، وتعتبر المشكلات كلها قابلة للحل بالوسائل التقنية والعقلانية ، طلباً للتقدم . غير أن هذه العقلانية المفروضة من فوق تفلّقه ، لأن أصحابها من رأيهم أن يتصوروا أن المجتمع يمكن أن ينظم عقلياً بمزيج من الذكاء والقوة ، وأنه إذا وجدت عناصر لاعقلانية داخل المؤسسات الاجتماعية ، وجب عندها أن تم السيطرة على هذه العناصر بحزم ، وتغييرها حسب حاجتهم . ولقد بصر على ضرورة استخدام التكنولوجيا ، ولكن كيف لها أن تفلح في أداء مهمتها ما دام يقاومها موقف أساسي غير عقلائي من الأفكار ، من الأشياء ؟ التكنولوجيا هي معالجة الطبيعة بأقصى العقلانية ، مع إبداعية خاصة . كيف تخلق الموقف العقلاني في مجتمع تعصب به الغيبية صباحاً ومساءً ، وتوقعه الغيبية فريسة سهلة لضروب من الغوغائية ؟ وإذا كان لنا أن نصدق أصحاب المقرب التقني فيما يذهبون إليه ، وهو : أن يكون المرء ثورياً أو غير ثوري ، طوباوياً أو غير طوباوي ، ليس إلا مسألة درجة أو توقيت ، لأن النتيجة الحاصلة حتمية ، علينا أيضاً أن نتساءل : ما هو الهدف النهائي لذلك كله ؟ هل هو تهيئة الرفاه المادي للجميع ؟ حسناً ، ولكن هل هذا كاف ؟ وإذا سلمنا بأنه كاف ، هل سيحقق لنا الحضارة التي نطمح إليها ؟ أو لن يكون ذريعة لتمرير أهداف خاصة لفئات تعطي الخبز للقميد ، وتسلب المقرعة على العقل باليد الأخرى ، كما حصل في فترات كثيرة من التاريخ ؟ ويبدو أن الفلسفات التي تناقش ذلك قد باتت مبهمه ، لا تنق في قدرتها على تحقيق الرفاه العادي جنباً إلى جنب مع تحقيق انطلاق الخيال الانساني نحو كل ما يجعل من الحياة مغامرة وتفجراً وعشقاً... هل ثمة حلّ لهذا الإشكال

الجدلي الذي يتجدد كل يوم ؟ ثم هذه الوسائل القسرية المفروضة ، ألن تنتهي إلى جعل القانون ونسيلة لأرهاب المجتمع ، لا لتنظيمه ؟ أليست تنهز من المعاني الأعماق التي تشدها الإنسانية من الحياة ، والتي يحيا بها الناس عن وعي أو غير وعي ؟ كيف اذن نوفق بين ما هو عقلائي وضروري ، وبين ما هو لاعقلائي وضروري أيضاً ؟

هذه الاسئلة وغيرها ، على تناقضاتها ، كثيراً ما كان يطرحها ولید في أحاديثنا أو فيما يكتب ، مؤكداً على أن الحلول في آخر المطاف يجب أن تنبع من الداخل ، من الارادات التي تمثل مجموعها هوية الأمة ، وإن العقل ، كما يراه هو ، مزيج ذو ظلال لا تخصي يجب أن يتحرك بملء الحرية ، مدفوعاً بترعة الإبداع الغامضة ابداً ، الخطيرة ابداً ، لكيما يستطيع إن يفعل فعله الحقيقي في المجتمع .

« يكفي الا تؤمن بالانسان ، بما فيه من كوامن عقلية وإبداعية وحس لضرورة الحرية ، لأن تسمح لنفسك بتسليط أشنع ضروب الارهاب عليه ، بحجة أو بأخرى ، أو لأن تهادن مع من يسلطها عليه . والعكس صحيح : تسليط الارهاب أو التهاسن مع من يسلطه دليل على عدم ايمانك بالانسان ، مهما ادعيت العكس . » هذه العبارة الواردة في احد كتبه الاولى ، « الانسان والحضارة » ، على ما فيها من بداهة ، جعلها احد اصداقنا ، عند ظهور الكتاب ، منطلقاً للهجوم عليه في احدی الصحف بشكل أذهل ولید واغضبه . كان ذلك في اواسط الخمسينات ، ولن انسى الضجة التي قامت يومئذ حول الكتاب ، وحول ولید ، وحول كاظم اسماعيل ، صاحب الهجوم .

كان كاظم لفترة ما ، من أعز اصداق ولید ، وهو الذي عرفني به اصلاً ، وكنتاً نقضي بعض الليالي في منزل كاظم أو ولید في نقاش ساخن طويل . وكاظم لم يكن من اصداقائي القدامى وحسب ، بل من

منافسي" في كتابة القصة - طوال الخمسينات، قبل انصرافي إلى الدراسات العليا ، وإدارة ظهري نهائياً إلى الفن القصصي ، واجداً في الدراسة العلمية لشرائح المجتمع ما يوصّني عن الفن اكتشافاً ومتمعة .

كان وليد يقرأ ما نكتب ويناقشنا فيه . وكنا نطلب الحكم أحياناً من سميرة ، أخت كاظم ، بعد عودتها من الدراسة في الولايات المتحدة ، فكانت تلك فرصة لتعرفها بوليد- قبل زواجها من الدكتور طارق رؤوف العباسي بضع سنوات . وكنت اعلم ان وليد يومئذ ، رغم نجساحه في اعماله المصرفية على نحو يلفت النظر ، فريسة ازمة نفسية جارحة قلما يتحدث عنها لأحد ، بسبب الانهيار العصبي الذي اصاب زوجته ريمه - ام مروان ، كما كان يدعوها - وذلك بعد مرور خمس سنوات اؤست على زواجها ، ومروان ، فيها اذكر لم يتجاوز الثالثة او الرابعة من عمره .

صدر كتاب « الانسان والحضارة » - لم يكن أكثر من مقالة مطولة في حوالي ١٢٠ صفحة- وكان بداية الخلاف بين وليد ، والعالم ، وكان ذلك كما ينبغي ، على حد قوله ، لأنه يدل على أن الكتاب لم يكن مجرد صدى آخر للآراء السائدة . ولم يكن هو يغشى الاختلاف مع العالم ، بل يجد منعة شيطانية بمعظم ما يكتب عنه ، تهجماً كان أو غير تهجيم ، وكالمادة لا يرد على أحد ، قطعاً ، ويقول : « أجد التهجم عليّ من السخف أو البذاءة حيث أرفض ارهاق نفسي بمنازلة السخفاء والبلذيين ، وأجد المدح ، ان كان ثمة مدح ، مبنياً في الأغلب على أسس مغلوطة يصعب عليّ تصحيحها ... فلنترك الأمور تأخذ مجراها . بعد عشرين سنة لعل الناس سيعرفون من المخطيء حقاً ، ومن المصيب . » ومع هذا كله ، غضب وقتئذ لتهجم كاظم اسماعيل بشكل خاص ، لأنه جاء عن رجل يحبه ، ويعجب به ، ويتصور انه يعرفه معرفة كان ينبغي أن تمنعه عن كتابة ما كتب . كانت سذاجة وليد في بعض الأمور

الأساسية من الحياة ، رغم دهائه المزعوم في قضايا المال وأسواق الريح والخسارة ، أمراً عجيباً فيه . كل يوم يكتشف ما يدهشه من قسوة الآخرين ، أو لؤمهم ، أو شرهم ، ولا تنتهي دهشته ! غير ان رد فعله في هذه الحالة كان غريباً حقاً .

عرفت التفاصيل في حينها من وليد وكاظم معاً : سردها علي كل منها على حدة ، وعلى الشكل الذي يحلو له بالطبع . وكتبت عنها ما حسبت آنئذ اني جعلته قصة صالحة للنشر بمجرد اطلاق أسماء وهمية على أشخاصي الحقيقيين . غير اني أدركت ، بعد أن فرغت من الكتابة ، اني رويت الأمر بحقائقه كلها كما هي ، لما أعرف عن حياة كليهما ، وعلى نحو لن يرضى عنه أي منها ، فطويت ما كتبت ، ووضعت في إحدى اضياراتي القديمة ، ونسيت .

واليوم عدت الى تلك الأوراق ، فوجدت فيها خلاصة رمزية ، تنبؤية ، للشخصية التي بقيت على صلة بها قرابة عشرين عاماً ، فضلاً عن ان الحادثة ذكّرتني من جديد بذلك التناقض الذي لم يقطع قط بين شخصية الرجل الحقيقية وبين ما قيل ويقال فيه . عدت النظر في القصة ، فقررت ان اتركها على حالها ، لكنني عدت واستبدلت الاسماء الوهمية فيها بالاسماء الحقيقية ، لتكون على عكس ما يدعي الروائيون فيها يكتبون ، حين يعلنون ان الشخصيات التي في روايتهم من خلق الخيال بأحداثها وأسمائها ، خشية من دعوى قذف أو تهجم من أحد بحسب أنه هو المقصود بأحدى شخصيات الرواية . شخصياتي هنا حقيقية ، وما الحادثة التي أروها إلا فصل صغير آخر في حياة وليد مسعود ، ولن أكون إلا أميناً ما وسعني الأمانة في رواية ما أعرف :

رآه فجأة .

ما كادت سيارته تنعطف عن الشارع العام الى الطريق الضيق الممتد في الظلام ، حتى وقع نورها على ظهر رجل ارتفعت كتفاه بحدة يائسة غار فيها رأسه ، ويده في جيبي معطفه المطري الطويل ، فعرفه في الحال . عرفه ، وقد راح يمشي وحده في غيث منتصف الليل كأنه شيء يزحف زحفاً من عالم الموتى . ولم يكن قد رآه منذ أكثر من ثلاثة أشهر . وقع النور عليه وسيل المطر تشعشع حوله يحيط بها السواد ، والتمع أعلى كتفه ، وحين استدار ليفسح المجال للسيارة القادمة وقد غمره النور ، التمعت نقطتان في عيني صغيرتين مرصعتين في وجه غائر .

فاوقف السائق سيارته على بعد قليل منه ، وأنزل زجاج الشباك بسرعة ، وصاح :

« كاظم ! »

فاندفع رأس كاظم من بين كتفيه اندفاعاً آلياً ، وانفضت يده خارجتين من جيبيه وانتشرت أصابعه على الحائط ، وسقط فكه شبراً . وصدر عن حنجرته صوت مرتعب : « ها ؟ »

— كاظم !

فالتصق كاظم بالحائط ، وتمعن من فوق فيض النور في صدر السيارة ، وقال : « من أنت ؟ »

فطفرت السيارة نحوه ووقفت ، ثم فتح السائق الباب الذي على يمينه وقال : « اصعد ! »

فما وجد كاظم نفسه إلا وهو يصعد بالامر ، ويصعد إلى السيارة . فعرف الجالس وراء السكّان وقال : « وليد ؟ في هذه الليلة اللعينة ! ما الذي أتى بك هنا ؟ » وصفق الباب مغلقاً إياه .

وسار السائق بالسيارة . « بللت المقعد بشبابك المنقوعة . لا بأس . يروق لك هذه الأيام ان تبلل كل شيء . »

لم يكن في نظرة كاظم أي امتنان لصديقه ، وقال متذمراً : « لماذا تنرض كرمك على الناس ؟ »

— « هل كان من عادتك دائماً أن تبلل كل شيء ؟ كان يجب أن أعرف ذلك منذ أول يوم عرفتك فيه . شهوتك هي أن تتناول أي شيء نظيف ، وتلطّخه . منذ أول يوم عرفتك فيه . »

— « وهل هناك شيء نظيف في هذا العالم تحشى عليه ؟ »

— « الى أين أنت ذاهب ؟ »

— « سؤالك رافع . الى أين في هذا المطر إلا البيت ؟ »

— « سنمر ببيتكم بعد دقيقتين . »

— « نعم ، شكراً . »

— « ولكنك لا تريد أن تذهب الى البيت . ستفضل المجيء معي . »

وانعطف السائق عائداً إلى الطريق العام ، وداس على البززين . ووقع كاظم في ركنه من المقعد ، وحين نظر اليه وليد نظرة عجل ، بسدا كأن رأسه قد غار في صدره . كتفان باستان ، لا جبين ولا عنق .

وأعاد وليد : « ستفضل المجيء معي . سنوات مرت وأنت تفضل المجيء معي لأنني كنت أودك . كنت أحبك . ألا ترى ما أهزل الحياة وما أعطلها . كنا نظن ان الحب سوف يحضب هذه البقعة الصفراء السبخة ، مثل هذا المطر . »

كانت كلتا ماسحتي زجاج النافذة الأمامية ترسم نصف دائرة صاعدة نازلة ، ويتفرق ماء المطر عن ريشته سائلاً على الزجاج ويتلألأ بأضواء للشارع .

« وهذا المطر كالدمع . والحب أيضاً كالدمع . حب الأصدقاء وحب النساء وحب الأشياء . لذة مريرة براقه . أراك صامتاً ، ها يا كاظم . كنت أحس أنك تتمتع بتلطّيح الأشياء ، ولكنني حسبت أن هناك على

الأقل شيئين أو ثلاثة لن ترفع اليها يداً ملوثة . »

« إلى أين أنت ذاهب بهذه السرعة في هذا المطر ؟ لقد مسر متصف الليل . »

« إلى أين ؟ إلى الشوارع التي كنت فيها مضى تبحث في زواياها عن مغامرة صغيرة كل ليلة . ثم تعود إلى اصدقائك لتضخم وتبول . لتكذب كذبة أخرى . وما كنت تصور أن كذبتك الكبرى ستكون في النهاية علي . علي انا . »

« انا لم اكذب عليك يا وليد ، ولكن اغضبك انني قلت الحق . لماذا تغضبك الحقيقة إذا كشفتها لك فوجدتها تتجه ضدك على غير ما كنت تتوقع ؟ »

وأحس كاظم براحة عميقة لقوله ذلك ، كأنه فجر دملة صديدية في صدره كانت تؤذيهِ . وفي غور بعيد من اغوار ذهنه انطلقت قهقهة تلذذ بها ، قهقهة صامتة شامتة ، لأنه استطاع أن يفجر دملة الصديد . « اية حقيقة ؟ هل بلغت باك السذاجة حسد الاعتقاد أن هناك حقيقة تكشفها ، تجعل في رأسها نبلة ملوثة وتقذف بها في صدر رجل أحبك هذه السنوات كلها ؟ »

ولكن كاظم بقي متمتعاً براحة العميقة ، بقهقهته الداخلية البعيدة . وقال ، والاضواء السيالة تترقق حول السيارة :

« سميتها سذاجة إن شئت . اما انا فأحبها أمانة فكرية . »

« أمانة فكرية ؟ أن تجهل الوقائع وتختلق الآليات ، ثم تسمي التأويل بمنطق الكاره الموتور ، وتسمي ذلك كله أمانة فكرية ! »

« يكفي أن قرأني يفوقون العد ، وأن ما اكتبه يقرأ ويناقش ، ويقض مضاجع الكثيرين . ما أهمية الوقائع ، إذا كانت النتيجة صائبة ؟ من الساذج الآن يا وليد ؟ متى ستضج ؟ »

« لا بد أن في نفسك ينبوعاً من الحقد . »

« في سبيل الدفاع عما أؤمن به ، حتى الحقد ، يكون فضيلة . »

« ولكن كيف تستطيع حمل هذا الحقد كله وتدعي الدفاع عن الانسانية ؟ »

« القضية قضية مفاهيم . أنت تكتب بحجارة أهل اللاهوت ، وانا ارفض ذلك ، كما تعلم . »

« كم سنة قضيتها في النقاش ؟ كنت ارفض رؤية التناقض بين القول والفعل في حياتك ، انظر إلى دمعتك وأنت تذبح العصافير ، ولا انظر إلى ما تفعله يدك . »

« مصيبتك انك مثالي . تخشى النظر إلى اليد التي تذبح لأنك تخشى نتيجة الكفاح . »

فاشتدت بدا وليد قبضا على عجلة السكان لئلا تفضح ارتعاشها المغضب حين قال : « ولكنك كذاب ، لأنك لا تؤمن بقيمة انسانية واحدة . »

لم يحس كاظم بعد أن استقرت القهقهة في اعماقه ، بأي غضب . كأنه كلن منذ زمن طويل يتمنى لو يفوه وليد بمثل هذا الزجر . غير أنه شعر بنق شديد إلى الشاي الذي ربما تركته له خبيرة على النار . لقد اثار البرد والمطر عطش اللمن في حلقه وصدره . ونظر إلى اضواء الشارع المهجور ، ولم يحب بشيء .

هذا كان الفرق بين الاثنين : كاظم بطيء الاحتياج ، بطيء الغضب ، بينما يشيط الهياج والغضب في نفس وليد بحكة واحدة ، كعود الكبريت ، كأن الواحد منها متمم للآخر . فاذا بدر من وليد عمل لم يترو فيه ، أسعفه كاظم بمنطق قرير بارع . وإذا تأمل كاظم في قضية ما ، وبلغ به التأمل نتيجة غير متوقعة ، كان وليد هو الاسبق إلى

العمل بموجب تلك النتيجة .

غير أن اختلاف الطبعين أدى ، ولعله امر محتوم ، إلى اختلاف في التحصيل . لقد استطاع وليد أن يظفر في اعماله في سنوات قلائل إلى مركز لم يكن صديقه كاظم بكل ما اوتي من نظر ومنطق ، يتوقعهما . لقد اصبح احد المدرء في البنك السذي يعمل فيه ، وفي الوقت نفسه جعلت كتاباته تقابل باهتمام واعجاب . وقد ادهشه أن يتمكن وليد من الجمع بين سعي مادّي يراه ضرورياً لحياته ، وبين سعي فكري مجرد ، يتحدث فيه عن تجلبد الأمة . بذلك التحرق الفلسطيني إلى إعادة النظر في الوجود العربي كله ، بكل مستوياته .

اما كاظم اسماعيل ، فقد اصر على البقاء محامياً ، مدعياً بأنه يحترق التجارة واساليبها ، وانها خطر على الفكر . وكان يقول لوليد : « ذاكوك فطرى . إنك تعمل كالملاحولة الضخمة . أما أنا ، فاعمل كساعة اليك ، واتعلّق بالدقائق والخفایا . »

رأى وليد في صديقه اول الأمر مفكراً يرفع عن المسادة ، لكي يستطيع أن يشرف على الحياة من نافذة حرة - لا تضيق زجاجها أهواء الكسب اليومي . فيقول إن كاظم يراقب الاحداث والافكار موضوعياً ، فيحلل الاثنين ، مع كثير من التعنيف والتوجيه . لأنه حارس من حراس الانسانية . غير أن كاظم ، وإن لذ له رأي صديقه فيه ، كان في دخيلته انما يتطلع إلى شهرة الاديب ، ويشمر أن في أدبه ايقاظاً لأذهان معاصريه . لقد كان شاعراً ، وقاصّاً ، وناقداً ، كلها معاً : غير أن قصائده بعد سن الخامسة والعشرين تناقصت إلى أن ثلاثت ، وتناقصت بعد ذلك اقاصيصه - مع أن كلامها لم يكن الادفاعاً عن الانسان الصغیر ازاء الظلم الاجتماعي من الانسان الأكبر . ولم يبق منه الا ذلك الملتق المعقب ، ينظر بعينين لا ترحان ، ويكتب بقلم قاطع مر ،

يدعاه اطلاق شيتي .

ولكن انتاجه كان رهناً بتزوات الايام والصحف ، في بلد تظهر فيه الجرائد والمجلات وتحتجب بكثرة رتيبة . فكان يقول في فترات الجذب : « اني مصاب باحتقان فكري . » أو « كتبت مقالاً ارفض نشره ، لأنني لا ارى حولي جريدة أو مجلة جذيرة به . » أو « انجزت قصة ، ولكنني اعرف اني لن انشرها ، ولذا فسوف اعيد كتابتها . »

ولم يكن من العسير عليه أن يعيد الكتابة مرة اثر مرة ، ما دام له مكتب يزاول فيه المحاماة ، وما دام يعرف انه لن يرى المراجعين مصطفين في انتظاره كل صباح ومساء . إن له من الوقت فراغاً كبيراً ، بقدر فراغ مكتبه . لقد أحس ، بعد سنوات من حياة المكتب الهزيلة ، أن مواهبه انما جنت عليه . فالتأبس قد يذكرونه شاعراً أو قاصّاً أو ناقداً ، ولكنهم لا يذكرونه أكثر من ذلك . فهم لا يقيسون جدارته كمحام بما يكتب ، بل بما يكسب من قضايا . اما هو فيردد : كسب القضايا في بلدنا لا علاقة له بعق الفكر أو اشراق الاسلوب - لا علاقة له البتة .

وهكذا اشرف على الخامسة والثلاثين ، وهو ما زال في حياته البيتة يكاد يعتمد على ما يكسبه ابوه الحاج اسماعيل من تجارة الجلود التي ورثها عن ابيه . وقد عادت أخته سميرة ، التي تصغره بحوالي اثني عشر عاماً ، من بعثة دراسية في امريكا تحمل درجة ماجستير في التربية ، فكان في راتبها عون اضافي له ولأبيه في تصريف أمور البيت ، فلا يضطر إلى طرد خيرة وابنتها - وهما كل من تبقى لهم من « الأوامد » الذين تعلقوا بالعائلة منذ الايام العيانية البعيدة ، ايام كان جده ، حفي الجلبي ، من كبار تجار المدينة .

وكان له في البيت ايضاً خالتان عانسان ، لجأتا منذ ما ينيف على

الاربعين سنة إلى حماد وكلاهما تطلع إلى زوج تحظى به . غير أن ركب الشباب فاتهما ، وبقيتا كقطعتي اثاث قدم لا تستطيع العائلة عنها غنى ، يحكم العادة . ولم يطرأ على وضعهما أي جديد حتى بعد وفاة أمه . فكانتا تقولان للولدين : كلتانا أمّ لكيا ... ولعل كاظم يتعلق بهما لأنها ما زالتا تلهجان بذكر جمالها أيام طفولته . « شلون حسن ، فدوه لعينه ، كانلسم ! عينان سوداوان واسعتان ، وشعر كستنائي كخيوط الحرير ، وخدان كإوراق الورد ، وخشم منمنم ، كأنه مرسوم باليد . » الا أن كاظم إذ كبر ، تغيرت ملامحه ببطء وتنافرت . فاستقرت « حبة بغداد » على أرتبة أنفه وسلخت عنها جزءاً سخياً من البشرة الجميلة ، وورم خدها سمة ضاقت لها عيناه ، ثم عاد خدها إلى هزال هضم دون أن تعود عيناه إلى الاتساع ، ولم يبق له من محاسن الصبا الا شعره الكستنائي الجعد الذي يطيله ويزهو به .

أمر واحد لم يعترف به كاظم لأحد ، لم يعترف به حتى لوليد : شعوره بالوحشة ، شعوره بأن كل ما كتبه لم يحقق له حلاً واحداً من احلامه . لقد اضحى ، كلما ارتدت عيناه نحو ماضيه ، يرى طريقاً طويلاً مقفراً يحيط به بضع نخلات عجاف ، ويرى نفسه يمشي الطريق جيتة وذهاباً - وحده . لم يكن يرى نفسه الا منفرداً ، يتخلى عنه رفاقه أو يتخلى عنهم ، فتكاد البصقة تندفع إلى شفثيه . فهو إذ يغدو ويروح ، إنما هو غادر رائج بين نقطتين من عدم ، نقطتين من فراغ ، فيشتهي أحياناً لو ينفث في هذا الفراغ الجائر نفثة سامة تحملاً لجوانبه العراض .

كلما عاد إلى مسكنه متأخراً وجد خالتيه في ثرثرة وتقاش ، يطفو صوتهما الرفيع الخادش على هواء كل غرفة . فيصبح بهما : « مقبولة ! حسيبة ! » فتصمتان في الحال . وبعد بضع ثوان يسمع لهما همساً بجيحاً

مهادناً ، فيصبح من غرفته ثانية : « ما تنامون ! » وتكون أخته في هذه الاثناء في فراشها تنصفح المجلات . فيدفع باب غرفتها قليلاً ، ويعد رأسه في الشق المفتوح ، ويقول : « ها سمر ؟ » فتقول سمر : دون أن ترفع عينيه عن المجلة المصورة : « ها ؟ »

« ما نمت بعد ؟ »

« بعد وقت . »

وإذ يرمى المجلة الرخيصة يقول : « ها ، شلونه العلم ؟ في تقدم ؟ »

« ما عليك . »

« يا خسارة الماجستير ! »

وقبل أن تقلده بما قد تقع يدها عليه يغلق الباب وراءه ، ويصبح : « خيرية ! »

ومن أعلى البيت يصدر صوت كمواء قطرة مرهقة : « هاء عيني . »

فيقترب من مصدر المواء ويقول : « شكوا للعشا ؟ »

« دقيقة ، عيني ، دقيقة . »

ويتلو ذلك خرفشة ثم طقطقة نازلة على الدرج . وبينما يتزع ثيابه في غرفة نومه ليلبس بيجامته ؛ تهب خيرية أكلة ما على طبق تأتي به على طاولة قرب فراشه . فيسألها : « أبوي في البيت ؟ »

فتسوء خيرية مواء بطيئاً : « البك بعد ما رجع . اجوا عليه بالسيارة وراح ، وبعد ما رجع . ما تريد شاي ؟ »

« عندك مخدر ؟ »

« إي ، خليت لك القوري عالنار . »

وهي تفعل ذلك كل ليلة : تترك ابريق الماء على نار منخفضة ، وتضع في فوهته ابريقاً صغيراً ليتخدر ما فيه من شاي على بخار الماء



الفائر ببطء ، في انتف . فهو لا يتنازل عن كوب الشاي ،  
الذي لا بد له منه ، كل ليلة قبيل نومه .

رائحة الليل ، وهو في السيارة المعلقة النوافذ ، أثارت توقسه إلى  
الشاي ، ووليد مسعود يقبض على السكان يدين شديتين ، محاولا الحد  
من سورة غضبه ، أنها سورة لم تبارحه لاربعة اسابيع لعينة ، تعاوده  
كنوبة من مرض ، وتغالبه . فلما لم يفه كاظم بشيء ، التفت اليه القنافة  
سريعة ، عادت عيناه بعدها إلى التمنع في طريقه الزلق ، وقال :

« انا لا أحاسبك على أحقادك . أنت حرّ فبا تحب وما تكره . »

فقال كاظم متأنفاً : « أنا مبلل ، مبلل جداً . أرجو أن تعيدني

إلى البيت . »

« ولكنني أحاسبك على ما اقرفته بحقي أنا . »

« وما الفائدة من ذلك ؟ ألم تقل انه ليست هناك حقيقة ؟ »

« هناك ما هو أهم . »

« أعلم ما الذي تريد أن تقول . هناك ثقة ، حب ، صداقة ،  
فضيلة ما ... أما أنا فلم اعد اعترف بأي شيء من ذلك . لم أصدق  
أعترف الا بالندفاع الحق ، بهيج أحياناً وبمكر أحياناً ، يظهر أحياناً  
كسيارتك هذه منطقاً بعينين كهربائيتين وسط المطر والطين والظلام ،  
ويظهر أحياناً كنأر يقرض خشب فراشك وأنت نائم . والسيارة والفأر  
كلاهما حقيقي . كلاهما أعترف به . لا فضيلة ولا حب ولا ما يحزنون . »

« أهذا كل ما اكتشفته من الحقيقة التي جابطني بها ؟ »

« أتريد اكتشافاً اعظم ؟ انه الاكتشاف الوحيد الذي يجعلني لا  
أخشى مواجهة أحد في الصباح . تصور مثلاً لو زوجك ابوك من امرأة  
لم ترها من قبل ، وفي الليلة الأولى دخلت عليها وهي تنتظر في  
الظلام ، متحرقة لتزع ثيابها ولتص عريها . وإذا بيدك ، حالاً تعريها ،

لا تقع الا على لحم غضين منهدل مهترى ، فتراجع بجفلاً وتضيء  
النور لترى ، حيث توقعت شلالاً من الورد ، كومة من الجلد  
والعروق ... ماذا تفعل حينئذ ؟ انتقل في الشوارع لتتغنى بها ؟ لقد  
دسلت أنا على حياتي ، فوجدتها قبيحة يصرخ قبحها لله في سمائه ...  
ليتك ولدت تعود بي إلى البيت . لأنني بردان . »

قبل سنوات سبع تزوج كاظم من ماجدة الصباح ، بعد أن تخرجت  
من دار المعلمين العالية . كانت ماجدة من ابرز بنات دورتها بلجالها . ثم  
اضافت إلى شهرة الجال شهرة الشجاعة حين القي القبض عليها في سستها  
الدراسية الأخيرة ، وفصلت من الكلية زمناً لنشاطها السياسي . ولما  
تزوج كاظم منها ، كان كمن يتزوج تلميذة له تعد كل كلمة تسقط  
من شفثيه لؤلؤة يجب كثرها . فقد كانت تقرأ كل ما يكتب قبل أن  
تتعرف به ، ثم التقي الاسمان في إحدى المجلات اللبنانية حين علق  
الواحد على الآخر بقليل من النقد وكثير من الاطراء . ثم اكتشفا أنها  
يقعان في الحبي نفسه من « الاعظمية » . ولما دخل كاظم عليها اخيراً ،  
بعد توقع طويل للذيد ، رأى في عريها شلال الورد السدي كان يمتطي  
نفسه به .

غير ان التلميذة لم يطل كثرها للآلء الساقطة من شفثي استاذها ،  
حين نزل بها على أهله ، كترتيب مؤقت ريثاً يؤث لها بيتاً جديداً . لم  
يدم الزواج أكثر من ستة ، ابتدأت بنصب عاطفي وانتهت الى الجذب ،  
والطلاق . وبقي الاساذ في بيت أهله ليرى التلميذة الثائرة تستقل بجياتها ،  
ثم تتزوج من جديد . ثم تنجب ولدين . وقد رآها مع ولدها مرة في  
« اوروزدي باك » وأطال النظر اليها . كان بالامكان ان يكونا طفليه  
هو ، لولا عنادها وجاحها . ومن أعماق حلقة تجمع اللعب على رأس  
لسانه ، في بصقة حتى اخرس ، بلعها وخرج الى شارع الرشيد . كان

الشارع مخنفًا بسيارات متلاصقة ، مقدماً لمؤخرة ، تزحف زحفًا كثير السعال والزيثر والتزير ، وصفارات الشرطة تحاول تقطيع سلسلة العجلات المتراصة . وعرض الرصيف استلقى بين أرجل السابلة المتراخمة بلا حراك ولشد عاري الصدر ، برزت ضلوعه الرفيعة تحت جلده المغفر ، وقد قرفص قرب رجل مشوه العينين ، ناشراً في حضنه كفه الكبيرة وهو يرتل آيات قرآنية بصوت يقارع أبواق السيارات وحناجر بائعي الحبّ وأوراق اليانصيب . عثر كاظم بقدم الولد المستلقي ، فتفجرت عن غضبته الخرساء شتيمة ، والرجل المقرص يرتل « لعلهم يعلمون » . التقطت أذنه الكلمتين اللتين ، فتكرر لها صدى في رأسه « لعلهم يعلمون ... ولكن أكثر الناس لا يعلمون ... » ووقف في وجه تيار السابلة المتصاحبة المتصاحكة ، وتفجرت غضبته ثانية : لا ، لا يعلمون . سنوات عجاف ، تلوها سنوات عجاف . صراع منذ اول ما وعينا الحياة . ندرس كل شيء . نحكم على كل شيء . نوجه كل شيء . ولكن ماجدة أفلتت من يدي . شهرة لا قيمة لها . لعلهم يعلمون ... يطبق المارة عليه من كل صوب . غير أنهم ما يكادون يقتربون منه حتى يبتعدوا . كأنه ذلك الشحاذ الملقى كعظمة جرداء على الرصيف . وعلى حين غرة ، من بين عشرات الأيدي العابرة ، امتدت يد واستقرت في كفه قبل أن يستبين صاحبها الذي هتف به : « يا هلا بعمي كاظم ، يا هلا » .

فسحب كاظم كفه من القبضة الصلبة الباردة بسرعة ، وقال :

— « مهدي ؟ شلونك ؟ »

— « أريد خاطرك ، عمي . »

— « دتشتغل ؟ »

— « إي . صرت بقسم المكائين ، والفضل لصديقك أبو مروان . »

— « مو أحسن ما تظلل فراش في المكتب عندي ؟ »

— « إي والله احسن . »

— « زين ، مهدي . مع السلامة . »

— « في امان الله ، عمي ، الله يحرسك . »

ولكن ما كاد مهدي ينجرف مع تيار العابرين ، حتى اخرج كاظم من جيب سترته زجاجة الكولونيا الدقيقة التي تلازمه ، وصب منها قطرتين على كفيه ، وفركهما ، ثم صب عدة قطرات فيها انطلق بشذاها إلى خيشوميه ، فتلذذ به ، وفرك كفيه ثانية . وفيجأة انتبه الى ما يفعل . أعاد الزجاجة بسرعة إلى جيبه ، خاشياً أن يكون هناك من رآه وهو يعمّم يديه .

بعد ذلك بربع ساعة كان كاظم اسماعيل في مكتبه في رأس احد الازقة المتفرعة عن شارع الرشيد ، جالساً إلى منضدته ، وقد امسك القلم بيد معطرة معقمة ، ليكتب مقالاً عن وليد مسعود ، كاتب « الانسان والحضارة . » لا شك أن صديقه الذي ما زال يلقاه ، ولكن في آونات متباعدة بالنسبة إلى ما مضى ، يتوقع منه شيئاً يقوله ، شيئاً يدعم به كتابه الجديد ، هكذا فكر كاظم . غير أن كاظم كان قد قرر أن يقذف ببصقته في الهواء ولو سقطت على وجهه بعد ذلك . فأمسك القلم ليكتب وهو يقول لنفسه : « يجب أن اصوره على غير ما يتوقع — بورجوازيًا يجعل من الانسانية قناعاً يخفي به خوف طبقته من الانهيار . نشأ في احضان النعمة ، ويرى الحضارة من منظور غاشم يخشى فيه على الحرية خشية اهل الثرف ، وينسى أن ضرورة الخبز تفوق كل الضرورات الاخرى . »

وانطلقت في اعماقه قهقهته الشامتة الصامتة . « بكفي أن ادعوه بورجوازيًا لتنهار القمة الصغيرة التي يتمتع باعتلائها ... »

• • •

- « لا ، لن أعود بك إلى البيت . »

- « قلت لك إنني بردان . »

غير أن وليد ظل دائساً على البترين ، مركزاً عينيه على الطريق التي تتحرق ستائر المطر المنهر ، وماسحتنا الزجاجة الامامية لا تكلان مسن الصعود والتزول ودفع الماء المتلألئ عنها . وقال :

- « لماذا اذن لا تصف الحياة في ما تكتب على واقعها ، وتعين هذا القبح الذي رأيته يصرخ لله في سماه ؟ أم أن مقالك عني كان من هذا القبيل ؟ »

- « وليد ، أنت حققت ما تريد من كسب مادي ، افلا يكفيك ذلك ؟ بمجرد اقتنائك هذه السيارة مثلاً أنت انما ترمز إلى انصرافك عن الكثير مما كنت تشدق به في الماضي عن ضرورة الكفاح والصراع ، إلى آخره . »

- « وهذه السيارة القديمة المرقعة إذن أصبحت عنوان الترف والانصراف عن الكفاح والصراع ، إلى آخره ؟ »  
- « تماماً . »

- « مسكينة القيم كلها حين لا تصدر الا عن هزيمة في الحياة ! نشأت أنت في عائلة تتمتع بدخل مضمون وبيت ذى غرف عديدة ، ونخدم . وتقدرون نفسك بي ! اين نشأت انا ! في قصر من قصور اوهامك ، ولا شك . »

- « انظر إلى نفسك الآن . هذا هو المهم . هل كنت غططاً بوصفي اياك كما فعلت ؟ »

- « طبعاً كنت غططاً ، وعن قصد غريب ، ابتداءً من نشأتي ، وانتهاءً بكتاباتني . رغم هذه السنوات كلها ، أنت لا تعرف عني شيئاً ، وتشدق بالكلمات الكبيرة . وتتصور أن انساناً مثلك سيغيرون

المجتمع ؟ تغيره وأنت قاعد على جحرك ، تلوك احقادك الصغيرة ، وتغازل اخفاقاتك المتوالية ؟ كم فقيراً عرفت في حيائك ؟ كم يوماً جعت وعريت ؟ »

- « هذا كله خارج عن الصدد . لماذا نجعل القضية شخصية ؟ »  
- « عجيب ! هاجمتني في شخصي ، ولا يروق لك أن اسألك في شخصك ؟ كم مظاهره خرجت فيها ؟ كم قبيلة قلذت بيدك ؟ كم قرية درست احوالها الاجتماعية ؟ كم نفساً تعيل ، مثلاً ؟ »  
- « غير مهم . »

- « كم نفساً تعيل ، بالله أخبرني ؟ »  
فسدد كاظم من عينيه الصغيرتين نظرة ضارية إلى وجه وليد ، غير أن عيني وليد كانتا مركبتين على الطريق الذي يلتقي انهار الماء صاعراً ، فلم ير ما في عيني جليسه من ضراوة ، ومن احساس بالاهانة يحاول كتمه . ولما لم يجب كاظم ، أعاد وليد سؤاله :

- « قل لي ، كم نفساً تعيل ؟ »  
- « لا اعيّل احداً ، ولا اريد أن اعيّل احداً . ليس في نجاحك في الأعمال ايّة دلالة على نجاحك في الفكر المكافح ، لأنك تعطي الكلمة عن عمد معنى غير المعنى الذي اقصد اليه . انا لا اعيّل احداً لأنني جعلت من كل عزيز علي ضحية في سبيل مبادئني . »

فالتفت اليه وليد بسرعة ، وأطلق في وجهه فهقه عالية ، وقال :  
« شهيد الانسانية ! لمن تقول هذا القول ؟ الا تتساءل اجيائاً ، وأنت الذي تهمل الحقيقة ، إن كان لهذه الكلمات التي اتخذت منها سلاحاً بوجه الآخرين اي مدلول حقيقي في حيائك ؟ تستثير عاطفة كريمة مبهمة في صدور الذين لم يعرفوك ، بينما أنت تغمس يدك في دم الذين عرفوك وأحبوك ؟ اليس الأحق أن تبدأ بنفسك أولاً ؟ »

فقال كاظم ، واول الهياج باد في صوته : « شوف ، وليد ، قلت لك ارجعني إلى البيت . »

ولكن وليد أجاب بلهجة يدل برودها على عزمه العنيد : « إلى البيت ؟ ابتعدنا كثيراً عن البيت . »

— « إلى اين أنت ذاهب ؟ هذه بغداد الجديدة . »

— « إلى بعقوبة . ولن يكون في الطريق اي سيارة غير هذه . »

— « الآن في هذا المطر ؟ أجنت ؟ أقول لك ، أرجعني ! »

— « اضبط اعصابك يا كاظم ، كما كنت دائماً تفعل . لا تكن مثلي . انا عندما أغضب ، اعجز عن الكلام ، ولكنني اتحرك بجنون . يوم قرأت مقالك ، لم أصدق عيني . انا لا اخشى تهجم احد علي . انا الطاحونة الضخمة التي شبهتني أنت بها ، أطحن القمح والزّوان معاً . غير أن هجمتك كانت جارحة لأنها جاءت منك ، منك أنت ، وأنت ادرى الناس بما عانيت انا من فقر ، وما جابهت من مشاق . ما الذي تعرفه أنت عن الكفاح ، والصباح ، والوقوف عارياً : الذئباب ؟ الكلمة عندك منفصلة عن الفعل ، والارادة منفصلة عن التنفيذ . معرفتك بالحياة بدأت نظرية ، وبقيت نظرية ، ولم تمتد قط إلى « أسس العنيدة الرهيبة . لم تعرف يوماً قرص الجوع ، ولم تعرف رعدة البرد عندما يهاجمك الشتاء وليس لديك سوى دشدشة واحدة ، دشدشة قطنية مرقعة واحدة تكاد لا تغطي خصيتيك ... »

وانعطفت السيارة في اتجاه بعقوبة ، وكشف نورها النفاذ طريقاً طويلاً اسود ، فيه فجوات من الضوء المنعكس عن بلل الأرض . لم يكن على الجانبين الا الظلام الكثيف . لا اضواء ولا بيوت : فحمتان ممتدتان إلى ما لا نهاية . والمطر يضرب ظهر السيارة ، متلازماً متسارعاً ، كمناقب الآلاف من الطيور الكاسرة .

فصاح كاظم : « اخفض السرعة لحاظ الله ! أتريد أن تقتلنا ؟ » وود لو يستطيع أن يزيح وليد عن مكانه ، فيوقف السيارة قسراً ، لولا خشيته أن يخل بحركة السكان ، والأرض زلقة ، فتودي السيارة بكلبيها . واستمرت السيارة بهديرها واندفاعها العنيد . ووليد لا يلتفت إلى كاظم ، وهو يقول :

« أنت ترى الغريق يخط الماء فتقتل على رأسه خطيباً إلى أن يغرق . ما تفوهت يوماً بكلمة ، ما كتبت يوماً كلمة صادرة عن حب لشيء أو انتصافاً لأحد . ما تفوهت ولا كتبت الا عن حقصد كثير الالتواءات والعقد في نفسك ، حقد تجاه كل شيء ، تجاه كل أحد . هل تظن أن هناك أي عمل كبير يصدر الا عن حب ؟ »

لم يكن لدى كاظم ما يفعله ، وقد وقع في المصيدة ، فتكوم في مكانه ، وغار رأسه بين كتفيه من جديد ، مستلماً لمشينة السائق . غير أنه تخم : « من الخطيب الآن ؟ ومن الغريق ؟ »

وفجأة وجد كاظم نفسه يُلقي بشدة إلى الامام ، حين صرّت السيارة صريراً خطراً ، وحادث بقوة الوقف الفجائي على الطريق البلبل حيداً عنيفاً مال بالراكبين يساراً ثم يمينا قبل أن تستقر السيارة في وسط الطريق ، ونورها كسكين طويل يقطع مناة الظلام الماطر شطرين .

وقال وليد : « نعم . انا الخطيب هذه المرة ، وأنت الغريق ! »

وبسرعة خاطفة امتدت يده اليمنى إلى مقبض الباب الذي بجانب كاظم وفتحته ، وقبل أن يعي هذا وضعه الجديد ، دفعه وليد بيدين صلبتين عن مقعده دفعة قوية من خلال الباب المفتوح ، فسقط على جانبه في الجادة مخططة أليلة ، والمطر ينهمر عليه من كل صوب ، والماء يسيل من تحته ، ورأى الباب يوصد دونه بصفقة هائلة وسمع وليد يقول : « ... معنى البرد ! » وزجرت السيارة وانطلقت .

فانتصب في الحال غير مستقر على قدميه ، وصرخ في عقب السيارة المتباعدة عنه : « قواد ! يا قواد ! والله لراويك يا قواد ! والله لأفتلك يا قواد ! »

ثم رأى السيارة تقف ، فتستدير ، وإذا بها تقبل عليه بنورها ، شرسة ضارية كأنها ستمحقه ، وهو ما زال يصيح ، ثم تهرق عنه في زجاجة كزجاجة الرعد الذي يملأ السماء ويستصغر الأرض .

وبسرعة ، لم يكن حول كاظم سوى الظلام والمطر الدافق ، وببصيصين احمرين قصيين يدلان على سيارة تسرع بعودتها إلى بغداد . ثم اختفى البصيصان ، وانغرزت أظافر كاظم المقبوضة في كفيه الملوئين بغضبه المغلوب ، وانقبض حلقه بنشيج عميق ، إذ امتزج المطر البارد على وجهه المتكسر بسيلين ساخنين يبعان من عيني لا تريان الا الحلكة السوداء ، وحط المزيج المر على شفتيه ، ثم تسرب بينها واستقر عتلى لسانه .

\* \* \*

هكذا تنتهي القصة كما هي مكتوبة لدى « عنوانها » « المزيج المر » . ولعل الدراما التي فيها يجب أن تنتهي عنيفة هكذا . غير أن الامانة تقتضي أن اذكر أن النهاية الحقيقية لم تكن كذلك - أو انها لم تكن كذلك بالضبط . لقد اختطف وليد صديقه كاظم فعلاً إلى الطريق المؤدية إلى بقوبة في تلك الليلة الشتائية ، وكانت ايامئذ طريقاً محفرة ، رديئة التبليط ، لن يجد فيها كاظم شجرة واحدة يتقي بها المطر المنهمر . وعندما دفعه وليد وأسقطه على الأرض ، انطلق بسيارته فعلاً ، تاركاً كاظم لغضب السماء ، الذي كان في تلك الساعة ما حقاً ، ولا شك . ولكن ما كاد وليد يجد نفسه وحيداً وراء السكان حتى شعر بأن غضبه تخلى عنه ، وأن النار المحتدمة في رأسه خمدت فجأة ، وأن حزناً

غريباً استولى عليه ، وتملكته شفقة على صديقه حاول مقاومتها ، ولم يقلح ، وفي الحال اوقف السيارة ، ثم استدار بها ، وعاد بأقصى السرعة نحو كاظم من جديد .

رأى كاظم سيارة تقبل عليه بنورها ، فقفز إلى وسط الطريق بلوح بذراعيه امامها كالمجنون . وكاد لا يصدق عيني ، لشدة فرحه ، عندما وقفت السيارة عنده . ولكن حين ترجل منها وليد ، وتبينه كاظم ، تراجع خوفاً واستدار هارباً ، غير أن وليد ركض بذراعيه مفتوحين ، وامسك به وابعثه بعناق حار ، واخذ يقبل خده وكاظم يقاوم ، والمطر منهمر عليهما ، ووليد يقول : « آسف ، آسف . كاظم . فقدت عقلي . اعذرنى كاظم ، اعذرنى . » وكاظم متشجع ، متصلب ، لا يعرف كيف يستجيب . غير انه لان اخيراً ، واسترخى ، وأخذ هو ايضاً يقبل خد وليد ، ثم انفجر باكياً ... وعادا إلى السيارة كخرقتين منقوعتين بالمطر والدموع . وداس وليد على البترين .

لم يسبق بسرعة هذه المرة . لم يكن بوسعه أن يفعل ذلك ، حتى لو أراد . بقيا صامتين طوال الطريق ، إلى أن بلغا بيت كاظم ، وهما يرتعشان بللاً وبرداً - وعند الباب ، تردد كاظم في التزول . ثم قال : « لن انزل الا إذا نزلت أنت ايضاً ، لتشرب معي كوباً من الشاي ، مع الكونياك . ما رأيك ؟ »

— « وماذا يقولون عنا في البيت ، ونحن مبللان هكذا ؟ وفي الساعة الساعة الثانية صباحاً ؟ »

— « فليقولوا ما يقولون . كلهم نيام أصلاً . »

نزلا معاً ، ودخلا البيت ، ووجد كاظم ان المدفأة في غرفته مشتعلة ، وان ابريق الشاي في المطبخ ما زال على النار المنخفضة ، وان زجاجة من كونياك ريمي مارتان - وهو الذي يؤثره ايضاً وليد - ملاءى لأكثر

من نصفها ، تنتظره في الدولاب . ولم يكن عليها الا ان يخفضا البلل على أفضل ما يستطيعان . وجعلا يشربان ويتحدثان حتى الصباح .

« كان مجنوناً ، يا رجل » ، قال لي كاظم ، وهو يصف ما حدث .  
« وجدتي بغتة في قبضة رجل أضاع رشده . كان يسوق كالمجانين ، ولا أظنه كان مخموراً . وكالمجانين في ظروف استثنائية ، تمكن من سيطرة مدهشة على كل شيء : عليّ أنا ، على السيارة ، على الطريق . حتى خَبِلَ اليّ ان المطر نفسه كان من تدبيره ، إي والله ! »

كانت تلك مصالحة غريبة بين كاظم ووليد . فكاظم ليس بالرجل السهل ، ولا هو بالذي يقاد لمواقفه في لحظة من الضعف ، فينسى كل شيء آخر . لقد نشأ على الشك في كل شيء ، على الزهو بأنه « يقرأ الممحو » ، على الاصرار بأن الجانب الآخر من الصورة ، اذا استطعنا رؤيته ، يوضح الكثير من مبهمات الجانب المعروف أمامنا : فلنبحث دائماً عن الممحو وعن الجانب الآخر ! ولكنه كثيراً ما يشتط في « البحث » الى القول والتخمين ، ويدرك أخيراً نتيجة يختلط فيها الخطأ بالصحيح اختلاطاً تعجز فيه عن التمييز بينها . كان ذلك في بعض الأحيان هو السر في قوة ما يكتب ، ولكنه كان أيضاً السر في ضعفه . فأنت مع كاظم في متاهة من المعطيات التي يتصور أنه حصصها ، وهي في الواقع مدينة لشكوكه وخيالاته أكثر مما هي مدنية للحقيقة الاحصائية الموضوعية . واذا نبهته الى ذلك ، قال انه يعتمد في النهاية على جعل حسه الداخلي هو الحكم بينه وبين نفسه : هناك حدس حاصل ، بعد التمعن والتدقيق ، تصبح فيه صحة « الحقائق الصغيرة » او عدم صحتها أمراً غير وارد . المهم هو النتيجة النهائية .

وقد كان رأيي في وليد ، بعد معرفة بضعة سنوات ، مثلاً على ذلك ، ناقشته فيه دونما جدوى . وليد ، كما جعل يراه كاظم أيامئذ ، سليل

« ارستقراطية منقرضة » لا تنسى تاريخها ، الضائع بين الناس ، الراسخ عميقاً في نفسها ، يدفع ذلك أفرادها الى فروسيات وهمية ورؤى تخيلية غامضة . ووليد يحاول إخفاء ذلك او كبته ، لأنه أمر لا يصلح لزمانه « وهو يريد ان يكون جزءاً مهماً من زمانه » ، ولكنه في قرارته ، بينه وبين نفسه ، متشبث به ... لقد أصبحني كاظم بحديثه عن مثل هذه الارستقراطية « الباطنية » ، غير أنه كان جاداً في رأيه ، يفصله تفصيلاً ، وهو ينفذ رماد سيكارتة بعصية بين آن وآخر ويقول : « انها من بقايا العهد العثماني في اقطار عربية كثيرة . ورغم انقراضها كقوة اجتماعية او سياسية الا انها بقيت فاعلة كقوة نفسية خفية ، كماهه نخجل صاحبها من الاشارة اليها تمدد بجزوت داخلي . وكون وليد قد نشأ نشأة مسيحية لا يقلل من أهمية ذلك ، بل يزيد الأمر تعقيداً عليه . فهو يبدو أنه لا ينتمي الى أية أرض مئة بالمئة ، ولا ينتمي الى أية طبقة مئة بالمئة ، غير ان أحاسيسه الفروسية ، التي قد تكون لاواعية بالنسبة اليه ، بعد ان دفع ارستقراطيته الى ابعد ما يكون عن ذهنه ووعيه ، كاتباً ايهاها كما يكتب الطفل مشاعره الجنسية على الطريقة الفرويدية ، تدفعه الى تبني الأرض ، وتبني الطبقة ، ولكن على نحو فردي ، بل اوتوقراطي ، مليء باحلام رومانسية نعرفها جيداً من مطالعنا عن القومية الألمانية أو الايطالية في القرن الماضي . والبرجوازية التي تطمح دائماً الى احتلال مكان الطبقة التي تعلوها ، تنبئ أفراد هذه الطبقة المنقرضة وتحضنهم ، لأنهم دون علم منهم ، يخدمون أغراضها بالضبط . وهنا الفخ الذي وقع فيه وليد ، والذي يرفض ان يصدق انه يتخبط فيه . »

كانت خيرية قد وضعت صينية على المائدة الصغيرة وعليها استكانات الشاي ، فنهضت سيرة وقدمت استكانا لي ، وآخر لأخيها . واخذت الاستكان الثالث وهي تقول ، ضاحكة : « كاظم ، لو ان وليد قال لي هذا الكلام عنك أنت ، لربما صدقته ، او لصدقت الكثير منه . أما

نوفل ، ويتغنى بها . أمس رأيت عائدًا من دار وليد وكأنه عائد من زيارة وليّ ، أو بطل اسطوري .

— « انه يرى في دخيلته عكس ما تراه أنت . لماذا لا يكون هو المصيب ، بقدر ما تتخيل انك أنت المصيب ؟ »

فقلت : « . اذن فلنقل ان وليد يقع في منطقة وسطى بين ما يراه فيه إبراهيم ، وما تراه أنت ؟ »

وهنا ضحك كاظم ، وأشعل سيكارة أخرى ، وقال : « أكبر مجامل ، هذا أنت يا جواد ! تريد أن ترضيني وترضي إبراهيم معاً . وأنا واتق من أن رأيك الحقيقي يختلف كلياً عن رأيينا معاً . بالله عليك ، أليس كذلك ؟ »

قلت : « جائر . جائر ... على كل ، أنت تعلم اني لا أطلق الأحكام جزافاً ، لأنني أرى لكل أمر ألف وجه . »

فالتفت كاظم إلى أخته : « أترين يا سميرة كيف يتملّص الدبلوماسي ، لكي لا يفضح التزامه الحقيقي ؟ » ثم التفت إليّ « ألف وجه ؟ حدثني عن وجهين فقط ، وأتنازل لك عن ٩٩٨ الأخرى ! »

قبل ان اجيبه بمداورة ثانية ، رفع كاظم يده فجاءه كأنه يتلقف فكرة هبطت عليه من السقف : « ألا تتساءل أحياناً لماذا يتعلق إبراهيم بوليد؟ » قلت : « لشدة ما بينها من اختلاف في الشخصية . ثم تذكر ، أوفقاً كلامها معاً أكثر من مرة في السنة الأخيرة . لا بد أن بينها رابطاً مشتركاً ، يجمع بين الشخصيتين ، ولو على تباعد فيما بينهما . »

— « تقصد الموقف السياسي ؟ هناك رابط أهم . جواد ، أنت سيد العارفين ، ولا حاجة بي الى افصاح كثير . »

فدهشت لتلميحه الذي لم أفهم منه شيئاً . « ماذا تقصد ؟ » فرك سيكارته بشدة في المنفضة ليطفئها ، وقال هو ينظر الى رماها :

ان نقوله انت عن وليد .

فاجاب كاظم بشيء من الحدة : « وهل تعرفين وليد كما أعرفه ؟ ما الذي تعرفينه عن حياته ؟ هل قرأت كتابه ؟ »

— « طبعاً قرأت كتابه . ولكنني لم أقرأه على طريقة قراءة الفنجان ، أو فتاح الفال ، كما تفعل أنت . »

فندخلت مؤيداً لها : « كاظم ، اسقاط الذات على الآخرين مزلق معروف . »

فجرع كاظم ما تبقى في الاستكان جرعة واحدة ، وقام ليضعه على الصينية . « مصيبتنا معكم هي انكم حرفيون في ما تفهمون . الكلمات أحرف جامدة ، لا تتخطون حدودها في تفكيركم . وهذا موقفكم بالضبط تجاه كل ما يقوله أو يكتبه وليد . »

فقلت ، وسميرة تتناول الاستكان الفارغ من يدي : « مهما يكن نأوبلك بارعاً ، فانه بعيد جداً عن الموضوع . وليد شيء آخر غير ما تصف . فيه شيء ما داخلي ، باطني : هذا اتفق معك عليه . ولكن ما هو هذا الشيء ! لست أظن انك قد اهتمت اليه بعد . »

قالت سميرة : « مهما يكن فانه ليس بقايا الارستقراطية المنقرضة التي تتخيلها يا كاظم . أنت تتشاطر في ذلك أكثر مما يجب . وليد مقتلح ، وهذا أمر لا يحتاج الى ذكاء كثير لرؤيته . وهو يحاول أن يجد الأرض يمد فيها غرس جذوره . وإلا فانه لن يستطيع أن يفكر ، أن يكتب ، أن يحقق شيئاً . ولكن هل استطعت أن تتكته ما في دخيلته ؟ لا أظن . ماذا تعرف عن حياته أنت ؟ »

— « ما أعرفه عن حياته هو ما أراد هو أن يحدثني به . وهو قليل . ومتنقّي ليتفق مع الصورة التي يروق له أن يراها لنفسه ، ويربها للآخرين . وطبعاً صورة كهذه لا تقنعني . وهي الصورة التي يراها إبراهيم الحاج

« لماذا هذه البراءة كـ رفع عينيه اليّ » ريمه ، أليست ريمه  
لابراهيم هي بيت القصيد أولاً وآخراً ؟ الرابط المشترك بين ضدين ؟  
فكادت سميرة تهتق ، قائلة : « لا يا كاظم ! »

وقلت : « ابراهيم معجب بشخصية أم مروان ، صحيح .  
— « معجب بشخصيتها ؟ فقط ؟ وجهاً ؟ أنا أعتقد أن له صلة  
بانهيارها العصبي . ولنسم الأشياء بأسمائها : يجنونها .  
قلت : « أبداً ! مستحيل ! »

— « ابراهيم يجتنّ حتى الملائكة ... يخلط بين الجسد والهزل ،  
يعيقريته الخاصة ، وتتناثر عواطفه حوله تناثر الأوراق عن شجرة كبيرة  
في يوم عاصف . أنا أعرف ان مثل هذا الكلام لا يروق لك .  
— « طبعاً لا يروق لي . ولا أدري ما الذي بك هذه الأيام ، بهذه  
الأوهام الغريبة المستمرة . »

سميرة ، كذلك ، كانت على خلاف مع أخيها . وبقدرتها على  
الصراحة ، مع شيء من السذاجة المحبوبة ، قالت : « عقدة الاضطهاد .  
هذا ما يعاني منه كاظم . فيكون رد الفعل لديه هكذا : ضربات عشوائية  
ضد أصدقائه ، وعجبه . »

ثم التفتت الى أخيها وقد تقطع حاجبها : « كاظم ، عيوني ،  
لا يجوز أن تستمر على هذه الحال . هذا الصباح كان شجارك مع الحالة  
مقبولة بدون مرور . وتقهوت بكلمات معها ، بل حتى معي ، ما كنت  
أتصور انني سأسمعها في هذا البيت . لماذا لا تسافر في اجازة ، لتريح  
أعصابك ؟ اذهب الى لبنان ، الى الاردن ، الى القدس . اذهب الى  
لندن . اترك يحيطك هذا شهراً أو شهرين ... »

— « اسافر بفلس موناك ؟ تنكلمين كأنك قادمة اليّ من المريخ ! »  
شعرت بحرج شديد لهذا العراك العائلي ، وأردت بصورة مساهمين

الأمر على كاظم . غير انني ادركت بلمحة خاطفة أن تجربته مع وليد  
تلك الليلة الماطرة ، تركت جرحاً في كبريائه ، ورأيت أمامي رجلاً  
بالغ الذكاء يصاب بهزعة إثر هزعة . لعسل سميرة كانت محقة ، أكثر  
 مما تدري . كل هزعة أصابت كاظم ، أضافت حساً جليداً الى أحاسيس  
السقوط المتراكمة في نفسه ، وبات يشعر ان اضطهاداً يلاحقه ، وانه  
لن يتغلب عليه إلا إذا عمل ذهنه في محاولة تحطيم الآخرين . « رقيب  
الانسانية » الذي أحبه وليد يوماً ، لم يعد رقيباً مدافعاً عنها ، بل مدافعاً  
عن ذاته . سيدعي الدفاع دوماً عن المثل الكبيرة ، غير انه لن يتورع  
باسمها عن الدس ، والاستعداد ، حتى بات مضيقاً للوقت أن يناقشه الواحد  
منا في شيء .

فجأة نهض على قدميه ، وقد اصفرّ وجهه حتى حسبت انه سيفنى  
عليه . لم يتحرك للحظتين أو ثلاث . ودون ان يفوه بكلمة ، ودون أن  
يلتفت بنظرة إليّ أو الى سميرة ، انطلق نحو باب غرفة الجلوس ،  
وفتحه بعصية ، ثم صفقه وراءه ، وسمعناه يفتح باب المنزل ويغلقه  
بعنف أيضاً . ولما هرولت سميرة في أثره ، ولحقت بها أنا ، كان قد  
ابتعد عن البيت في اتجاه الشارع العام .

عند بوابة الحديد ، وقفنا أنا وسميرة تبادل نظرات الحيرة . وقد بلغ  
حرجي أشده . « جواد ، قالت سميرة بضراعة غريبة : « لا تركه .  
أنت أقرب أصدقائه اليه . والينا جميعاً . لا تركه . أقمعه ، أرجوك ،  
لا اريدك كلما غضب أن يفعل كالآخرين ، فيذهب لشرب العرق ، ثم  
يعود في منتصف الليل ليستأنف الجلبل العقيم . »

ودعيتها ، وركضت لادرك كاظم ، غير انني ما كدت أبلغ الشارع  
العام ، حتى كان باص الأعظمية — شارع الرشيد قد توقف عند الموقف  
القريب ، ورأيت كاظم يصعد اليه . فركضت بأسرع ما أستطيع ، وبلغته



وهو على وشك التحرك ، وما أن طفرت اليه حتى تحرك ، ووقعت  
 لاهناً على مقعد أمامي ، قرب كاظم . لم يستغرب ، ولم ينطق بكلمة  
 واحدة ، إلا عندما وقف الجايبي فوق رأسي ، فدّ كاظم يده اليه  
 بالفلوس ، قائلاً : « اثنان . » وعندما دخلت الحافلة شارع الرشيد ،  
 وجاء الجايبي مرة أخرى ، مدت يدي اليه بدوري بالفلوس وقلت :  
 « اثنان . » واشتد ازدحام الركاب ، وقلت مرسلًا بصري عبر كاظم  
 خلال النافذة المغلقة : « ستمطر مرة أخرى . »

أجاب ، دون أن يلتفت : « سوف تغرقنا لا خلاص . إمّا  
 حريق ، أو غريق . »

وعندما ترجلنا همّ بمغادرتي وهو يقول : « الليلة في مطعمهم شريف  
 وحداد . » فجبرته من ذراعه ، قائلاً : « لا ، ابقى معي . لنذهب  
 الى سينما روكسي . »

— « الا تكفيننا مشاكل الناس أيضاً ؟ »

— « أية مشاكل ، يا رجل ؟ »

— « طيب ، بعد السينما ، ادعوك الى ربيع عرق في شريف وحداد . »

— « الى ما بعد السينما ، ربك كريم . »

كانت الساعة قبيل الرابعة والنصف بعد الظهر ، والسينما على بعد  
 خطوات . ولأول مرة ابتسم كاظم : رأى عدداً كبيراً من الفتيات  
 يدخلن باحة السينما ، فقال ، ضارباً كوعه بأصلاحي : « يا خبيث !  
 أنت تعلم أن بنات المدارس والكليات يذهبن الى السينما في مثل هذه الساعة ...  
 انتظر الى أن اخبر هالة عن استمرارك في المغامرات ! » فقلت وأنا  
 افعل التذاكر : « ومن أدراك أنها لم تسبقني الى السينما لكي أراها ؟ »

— « مسكين ، جواد ... خاطب ، ولا يقدر أن يلتقي بخطيبته إلا  
 في الأماكن العامة ... »

— « لا تهم . ربما وجدنا خطيبة لك أنت أيضاً ! »

وشققنا طريقنا بين جمهور من الداخلين والخارجين ، وكاظم يتلفت  
 حواله ، قائلاً : « خطيبة لي؟ أليس حراماً ؟ لقد أسقطوني من الحساب ،  
 اولاد الحرام . »

وقلت له ، ونحن نهمّ بالجلوس في القاعة الرطبة ، الدافئة ، الضاحجة ،  
 باللفظ وتنهّأت فريد الاطرش : « طول عمرك منشائم . هنالك الف  
 فتاة تتحمى نظرة منك . »

فنظر ميمناً وشمالاً وقال : « أرني واحدة تنظر اليّ الآن ، او تريد  
 النظر اليّ . طول عمرك متفائل ! »

وبدا العرض .

وعندما خرجنا ، كان كاظم قد عاد اليه شيء من المرح . رأينا عدة  
 وجوه نعرفها ، وتسلمنا هنا وهناك ، وعلّق كاظم بجملة على فتاة  
 تسير صامتة مع امها ، يداها مدفوعتان في جيبي معطفها الطويل الأحمر  
 الفاخر ، وعيناهما تنظران بعيداً وكأنها لا ترى أحداً حولها . وهمس :  
 « ألا تعرفها ؟ سوسن عبد الهادي . اعطيت امرأة هذا الجبال الهادي ،  
 وهذه الكبرياء الشاحنة ، وخذ عشر سنوات من عمري . طالبة في كلية  
 الملكة عالية ، ويقولون انها أيضاً رسامة موهوبة . »

فنازحته : « اذن ، ضع عقلك في رأسك ، ولنخطبها لك . »

— « هل جنتت ؟ أنا احلم فقط . »

— « احلم اذن ! بالضبط كما أوصى لينين : دع الجماهير تحلم . »

— « ولكن ستالين اهل الوصية . »

قال ذلك ، وأوقفني ، وكأنه قد عزم على أن يذهلني بقول جديد.

ثم نطق : جواد . لنذهب الى بيت وليد . »

أذهلني فعلاً ، وترددت في الموافقة : « إذا كنت تنوي استئناف

الجلد - والعراك - فابحث لك عن رفيق آخر .

ولذا هو يجرّ بي جراً ، ويقول : « أبدأ ، أبدأ . » ويوقف سيارة اجرة . تسرع بنا في اتجاه ساحة عترة . ولسبب ما ، وأنا في السيارة العتيقة ، بقيت صورة سوسن عبد الهادي تومض في ذهني ، يمينها الضالعتين ، ومشيتها المترفة المثبتة . وقلت لنفسي : سأسأل هالة عنها .

كان وليد في البيت ، لحسن الحظ . واستقبلنا هو ورعمة معاً في غرفة الجلوس الصغيرة ، الملائى بالكتب . يبدو أن وليد كان يكتب على مائدة الأكل ، في الركن الصغير المتفرع عن غرفة الجلوس . فقد كانت الأوراق والكتب متناثرة على المائدة ، وفنجان القهوة يلتمع تائهاً بينها ، واسطوانة ما زالت تعزف على الغراموفون ، وصوت الموسيقى يملأ البيت . وقد جلس الى المائدة فوق وسادة موضوعة على كرسي ، مروان ، وهو يرمس بأفلام ملوثة ، وصاح من على مقعده الرفيع : « هلو عمو ! » بسدا لي وليد كئيباً ، متعباً . خفض صوت الموسيقى ، وجلسنا ، بينما ذهبت رعمة الى المطبخ لتطلب الى المربية سبينة القهوة . وما أن عادت بقوامها الفارع وبشعرها الطويل في فوضى حول وجهها الشاحب ، رغم تورّد خديها ، حتى بادرت كاظم بقولها : « أين قضيت تلك الليلة الماطرة الطويلة أنت ووليد ؟ قل الصدق ! أفي يتكلم كما يدعي وليد ؟ » ولحمتُ وليد بغمز لكاظم ، وبعض له على شفته ، فأجاب هذا : « في بيتنا طبعاً . »

— « وبقيتنا تتجادلان حتى الصباح ؟ »

حول عينها كانت الزرقعة الشاحبة خفيفة .

فضحك كاظم . « كمادتنا . آسف اننا لم نستطع أن نخبرك . كان تلفوننا عاطلاً . »

— « وكانت أختك سميرة معكما طوال الليل ؟ »

وبدا كأنه أجفل لسامعه هذا السؤال وأجاب بشيء من الحرج :

« سميرة ؟ العياذ بالله ! سميرة تنام قبل الساعة العاشرة . »

جلست رعمة ، واستدارت إليّ : « متّ خَوْفاً عليه ، حسبت أنهم

أوقفوه مرة أخرى : الى متى هذه الحال ، يا ربي ؟ »

فانحنى كاظم باتجاهها ، يقاطعي قبل أن أجيب : « سيأتي يوم

قريب ، وتنتهي هذه الحال . اطمئني يا أم مروان . »

وفاجأته بسؤالها : « ومتى ستزوج ؟ »

— « أنا أتزوج ؟ ثانية ؟ من يريد أن يعيد التجربة للمرة الثانية

بعد أن ينجو بجلده في المرة الأولى ؟ »

— « وأنت ، يا جواد ؟ كيف امورك مع هالة ؟ »

— « ممتازة . ستزوج حالماً تتخرج هذه السنة ، ثم .... »

— « ثم ماذا ؟ »

— « ثم نساfer الى امريكا لكي أدرس للدكتوراه . »

فالتفتت رعمة الى وليد : « لماذا لا نذهب الى امريكا نحن أيضاً ؟ »

فهمز وليد رأسه بقوة : « امريكا ؟ امريكا-هنا ، هنا ، يا رعمة ،

تألفت عيناها تألقاً غريباً ( وقلت لنفسي : ما هذا الجلال الرهيب

المجنون ؟ ) . « ألم تزهق الرواح والمحيي والتوقيف والابعاد والعودة ؟

وليد ، حبيبي يلعبون بك لعب الكرة ، ثم يفصحون بك في ليلة باردة . »

— « اذن نسيت ما قلته أمس ؟ »

— « ماذا قلت ؟ »

— « رعمة ، قلت لي : اياك ان تتنازل . وعندما يكبر ابنك هذا ،

اريدته مثلك ، يرفض التنازل . »

انفضت ريمة ، وهزت رأسها هزة عنيفة ، وقالت ، وعيناها شاخصتان بنا : « صحيح . سأجعله مثل ابيه ، يرفض التنازل ... » ثم حدثت في عيني واردفت كمن يستنجد بي : « أف ، جواد ... أنا تعبانة .. تعبانة جداً ... » وصمت .

وانطفأ الألق في عينيها . مدت ذراعيها على مسندي كرسيها ، وارتخت يداها على الجانبين كوردين ذابلتين . غابت عنا دفعة واحدة ، وهي أمامنا ، أشبه بمريم المجدلية في إحدى الصور القديمة ، وصلرها البارز يكشف عن بعضه قميصها المفتوح ، وشعرها الاهوج الغزير مرسل على كتفيها كأنها ستمسح به قلبي حبيب مصلوب .

جاءت المربية الفلسطينية ، بالقهوة ، وتناولت ريمة فنجانها ، غير أنها وضعت جانباً ولم تأخذ منه رشفة واحدة . كان وليد مرتبكاً ، لا تتركز نظراته على شيء سوى زوجته بين الحين والحين ، وقد ازدهج ولا ريب أن يراها اصدقاؤه في ذلك الوضع . وغضبت أنا ، بيني وبين نفسي ، على كاظم واقتراحه السخيف هذه الزيارة المفاجئة ، مع انثى كثيراً ما كنا نتزاور على هذا النحو . ولم أعلم ما الذي اراد أن يحدث به وليد ، لأنه بقي مكانه في غير ما عجلة ، وكأنه يريد أن يتسلى من رؤية ريمة وهي في أسوأ حالها . لبثني رافقته الى « شريف وحداد » بدلاً من هذه المهانة التي لم أرضها لوليد ! وارتدت انقاذ الموقف كيفما اتفق ، فسألت وليد عن الموسيقى التي توقفت للتو ، ثم عن تلك الأوراق المتناثرة على المائدة ، ونهضنا ليرينا رسوم مروان ، واسترسل بنا الكلام ، وريمة صامئة ، حاضرة غائبة ، تنظر ، ولكنها لا ترى ولا تسمع . وأخذني وليد جانباً وهمس : « ام مروان راحت ، راحت ، يا جواد . سأخذها الى بيت لحم ... ربما عند والدتها - أو في المصح

هناك . لا هي ولا أنا نعرف طعم النوم هذه الايام . بعد قليل سيأتي الدكتور طارق رؤوف لعيادتها . »

وهنا اسعف النطق كاظم اخيراً . « أنا أسف يا وليد » قال متلعثماً « لاصراي على مجيئنا هذا المساء . لم أكن أعلم بهذا . اردت أن احديثك بمشروع - بمشروع كتاب أو ما أشبه - ولكن هذا ليس وقته . الملعنة . »

وبدا أن وليد لا يستطيع التركيز على ما يسمع أو يقول ولكنه قال : « هل الأمر مستعجل ؟ أنا تحت تصرفك . »

— « لا ، ليس مستعجلاً . هل من مساعدة استطيع ان اقدمها ؟ »  
— « لا ، لا ، شكرآ ، شكرآ . »

— « أرجو أن يتاح لك أن تتصفح جريدتك بعد ثلاثة أيام أو أربعة . »  
فأجاب مع ضحكة ساخرة : « كل يوم ، كل يوم . وهل لنا غنى عن غذائنا الرائع اليومي هذا ؟ »  
وقلت « يلا كاظم ، تأخرنا . »

وعدنا الى ريمة لتصافحها مودعين . فنهضت لنا ، واحسست أنها تحلق فينا وقد نسيت من نحن . لكنهما رافقتنا مع وليد الى الباب ، وخرج وليد معنا حتى البوابة وهو يعتذر ، ونحن نعتذر . كانت السماء تنثّ رذاذاً ناعماً ، فحششنا الخطى . ومرت بنا سيارة ، ثم توقفت ، وسألنا سائقها : « ابن بيت السيد وليد مسعود ، رجاء ؟ » قلت : « انت الدكتور طارق رؤوف ؟ انهم في انتظارك . » ودللناه على البيت .

لم أدهش كثيراً عندما وجدت ، بعد بضعة أيام ، مقالا في الجريدة بقلم كاظم اسماعيل يقول فيه ما معناه ان مراجعته لكتاب وليد مسعود « الانسان والحضارة » قبل بضعة أسابيع كانت محاولة لاستبطان وجه

اتصال بوليد ، ولم أشأ ان ازعج وليد نفسه بمخاطبة تلفونية أو بزيارة  
مربةكة أخرى .

خمس عشرة سنة مرت منذ ذلك اليوم ، وإبراهيم في جوهرة هو هو ،  
لم يتغير ، ولن يتغير . كان صديقاً لكازم ، رغم أنه أصغر منه سناً :  
صدقة مضطربة ، غريبة ، يمتزج فيها الحب والكراهية بمقادير مجهولة .  
فهو كثير النقد لكازم - وكازم لا يبخل ببقله له ، ولكنها في لحظات  
التصاني يتناغمان كطيرين غريبين يتغازلان ، قبل أن ينتف أحدهما ريش  
الآخر من جديد .

ولئن اعتدت ذلك كله منها ، فاني بقيت طوال هذه السنين لا أفهم  
تماماً سرّ الروابط الغامضة التي جمعت بين إبراهيم ووليد . في السنوات  
الأخيرة لم يعد إبراهيم يكثر من الكتابات التي عرف بها في الخمسينات ،  
غير انه بقي تلك الشخصية الحادة ، المندفعة التي تبلورت في تلك السنين  
الأولى : رجل ينتهي كل شيء ، وقد تعهد بتسليم روحه ، مقابل  
تحقيق ذلك ، لـ شيطان لا بد أن يطالبه قريباً بها . ترى هل كان إبراهيم  
يجد في وليد الشخص الذي يمتنى أن يكونه هو ، دون وعي منه ،  
فتثبت به ذلك التثبيت العنيد ؟

إبراهيم اليوم ، كما في الأمس ، إذا تحمس أو غضب لشيء ، أخذ  
صوته يعلو وينخفض بإيقاع خاص به . لسانه يتحرك كالسفنود في  
الجمر ، ولكن النار قد تبقى في صدره حاجة الى أن يسدأ الشرب .  
وإذا شرب ، أخذ يلعب بالنار . يؤججها ، يقذف بها ، وليحترق من  
بحرق ! يتكلم بأصوات الملائكة وأصوات الشياطين . صوته يسبق ،  
ويصغف . يبدأ هائلاً ، ويتدرج في شربه صوب الهوَج . يضحك ،  
ثم يصخب . هناك حريته أخيراً - الحرية التي يطلبها بنهم ، ويتخيل  
أنه أحياناً يهدم الجدران القائمة بينه وبينها . وعندما يتنصف الليل ،

واحد ممكن للدراسة خصبة ومهمة ، وانه اليوم سيبحث في وجه آخر  
ممكن للكتاب ، وهو وجه فيه بعد فكري خاص ، يتميز بوعيه محنة  
الانسان في النصف الثاني من القرن العشرين وبعد الفاجعة الفلسطينية ،  
مع مستقبلية جريئة تضع مؤلفه في الصف الأول من ... الى آخر مسا  
هناك من هذا الضرب من الكلام . لم أدهش كثيراً للمغالاة بحذائها ،  
ولكنني بقيت في حيرة ازاء هذا التناقض الجديد في كازم بالذات .  
كيف رضي لنفسه أن يستدير بوجهه هذه الاستدارة الكاملة الصريحة ؟  
لم يكن ثمة اشارة الى أية ارستقراطية منقرضة وأوهام فروسية وفخاخ  
برجوازية . بل كان هناك حديث طويل عن إمّا / أو ، الحرية أو  
الجنون ، المجاهدة أو الانتحار . لكن كازم اعترف أخيراً أنه أطلّ من  
على حافة هاوية خفيفة ، فرأى ، لا وليد وريجة مسعود فحسب ، بل  
كازم اسماعيل نفسه .

حاولت الاتصال به ذلك اليوم ، فلم أجده . وعصر اليوم التالي  
أخبرتني سميرة أنه طلب اليها ان تعتذر لي عنه ، لعدم تمكنه من رؤيتي  
أو الاتصال ببني قبل سفره ، وانه استقل الطائرة في الساعة التاسعة صباحاً  
الى لبنان . ثم أضافت : « إبراهيم أيضاً سأل عنه عدة مرات أمس ،  
ولكن كازم - أروجوك ألا تخبر إبراهيم بهذا - لم يكن ميالاً الى رؤيته ،  
وطلب اليها أن تقول لابراهيم انه خارج الدار ... »

قلت : « كازم مرهق ، نفسياً . حسناً فعل بسفره . »  
- « بقيت ألحّ عليه . اشتريت له تذكرة الطائرة بنفسني . وقتنا له :  
تتمتع في بيروت ، في الجبل ، أينما شئت . ولا تستعجل العودة . »  
ثم أضافت همساً : « يقولون ان هناك حملة اعتقالات جديدة ... »

وذلك بالضبط بما جعلني أمرّ عصر ذلك اليوم على مكتب إبراهيم الحاج  
نوفل ، لأطمئن - وكذلك على وليد ، لأنني كنت واثقاً من انه على

وتبدأ ساعات الصباح الأولى ، يكون قد استنفذ تلك الحرية المزعومة نفسها . حينئذ يصافي جلساءه ، ويتحول الغضب الى شفقة ، ثم الى حزن ، ثم الى تجريح للنفس عميق ، كئيب . وقد يتهدج صوته ، ويجهش شيء في حلقه . تضيق عيناه السوداوان الواسعتان ، وتقطر منها دموعتان . ويهيم هماً كالضحك من بين شفتين يشدهما توتره المتهاافت الأخير ، ولا تعرف بالضبط أي كلمات أخيرة يقول .

ولكن هذا الوصف ، الذي جاء في شريط وليد الأخير ، والذي اراني اكرر ما يشبهه هنا ، ليس الا جزءاً من الحقيقة : انه ابراهيم كما هو اليوم . اما في الخمسينات ، فكان ابراهيم يتوقف عند الذروة الساخطة ، ولا يهبط . تجاربه اللاحقة راحت تؤاكل نفسه على مدى السنين ، وأدى التآكل البطيء ، الاكيد ، الى تلك الرجفة المحزنة في يده ، وذلك اللويان النهائي في صوته الى الحس العميق بالضباب والمأساة . أما في تلك الايام ، فكان ما يزال ذلك الشاب المسليء بالافكار والصور الذهنية التي تشعره بان كلمات القواميس كلها عاجزة عن الوفاء بها ، والتي يريد لها أن تتفجر على الناس ، في الجرائد ، في الشوارع ، مع الاصدقاء ، بين الاعداء ، في وجه الشرطة ، مع الطلاب ، منذ أن شارك في مظاهرات الوتبة ، والمظاهرات الكثيرة التي تلتها عبر عقد كامل من السنين .

هكذا كان عصر ذلك اليوم من عام ١٩٥٧ الذي رأيته فيه . أحوال العراق ، جمال عبد الناصر . حلف بغداد ، وليد وريثه ، الشعر الجديد ، الترددي الاقتصادي ( « ولكن أبي ما زال اكبر مستورد في البلد ! أتريد صكاً بخمسين الف دينار يصرفه لك البنك في طرفه عين ؟ فليؤتمه أبي ! ) ، لوحات جاعة بغداد ، معرض الرواد ، حفلة « البالو » التي ذهب اليها برفقة اخته نوال في « هو الامانة » وشاهد فيها اجمل نساء بغداد ... كل ذلك اختلط في زيارته القلظية اختلاطاً هائلاً . ولكن

هذه التعليل كان أن صديقه الدكتور طارق رؤوف أكسد له ذلك اليوم أن رجمة مريضة جداً ، وأن وليد ضحية ملابسات مستمرة يزيد من تعقيداً قدراً سخيفاً عاتٍ سوف يلاحقه الى الابد .

كان يتكلم واقفاً وظهره الى النافذة المغلقة من الطابق الرابع الذي نحن فيه في مكتبه ، فأستدار فجأة ، وفتحها لينشق هواء المدينة ، وألقى نظرة على أسطحها الشهباء الكئيبة ، ثم قال ، وكأنه يريد لمن في الفضاء أن يسمعه : « والله إذا سمعت أن وليد أوقف مرة أخرى ، فلن يبقى لي الا أن اقتحم مركز الشرطة حينما كان ، وفي جبتي عشر قتابل ، وعلى وعلى اعدائي يا رب ! » ثم التفت إلي وأردف ، وعيناه السوداوان متحدتان في عيني : « لو انني فقط أعرف كيف احصل على القنابل ! »

هذه الصورة بقيت مطبوعة في ذهني سنين عديدة ، وهي تعود الى حيويتها كلما زرت في الغرفة نفسها ، وقد تحولت عبر هذه المدة الطويلة الى مكتب شديد الاناقسة ، بأثاثها القولاذي والجلدي ، والصور الزيتية المعلقة على جدرانها ، والمائيل البرونزية والخشبية التي يكثر من شرائها من فنانين بغداد . والنافذة الخشبية القيمة لياها قد اتسعت الآن ، وأصبحت مؤطرة بالالومنيوم ، فضلاً عن الستارة المعدنية التي تكسوها . لا ، انه لن يفتحها اليوم لينظر منها الى فضاء بعيد . « الفضاء في داخلي ، يا جواد » قال ، وهو يدق صدره بقبضة يده : « انا هنا في رحم دافيء ، وليكن مزيفاً . ما رأيك في هذه اللوحة الجديدة لسوسن عبد الهادي ؟ » ثم غرّ بعينه ، وزمّ شفتيه ، وأضاف : « انها رحم آخر - كما قال يوماً وليد . »

ورويت له كيف رأيت سوسن لأول مرة في سينا روكسي أيام كانت طالبة ، وما قال عنها كاظم آتش . فسألني : « لماذا لا يتزوجها ؟ »

قد تكون أرملة ، ولكنها ما زالت في قَمّة انوثتها ... ولكن كاظم المسكين  
لم يعد في قَمّة رجولته ... »

فقلت ضاحكاً : - « وما ادراك ؟ »

- « لنسأل النساء ! عندهن الخبر اليقين ... »

وبغثة استدار نحو لوحة سوسن عبد الهادي مرة أخرى ، ونظر إليها  
نظرة ساهمة ، ثم قال « هل من جديد ، بشأن أبي مروان ؟ »

فقلت وأنا أعمّر غليوني : « ما زلت نائها ... لا أدري أين أبدأ ... »  
- « ولكن يجب ان تبدأ . »

- « لماذا لا تبدأ أنت ؟ .. »

- « أنا ؟ أصبحت الكتابة عندي عملية شاقة . صرت انحشى رؤية  
الورقة البيضاء أمامي ... »

- « أقول ذلك ، وانت الذي تكتب طليقاً كما يكتب الشعراء ، فإذا  
اقول أنا ؟ أتدري ، ان النظرة السوسولوجية تفسد الخيال من اساسه .  
يلدرونك عشر سنوات على رؤية الانسان كظاهرة مجتمعية - وإذا انت في  
النهاية تفقد القدرة على رؤيته كأنسان متميز . كأنسان مستوح ، أصلته  
في دخيلة ذهنه ، في خلايا دماغه . »

فقال ابراهيم وهو يتناولني القداحة : « اذا لم تر وليد كذلك ، فخير  
لك الا تكتب . »

أشعلت غليوني ، ثم استعاد القداحة واشعل لنفسه سيكارة . « اعظم  
الحروب تستغرق بضع سنوات - الحرب العالمية الاخيرة ، مثلاً ، والتي  
قبلها - ثم يعود اصحابها الى وضع ما ، طبيعي ، منطقي ، انساني  
بشكل من الاشكال . أما بالنسبة لوليد ورفاقه ؟ خسون سنة ، خسون  
سنة ، من الصراع ، من اسعار الحقد ، من تلقي الضرب والكرامية ،  
من المقاومة العنيدة - أي امة في التاريخ عرفت هذا الرذخ الطويل الرهيب  
من العداء والقتال ؟ كيف كان لاي فلسطيني في مثل هذا الجو المرير ،

الفاحل الفاجع ، أن يفكر ، ويعمل ، ويبني ، ويكتب ، وهو يقاوم  
العناء والاقزام والمتجبرين اينما توجه ؟ ومع ذلك ، انظر ! عاش وليد  
كما لم يعيش واحد منا ، كما لم تعيش أنت وأنا : قاوم ، وأنتج ، وولّد  
ثراء ، واستولد افكاراً - وترك اثراً سيشغلنا طويلاً لتحديد أبعاده ... ما  
هذا التناقض ؟ أين التفسير ؟ »

فقلت : « كل ما اعرفه هو أن وليد اراد أن يأتي الحياة مسن  
جوانبها كلها . ثم ، ثم ... قدف بها عنه دفعة واحدة . »

قال ابراهيم وعيناه كمادته مركزتان في عيني : « اتعلم انه كان منذ  
خمس وعشرين سنة يدعو الى تأليف جماعات سرية ، كجبهات الفدائين  
اليوم ، ولا يصغي اليه أحد في تلك الايام ؟ »

- « ويبدو انه عاش لنفسه حياة تنسجم مع رغبته تلك . اراد أن  
يقتحم كل شيء . أتذكره اذ يقول : هذا الشيء الممكن الذي امامك ،  
كم هو « ممكن » بالفعل ؟ امكانات الحياة ، وانت دائماً محاصر بألف  
طوق ، كم منها تستطيع أن تخترق ، وفيها تتغلغل ، وفي النهاية تستنفذ »

- « جواد ، تضور الحياة جوهرة بين يديك ، في كفك . كيف  
لك أن تقلّب هذه الجوهرة ، وتمسح عينيك بألوانها ، بلألها ، بتبدل  
الشمعات في اوجها ؟ الحياة فاكهة على شجرة ، ولا حواء هنا تغريها  
حية الارض بعض الفاكهة ، وتغريك بعدها أنت يا آدم ببعضها . لا .  
الفاكهة نفسها هي الاغراء الدائم الذي تقبله انت عن معرفة ، وتستجيب  
له لإحياء دائماً لخلايا جسدك ، خلايا روحك ، الهاباً ليران توشك دائماً  
على الخمود في عروقك ... كم عرك الآن يا جواد ؟ »

فضحكت . « أضروري أن تذكرني بالعر ؟ »

- « لا بأس ، لا بأس . عاشرت وليد هذه السنين كلها ، ولم تر  
الفاكهة التي كان يلوح بها كل يوم امام افك ! كاظم أبرع منك . »

فهو كان يرى ما يراه وليد ، ولكن الغيرة تقتله ، لأنه كلما مدّ يدها راوغته ، وهي لا تراوغ هذا الغريب القادم من وديان مجهولة .  
اسمع ، ما الذي تلزمه أنت ؟ المجتمع ؟ العقل ؟ ما الذي تلزمه أنا ؟  
الجاهل ؟ ما الذي قضى كاظم عمره في التزامه على طريقته ؟ لإحلال البروليتاريا محل البورجوازيين ؟ انه دائماً التزم العام دون الخاص ... شيء رائع . سيقمون لنا التماثيل في ساحات بغداد . بالعشرات ! أما وليد فقد تطوّر كالمجانين بين الخاص والعام ، بين التزم الذات والتزام الآخرين . ورأى ان السعي للآخرين يكون بتحقيق السعي الداخلي نحو كل ما هو عميق ، وجيّد ، ومزلول ، وهادر بالحرية . أقل الناس اناية ، واشدهم عشقاً لما يتحقق عن طريق الذات في تولبها حول خلايا المجتمع . يلتهم ويلتهم ولا ينتهي ...

« ولكنه انتهى ، يا ابراهيم . انتهى . »

فنهض من كرسيه ، واتجه نحو دولاب على جانب من مكتبه ، وفتحته ، لتخرج زحاجة وكأسين . « لا ، لا ، لم ينته . نحن الذين انتهينا . انت وأنا ، والآخرين . نضرب رؤوسنا بجدران من السمّ ، ولا نعرف بأن هذه الجدران هي النهاية . » صبّ كأسين ، قدّم لي احدهما ، وعاد الى كرسيه ، قانعاً بالنتيجة التي توصل اليها . نحن الذين انتهينا ، ويبقى وليد مستمراً .

غير انني لم اقتنع . « لا ، لا ، يا ابراهيم . غداً ستعرف انت نفسك بان كلامك عن هذه النهاية مبالغ فيه . وقبل ان تحاول استدراجي الى الاتفاق معك ، سأتركك . » واخذت جرعة كبيرة من كأسي .

« وتعود إلى أوارقك ؟ »

« أوراقي ؟ سأعود لأبحث عن الفاكهة التي تحدثت عنها . »

قهقه ابراهيم عالياً . « ابحث عنها عند ابن كثر . واذا وجدتها ابق لي شيئاً منها ! »

شربت ما تبقى من كأسي ، وأحسست بالكحول تلهب احشائي ، ونهضت . ولكنه حين رافقني الى باب المكتب ، اوقفني بحركة مباغتة من يده على ذراعي ، قائلاً : « هناك نقطة اريد أن أسألك عنها . » وسكت ، وعيناه تمتعنان بوجهي ، موحياً بخطورة سؤاله .

« نعم ؟ »

« كاظم وطارق ، كلاهما رأيا وليد في الرطبة في ليلته الاخيرة . »

« نعم . »

« أية صدقة غريبة هذه ؟ »

« ابراهيم ، كم مرة نعود الى هذا السؤال ؟ لا يكاد يبدأ الصيف حتى يذهب مئات من الناس بسياراتهم الى الخارج للاصطياف . فما وجه الغرابة في ان يلتقي في موسم الاصطياف اصدقاء ثلاثة بمحض الصدفة في محطة على الحدود ؟ »

« هل كان هناك ... شيء ما ... بين الدكتور طارق ووليد ؟ »

« شيء من الفتور ، ربما . في الآونة الاخيرة . »

« أكثر من ذلك ؟ »

وفجأة تذكرت اشتباهي بأن وصال رؤوف ، اخت طارق ، قد تكون هي شهد المذكورة في شريط وليد . ففي تلك الامة في بيت عامر عبد الحميد أحسست انني وقعت على سرهم ، غير انني لم استرسل بما قد يعني ذلك بالنسبة الى طارق نفسه ، ان كان يعني شيئاً أبداً بل ان عدم اتجاه تفكيري نحوه دليل على انني لا احسب ان الامر بهم طارق في شيء . وما كنت بالطبع لأذكر ذلك لابراهيم ، أو غيره ، لأكثر من سبب . أليس من المحتمل انني مخطئ أو واهم أصلاً ؟

قلت : « قطعاً لا

بدا عليه أنه لا يصدي . « لا بأس . لا بأس . أتعلم اني كنت واسطة  
الخير بين طارق وأخت كاظم أيام زمان ؟ »

فضحكت . « نسيت والله ! اذكر انك توسطت لدى طارق ، ليتوسط  
لدى ابيه في قضية هم كاظم — قبل ثورة ١٤ تموز ؟ »

— « لكي يعين كاظم في وظيفة معقولة قبل ان تضيق منه الوزارة .  
وصار الذي صار . وقع طارق في غرام سميرة ، وبعد الثورة بعدة أشهر ،  
كنت انا الموفق بين القلوب . بل وشاهد القران الميمون ، يا سيدي . »  
— « جاءني الاخبار يومئذ وأنا في أوسن ، تكساس . »

— « المهم ... »

— « المهم ؟ »

فأجاب وكأنه يدلي بحكمة لا تبلغها إلا الأدمغة الكبيرة : « المهم  
يا جواد ، لا نتوقع خيراً من أحد . كلهم خونة . »

فضحكت ، وقلت : « لن تتغير يا ابراهيم ! في أمان الله . » وخرجتُ ،  
ووراء ضحكتي همّ جديد : ما الذي بالضبط يراه ابراهيم من علاقة بين  
اختفاء وليد وبين ثقائه بكازم وطارق ليلة اختفائه ؟ أي خيال عموم  
يعبث بعقل ابراهيم ؟

بعد اسبوعين أو ثلاثة ، تلقن اليّ ابراهيم ليدعوني أنا وزوجتي الى  
العشاء في منزله ، وقال مازحاً : « جدران الاسمنت راوغها ، وخلّ  
الفاكهة عليّ ! عندي منها الكثير ؟ »

ثمّ غير لهجته ، وأضاف : « سوسن عبد الهادي مدعوة ايضاً ...  
أيهك ذلك ؟ »

فضحكت أنا هذه المرة . « أتلوّح بالفاكهة أمام أنفي انت ايضاً ؟ »  
واخترقت فقهته التلفونية طلبة أدني ، وهو يقول : « يا مكر !  
يا مكر ! يا مكر ! » .

- ٣ -

عيسى ناصر يشهد موت مسعود الفرعان ،

بعد ان عاصر بغضاً من حياته



كان المطر يهني علينا ، ونحن نهيل التراب اللزج على مسعود فرحان  
بسرعة ، ونلبّده على صدره دون هواة ، كأننا نخشى أنه قد يقوم من  
هجمته ثانية . فضحكت رغم موقف الحزن الذي انسا فيه ، وهمست  
للرجل الذي يجاني : « والله لو قام هذا التعس الآن ، لأمسك بتلابينا  
وطالبنا باضجاعه ثانية في موضعه ! » ولهذا اتّمنا عملنا بسرعة ، واقللنا  
القبر بصف من الحجارة رصفناها حوله زيادة في الجيطة والخدر ، فبدت  
كمسيحة ضخمة ألقيت باهمال على التراب المكّوم . وبعد أن انسى  
الكاهن عبارته الأخيرة مرتّماً : « نجّنا من الهاوية الابدية اذ نصيح لك  
ونقول : سبحانك اللهم سبحانك » أدار المبخرة وسكب ما فيها من  
نار وبخور في وسط تلك « المسيحة » ، ثم أدار لها ظهره ، فكان  
ذلك ايذاناً بانصراف الدنيا لآخر مرة عن الميت المدفون ، وإن كانت  
الدنيا في الواقع قد انصرفت عنه قبل موته بكثير . ولكنها انصرفت عنه  
هذه المرة وقد أوى إلى مكان جميل ، تحت اشجار الصنوبر الخضراء ،  
وحبات المطر متعاقدة عليها كحبات اللؤلؤ - أم كانت تلك دموعاً ؟  
وقف اربعة اشخاص أو خمسة من اقاربه على طرف ، فصافحناهم كلا  
بدوره قائلين : « رحمه الله . عمره لك . رحمه الله . البقاء في حياتك . »  
وأرجلنا تغوص في الوحل وتقتلع منه قطعاً ضخمة تنوء بحملها .  
كان مسعود منذ أن فارق الحياة عشية اليوم السابق كأنما قد التقي به

على كواهلنا ، وكواهلنا غدت اضعف من أن تحمل قرأ ثقيلًا كذاك كل يوم . فبات التأمل في حياته وموته موضوع حديثنا طيلة ساعات الليل إلى أن تخلصنا منه في الصباح الباكر . تعاونًا جميعاً على ذلك - وإن يكن معظم اصدقائه بقاريون الشيخوخة ، وتشتي ظهورهم تحت أي ثقل . وأبو وليد ، رغمًا عن المرض الطويل الذي هدم قامته ببطء مريع ، رجل كبير العظم ، طويل الجسم . جاءت زوجته نجمة تسبق باب بيتنا الحديدي - وكنت أتناول العشاء مع ام يوسف - ولما ادخلناها صاحت : « مات ابو وليد ، مات ابو وليد . » وولولت ، واعادت : « تركني وحدي وراح ... تركني وراح . » كانت عيناها واسعتين داميتين في وجه يجعد جلده فوق عظام ناتئة لا يفصلها عن الجلد المهيض اي لحم . ودقت صدرها بيد طينية اللون فيها آلاف العروق النافرة .

فراقناها انا وزوجتي إلى بيتها ، على الطرف الآخر من الزقاق في حارة العناترة . ودفعنا الباب الخشبي لئرى في ضوء قنديل النفط ابو وليد ملقى على الأرض في فراشه ، وعيناه ككرتين من زجاج تحقدان بنا . فأمرعت اليه ، وانحنيت فوقه ، وبرفت اغضت جفنيه ووجهه بارد صلب كالجليد . وبعد قليل جاءتنا بعض نسوة الحسي ، متهاجمات متصارخات ، فركتهن في نحيهن وندبهن ، وذهبت إلى بيت انطون سالم ، واخبرته بالأمر . واتفقنا على السهر عند الميت ، واحضرنا شمعة ضخمة من الكنيسة وضعتها عند رأسه ، وأشعلناها .

كان الليل طويلاً . جعل المطر ينقر الباب ، ثم سمعناه ينهمر . وفي ضوء الشمعة القلق ، بدت ام وليد وزوجتي الجالستان ارضاً قرب الميت ، بعد أن انصرف الآخرون إلى بيوتهم ، كجثتين اقيمت كل منها على مؤخرتها ، وقد تذرثت كلتاهما ببطانية رمادية من بطانيات اللاجئين .

ويدها في حضنها ورأسها منحني على عنق مجهد . لم أدر إن كانت الأرملة قد اغتمت عينيها عن نوم أم عن حزنها العبي الذي اصمته ايام مرض زوجها الطويلة . اما زوجتي فقد كانت نائمة . وانفض ضوء الشمعة ، وترنحت الظلال السوداء الكبيرة .

« واحداً واحداً يذهبون ، ولا يعودون » ، قال انطون ، ودخان سيكارتته يتأوج بخارجاً من فمه ومنخريه ، ثم اضاف :

« وحالما نطلع من المقبرة غداً يجب أن نستعجل ونذهب لجنائزة ثانية . واحداً واحداً ، يا عيسى ، رجالنا يذهبون ولا يعودون . وشبابنا كلهم مشتتون ، كل واحد في بلد ، يفتشون عن لقمة الخبز في مدن هذه الدنيا وصحاريها . وآباءهم من العوز والحسرة يموتون هنا وحدهم - مثل مسعود صديقنا . خلفت ثلاثة شبان ، ولا يجئ واحداً منهم يحضر دفنه ... »

كانت بيت لحم تبدو لي انها اجتزئت من الفردوس . ولكننا ما عدنا نسمع فيها تلك الأيام الا اخبار الوفيات . القديسين ، والاعباد ، والموتى . وإذا جاء عيد الميلاد ، بنواقيسه وترانيمه الفرحة ، لم يكن اكثر من زخة مطر وجيزة فيها بضع بذور للحياة ، في شتاء قاحل مجرد بدوم طوال السنة ، مليئاً باناشيد الجنائز - في لغات عديسة ومراسم مختلفة .

كان ذلك ، فيما اذكر ، سنة ١٩٥٠ أو بعدها بسنة ، وبيت لحم قد تضخمت بالآف الناس الذين لجأوا اليها . غير أن الشباب هجروها ، كما كنت اشعر انا ابن البلدة ولم يبق فيها الا الشيوخ والعجائز ، وعدد من القتيات . والكثيرات منهن ايضاً كنّ يحلمن بالذهاب إلى اماكن بعيدة يستطيعون الدراسة أو العمل فيها . اما اللاجئون فيحتشدون في منازل البلدة القديمة أو في الاكواخ المقامة على التلال المحيطة بنا ، في الدهشة ، بين الصخور ، عند حواشي الكروم ، على التراب المجذب ، تحت

الخيام الممزقة ، يتطلعون إلى أمل يراودهم ، وتنقل اذهابهم من ذكرى الحقول الحبلى بالذهب إلى يومهم الرصاصي العقيم . والحياة تجري كيفما اتفق من خلال الضوضاء والحركة : ضوضاء وحركة من اجل حفنات طحين الكوكا وعدسها . المهانات تتكرر ، والثنائيم . مسجلو بطاقات ، وشرطة ، وساسة تسمع اصواتهم من بعيد يعدون ويتعدون . - والحياة تجري كيفما اتفق . والمخيمات ، ذلك المجتمع الرهيب الجديد ، آخذة في « التكامل » الذي لم يكن يخطر ببال انسان .

سفح واحد ، صخري شائك ، يحمل آلاف الحيوانات ! انا لست فيلسوفاً ، كنت اقول ، ولكنك لا تحتاج إلى فلسفة لتدرك أن الصخر والشوك لا يلدان الحياة ، وأن الحياة إذا اقحمت اقحاماً في الشقوق من سطح صخري شائك ، فانما هي مرغمة على التحول إلى صخر وشوك . ولكن الحياة لا يمكن أن تقبل ذلك ، رغم كل ما في البشرية من قسوة ولؤم . لأن الحياة تنفجر دائماً إلى الاعلى ، إلى الجانبين ، إلى الاسفل . فاذا حاولوا ارغامها على التصخر فانها لا بد يوماً أن تنفجر في وجوههم كالقنابل ، مهما بدت مستكينة الآن . سفح صخري شائك ، واحد ، يحمل آلاف الحيوانات ! اليس ذلك تناقضاً لا يقبله العقل ؟ أمر لا نحتاج إلى فلسفة . فيقول مسعود الفرحان : « هل بقي شيء ما شفاء ؟ أنت ما تزال شاباً ، يا عيسى ، وتقرأ الكتب ، مثل وليد ، عمرنا نحن انقضى . ما الذي ستفعلونه انتم الشباب ؟ »

ثم يسكت وبهز هامته الكبيرة .

وفي هز تلك الهامة ، بما يعلوها من شعر رمادي قصير ، وما فيها من اخاديد وعروق وآثار جروح ، كنت ارى خلاصة حياة مسعود فرحان . لقد كانت كلها ، كالسفح الصخري الشائك ، تناقضاً لا يقبله العقل .

عرفته منذ سنين بعيدة . ومع ذلك فاني لا اذكره الا رجلاً علاقي الجسم عالي الصوت ، يرتج زجاج النافذة من ضحكته . لعلني كنت في السادسة ، عندما كان هو في شبابه ، فكانه بالنسبة اليّ ولد عملاقاً ، بقدميه الضخمتين اللتين ترسخان في الأرض كالصخر إذا وقف ، وتطيران إذا مشى . كنت ولداً صغيراً ، عندما كان الناس يتحدثون عن « دق الطبل » و « السفر برك » . عندما كنا نأكل خبزاً بطعم التراب ، ويتحدثون عن صنع الخبز من البلوط ، عندما كان الرجال في السهرات يتحدثون كيف كانوا في الجيش التركي يحملون تنكات المساء اميالاً كالحصير ، وكيف كانوا يفرون من العسكرية إلى قراهم وذوهم ، ويغنون في ذلك الاغاني ، وكانوا يتحدثون عن جنرال انكليزي دخل القدس بعد أن ترجل عن حصانه ومشى على قدميه احتراماً للأرض المقدسة . ولم يكونوا يعلمون بعد ما الذي سينزله دخوله ذلك بالأرض المقدسة من ويلات . وكان الناس يتحدثون عن مسعود الفرحان ، واسفاره الواسعة - من مادبة إلى السلط ، من السلط إلى القدس ، إلى غزّة ، ولعله ايضاً بلغ العقبة والقاهرة . كانوا يتحدثون عن فراره من الجيش التركي والقاء القبض عليه والحكم عليه بالاعدام ، ثم فراره من السجن والمشفقة والعودة إلى بيت لحم ليرى فرار العنانيين انفسهم ، ليرى حصاني ابيه في خدمة هذا وذاك من وجوه البلدة ، وقد برزت الضلوع في صدره من الهزال .

كان ابو مسعود قد شاخ ووهن ، وانقطع عن الخروج بمرتبته التي بقيت عاطلة طيلة ايام الحرب في انتظار ابنه . ولكن حال عودة مسعود خرجت العربة إلى شوارعنا من جديد ، مجلوة ، مصبوغة ، براقّة السواد من الخارج ، ناصعة البياض من الداخل ، جذيرة بشهرة ساقها الجديد .

اسمع قرقة على الطريق — ولم تكن قد زفتت ايامئذ — فأقول :  
 « عربة مسعود ! رائحة إلى القدس . » كنت اصغي إلى قرقة عجلاتها الحديدية ، والاحق بسمعي ايقاع وقع حوافر الحصانين على الحجارة ، ورنين اجراسها ، وانطلق إلى نافذتنا المزدوجة المطلّة على الطريق ، لاراه في مقدمة ركبائه ، عالي الرأس ، مستقيم الظهر في قعدته . كأنه أمير في قباز وطربوش أحر ، وقد امسك بأزمة الحصانين برشاقة راقص بمسك بيد راقصة ، والحصانان مطهّمان ، مزوقان ، مرشان ، تلتمع عضلاتهما كالحرير اذ ترتعش في شمس الصباح . وأصبح : « يا مسعود ! خذني معك يا مسعود ! » ولكن العربية السوداء تمر ببنتنا متهادية بركابها ، بينما يرفع مسعود كرباجه ، ويهزّ الرسن ، وتنتقل من شفتيه المرتحين « هاي ! هاي ! هاي ! » ويستجيب الحصانان الاصهبان بانطلاق موزون ، وتهايل العربية كحيوان ضخّم غريب على حجارة الطريق ، مخلّقة وراءها ستاراً رقيقاً شفافاً من الغبار .

لم تكن عربة مسعود هي الوحيدة في البلدة . ولكنها كانت رمز عربات العالم . والعالم كله هو هذه البلدة المتصاعدة البيوت في قوس تلو قوس حول وادي الجبل ، و « المدينة » ، القدس ، التي كان مسعود ينقل الناس منها واليها كالساحر ، كأنه كل مرة يأتي اعجوبة جديدة . وكلما عاد من « المدينة » ، نزل الركاب مسن عربته ومعهم اكياس وسلال ورمز وتناكث وثياب جديدة وأحذية لامة . يتزلها مسعود مسن جوف عربته ويسلمها إلى الركاب كأنها هبات جادت بها يسداه هو ! وثلاث مرات أو أربع أخذني معه إلى القدس ، فيجلسني بقربه ، على المقعد الذي لا ظهر له ، وفي محطة العربات عند باب الخليل يقول لي : « دير بالك على العربية ربّنا أعود . » ثم يعود حاملاً بطيخة تأكلها معاً .

— « مسعود ، اما تريد أن تنزّوج ؟ »

— « ما شفت لك بنت حلال لسه ، يا مسعود ؟ »  
 — « مسعود ! مش حرام على شبابك . خمسة وعشرين سنة ، وبلا زواج ؟ »  
 كانت العجائز لا تنزع عن مناعشته . ولكنه يضحك . السوط بيد والرسن بيد .  
 — « ما تخليها يا حرمه . الله يستر عليك . بدّي احوش لي أكم قرش بالأول . »

فتجيب العجوز : « المرأة كتر . بتجيب زرقها معاها . »  
 — هاي ! هاي ! هاي !  
 وذات يوم دخل علينا وفتح علبة السكاير ، وناول ابي سيكارة ، قائلاً : « معزومين عندنا عالفرح الليلة . »  
 — « مبروك ، مبروك ! »  
 ثم خرج ، ودخل بيت الجيران وناولهم سيكارة وقال : « معزومين عندنا عالفرح الليلة . »  
 — « مبروك ! »

وذهب من بيت إلى البيت . وهو يوزع السكاير ، ويقول : « معزومين عالفرح الليلة . »

وانصبت البلدة تلك الليلة في بيت مسعود الفرخان . احتشدت النساء مرآصات في الغرفة الكبيرة الوحيدة ، والعروس ، نجمة حصية ، مطاطنة حياء في الوسط ، وهنّ يغنين ويصفقن ( والاطفال في احضان بعضهم يصيحون ويبيكون وينعسون ) ، ويتناوبن النقر على الدريكة ، والغناء والتصفيق بهزان الغرفة الحساسة الهواء ، والوجوه والأعناق تتألأ بنضج العرق ولكن الغناء لا ينقطع ، يطلق الهموم الحبيسة ، ويفلت العواطف المكتومة . أترامهم يغنون هذه الايام بمثل تلك البهجة

المائلة ؟ واحداً من يقول ، والاخرى بات بردّ دن :

« كوكبة طلبت دبّوس

خذت الشاب ما ببتوس

بدها شاب يكون محروس

كوكبة يا كوكبة ،

كوكبة يا كوكبة -

تسوى الفين ومية ،

حتى القاضي والمفتي ،

وحتي رئيس البلدية ... »

فيشق القضاء صوت نسائي عال تسمعه دور البلدة كلها :

• « ها هي ! ...

يا حبطتك بالله ... »

أما الرجال فجلسوا على عشرات كراسي القش المنخفضة المستأجرة من المقاهي ، والمرتبّة في حلقات في الحاكورة الواسعة . وفي الصدر ، تحت فانوس ساطع قوي ، جلس عازفو العود والكمينجة والدف ، يدقون ويفنون . وبين الرجال يدور مسعود وأخوه وبعض أقرانه يصبّون العرق في كأس صغيرة ، ويقدمونها للحضور واحداً واحداً .

كان مسعود لارتفاع قامته يرى من كل صوب ، ويسمع صوته خلال الغناء وهو يحثي الوافدين ويجلسهم ويساقهم .

« يلا هنّا يا أبو فرحان ! »

صاح أحد الشباب ، وقام اليه وجعل يعانقه ويقبله ويطلب اليه أن يرقص . فأفسح له من في الوسط فسحة كافية بدفع مقاعدهم إلى الخلف ، ونزل إلى الرقعة الصغيرة ، ورفع يديه ، الزجاجاة في واحدة والكأس في الأخرى ، وجعل يرقص . والرجال يحتدون طرباً ويشدون

تصفيقاً . وفتياز مسعود « الروزا » يتألق على جسمه .

وفي ركن من الحاكورة قام عدد من الشباب ، ووقفوا كتفاً لكتف . وعقدوا الأصابع معاً ، وفي وسطهم عودة الأعرج قد حمل الطنبور ، يعزف عليه ويغني . وبدأوا يدبكون بترنج ونشوة ، ويدورون حول عازف الطنبور ، ويضحون ويهللون .

وإذا صرخة ناشزة تعلو وتتوالى : « مسعود ! يا ابن فرحان ! اسمع يا ابن فرحان ! »

فالتفت الجميع ورأوا خميس حصية ، واقفاً على طرف من الحاكورة ، وعصاه مرفوعة في الهواء تهديداً ، وهو ما زال يصرخ : « ارقص يا مسعود ، ارقص ! بس اعمل حسابي بالأول ، وبعدين ارقص ! » وانقطع العزف للتو ، وتجمد الراقصون في مكانهم لحظتين . وصاح خميس وهو يلوح بعصاه : « والله يا رجال ، ما أخليها توصل الكنيسة بكرة ! »

فصاح مسعود من مكانه ، من فوق رؤوس الضيوف :

« تفضل يا خميس وشاركنا في الفرح . »

— « والله ما أخليها توصل الكنيسة ! »

فوجه العريس كلامه إلى المدعوين :

« بالله يا جماعة ، من المتعدّي ؟ »

فقال أحد الكبار عمراً : « عيب يا خمس ! لازم تفرح بعرس اختك . »

— « والله ما أخليها تدخل الكنيسة بكرة ! والتي يعيش يشوف ! »

أنزل خميس عصاه ، وانصرف .

واستدار مسعود نحو العازفين وقال : « دقوا ولا يهكم ! » ومألاً الكؤوس التي أمامهم .

وفي لحظات عاد الجميع إلى صخبهم ، بينما انسحب بضعة رجال ،

ولحقوا بنميس حصية وهو ما زال في الطريق ، وحاججوه وجادلوه  
وخجلوه ، وأخيراً وقفوا بينه وبين العريس ، حين وعدوه باقناع  
مسعود الفرحان بدفع ثلاث ليرات ذهب أخرى مهرأ لاخته . فقد تبين  
أن نجمة كانت قد وافقت على الزواج برضا من أمها ، رغمًا عن  
اعتراض أخيها .

في صباح اليوم التالي ، كان خميس في مقدمة الزفة التي اشترك فيها  
أكبر أهل البلد . فكان أولها عند قوس زرارة ، وآخرها في بيت  
مسعود . بل إن خميس نفسه ، إذ فعل الخماس فيه ، وكان معروفًا بحبه  
للنساء والكيف ، تقدم الجمهور الهائف الزاحف نحو الكنيسة ، ورفق  
عصاه ورنحها ورتّم :

« يا حلالي يا مالي ! »

فرد الجميع : « يا حلالي يا مالي ! »

— « يا حلالي يا مالي ، ويا ربي ردوا عليّ »

— « يا حلالي يا مالي ... »

— « قلت الها خيّه خيّه .. »

— « يا حلالي يا مالي ... »

— « اسقيني شربة ميه ... »

— « يا حلالي يا مالي ... »

— « دانا رايح ومروّح ، ومنقّي درب القبلية ... »

— « يا حلالي يا مالي ... »

— « قالت لي اشرب واتهّنّا ، يا ريتو صحّة وهنيّه ... »

— « يا حلالي يا مالي ... »

وبعد الزفاف في الكنيسة والعودة إلى البيت ، كان في الحاكورة ،  
في ظل الصنوبرة السامقة ، رجل يرقص بين الرجال ملوحاً بسيف كبير

مقفوف ، وهو يدور ويدور ، والسيف يقطع الهواء كل مرة بضربات  
جبارة وبلى لمن يقف في سبيلها ...

ولكن السيف لم يصب إلا مسعود نفسه : فقد كان في مجيئه وذهابه  
بين المهللين والمصفقين ، عندما اقترب من الراقص دون حذر ، فس  
رأس السيف الطائر خده مسأً سريعاً ، كان كافياً لرسم سطر من الدم  
فيه ، وهوى إلى الأرض . فالتقى الراقص السيف عنه ، وارتدى على  
العريس بصرخ وينشج ويقبل جبينه ، بينما تماقت عليه الرجال والنساء  
بمسخون الجرح الحقيف بالعرق ، ويرددون :

— « الحمد لله عالسالة ! الحمد لله عالسالة ! »

وفي الحال دفع مسعود المنحني فوقه ، المطبّين لجرحه ، ونهض واقفاً  
من بينهم ، وصاح : « والله اللي ما يغني ويصفق لأضرب رأسه  
بها السيف ! » واستمر العرس .

وبقيت الندبة المستطيلة في خد مسعود قصة أخرى يرويها ركاب عربته  
بين بيت لحم والقدس أشهراً كثيرة .

كلما رأيته ، وقمت عيني في الحال على الندبة ، وتذكرت العرس  
والمغنين . هو نفسه كان يحب الغناء . وكلما أقيم عرس ، كان هو أحد  
المدعويين اليه ، فيجلس قرب عازف العود ، ويجزج كأشاً من العرق ،  
ويغني . ولن أنسى يوم امتدحت أمي صوته ، قائلة لأبي : « لماذا لم  
ينعم الله عليك بصوت كصوت مسعود ؟ » فغضب أبي وصاح بوجهها :  
« أنت أيضاً وقعت في غرامه ؟ أما تكفيننا قصة رجينا مع هذا العربي ؟ »

فقلت أمي : « يا عيب الشوم يا ناصر ، ما هذا الكلام ؟ »

فردّ عليها بصيحة غريبة ، سد بها الموضوع . ولم أعرف أنا بالضبط  
ما هي قصة مسعود مع رجينا .

غير أن أبي لم يتأنع ، عندما رزق مسعود بولد بعد ذلك بـمدة

قصيرة ، أن يكون اشبيئاً له . وسُمي الولد ، ترضية لأمه وأخيها .  
 خيس . وقد رأيته ينمو كما تنمو زهرة في الصحراء : حتى في طفولته  
 كنت أشعر أنه يختلف عن الآخرين ، برفقه ، بخفته ، بصلابته . كنت  
 أراه ، مع فارق السن بيننا — كنت أكبره بثلاث سنوات أو تسع ، فلما  
 بلغ هو السادسة أو السابعة ، كنت أنا قد تركت المدرسة وجعلت أتعلم  
 النجارة — كنت أراه دائماً مع شلة من الأطفال ، يلعبون حفلة في  
 الطرقات ، وسيقانهم بيضاء بالتراب ، وهو يتزعمهم جميعاً . أراه قايماً  
 بين أغصان شجرة التوت ، أو اللوز ، يغني أو يقرأ . كان يدرس  
 دروسه وهو قانع كفاكهة بين الأشجار ، مطلقاً على وادي الجمل . ثم  
 ينزل بسرعة القط ليلدي دلوأ كبيراً في البئر ويخرج منها ماء ليشرب ،  
 أو ليسيقي أصدقاؤه ، أو ليروي البصل أو القريبط المزروع في الحاكورة .  
 وأراه أحياناً جالساً في العربة قرب أبيه على مقعد الخوذي ، ممسكاً بأعنة  
 الخيل ، يسوقها بعض الطريق ، وأتذكر نفسي قبل ذلك بعشر سنين .  
 وكلماً مرّ بالمنجرة التي أعمل فيها ، شقّ طريقه إليّ بين تراكبات الأخشاب  
 وأكادس النجارة ، ورفع صوته لأسمعه من خلال صوت المنشار  
 الكهربائي ، يقول : « مرحباً ، عيسى ! أتريد أن أساعدك ؟ » أو :  
 « أمي تقول أعطانا من فضلك كيساً من النجارة للطاؤون . » أو يبرز لي  
 كتاباً من كيس المدرسة ويقول : « أرايت الكتاب الجديد الذي أعطانا  
 إياه المعلم اليوم ؟ »

لا أذكر بالضبط كيف تحول اسمه إلى وليد وهو في تلك السن .  
 جعل أقرانه يدعونه بوليد ، ثم أخذنا نحن أيضاً ندعوه بهذا الاسم ،  
 مما أغضب خاله خيس أول الأمر ، إلى أن اعتدنا جميعاً اسمه الجديد .  
 وبعد سنتين أو ثلاث نسي الناس — فيما عدا أمه — أن وليد مسعود هو  
 في الأصل خيس مسعود . وجعل الناس يتحدثون عن « أبو وليد »  
 بدلاً من « أبو خيس » . وكان أبوه يقول : « أردت أن اسميه

فرحان ، باسم أبي ، ولكن أمه أصرت على أن نسميه خيس . ولما  
 كبر قليلاً جابهني باسمه من حيث لا أدري . يا أخي ليس هناك « وليد » .  
 في عائلتنا . لا شك أنه جاء بالاسم من أحد الكتب التي يقرأها في الليل ،  
 وهو يتشاجر كل ليلة مع أمه على قراءة الكتب ، لأنه يرفض أن يظفيء  
 اللبنة ، وأمه لا تستطيع أن تنام بسبب الضوء . واللجنة إذا لم تنوَس ،  
 تحرق كثيراً من الكلّز ، فتكلّفنا ما هو فوق طاقتنا . ساعدنا الله على  
 هذا الولد ! »

في سبع أو ثماني سنوات رزق مسعود خمسة أولاد ، كلهم ذكور  
 وكانت السيارات في هذه الأثناء قد أخذت تنافس العربات في حمل الركاب  
 بين بيت لحم والقدس ، مما جعل كسب الرزق لمسعود أمراً يزداد مشقة  
 يوماً بعد يوم . عرض عربته للبيع فلم يتقدم لشراؤها أحد ، ومات أحد  
 الحصانين ، فلم يستطع شراء بديل له . وإذا هو ذات يوم يبيع الحصان  
 الآخر ، ويفلق الاصلطيل على العربة ، ويتعلم سياقة السيارة على يد أحد  
 معارفه .

آه ، كان ثمة عصر وانقضى ! كلما عاد ذهني إلى العشرينات ،  
 وتذكرت كيف تحول عاشق الحصان إلى سائق سيارة ، كيف هجر القناز  
 وليس البنطلون — أرى النقطة التي تحول عندها الزمان . ويوم جاءه  
 أنحوه المهاجر سعيد الفرحان ، واقمه بالرحيل معه إلى كولومبيا ، قلنا  
 انه سيثري في أمريكا ويسحب عائلته عنده فيما بعد ، ويسحبنا جميعاً إلى  
 عالم الثراء معه .

وبيّث أم وليد وحدها مع أطفالها ، تربهم بكدها وحرصها ،  
 تعمل كخياطة في منزلها بعد أن اشترت آلة « سنجر » قديمة . مات  
 أحد الأطفال ، وبقي وليد وإخوته الثلاثة ، فرحان والياس وبسام ، في  
 رعاية أمّ لا تنال المشاق من اشراق بسمتها ، واستطاعت أن تدخل وليد

في دير أبينا انطون ، ليعلم اللغة الايطالية . وخدمة القدايس ، ويعمل في قسم تجليد الكتب ، ولا يراه أهله إلا مرة في الاسبوع ، عصر يوم الأحد . وكنت أذهب أحياناً مع والدي ، بصفته اشيناً له ، لزيارته في الدير الكبير ، فراه مرحلاً ضاحكاً ، يلبس حذاءً ضخماً من صنع الدير ، وبأكمل شرائح كبيرة تقطع من الأرغفة المكورة الرائعة التي كان فون الدير مشهوراً بها . وسمعت الرهبان يتحدثون إلى أمته عن « شطارة » وليد ، وتفوقه في الدروس . وقال أحدهم : « كلما أعطيناه كتاباً لكي يجلده ، راح الأفندي يقرأه . » وطلبوا منها ، بعد سنتين أو ثلاث ، أن توافق على تسفيره إلى ميلانو في ايطاليا ، لكي يدرس اللاهوت .

« اللاهوت ؟ » قالت أمه : « وماذا يفعل باللاهوت ؟ » « لبصير راهباً مثقفاً » قالوا لها . « راهباً ؟ يا حسرتي ! وماذا يفعل هذا الشيطان بالرهينة ؟ » قالوا : « لا . انه ليس شيطناً . مجرد عفريت ، لشدة حيويته . ولكنه سيصبح راهباً ممتازاً ، ويعود بعد ذلك إلى دير في القديس ، وتعتز به عندما تزيه يعظ في الناس من على المنبر بلسان كلسان الملائكة . »

وانفتحت نجمة حصية إلى ابنها وقالت : « ماذا تقول يا خيس ؟ » أجاب بحدة : « قلت لك ألف مرة ، اسمي وليد ! » فقالت : « طيب ، طيب . أتريد أن تذهب إلى ايطاليا ؟ » قال : « نعم . اريد أن أذهب إلى ميلانو . اريد أن أدرس ، وأتعلم الموسيقى ، أرجوك ، بمنه ، واقفي على ذهابي . »

نظرت إلى أمه بوجه كله هم وحيرة : « من الأفضل له ، ولنا ، أن يسافر . والا ، فأننا متأكدة من أنه سيهرب مرة أخرى ليختفي في إحدى مغاور الوادي . ولن نجد له أثراً هذه المرة ! »

وادركت ما الذي ترمي اليه بإشارتها إلى ذلك الحادث الذي سبب

لأتمه واخوته فرعاً كبيراً ، وقذف الدير الآمن الساكن في لجئة من المهرج — يوم هرب مع اثنين من رفاقه من الدير ، واكتشفوهم بعد يومين أو ثلاثة في كهف قصي في اعماق وادي الجمل ، وهم يرتلون ويتعبدون ... أو هكذا ادّعوا ، ولم يصدقهم أحد ! أما انا فكنت واثقاً من انه سيعود بعد هربه ، لأنه لن يستطيع الابتعاد طويلاً عن الارغن الذي ابدي قابلية عجيبة للغزف عليه حين اخذ يعلمه الاب جوفاني .

ارسل وليد إلى ايطاليا وعمره ثلاث عشرة أو اربع عشرة سنة ، فيما اعتقد — قبل اضراب فلسطين بسنة أو سنتين ، لا اذكر بالضبط . وقد تزوجت انا في السنة التالية للاضراب ، وهي السنة التي عاد فيها أبو وليد من بوغوتا ، عاصمة كولومبيا : عام ١٩٣٧ . اذكر ذلك لأن مسعود رافق والذي في الخطبة ، باعتباره مهاجراً ثرياً عاد للتو إلى الوطن ، يصعب رد أي طلب له .

لم يكن ثراء مسعود الا وهما من اموالنا . لعله عاد بشيء من النقود . ولكنه لم يفتح متجرراً ، ولم ين قصرراً . وبقي بلا عمل لاشهر عديدة ، يفكر في طريقة « يستثمر بها امواله » — هكذا حسبن . والذي حدث اخيراً هو انه اشترى سيارة قديمة لنقل الركاب بين بيت لحم والقديس . وعادت قصة رجينا تلوكها ألسنة الناس . ورأيتها أيامئذ : أرملة في حدود الاربعين ، تكحل عينيها الواسعتين بضراوة ، وتحمّر شفيتها ، وتبرز صدرها شبرين ، وتكاد تنورنها تشق عن ردفها الكبيرين المشدودين . ونجمة تتجاهل وجودها بأنفة ، وتحاول اقتناعها بأنها لا تعرف شيئاً عن العلاقة بين زوجها ورجينا ، ورجينا لا تنور عن ان ترى أحياناً برفقة مسعود في سيارته — التي سرعان ما اضطر إلى بيعها . ربما لانه جعلها في خدمة رجينا أكثر مما جعلها في خدمة ركابه . ولست ادري حتى اليوم نوع الصلة التي اقامها هذا الرجل الوسيم ، الأمي ، الذي ما عاد يملك



حرفة أو عملاً يرتزق به ، مع امرأة كرجينا ، وهي تسكن مع والدتها العجوز في بيت من حجر أحمر خلقه لها زوجها الراحل ، كما خلف لها معملًا لاشغال الصدف ، وراء كنيسة المهذ ، اضطرت فيما بعد الى بيعه لأنها عجزت عن الاشراف عليه .

راح أولاد مسعود يتكون المدرسة الواحد بعد الآخر ليتعلم كل منهم حرفة ما . أراهم صباح كل يوم أحد ، ثلاثة فتية يسرون معاً بكبرياء وقد ارتدى كل منهم بدلته الوحيدة الأنيقة ، وهم في طريقهم الى الكنيسة ، أو خارجون منها . ويا ويل من يمسه أحدهم ، أو أباهم ، أو أبا من أقربائهم ، بكلمة نابية : فإن ثلاثتهم ينترون له معاً « ليكسروا رأسه » . كان أهل البلدة يشيرون اليهم بأنهم « أولاد مسعود » ، ويخشون التحرش بأي منهم . وإذا رافقوا أباهم أو أمهم الى مكان مباح ، بدوا برصانتهن وطول قامتهن وكأنهم حرس ملكي يراقبون أكبر سيد في البلد ! وكان ابن عمي ، انطوان سالم ، أبو ابراهيم ، جارهم وصديق مسعود منذ الصغر ، « أحسنهم سافر . راح الأذكىاء وفيه الأشيقاء ... » وتحدث معاً عن وليد . ولا تكاد نجمة تسمع اسم ابنتها حتى تظفر الدمعة من عينها ، ثم ترفع رأسها بشم وتقول : « سيعود ان شاء الله ، ويكون فخراً لكم جميعاً ، كما هو فخر لي ، ولأبيه وأخوته ! »

ومغازحها أبو ابراهيم : « لو لم ترسله الى بلاد « بره » ليصبح راهباً ، لزوجه أجمل بنت من بناتي . » فتجيب : « ولكن من يقول انه إذا لم يترهب سيزي بأي منهن ، سر الله عليهن ؟ » ثم تردف : « حبيبي أنا ، بين بناتك ، ريعه . ريمة لنا ، يا أبو ابراهيم . » وحقه أبو ابراهيم : « أما فكرت إلا بالصغرى منهن التي عمرها بالكاد ست سنوات ؟ » فتجيب : « وماذا أفعل ، وهي كسل يوم عندي

تسليني بحكاياتها الحلوة ، وتطلب إليّ أن أمشط شعرها ، وأزينه بالأشرطة ؟ لك عندي مفاجأة : خطت لها فستاناً أزرق ستلبسه يوم الأحد القادم . أجمل فستان لأجمل صبية ! »

لئن كانت ظروف العيش في البلدة الصغيرة في الثلاثينات قاسية على الكبار . فقد كانت أشد قسوة على الصغار . أخذ أولاد مسعود يطالبون بالانتقال الى القدس حيث مجالات العمل أرحب . ويبدو أن رجينا ، في هذه الأثناء ، وجدت عملاً لمسعود في المدينة . قالوا انها تعرف الراهب فلان ، والمطران علان ، ونجحت في تعيين مسعود بواباً ، أو مراسلاً ، في دير القدس . وما كادت العائلة تنتقل الى القدس ، ووليد ما زال في ايطاليا ، حتى هاجر فرحان الى كولومبيا ليعمل عند عمه سعيد . وعندما نشبت الحرب كانت العائلة - أو ما تبقى منها - قد استقرت في غرفة كبيرة في الطابق الأسفل من عمارة في جورة النسماس - وسط العديد من العائلات الفقيرة مثلاً . لا تكاد تقرب من تلك الغرفة المشرعة الباب أبداً ، حتى نسع وسط ضوءه الحي ، كركرة آلة الخياطة ، ونذكر أن نجمة ما زالت في كدحها المعهود .

كنا أنا وزوجتي نتردد هناك كلما استطعنا . وكل مرة أنظر الى النذبة الطويلة في خد مسعود ، أجدها تشد بروزاً . بل كانت ضربة السيف تلك خطأ رسمته يد نبوة خفية ، خطأ فاصلاً بين شبابه الرائع أيام تلك الحياة البدائية البسيطة ، وبين أيامه التالية ؟ رأيته رجلاً يسى ولا يصل ، يح الحياة والحياة ترفضه . ما أكثر الذين أفادوا من الحرب أيامنا ، بشكل أو بآخر . أنا نفسي فتحت معملًا كبيراً للأثاث ، وكانت أشغالنا تنهال علينا انبثالاً ، وأخذنا نلعب بالدرهم لعباً ، نشرب أكثر من طاقنا ، ونذهب من مكان لآخر طلباً للمتعة واللهو . أما مسعود فلم يصب شيئاً منها سوى الألم . ولقد غاب عنه ابنه وليد وفرحان ،

فكان في قلق مستمر عليها ، وبخاصة على وليد ، وإيطاليا مسرح للحرب بعد غزو الحلفاء لها . كان يحلم برسالة ولو بسطرين تصله منه ، عبثاً ، ويقول : « من يريد أن يكون راهباً في هذا العالم الشرير ، يا ناس ! هل يريد أن يحبي الدين في مألطة ، هذا الكلب ؟ آه يا وليد ! كلمة واحدة منك لكأنت تحييني من جديد ! »

ركزَ آماله في الياس وبسام . أعاد بسام الى المدرسة ، ووجد الياس عملاً في إحدى دوائر الحكومة . ولكن ، قبل نهاية الحرب بقليل - في أواخر ١٩٤٤ ، إذا لم تختي الذاكرة - NSF الارهابيون اليهود تلك الدائرة بالذات ، وقتل فيها الياس مع بضعة أناس آخرين - وكان في العشرين من عمره . وأصيب مسعود بنوع من مرض عصبي ، قبل انه عرق النساء ، وقيل انه بداية مرض أشد خبثاً سيتهي به الى الشلل . تعذر عليه المشي إلا بمشقة ، واضطر الى ترك العمل . وفجأة وقد خرجت إيطاليا من الحرب ، عاد وليد الى القدس ليرى والديه في حالة رهيبة من البؤس والعوز .

عن طريق الدير تسلّم مسعود برقية من وليد في القاهرة تعين ساعة وصوله . لن أنسى وجهه عندما رأيته ينزل من القطار في محطة القدس . تركنا طفلاً ، وعاد الينا شاباً فيه شبه شديد بوالده . ولولا ذلك الشبه لما عرفته . كنا ، أنا وأبوه وأخوه ، نتطلع الى وجوه المسافرين القادمين ، ومسعود يقول : « هذه لعبة تلعبونها عليّ . والله لن يحبيء وليد . لن يحبيء ! عسى ، هل ترى راهباً بين هؤلاء المسافرين ؟ »

ووقعت عيني على فتى طويل ، ضامر ، واسع العينين ، طويل الشعر ، يلبس سرة صوفية بين عليها القدم ، ويحمل حقيبة ثقيلة ، فقلت : « وليد ! » وانتفض أبوه إذ اقترب منا هذا الفتى وكأنه روح من عالم آخر ، وارتدى على مسعود . وانخرط الأب في بكاء مسموع ، وهو

يقبل ابنه ، ولا يكف عن تقبيله ، ثم قبلته على وجنتيه ، وقبله أخوه بسام ، وكلنا في سيل من الدموع . ولما سألتنا وليد : « أين الياس ؟ » أجاب أبوه : « سنحكي لك قصته فيما بعد . أين أغراضك ؟ » فأشار الى حقيبته الوحيدة . « ولكن ألا تلبس ثياب الرهبان يا وليد ؟ »

أجاب وليد مبتسماً : « لا . تركت الرهبنة منذ زمان . أين أمي ؟ » - « في البيت ، تنتظرك . »

وسرنا إلى السيارة ، ومسعود يتوكأ على ابنه الضال الذي عاد .

كانت أمه ، وهي ترتدي ثياب الحداد ، خارج الباب تنتظر مع جمهرة من النسوة والجيران ، ولما ركض وليد ، أوقفته بإشارة من يدها ، ثم رفعت جرة بكلتا يديها القويتين ، وخبطنها بالأرض عند قدميه فتحطمت شظايا ، وتطاير منها البز والملبس الذي تهافت عليه أطفال الحي ، وعندئذ فقط عانقت ابنها - وارتفعت زغاريد النسوة ، كان عريساً هبط عليهن من الغيوم .

قلت لن أنسى وجه وليد الذي رأيته ذلك اليوم ، لأنه هو الوجه الذي حُفر في ذهني ، حتى هذه الساعة . يتحدثون عن المأسى تتخلل الأفراح ، عن الضحك يغالبه البكاء ، عن الشوة يفتتها الحزن ، عن التصميم والياس ومجابهة الموت مع معانقة الجمال والروعة - أخلط هذه كلها معاً ، تتكامل صورة وليد . ومرة أخرى ، وكأني في منجرتي القدمة قبل أكثر من خمس عشرة سنة ، شعرت أن هذا المخلوق جاءنا خطأ ، جاءنا إلى حيث ما كان عليه أن يحبيء ، جاءنا وكان لا بد له من المجيء ، جاءنا عاشقاً ، ضالاً ، غريباً ، وسبق في حياتنا عاشقاً ضالاً غريباً ، ووحيداً ، رغم تهافت والديه عليه ، رغم تهافت الناس عليه ، رغم تهافت الدنيا عليه في غد قريب أو بعيد ، كتهافت اولئك الأطفال على حبات الملبس التي تناثرت من الجرة المحطمة .

لا ، لم يكن راهباً . لقد كانت أمه أعلم به من الرهبان الذين أرسلوه إلى إيطاليا . في وجهه الضامر - وجه أبيه ، مع المزيد من الرقة والصلابة ، رقة الشفرة وصلابتها - رأيت عزماً رهيباً ، كأنه وهج ' مصهور في بوتقة . عندما فتحوا حقيقته وجدوها مليئة بالكتب ، ولم يكن فيهما من الثياب إلا ثلاث أو أربع قطع . ولم . ولما قالت له أمه : « أخوك قتله - قتله الراهبيون اليهود ، » منه صرخة قصيرة ، ورفع كفيه يغطي بهما وجهه ، بين الناس ملأوا الغرفة حوله . وانقطع اللغط فجأة لثانيتين ، ليُسمع نشيجه وق . ذلك هو الوجه الذي أذكره دائماً ، ولن أنساه .

لم ادعش قط لكل ما رأيت منه وسمعت عنه بعد ذلك اليوم . لقد أدركت منذ سنين طويلة انه الاستثناء الذي لا بد منه لكل قاعدة . في إيطاليا هجر دراسة اللاهوت ، وترك الإدير ، وعمل . وربما درس ، في مدن عديدة . وفي القدس جعل يكتب . وعمل موظفاً في البنك العربي . وأخذ اسمه يتردد في الصحف الفلسطينية . شاب في الرابعة والعشرين من عمره ، لا يكاد يملك ما يشتري به سرة جديدة لنفسه أو لأبيه . ولكن اسمه أخذ يتردد في عوالم كنت أنا غريباً فيها . في أواخر الأربعينات ثم في الخمسينات ، أعوام التشتت الفلسطيني الأولى ، كانت هناك عوالم تهرني ، ولكنني لا أفهمها . أما لوليد فقد كانت هي الجور الذي لا يستطيع التنفس إلا فيه .

لم أراه كثيراً بعد عودته ، ولكن كنت أشعر أنني على صلة دائمة به ، بل اني سميت ولدي الثاني ، الذي جاءنا بعد عودة ولید بیضه أشهر ، باسمه . ولید عیسی ناصر - انه الآن مهندس نفط في أبوظبي . وهو يعلم بأنني سميت باسم ولید مسعود . عندما يسمع بما جرى ، سينحطم حزناً . لقد ساعده ولید كثيراً في أبوظبي ، بعد أن أوجد له العمل فيها .

في عام ١٩٤٨ ، عادت العائلة إلى بيت لحم ، كالكثيرين من أهل البلدة القدامى الذين عادوا إليها من المناطق التي احتلها الصهاينة في القدس . غير أن ولید لم یقم مع والديه طويلاً ، بعد أن التحق بالمجاهدين في الأشهر الأولى من السنة ، ثم ذهب إلى دمشق والتحق بجيش الانقاذ . وأيام كان يجاهد في القدس . راجت اشاعة مفادها انه في إحدى الليالي الراحلة بالبرق والرعد كان له دور في نسف شارع في أحد أحياء القدس الجديدة الآهلة بالعدو . غير أن أخباره انقطعت عن والديه مرة أخرى ، ونحن نتتبع انباء القتال في كل مكان ، وبخاصة في شمال فلسطين ، حيث كانت معظم المارك التي خاضها جيش الانقاذ على قلة سلاحه وعتاده . وكان مسعود في هذه الاثناء قد أضحي طريق الفراش ، يكاد لا يتحرك فيه إلا لسانه ، وبصعوبة ، ونجمة تحذمه ، وتطمعه ، وتغسل له وجهه ، وتقيمته متكئاً عليها ، وتقعده ، وتونسه ، ولسانه لا يكف . « والله إذا قتل ولید في هذه المارك ، فسأكفر بك ، يا رب ! أما يكفیک مني ولد واحد ؟ » فتقول نجمة : « استغفر الله ، استغفر الله ! عندك ولدان كالاسود ، غير ولید ، فلا تكفر ! »

ثم كانت مهزلة الهدنة ، وبعدها سقطت اللد والرملة ، وخرجنا في مظاهرة كبيرة ونحن نصيح : « وين اللد ، وين الرملة ! بدنا سلاح ! » وزحفنا باتجاه مقر الطلائع المصرية في ظاهر البلدة ، ونحن نصيح : « بدنا سلاح ، بدنا سلاح ! » وخرج البنا القائد الذي كان الجميع يحترمونه ويحبونه ، ليقول لنا ان السلاح قليل ، ويطمئنا بان الجيش سيقوم بواجبه . وقد استشهد هذا القائد بعد اسابيع قرب دير مار الياس ، وهو يحارب اليهود مع جنوده القلائل ، وسلاحه الاقل . وبعد ذلك بمدة سمعت أن ولید استقر به المقام في بغداد . وعاد موظفاً في البنك العربي هناك من جديد .

بعد توفي مسعود ابرقنا لولید في بغداد ، ولبسنا في دير الزور ،

ولم يستطيعا الحضور إلى بيت لحم إلا بعد ثلاثة أيام أو أربعة . لقد كانت مصيبة الفلسطيني لا النفي عن مسقط رأسه فحسب ، بل الصعوبة المفروضة عليه في التنقل من بلد إلى بلد ، ورصده رصد المجرمين من أجهزة أمن لا تخص أنواعها . وما من حكومة عربية إلا وتصرخ بالوحدة وتضع في الوقت نفسه ألف حاجز بين قطرها والقطر العربي الآخر . أمرنا الله !

في هذه الاثناء كانت ام وليد في خشية دائمة من ان يتزوج ابنها امرأة من خارج العائلة ، فينأى عنها إلى الأبد . ولحسن الحظ . لم يكن من الصعب اقتاعه : كانت ريمة قد درست عند الراهبات ، وكبرت لتصبح فتاة تشتهي العين رؤيتها . رآها وليد في زيارته الخاطفة تلك بعد دفن أبيه ، وهي تساعد أمه في شؤونها ، وخطبها في الحال . وفي الصيف التالي ، لم يكن أشد فرحاً من وليد إلا انطون سالم ، عندما زفت ابنته وليد . وبانت ريمة في ثوب عرسها ، أشبه بملاك من ملائكة فجر عيد الميلاد .... واخذها زوجها إلى عالمه الجديد ، ببغداد .

مسكينة ريمة الجميلة !

رأف الله بانطون سالم ، فاختره إليه قبل أن يرى ما حلّ بابنته - بعد زواجها بست أو سبع سنوات - حين عادت أخيراً إلى مسقط رأسها ، لا هي في قيد الحياة فننعم بمجالستها ، ولا هي ميتة فننساها . كيف ، كيف نخبرها بالذي حدث ؟ أما من قرارة هلاوية الأحزان هذه ؟

- ٤ -

**وليد مسعود يتذكر النساء**

**في كهف بعيد**

بعد غياب الشمس بقليل ، تسللنا من بوابة القسم الخارجي واحداً واحداً ، كما يتسلل الهاربون من سجن . كانت المسافة بين الدبر و « الموردة » طويلة ، علينا في بدئها أن نزل درجات الطلعة العريضة ، وعلى جوانبها منازل كثيرة ، وعلينا بعدها أن تقطع طريقاً بضياء مصابيح نفطية يشعلها كل مساء أبو نزار وهو يحمل سلمه من مصباح لآخر ، ويقوم عند الفجر بجولة أخرى بينها لينفخ عليها ويطفئها . وفي الطريق مقهى يجتمع فيه عدد كبير من رجال البلدة بعد أن يعودوا من كدح النهار ، يدخلون التاركيلة ويلعبون الورق والدومينو . وفي أعلى باب المقهى فانوس كبير يلتقي نوره الصارخ عبر الشارع . غير أن رواده ، عند مرورنا ، كانوا منهمكين بلعبهم وضوضائهم ، فلم يلتفت إلينا منهم أحد . ومساءً أن بلغنا مشارف « الطريق الجديدة » حتى اطمأننا أننا أمسينا في مأمن من الاكتشاف . ولكن خوفاً من نوع آخر كان يتنازعنا ، يصعب التغلب عليه . فالموردة ، التي اخترناها مدخلاً إلى الوادي ، اشتقت اسمها من « المردة » . عشرات القصص سمعناها عن مردة تنطلق في الليل وراء المارين في تلك البقعة ، وكل مارد منها طيف رجل قتل ألقي به في ذلك المكان . ينطلق المارد ووجهه مضرج بالدم ، ويلحق بعابر السبيل ويصرخ في طلب الانتقام ، إلى أن يمسك به ... غير أن المردة كانت في الأكثر تؤثر ليالي الظلام . كما أنها كانت تفرغ من إشارة الصليب ، فتراجع عنّ يقوم بها . الليلة التي اخترناها كانت مقمرة ، وقلوبنا

تطرح بالامان ، وفي جيب كل منا مسبحة وردية : وفي ذلك كله دعم لنا ضد المردة ، لا في المردة فحسب ، بل في ثنايا الوادي كذلك .

بدا لنا أن البدر في تلك الليلة أكبر مما عرفته بيت لحم منذ زمن طويل ، ونوره الأخضر يضيء منحدر المردة الصخري الوعر كما لم يره في أية ليلة مضت . والمنحدر يحاذي مقلعاً نعرفه ثلاثتنا جيداً . كما كنا ثلاثتنا نعرف حبلات الزيتون التي تليه ، والأماكن التي تهدمت فيها سلاسل الحجر القديمة جاعلة من الثغرات المتلاحقة بوابات صغيرة تؤدي بنا إلى الأعماق المسترسلة نزلاً نحو المكان الذي قال سليمان انه يعرف فيه كهفاً عظيماً ههنا الله للنسك في العصور الغابرة ، وهو الآن في انتظارنا : ولم نشك في اننا سجدناه تلك الليلة ، مها طال بحثنا .

رحنا تراكض وتقفز ، ونجلس حيناً على الحجارة ، ونغي ، أو نرتل . كان لمراد صرير عذب جميل - وصوتي ، أو صوت سليمان ، لم يقل عنه عذوبة بكثير . وكلمنا جلسنا واجهنا الشمال ، أو ما كنا واثقين من أنه الشمال ، لأننا نعرف أن مدينة القدس تنتشر وراء تلك القمم التي يعلوها ضرب من الشفق طيلة الليل ، فبقيت دليلاً على اتجاهنا شرقاً ، إذ جعلناها على الجانب الأيسر منا في أثناء رحلتنا . وفي بضعة أماكن من الوادي كانت تلتصق نقاط من الضوء كنجوم حطت في كروم الليل وتاهت بينها . غير اننا تصدنا أن نتجنبها . الكروم رائعة ، ولكننا نريد « البرية » ، حيث لا أعناب ، ولا تين ، ولا رمان - ولا بشر . حيث لا يوجد إلا الكهف الكبير الذي نستطيع أن نخطب الرب منه ، وتلقى نعمته كل صباح ومساء . وكلما ازدادت مسالكنا وعورة وازدادت بنا مشقتنا ، اشتدت فرحتنا .

رغم كثرة الصخور ، كانت الأرض رخوة في مواضع تنهافت تحت أقدامنا الكبيرة ، فنتلقانا أشواك من كل نوع . والأشواك ( رغم رضانا بها لأنها كما يقول سليمان ، هي أيضاً من خلق الله ) مزعجة : بنظراتنا

قصيرة ، وسبقنا عارية نتخذش بوخرها ولكننا لا نهم ، وندي الليل أخذ يطري أطرافها . أما الذي نخشاه فهو القراص : انه ناعم المظهر ، ولكن اللسنة الواحدة منه تلهب الجلد بالكلية ، ويصعب تمييزه في ضوء القمر . وكنا أحياناً نقع على أزهار غريبة أيضاً . تتأيل في نسيم الليلة القمرية . « طريق الإنسان إلى الله شائك وطويل » ، قال سليمان : « ولكنه لا يحلو من ورود . »

قال مراد : « أما تعبأ ؟ »

قلت : « قليلاً . »

قال سليمان : « ما زلنا في البداية . أنا لا أتعب . وأنت يا مراد ؟ » انطلقت صيحة طويلة موحشة من بعيد . توقفنا . وأجاب عليها صيحة موحشة أخرى من طرف آخر . « بنات آوى » ، قال مراد . قلت : « كنا نسمعها طوال الليل حين كنا نصيف في الكروم . »

لم تنقطع الصيحات في التردد بين أرجاء الوادي . وكان بعضها قريباً . وتساءلت بيني وبين نفسي : هل حقاً لا نخاف سليمان أو مراد هذه الصيحات الوحشية ، الحزينة ، المرعبة ؟ كانا كلاهما أكبر مني سناً بقليل . وفي ركن قصي في داخلي كان ثمة الكثير من الرهبة ، رغم كل تبجحي . قلت : « الضيع هو الذي يخيف . »

قال سليمان : « الضياع لا تنزل الى هذا الوادي . انها تقف عند دبر مار الياس . ومار الياس بعيد الآن . »

فقال مراد : « إذا بال الضيع على واحد منا ، اضطر الى السير وراءه . »

فقال سليمان بعصبية : « قلت لك ، لا ضياع في الوادي . فلماذا الخوف ؟ »

كان البدر في صعود سريع الى وسط السماء ، وقد انتشرت فيها غيوم صدقية رقيقة يضيء حواشيها القمر ، وتحرك ببطء فتجعله يبدو كأنه

في نرحال مستمر . والصمت مطلق ، فيها عدا صوت ارتطام أحذيتنا بالصخور ، يتخلله أحياناً حفيف مكتوم من النسيم إذ يهب على الأشواك أو بين ثنايا الصخور ، ثم تمزقه ولولة من ابن آوى ، أو نباح من كلب في أحد الكروم .

كنا نستأنس بأصواتنا . نركل الحجارة ، أو نطلق الصرخة لنسمع صداها بعد قليل يعود إلينا . وقد فرحت عندما اعترف سليمان نفسه بأنه تعب قليلاً . فاعترفنا أنا ومراد بالتعب أيضاً دون خجل ، وقلت ان جلد سافي قد تورم من حكة القراص .

قال سليمان : « لركع على هذه الصخرة ، ونبتل الى الله لكي يعطينا النشاط ، والقوة على الاستمرار . »

واخترنا صخرة عالية ، وبشيء من المشقة علونا صهوها ، وركعنا في توازن قلقٍ مواجهين القدس ، ورفعنا وجوهنا وأيدينا إلى السماء ، وابتهلنا .

ثم قال مراد : « والآل لنتزل « آثي ماريس ستيل » - وهي من الأناشيد اللاتينية التي كنا نظرب لرتيلها في كنيسة الدير . ورتلنا ونحن لا نفهم معنى للكلمات سوى انها تحية لمرم العذراء ، وفيها يرد اسم الملاك جبرائيل ، فيلذ المراد أن يعمل سحر صوته باسمه كأنه هو الملاك المبشر بميلاد يسوع . ولما فرغنا ، شعرنا براحة هائلة ، وخامرني إحساس بأن الوادي كله باتساعاته المتلاحقة وفضاءاته المذهلة ، يتسم لنا ، ويمنع عنا أي أدنى قد يكمن بين دغله وحجارته ومغاوره . ذلك كان أثر الأب سيريدون فينا .

« ليكن ايمانكم كامان النبي دانيال ، ألقي به في جب الاسود ، فالجمل أفواه الاسود ، وأخضعها ليديه وجعلها تتمسح وديعة بقدميه ... » هكذا كان الأب سيريدون يسلط بلاغته علينا نحن الأطفال في كل قداس . « أنبياء الله لا تمسهم الوحوش في القفلة . ولا الضواري في

الجبال . والنسك الأبرار هم الذين تشبهوا بالأنبياء ، فحباهم الله تعالى منة من لذنس ، ليمجدوا اسمه ويقنسوه في حياة أكلت منها الأوصار والآثام . مارجيروم يستأنس بالأسد في كهفه ، ومارانطون يطعم الفهد والسر على باب مغارته ، وسيمان العامودي يجابه لظى الشمس وعتو الرياح سنة بعد سنة، وهو من على عاموده الشاق يرسل تعاليمه الى الناس، ويطعم صقر السماء من بين يديه . سبحانك اللهم ! كل صباح وكل مساء كنت ، جلّت قدرتك ، تنزل الطعام والشراب من السماء على نسائك ، وهم يصلون اليك ويضرعون لغسل الانسان من آثامه ، ويلهجون بذكر الأب والابن والروح القدس ، ويتأملون في عجائب ما خلقت ... انظروا الى الزنابق كيف تنمو ، قال القادي ، فانها لا تكدح ولا تغزل ، ولكن سليمان بعظمته كلها لم يلبس ثياباً برقعها وجعلها ... وإذا كان الله هكذا يلبس الأعشاب ، وهي اليوم في الحقل وغداً تقذف الى التور ، فكيف يلبسكم أنتم ، يا من قليل ايمانكم ؟ لا تطلبوا ما سوف تأكلون وما سوف تشربون ، ولا تدعوا للشك سيلاً الى قلوبكم ... »

كلما حان درس الأب سيريدون ، قص علينا أقاصيص القديسين والشهداء ، وجعلنا نكرر الكثير من كلماته وعباراته . ولعل سليمان كان أشدنا حماساً في الاستجابة لهذا السحر « المقدس » . ففأخني ذات مساء ، بعد الخروج من الزنابق : « ما رأيك يا وليد في أن ننسك ؟ »

فقلت : « ونصيح من القديسين ؟ »

قال : « نقضي عمرنا كله في التعبد والصلاة في كهف في وادي الجمل ... ألا يعجبك ذلك ؟ »

« ومن أين نأكل ونشرب ؟ »

« ألا تسمع ماذا يقول أبونا سيريدون كل يوم ؟ « لا تطلبوا ما سوف تأكلون ، وما سوف تشربون . »

« هل سينزل الله علينا خبزاً وماء كما كان يتزل على القديسين؟ »  
 « كل يوم ! وما علينا إلا أن نتعبد ونفزع إليه تعالى . »  
 وخطر لي أن القديسين كانوا دائماً رجالاً طاعينين في السن ، ونحن  
 أطفال لم نتخط بعد الثانية عشرة ، أو الثالثة عشرة ، على الأكثر .  
 غير أن سليمان قال : « الله يرحب بالصغار قبل الكبار . انه يحب  
 الأطفال . »

فسألته : « هل إيمانك عميق ؟ »

« جداً . وأرى أحلاماً جميلة . أرانا نتعبد ، ويأتي الناس إلينا  
 من كل قرية ومدينة ، رجالاً ونساء ، ويسألوننا العون في حياتهم ... »  
 « أنا أيضاً أرى أحلاماً جميلة - وغريبة . أراني أطيّر في الفضاء ،  
 أحلق كالنسر ، وأعلو وأهبط في الوديان ، والناس يأتون إليّ ويندهشون ،  
 ويقولون : « علمنا الطيران مثلك . هل باستطاعتنا إذا رحنا وتنسكنا  
 أن ... نغير البشر ؟ نغير العالم ؟ »

« - العالم مليء بالآثام . ويجب أن يتطهر ، ويتغير . »

هذه الكلمات الكبيرة كانت تتردد على ألسنتنا بعد أن سمعناها أشهراً ،  
 صيحاً وعشية ، من أبنينا سيبريدون . وحين اكتشفنا أن مراد أيضاً يحلم  
 أحلام النساء مثلاً ، قررنا ثلاثتنا أن نهرب من الدير ، ونزل إلى الوادي  
 بحثاً عن الكهف الذي قال سليمان انه يعرف مكانه ، وانه في عزلة عن  
 الناس والعالم ، نهيه لنا الانقطاع إلى الله .

تساءل مراد :

« كم نأخذ من الطعام معنا ؟ »

فقال سليمان ، بشيء من الغضب :

« أين إيمانك ؟ لن نأخذ أي طعام معنا ! »

ووافقه على ذلك ، ولو أنني خجلت من شيء قليل في نفسي ، قليل  
 جداً ، من الشك ، لم أكشف عنه . ولكنني اقترحت أن نأخذ بضعة

حبّات من البندورة ، ربما لأنني كنب أحب البندورة ، أكلها مع قليل  
 من الملح . ودافعت عن اقتراحي مدعياً بأنها لا تعتبر طعاماً يذكر ، وفيها  
 سائل يربّ القم إذا عطشنا أثناء النزول في الوادي ، قبل أن نبدأ  
 مراسيم التنسك . لانت مقاومة سليمان لذلك ، ووافق حتى على أخذنا  
 أيضاً رغيفاً واحداً - واحداً فقط - من الخبز ، وبضع حبّات من  
 « الحلو حامض » . كانت امي تأتيني بها عند زيارتها لي في الدير أيام  
 الأحد . « هذا الزاد للسفر ، » قال سليمان : « وبعد ذلك ... »

تصوّرت طائراً رائعاً يحط من السماء باباب الكهف كل صباح وينفض  
 عن مخالبه سلة مملوءة باللحم والفاكهة ، ثم يعود مخلّقا إلى السماء بجناحيه  
 الكبيرين . ولما أردت أن أصف طائري الخيالي هذا ، أوقفني سليمان  
 عند حديثي قائلاً : « لا تكن شرهاً يساً وليد ! فالله لا يرسل اللحم  
 والفاكهة بهذه السهولة لكل خاطيء نام في مقارة . ربما أرسل خبزاً  
 جافاً - ربما كان خبزاً من الشعير ، يجرب به إيماننا . وسيكفينا الخبز ،  
 كما قال يسوع . »

قال مراد : « ولكن يسوع وزّع مع الخبز ، السمك أيضاً . »

« - إذن ، قد نأكل سمكاً أيضاً . ربي غفرانك ! ألا ترى أننا  
 بكلامنا هذا نجرب الرب ، سبحانه وتعالى ؟ »

وفي المساء الذي عيّناه للهرب ، وجدنا أننا لا نستطيع الحصول على  
 الرغيف المزعوم ، فاكفينا بقطعتي خبز لكل منا احتفظنا بها من حصصنا  
 في عشاء الليلة السابقة ، وغداء ذلك اليوم الذي كان يوم عيد العذراء  
 السائل . واستطاع سليمان أن يأخذ من المطبخ خلسة ، وهو يستغفر العذراء ،  
 بضع حبّات من البندورة ، يوم كان من واجبه أن يساعد الطاهي في  
 تهية الطعام للأولاد ، دسّها في جيوبه وكادت تُنمّص فيها . وأفرغت  
 في جيبي ما عندي من « حلو حامض . »

وقد اخترنا يوم عيد العذراء للبدء برحلتنا المقدسة ، لأنّها فاتحة



تلك الصخرة ؟ عليها ! »

وما أن قفزنا حتى سمعنا خرفشة غريبة ، ثم صوت انطلاق بين الدغل والحجارة . حيوان ما أيقظته أصواتنا ، وهرب . وركضنا إلى الصخرة الكبيرة ، وقد فغرت فاهها ، كأنها في انتظارنا منذ بدء الخليقة . على عتبة المدخل العريض نمت أنواع من الأزهار البرية كان من الصعب تمييزها في الظل الخالك ، إذ كان ضوء القمر يغمر أعلى الصخرة ، ويقذف ظلها المستطيل إلى مسافة بعيدة عن مدخل الكهف . ولكن كان من السهل أن أرى الكثير من الشقائق وقد انتشرت حول الصخرة ، وفي المدخل ، ونمت من الشقوق وبين الحجارة ، وهي تتأبل برفق في الهواء . قلت : « انظروا إلى الزنابق ... »

ثم صحننا أنا ومراد دهشة عندما رأينا سلبان ، دون أن ينبس بكلمة ، يخرج شمعة من عبّ ، ويشحط عود كبريت ، ويشعلها . ورفع الشمعة عاليًا بلهبها الصغير ، ورسم بها إشارة الصليب أولاً ، ثم دخل المغارة ، ودخلنا ورائه ، وكنّا لهفة وتيب ، وهو يقول : « سألت عذراء الأحزان هذا الصباح في القداس : ما الذي سنحتاج إليه ، يا والدة الله الطاهرة ؟ فالتصمت دمة في عيناها ، وهي تقول : شموع ، يا ولدي . وكان طبق الشموع مليئاً تحت تمثالها . فسألته : وهل تغضين عليّ إذا أخذت من هذه ثلاث شموعات ؟ فهزّت رأسها : كلا يا ولدي ... قلت : سأعود إليك يوماً وفي يدي شموع كثيرة وباقية من الزهور . »

كان الكهف رطباً ، وغير عميق ، ويواجه المرتفعات التي هي أولى تلال القدس ، كما أردنا بالضبط . فقعدنا على الأرض الكثيفة بالنبات والحجارة ، وأنا أحس بالكلال في ساقيّ وقدميّ ، وبالجناف في حلقي . ووضعنا الشمعة بين حجرين في الوسط ، ولهبها يعلو ويهبط ويميل مع كل نسمة ، ويلقي ظلالنا مضخّمة على السقف الصخري العتيق .

خير فقط ، بل لأن الأيتام أيام الأعياد كانوا يختلطون عصراً بأولاد الملعب الخارجي ، إذا شاءوا ، وقد يحضرون معهم حفلة السيّا المسائية بعد الزّياح . وهذا يسرّ لنا خروجنا من الباب الحديدي الكبير الخاص بهم ، والذي يبقى مفتوحاً حتى نهاية العرض .

كان إيمان سلبان من النوع الذي يزحزح الجبال ، مقروناً بقدره غريزية على السيطرة والأمر . لم يكن يشك فيما يريد ، فيأخذ أقصر السبل إليه ، ولا يتردد . وكان هذا يسهّل الأمر علينا ، أنا ومراد . وكلما خطر لي أن أعترض ، فضلت أن أكبت اعتراضي ، واستسلم لمشيتته . ومع ذلك ، إذ طال توغلنا في الوادي ، وتكرر تعثرنا ، وسقوطنا ، ونهوصنا ، خطر لي أن سلبان ربما لا يعرف كهفاً نأوى له ، كما زعم . فقلت : « سلبان ، كم ساعة مرت علينا منذ بداية الرحلة ؟ » رفع عينيه إلى القمر ، الذي أخذ ينحدر عن سمتة في السماء ، وقال : « نحن الآن في حوالي منتصف الليل . يعني أننا قضينا تقريباً أربع ساعات في السير . »

فقال مراد : « انا تعبت ، وعطشت ... »

قلت : « هل متأكد أنك تعرف الطريق إلى الكهف ؟ »

– « متأكد ؟ انا متجهون نحوه . كل الطرق تؤدي إلى الطاحون . »

قال مراد : « وأين هذا الطاحون ؟ هل سنبقى في سيرنا حتى

الصبح ؟ »

– « لا . أنا متأكد اننا بعد ساعة أو ساعتين سنصل . »

فقلت : « نحن الآن في بطن الوادي . يا جماعة . حالما نجد كهفاً ،

سنستقر فيه . خالص ! »

توقف سلبان فجأة على طرف « حبل » فيها شجرة زيتون يتيمة ، وأرسل نظره إلى أسفل ، ونادانا . أسرعنا إليه . وصاح : « اثريان

« حرج سليمان حبّات البندورة القليلة من جيوبه ، وأخذ كل منها واحدة . ما أذهبا ، ريانة ، طرية ، ناعمة على الشفتين والخلق ! وبعد قليل قال سليمان :

« والآن لنشكر الله على هدايتنا إلى هذا الكهف المقدس . »

وركعنا على رُكَبٍ مجرّحة ، مكدومة ، مرهقة . وضوء القمر أخذ في الانحسار عن قاع الوادي ، وقد جعلت الاشكال تكبر وتَهول حولنا . وصاح ابن آوى من بعيد . وعادني الرهبة التي كنت أكافحها . غير أن الصلاة خففت عني . ثم نزعنا أحياننا التي حطمت أقدامنا ، واضطجعنا على الحجارة ، كيما نأفئ . وقلت : « غداً نعدّل الأرضية . غداً سنبدأ حياة الصلاح والخير ... » وجعل كل منا يزيح حجراً هنا وحجراً هناك من تحت جسمه ، تخلصاً من وخزها الموجع .

وكنّت على وشك النوم — قرب سليمان ، ومراد مضطجع على الناحية الأخرى منه ، عندما سمعت مراد بصوته الأغرن يرتّم :  
Miserere mei, Deus secundum magnam misericordiam tuam.  
Et secundum multitudinem miserationum tuarum, dele iniquitatem meam ...

ولا أدري كم من هذا الزمور أكمل ترنيمة ، لأنني غرقت في النوم والكلمات اللاتينية تتقاذفي كالوج ...

وفجأة أفقت ، شاعراً بالبرد والرطوبة ، ووجهي على حجر مكسوٍ بالعشب ، وصدّيقاي منبطحان بين الحجارة على شكل لا يوحى براحة . أين أنا ، تساءلت مندهشاً للحظتين . ثم تذكرت . من مكائي في الكهف رأيت الوادي مليئاً بزرقة شهباء نادرة . وضعت ساعدي تحت رأسي ، ورفعت ركبتي المرهقتين إلى بطني ، طلباً للدفء . عصفور حطّ بسرعة على الزيتون البعيدة ، وغرد قليلاً ، ثم انطلق . لم يكن هناك أي زرع ،

فيها عدا بعض الزيتونات الضامرة المتباعدة . أزهار صفراء وبفسجية وشقائق تمتد ، رغم قلتها ، على مدى البصر . صخور بيضاء ومزروقة أبنا نظرت . وقبل أن يستيقظ سليمان ومراد ، نهضت حافياً لأستطلع مستقر عبادتنا . كان الأفق الشرقي ، وراء الجبال الزرقاء البعيدة ، مضاءً بأشعة صفراء حمراء . ثم أذهلني الشمس وهي تنبثق من بين الغيوم الصدفية الخفيفة : كأنني أراها لأول مرة ، وقدماي يدغدغها الحصى والأزهار البليلة بندى الفجر . وشعرت بعطش خفيف ، لم أعره اهتماماً . غير أنني لم ابتعد عن الكهف . بل عدت مسرعاً ، وجعلت أبحث عند مدخله ، وقد اخذتني رجفة لليلة . هل أرسل الله لنا خبزاً وماء ونحن نائمون ؟ لم أجد أي خبز أو أي ماء . بحثت بين الحجارة ، وبين الأعشاب . وتسلفت الصخرة من على جانبيها . ورأيت بضعة عصافير تنطلق حولي ، وتبتعد . ولكن ، لا خبز ولا ماء . ومن أعلى الصخرة تشبّثت بطرفها ، ومددت رأسي إلى النائمين تحتها ، وصحت :

« سليمان ! مراد ! طلعت الشمس ! هيا إلى الصلاة ! »

بانت الحية على وجهيها صريحة عندما قلت لها إنني لم أجد أي أثر لخبز أو ماء . غير أننا صلينا صلاة الصبح ، ونحن راكعون ، متجهين نحو القدس . ولما انتهينا أخرجت إحدى شريعتي الخبز اللتين في جيبي ، وقد انتابني احساس رهيب بالجوع . ولم يعترض سليمان ، وفعل هو ومراد ما فعلت ، وأكلنا كفافنا . ثم أخرجنا كتاب الصلاة وقرأ سليمان الفصل الأول ، وتلونا « السلام عليك يسا مريم » و « أبانا الذي في السموات » بعدد الحُرُزات في مسابحن الوردية ، وأعقبنا ذلك بانهال إلى الخالق عزّ وجل بأن يرحم الإنسان المسكين العاري ، وبهبه كساء يقيه البرد ، وطعاماً يقيه الجوع . أجلت البصر في السماء ، باحثاً عن طير بهبط في اتجاهنا ، ولكن لم تكن هناك إلا عصافير الدوري الصغيرة ، تعبت في فضاء الوادي باحثة عن طعامها ومائها دوننا .

أغلق سليمان الكتاب ، وتحنح قليلاً ، وانطلق ينشد بالسريانية التي كان يتباهى بمعرفته لها ، لاعتقاده بأن المسيح تحدث بها ، وبأن الملائكة أيضاً تسبح لله بها . أصغينا إليه انا ومراد ، وكلنا خشوع ، وهو مسترسل في ترتيله . ولكن يبدو أن طير السماء كان غافلاً عن صلاتنا حتى بالسريانية .

لم نياس . وانصرفنا الى واجبتنا لذلك الصباح : أخذنا نهدد أرض الكهف ، ونرفع الحجارة الكبيرة من أمكنتها ، وكلما رأينا الديدان والحشرات المتجمعة تحتها ، دسناها بأحذيتنا الثقيلة ، وثقتنا لا نتزعزع في اننا سنجمل من هذا المكان حجرة تليق بنسأك ثلاثة يريدون مخاطبة الله ليل نهار ، طيلة أعمارهم .

اشتد حرّ الشمس ، وغرقنا في عملىنا ، وأخرجت حبات من « الحلو حامض » وزعناها بيننا . ما ألهنا ! غير أنها بعد قليل سببت لنا عطشاً أخذ يلح علينا . ونحمرّ مراد فجأة وقال : « سأذهب وأقتش من ماء !... »

فأوقفه سليمان لحظة . « أترى تلك الأشجار اليابسة البعيدة ، على ذلك التل المحاط بسلسلة حجرية ؟ » وللحال أدركنا معنى سؤاله . إنما اجتمعت الأشجار مع الجدران الحجرية ، لا بد أن هناك كرمًا أو أثرًا لكرم . فاتفقنا أن نذهب إليه ، وسليمان يقول : « هل من المعقول أن يهجر الله عباده ؟ » وصرنا والشمس تنصب علينا بحرارة الظهيرة : ولكنها ما زالت حرارة طيبة ، تلطفها أنسام ربيعية . كانت الجنادب تتفاقر بين الأشواك والنباتات ، وأمستت بطييز أخضر لماع استقر في كأس زهرة بنفسجية ، وحملته في كف يدي الى التل . أما مراد وسليمان ، فكانا يلاحقان الفراشات ، يسكان بها ثم يطلقانها .

كان المرتفع أبعد مما ظننا . واضطررنا الى التسلق ، والتشبّث ، حتى بلغنا السلسلة الحجرية . فتلسقناها . وإذا بكوخ مهديم تكومت جدرانها

المنهارة قرب باب خشبي عتيق متأكسل . وترامت حول الكوخ بضع حواكير ، أشجارها يابسة ، كانت في يوم مضى لوزاً وتفتحاً ومشمشاً ... « البثر . لا بد من بثر . أين البثر ؟ » وعندما قفزنا الى إحدى الحواكير كانت هناك خزانة كحجر الطاحون — أنها تلتمع ، وقد تركت فيها الدلاء التي أدليت منها في عشرات السنين الغابرة حزواً وأخاديد ... وركضنا إليها . ورفعنا باباً حديدياً صديئاً عن وسطها . ماء ! ماء ! وكنت من العطش بحيث وددت لو أفقر الى أعماق البثر وأغرق في مائها .

لم تكن عميقة ، ومع ذلك فإن الماء لم يكن في متناولنا . ولما قال سليمان إن الله يهيئ للإنسان ما يحتاج إليه ، ولكنه لا يسهل عليه الأمور لكي لا يكسل ، صحت به : « بلاش فلسفة ! أين السطل ؟ هذا هو المهم . كل بثر لها سطل . »

وانتشرنا في الحواكير نبحت عن السطل ، وفجأة صاح مراد صيحة فرح ، وعدنا الى البثر وفي يده دلو مطعج من تلك ، عمرّ بالصدأ الكثيف . وكان بلا حبل ولا جنزير ... غير اني لم أنردد . نزعت الحزام الجلدي الرفيع عن بنطلوني ، وربطته بعلاقة الدلو ، وكلتي خوف من أن تسقط العلاقة من مكانها لشدة الصدا . وأعطاني سليمان حزامه أيضاً وشددته بطرف حزامي ، وأنزلت الدلو من وسط الخزانة ، ومراد يهدم لنفسه بالدعاء ، وأنا أصبح : « يا رب ، يا رب ... » وبلغ الدلو الماء ... يظهر ان أحداً لم يكن قد سحب من تلك البثر بعد الشتاء الأخير ، فالأمر فيه مرتفع ... خطمت الماء بالدلو ، ثم أنزلته الى أعماق ما أستطيع ، لكي أبدد ما على سطح الماء من أسن . ولما سحبت صعد يترنح مليئاً بنعمة الله ... وشربنا . شربنا حتى انتفضنا . وملاًنا الكرم القديم بصيحاتنا .

لم يكن في الكرم ظل كثير ، فلأنا الدلو من جديد ، وعدنا الى كهفنا بالماء . وشعرت بجوع يشتد ، ولكني خجلت من ذكره ، ودون

أن نتحدث عنه أخرج كل منا قطعة الخبز الأخيرة التي في جيبه وأكلها ،  
وساعدنا الماء على بلعها رغم يبسها . ولما كان التعب قد فعل فعله فينا ،  
نزعنا أحذيتنا واستلقينا على الأرض المهدة ، ولو أنها لم تكن تكن أراف  
بنا مما كانت في الليلة السابقة إلا بقليل .

قال سليمان ، وهو نصف نائم : « بعد أن نفيق ، سنصلي صلاة المساء .  
وسيرزقنا الله بما يشاء عند غياب الشمس . »

أغمضت عيني على هذا الوعد الجميل ، غير أن شيئاً من الشك عاد  
وانتابني . وتمتمت لنفسي : « ابعد عني يا شيطان ! » وتمت .

عند غياب الشمس ، وبعد فراغنا من الصلوات والأدعية ، لم يتزل  
الطير المرتقب بالخبز والماء — أو بالخبز على الأقل

هبط الظلام ، وطلع القمر . وأشعلنا شمعاً وقرأنا فصلاً آخر من كتاب  
الصلاة . وجاءتنا أصوات الليل من جديد . ونباح الكلاب البعيدة .  
أفزعنا خرفشات لا ندري كنهها . وأخذنا النوم مرة أخرى . لكنه كان  
مقطعاً هذه المرة . وطرق اذني صوت نشيج حسيته حلماً أول الأمر .  
ولما فتحت عيني ، رأيت رغم كثافة الظلام ، وقد غاب القمر ، سليمان  
راكعاً يصلي ويكي بكاء مكتوماً ، غير أن النشيج كان أقوى من ارادته .

في تلك اللحظة خفت خوفاً أرسل رعدة في بدني . للممت أطرافي ،  
وبرد الليل لا يبارحني ، وعزوت رعدتي الى القشعريرة . فجاءني سلمان  
وقال هامساً ، وهمسه ينضج بالدمع : « وليد ، ألا تستطيع أن تنام ؟  
مثلي ؟ »

— « لماذا لم نخضر لحافاً ، أو حراماً ، معنا ؟ »

— « وهل كان ذلك ممكناً دون أن نفتضح ؟ »

مراد وحده كان مستغرقاً في نوم هادئ ، ويده بين فخذه . وسألت  
سليمان : « لماذا كنت تبكي ؟ »

— « لأنني شعرت ان ايماني تزعزع ، وغافلني الشيطان وجعلني أندم  
على مجيئنا هنا . فقممت وصليت . وعاد ايماني قوياً كالصخر . »

ورحنا نتحدث . حدثته عن أبي وعبرته وخيله . أما هو فلم يعرف  
عن أبيه إلا ما أخبرته أمه عنه ، ولا يذكره إلا وهو مُسَجَّى على  
الأرض والنسوة قاعدات حوله مع أمه ينتجن . « أبي كان رائعاً ! قلت :  
« كل ليلة يقصّ علينا القصص . وينتجى . وفي الصباح أساعده في علف  
الحصانين ، ثم تخرجهما من الياخور ، ونربطهما بالعربة . »  
— « يا نبالك . »

— « ولكنه سافر الى كولومبيا ، ليصبح غنياً ، وتركنا . »

وفجأة وقع سليمان على عني ، وهو يرتجف ... لقد وقف بمدخل  
الكهف حيوان غريب ، فاغراً شديده ، يلهث . لم نستطع أن نتبين ما هو .  
وقد بدا ضخماً يكاد يملأ باب الكهف ، وتصدر عن حلقه غرغرة رهيبه .  
وأمسكت بسليمان بقوة ، وقد تسمرت عيناى بالحيوان ، وكلانا ينتفض  
رعباً . وهمت بفم جف لعابه : « الشمعة ! »

بقي الحيوان واقفاً مكانه بنظر الينا ، وعيناه تقدحان شرراً في الظلام .  
ومضى دهر على سليمان وهو يبحث عن الكبريت في جيوبه ، وقد ناولني  
الشمعة التي أمسكت بها بيد راجفة . وصرخت : « انه الشيطان ! »  
وتمنت لو أن الشمعة تشتعل تلقائياً . غير أن سليمان تمكن أخيراً من أن  
يشحط عود الكبريت ، وأشعلها . وفي الحال استدار الحيوان الأسود ،  
واختفى . وصاح سليمان : « يا الهي ! معجزة ، معجزة ! يا مليكة  
الساء ! هرب الشيطان من نور شمعتك الطاهرة ! السلام عليك يا مريم ... »

وزالت عنا الرجفة شيئاً فشيئاً ، واحسست براحة لذيدة تغمر صدري  
وفخذي وركبتي وساقتي ... وتمددت ارضاً ، واحتواني ظلام رفيق

ناعم ، سليمان ما زال يحتضني . وعندما فتحت عيني ثانية ، كانت الشمس تملأ الدنيا .

لم تعجب هذه المرة عندما لم نجد خبزاً بباب الكهف ، وقتلنا ان الله محتنتنا . ولكنه بمدنا بقوة من عنده .

بعد الصلاة ، قلت : « الوادي مليء بما يؤكل . وهذا موسم العكوب . لماذا لا نبحث عن العكوب ؟ »

شربنا مما تبقى من ماء الدلو ، ورحنا نبحث شرباً شرباً ، بين الدغل والأشواك والأزهار ، عن هذا النبات البري الذي نعرفه من اوراقه الصفراء . لم يكن في كل مكان ، ولكنه كان موجوداً . جعلنا نقتله ، ونترع عنه اوراقه الشائكة ، ونحشو به جيوبنا - ونأكل بعضه نيئاً . وكانت هناك ازهار نعرفها ، نقطفها ونشق التوبج منها وترشف حلاوة عطرة تجتمع في قرارته . وفي بضعة اماكن عثرنا على حبات من تفاح المجانين تتألق ككرات حمراء من الزجاج بين الوريقات الخضراء الكثيفة . فقطفناها لنلهم بها ونحن نتمنى لو انها تؤكل .

ثم صعدنا الى الكرم ، وسحبنا ماء ، وجعلنا نفرط الدلو لنشط عنه ما يمكن قطه من الصدا . ولم نكد الشمس تتوسط السماء حتى كنا قد اشعلنا ناراً وبدأنا نسلق حصيلتنا من العكوب في الدلو ... وأكلنا - أكثر من كفافنا هذه المرة . لم يبق شك بخامرنا . واشتد عزمنا على البقاء في الكهف .

عصر ذلك اليوم انصرفنا الى « ترتيب » كهفنا ، بازاحة المزيد من الحجارة ، واقامتها على جانب من الكهف في شكل هيكل ، ثبتنا في فجوة فوقه صليلاً صغيراً وإيقونة كان يلبسها مراد حول عنقه . وغرس سليمان بين حجارة الهيكل ما تبقى من شمعتي ، والشمعتين الآخرين .

عند العصر كثرت العصافير . واخذت اسراب السنونو تهوي وترتفع في

فضاء الوادي . جلسنا على صخرة قريبة ، وقد انهكنا التعب . وعادونا الجوع اللعين من جديد . وقلت : « لو أن لدينا ثقافة لصدنا بعض العصافير ... الى ان يستجيب الله لدعائنا . »

قال سليمان بكل ثقة : « غداً ، اذا لم بأثنا طير من السماء ، سنصنع ثقافة لكل منا . »

وقال مراد : « إذا اقتضى الامر ، ذهب واحد منا الى البلدة ينجي بنقافات ... و ... بعض الطعام . »

ولكن سليمان لم يوافق ، قائلاً ان علينا ان نرضى بمشيئة الله ، ونقطع عن العالم مها كانت المصاعب .

غير ان الليل كان اثقل وطأة هذه المرة ، حتى من الليلة السابقة . بقايا العكوب لم تسد لنا جوعاً . وانصرفنا الى التعب ، واعتبرنا حرماننا من الطعام صوماً لمرضاة الله ، وان تكن الظروف قد فرضته علينا فرضاً . وعندما استلقينا على الارض للنوم . بان الوادي المخضوض بضوء القمر كأنه يمجج بالاصوات . وحلمت احلاماً غريبة . كنت اراني راكباً حصلاً أبي ، أجوب به فلولات واسعة ، أشق به صخوراً وكهوفاً ، واعبر مياهاً تتصاعد حولي تريد اغراقني ، ولكني أبقي عائلاً عليها مع حصاني ، وما أن أصل الى الضفة الاخرى حتى الوى عنق الحصان واخوض به المياه عودة من جديد . وفجأة أقضت وقد نسيت صديقي الاثنين ، وبني احساس بأن الله ، لسبب ما ، غاضب علي . كان البرد شديداً ، فاقبلت على بطني ، ووجهي على كفي ، ووجدتني أجهدش بالبكاء ... لماذا يا ربي ، لماذا ، لماذا ؟ ... وجاءني صوت لثاث وغرغرة ، والثقت ، وإذا في مدخل الكهف ذلك الحيوان الاسود الذي رأيناه في الليلة الماضية ، ولكنه بدا أصغر بكثير هذه المرة . ورغم ما اصابني من هلع ، اقتلعت بكل يد حجرأ وقعت عليه واتا في مكاني ، وزحفت نحو الحيوان ، وقذفته

بأول حجر ، فأصابه بين عينيه ، وألحقته بالثاني ، فولى الادبار - دونما اشعال الشمعة - وهو يصيح صيحات رفيعة حادة . وقت والتقطت حجرتين آخرين ، وخرجت وقذفته بها وهو يتلاشى مع صيحاته في عتمة ما قبل الفجر . وعدت الى ركني ، وبعد قليل غرقت في النوم من جديد .

في الصباح ، قبل ان تبدأ مراسيمنا النسكية ، خرج سليمان يتفقد البقعة التي حولنا راجياً ، مؤملاً ، الا انه عاد حائراً خائياً ، بل ومغضباً ... ولكنه استغفر الله ، وتوجهنا نحو هيكلنا البدائي ، وانصرفنا الى الترتيل . وبدا مراد كأن صورته قد فقد رنته الصافية . وقال فيما بعد : « يلا ، لنبحث مرة اخرى عن العكوب . »

ذهبنا الى الكرم وطبخنا ما جمعناه من جذور الأرض ، وأكلنا . وفيما كنا نقفز فوق الجدار الحجري عودة الى الكهف ، صعدنا حين رأينا من بعيد رجلاً على حمار يتهاذى في نزوله بين الصخور . كان يغني أغنية من أغاني التعامرة التي لم تكن نفهم كلماتها بالضبط ، ولكننا نعرف أنغامها الرتيبة ، الناثحة ، الحزينة . ولم يسع مراد إلا أن يطلق حنجرته بنفس النغم . أما سليمان فلم يرق له ما رآه ، وتوجست انا شراً لم أستطع تحليده .

بلغنا كهفنا وراكب الحمار يقرب على مهل . لقد رأنا هو أيضاً ، وجاء متجهاً نحونا ، بتصميم . ثم كفّ عن الغناء ، وهو يضرب عتق دابته ذات اليمين وذات الشمال ، ويلكز جنبهيا بشدة متصاعدة . فأسرع الحمار وهو يتعثر بين الدغل والحجارة .

وقمت عيني على هراوة الرجل الكبيرة المعلقة بساعده ، والخنجر المعقوف المدسوس في حزامه ، حين قال : « السلام عليكم ، يا أولاد ! »

- « وعليكم السلام . الى أين يا عم ؟ »

- « هل بينكم من اسمه سليمان ؟ »

وأجال بصره فينا ، واحداً واحداً .

دهشنا ، ولم نجب . وسأل :

- « وهل بينكم ... ما اسمه ؟ .. ابن مسعود الفرحان ؟ والاسم الثالث نسيته والله ... »

ومن بعيد ، من اتجاه آخر ، رأينا رجلاً ثانياً على حماره ينجه نحونا ...

فقلت له : « وأنت ما اسمك يا عم ؟ »

قال : « أنا ؟ أنا أبو الديب حدان . ألا تعرفون أبو الديب ؟ » وفجأة تغيرت نبرته وقال : « ماذا تفعلون هنا ؟ أتظنون انه ليست في الدنيا حكومة ، أم ماذا ؟ »

قلنا : « حكومة ؟ وما دخل الحكومة فينا ؟ »

قال : « تهربون من الدير ، وتقولون ما دخل الحكومة ؟ بيت لحم قائمة قاعدة عليكم ... يبحثون عنكم في كل مكان ، يا من لا تستحون . لماذا تهربون من الدير ؟ ما الذي فعل لكم ؟ هل آذاكم ؟ هل جوعكم ؟ هل طردكم ؟ يلا ، لموا أغراضكم ، وامشوا معي ! »

فتصدى له سليمان : « يا عمي رح بسيلك . ودعنا نرى وجه ربنا . إذا كنت تريد أغراضنا ، فها هي . كتاب للصلاة ، وشوية عكوب طببخناه اليوم . »

- « عكوب ؟ هاتوا لنشوف . »

وناولته من جيبي بعض العكوب الطري المطبوخ . والتقمه مستطعاً ، وقال : « بس ينقصه ملح . »

وفي هذه الأثناء كان الرجل الثاني قد دنا منا ، فصاح أبو الديب في اتجاهه : « هؤلاء هم ، يا عليان ! يلا ، امشوا معنا ... »

فقال سليمان : « مش ماشي ! »

وقلت : « ولا أنا . »

وقال مراد : « ولا أنا . »

فزجر أبو الديب : « بلا زعبرة . عاملين عصابة يا أولاد الكلب !  
بدكو تتعدوا عالناس ؟ »

قلنا : « جئنا نتعبد لله يا أبو الديب . »

— « بلا عسادة ، بلا زعبرة . يـلاً . لموا أغراضكم . أنت  
يا عليان ، ركّب هذا الولد على حمارك ، وأنا بركّب هذا وهذا ...  
والله اللي يتخفّس بنعل أبو أبوه ... يلا ، قبل ما أشغّل التّبوت على  
رؤوسكم . »

باغت عليّان سليان ورفع به يديه وأركبه على حماره بالقوة، وأركبني  
أبو الديب على حماره . وأركب مراد ورائي ، وهو يقول : « ملّيح  
اللي صاحبكم في الدّير أعطى خبر عنكم ... احنا حسبنا رحتوا ع بيت  
ساحور ؛ وبعدين قلنا لأ ، رحتوا ع دير مار سابا . بس دير مار سابا  
بعيد ، شو بيوصلكم الو . وامبارح واليوم واحنا بندور عليكم ، يا اللي  
ما بتستحوش على شرفكم . »

وأدار سليان رأسه نحوي وقال : « صاحبنا ، قال ، صاحبنا !  
عبد الله اللي وافق ، وبعدين غير فكره ... »

كانت الشقائق تملأ الحلالات التي بدأنا نصعد إليها مكرهين . نظرت  
إلى أبو الديب متفحصاً ، أخن مدى قسوته ، غير أنني جازفت والقيت  
بنفسي على الأرض ، وجعلت أقطف الشقائق الحمراء الطرية ، وأنا أقول  
في نفسي : سأعود إلى الوادي بعد يومين . وإذا هو يضحك ويقول :  
« شو بدك فيه هالختون ، يا ابن مسعود ؟ والله انتو مجانين ،  
انت واصحابك مجانين ، يا ابن مسعود ! »  
ورفعني بقوة ، وأقعدني على الحمار من جديد .

وفاجأني سليان بأن قفز عن حماره ، وهجم عليّ واختطف الشقائق  
من يدي وقذف بها أرضاً ، وهو يقول : « أتريد أن تأخذها للعذراء ،  
وهي التي اهلنتنا ولم تشفع لنا عند الله ليرسل لنا ولو رغيماً من الخبز ؟  
أبدأ ، لن أقبل ! »

هكذا بالقوة أعادونا إلى الدّير . هناك وجدت أمي في الانتظار مع  
بعض أقارب سليان ومراد . وحالما رأني: بادرني بالشّيمة وأضافت :  
« أوعيتني ، الله لا يرضى عليك ! » وهددتني بأنها لن تزورني بعد  
ذلك اليوم في الميّم إذا لم أعدها بالتوبة ، وعدم التهور بمثل هذه الجنونيات .  
ثم جاء أبونا « دون ترتيني » وهددنا بالطرد إذا لم نحسن سلوكنا ،  
وعاقب كلاً منّا بأربع عصي على اليدين وحرماننا لثلاثة أيام من دخول  
الكنيسة للصلاة مع الأولاد الآخرين .

أما الأب سيريديون فقد أضفى إلينا ، وهو يصدّق ولا يصدّق .  
يهزّ رأسه الأشيب ، ثم يندو به من وجوهنا ويقول : « وبعدين ؟  
وبعدين ؟ » ولما انتهينا من روايتنا ، خبّينا أشد الخيبة حين نهض وقال :  
« لا ، لا ، مش معقول ، مش معقول أبداً . »

-٥-

الدكتور طارق رؤوف

يتأمل في برج الجدي



كان وليد مسعود من مواليد برج الجدي . فقد ولد في الخامس عشر من شهر كانون الثاني ، أي انه ولد وبرج الجدي ، كما يقولون ، في صهود . ولو لم يكن له اهتمام ، يصل إلى حد الغيبسات ، بالنجوم وأثرها في حياة الناس ، لما عبثت بأنه من مواليد برج الجدي أو السرطان أو العذراء . والمسألة كلها مسألة شهية للمعرفة ، حتى ما كان منها قديماً وغير مجد ، ووليد كان مبتلى بمثل هذه الشهية . يلتهم التفاصيل ، ويتمتع بالجزئيات ، ويستمد ذهنه غذاء من كل ما تقع عينه عليه . غير أن كونه خاضعاً لبرج الجدي ، أصبح على مر الزمن ذا دلالة خاصة لديه ، إذ يلتفت إليّ فجأة ويقول : « أترى يا طارق ؟ أنا من مواليد برج الجدي . لا حيلة لي بذلك . » كأنه يرى في تلك الحقيقة تبريراً لا يفند لشيء فعله ، أو سيفعله . ولما كنت أنا جاهلاً بأمور التنجيم والأبراج ، لم أكن أفقه بالضبط ما الذي يقصد اليه ، فأقول له ضاحكاً : « وليد ، أنت بكل منطقك ووضوحك الذهني ، تهمل مثل هذه السخافات التي تضمها المجلات في صفحاتها الأخيرة تحت عنوان : « نحتك هذا الأسبوع ؟ » » نحتي هذا الأسبوع ؟ » يقول : « طبعاً لا يهمني هذا الهراء ، أما القوى الخفية التي تتحكم بالإنسان فلإنها هي التي تهمني . وهي التي لن أجد عنها شيئاً في الصفحات الأخيرة من المجلات . »

— « وهل بإمكانك أن تجد هذه القوى ، أو ما يدلك عليها ، في أي مكان ؟ »

— « في النجوم . في كتب الذين استقرأوها . »

— « في الغيبات ! انك تدهشي . »

— « لا تدهش . كسان البابليون ، والمصريون ، والاغريق ، يعرفون أن من يولد تحت برج الجدي مثلاً ، ستتحكم به نوازع داخلية تعطيه بعض صفات الجدي . »

— « يعني ؟ »

— « يعني ، صفات الكيش . أو المعزى ان شئت . »

— « تقصد خفة الحركة ، أم الشهوة الجنسية ؟ »

— « الخفة ، والشهوة ، كليهما . وما يتصل بهما . لا سبب الاقبال العنيف على كل ما هو حسيّ . الرغبة الجائرة . الشبق . اسمع . »  
أخرج كتاباً ، وقلب صفحاته ليستقر على إحداها . « هاك ما كتبه أحد العلماء القدامى ، فيرميكوس . العبارة باللاتينية ، ولكنني سأترجمها لك . »

وجعل يقرأ ، ويترجم : « ان الذين يولدون وبرج الجدي في صعود ، يكون لهم مظهر خداع ، يخفي حقيقة شخصيتهم . وجوههم رصينة ولحاهم طويلة وجباههم عريضة عنيدة . وما ذلك كله إلا زيف وخداع . لأن من طبيعتهم الحقيقية أن يكونوا ماجنين خلعاء ، تفرسهم لواعج الشبق ، وتلتهمهم نيران الحب . وكثيراً ما يقعون ضحية شهواتهم الشريرة فيضطرون إلى قتل أنفسهم ... »

إنها صورة ، ولو كاريكاتورية بعض الشيء ، لوليد مسعود ، مهما يقل عنه الآخرون . وجهه رصين ، ولحية طويلة ( مجازية ) وجبهة عريضة عنيدة . ذكاء ونفاذ بصرية ، واتزان . ولكن ما ذلك كله إلا زيف وخداع ، كما يقول فيرميكوس بدون تحفظ . قناع وقور يحجب وجه ولید مسعود الحقيقي — ولید الماجن ، الخليع الذي افترسته لواعج الشبق ، والتهمت نيران الحب ، ودفعت به في النهاية إلى قتل نفسه .

فوقفة سيارته المهجورة على قارعة الطريق على مسافة من الرطبة لا تقنعني كثيراً في النحو الذي تروى عليه .

وليد انتحر ، مها تدل القرائن على العكس .. كان ولید ، بدنياً ، رجلاً قوياً ، له عضلات لم تهين حتى عندما أدرك الخمسين . كنا نسيح في النادي معاً ، فيدهشي ببناء جسمه المشدود — ولو أن شيئاً من الكرش كان قد أخذ يشوه قوامه . وكثيراً ما الملح إليّ انه « جاء على أبيه » ، الذي كان يحمل على ظهره كيساً من الطحين من فسة المثة كيلوغرام ، ويصعد به طابقين من الدرج ولا يشكو ! كان ولید من أهل الجبال في فلسطين ، وكلهم على ما يبدو فلاحون أقوياء ، يقارعون الأرض ، فتدهم الأرض بصلابتها ومقاومتها . وكان هو يتباهى بذلك . غير أن هذه القوة العضلية لم تكن إلا غلافاً لقوة من ضرب آخر تجوهرت في دخليته . لم أكن أعرف في الأيام الأولى لصداقتنا ما هي بالضبط تلك القوة . حسبها قوته العقلية ، أو عناده الجبلي الذي يجذلك وينفرك في وقت واحد ، كأنه هو الحق دائماً والآخرين على ضلال . غير أنني اكتشفت فيما بعد ، أنها قوته تلك التي كنت أود لو أنني لم اكتشفها ، لولا انه هو الذي نهني إليها : قوته الجنسية . لقد رضي لنفسه بعزيمة الكيش ، وكأنه يقول أنها هبة من الله ، وهو لن يرفض ما وهبه الخالق ! كم امرأة عرف ولید مسعود ؟ ليته أخبرني . ولكنني أعلم من بعض ما حدثني به — رغم انه كان ضئيلاً بالحديث عن علاقاته الغرامية ، ونادراً ما يذكر أسماء النساء اللواتي يتصل بهن — ومن بعض ما حدثني جواد وإبراهيم ، انه كثيراً ما كان على علاقة غرامية بأكثر من امرأة واحدة في آن واحد . أعرف منهن شخصياً على الأقل ثلاث نساء ، كن صريحاتي في « اعجابهن » به . وهناك أخريات لا أعرف إلا أسماءهن ، صحت الشائعات بصدهن أم لم تصح . ولكن لا دخان بلا نار .

إذا أراد الله أن يلعن امرأة ، أنزل بها جنون الشيق . وإذا أراد أن يلعن رجلاً جعله ضحية امرأة مصابة بهذا الجنون . ووليد ، بكل وعيه وصفاء قريحته ، سمح للكيش بالتحكم في غرائزه ، فجعله يتعلق بنسوة من ذلك النوع ، ليصبح الجنون الواحد ، جنوناً مضروباً بمئة . لم أنتبه الى ذلك فيه إلا بعد سنوات من المعرفة واللفة ، ولم أتأكد منه إلا بعد موته أو اختفائه . رسالة معينة واحدة وقعت بيدي ، ففتحت عيني ، واستعدت كل ما أعرفه عنه لأراه في ضوء جديد .

لقد انكرت جنان الثامر أول الأمر أن هذه الرسالة منه ، لأن التوقيع لم يكن واضحاً ، ولكنني كنت أعرف خطه على نحو لا يقبل الشك . ولدي منه أكثر من رسالة . أما هذه الرسالة ، فالكثير من الرسائل لا يدرك المرء خطورتها ، أو معانيها المبطنة ، إلا إذا ألمّ بالظروف المحيطة بها ، ووضعه في مكانها الزمني الصحيح ، في نقطة تلتقي عندها خطوط كثيرة فتبرز على حقيقتها .

كانت جنان صديقة حيمة لامرأة أخرى جميلة ، أنشأ وليد علاقة معها — في نفس الوقت ، أو فيما بعد ، وهو الأرجح . ولعله كان في الوقت نفسه على علاقة بامرأة ثالثة لا أعرف عنها شيئاً ، إذ تبين لي أن علاقاته النسائية كانت تتناقص . كيف استطاع أن يعيش هذه التناقضات كلها ، لو لم يسع إليها سعي المرء نحو حثف مخوم ؟ من الواضح أن إيمانه الغيبي بما « كتبه » عليه برج الجدي ، دعم طريقته في الحياة بتخفيض قيمة الشك والضمير لديه في تصرفاته مع النساء . ومن يدري ، لعل النساء أيضاً كن يقلبن عليه ، لأنهن خفن من أيضاً قيمة الشك والضمير في ما يفعلن ؟ لا ، أنا لا أزعم أن وليد كان ذنباً بين الحملان . قطعاً لا . كان ذنباً بين الذئاب ، نذاً بين الأنداد . انما المهم ، هو انه كان يعرف من هم — أو هن — هؤلاء الأنداد . لا أتصور أن وليد

أغوى يوماً فتاة دون إرادة منها . لم يكن هذا الضرب من الغواية لهمه كثيراً ، بل يخيل إليّ انه كان هو ضحية الغواية في أغلب الأحيان — فيروق له ، ربما ، أن يتعذب بالتيار التي تستعر بين جنبيه ، دون أن تفلح امرأة في إطفائها تماماً .

لقد جازفت وسميت هذا يوماً بعقدة الأم ، التي يقول كارل يونغ انها تبدو في وجهها السلبي في الدون جوانية . وهي عقدة غريبة ، لأنها تحمل أضداداً مهمة . أصحاب الفعل الكبار في التاريخ هم أيضاً في الأغلب عشاق نساء كثيرات . ويبدو أن هذا العشق اللوح يزود أحياناً الوجه الإيجابي من عقدة الأم هذه ، فتبتدئ العقدة في أشكال من الرجولة ، والعزم ، والطموح ، ومحاربة الظلم ، والرغبة في التضحية بالنفس في سبيل الحق لدرجة البطولة . فهذه العقدة اذن التي يتمثل وجهها السلبي بحب امرأة بعد أخرى ، وجهها الإيجابي يتمثل في شهوة في استطلاع أغوار الكون مشفوعة بتلك الروح الثورية التي تكافح لكي تعطي العالم وجهاً جديداً .

كلمات خطيرة ، أوردتها وكلي حذر ، لأنني لا أعرف كم منها ينطبق فعلاً على وليد . ربما لا يهمني أن أعرف ، لأن الاحاطة بوجه واحد من العقدة أمر عسير يجد ذاته ، فكيف الاحاطة بالوجهين . ثم من قال ان المحلل النفسي صائب دائماً ، وأنا أعلم أن فنه لا يخلو من الكهانة والسحر ؟ فلأعد إلى ما أنا واثق من معرفته — بقدر ما يمكن للسان أن يثق بأية معرفة .

الرسالة التي سأدرجها وثيقة نفسية كاشفة ، ولكنها من النوع الذي لا أحسب أحداً يكتب مثله إلا إذا تمرّس طويلاً بالكتابة الأدبية — أي بتلك الكتابة التي يترها صاحبها ستاراً بين دواخله وبين الناس ، رغم ما يدعي الأدباء بأن من شأنهم بما يكتبون أن يرفعوا الستار عن دواخلهم

للتناس . ولكنه مع ذلك ستار شفاف ، ملون ، والأضواء من خلفه تجعل ما تراه العين شديد الإضاءة ، بحيث يخيل إلينا أننا نرى أكثر بكثير مما هو في الواقع أمامنا .

ولكن ثمة نقطة لا أظني أفلحت في حسمها بوجه نهائي : إلى من بالضبط وجه ولید رسالته هذه ؟ جنان بعد أن أنكرت أن الرسالة جاءت بها منه هو ، أنكرت أيضاً أن الرسالة موجهة إليها ، ثم عادت وأدعت أنها « طبعاً » موجهة إليها ، وإلا فكيف تقع رسالة كهذه بين يديها ؟ ولكن لا بد من ذكر الحقائق التي أعرفها . أولاً ، غلاف الرسالة ضائع ، وإلا لعرفنا من العنوان اسم المرأة التي وجهت إليها . ثانياً ، لا تبدأ الرسالة على النحو المألوف ، أي بمخاطبة المرسل إليه بالاسم : مثلاً ، عزيزتي أو حبيبتي فلانة . إنها تبدأ رأساً بالكلام دون ذكر أي اسم . ثالثاً ، هل كانت جنان عشيقة لوليد على النحو الذي تشير إليه الرسالة ؟ يبدو أن الرسالة أقدم عهداً من علاقتها بوليد ، وهي لا تحمل تاريخاً يسعفنا . الذي أرجحه هو أن جنان حصلت على الرسالة من الفتاة التي وجهت إليها بالأصل ، بطريقة ما . أي أنني أظن - ولو أنني لست جازماً - أن الفتاة المعنية ، بعد أن هجرها ولید ، وبعد أن عرفت بعلاقة جنان به ، أعطتها الرسالة ، لغرض ما . وبما أن الرسالة تشير إلى امرأة « أخرى » : تكون جنان ، في رأيي ، المرأة الثالثة ، على الأقل ، يقيم ولید معها علاقة - أي بعد المراتين المذكورتين في الرسالة . ( حتى هذا التسلسل لست واثقاً منه ! ) ولكن لماذا تطلعي جنان على رسالة واحدة يتيمة ، وترفض أن تطلعي على غيرها ؟ ولماذا ادعت أن الرسالة موجهة إليها ، وهي حتماً ليست كذلك ؟ هل حرّمها ولید متعة المراسلة ، فلم يترك لها اعترافاً خطياً بحبه ؟ هذه أسئلة عرضت لي فيها بعهد - وفي الفترة الأخيرة ، حين أردت أن أستجلي غوامض النوازع والدوافع الجنسية التي كانت تفعل في نفس ولید . من المحتمل أن

استنتاجاتي ابتعدت بني عن الحقيقة بدلاً من الدنو منها . فليكن ! ولأعرض الرسالة موضوع الادعاء :

« بلغني رسالتك الآن ، وكادت تحرك في الدموع . لم أقرأ كلمات كهذه منذ زمن بعيد . انك جوهرة . لا أصدق ان امرأة مثلك توجد فعلاً بيننا . تحرك كلماتك عواطفی فتتأبني أحاسيس غريبة ، وأشعر ان كلماتي غدت أخيراً سخيفة وغبية . أعتقد أنني أعلم كيف توصلت الى معرفة حالتي الذهنية ، وأدركت حقيقة ما أردت الإعراف به وخشيت الإفصاح عنه . هل استطعت فعلاً ان تدركي تعقيد ذلك كله من كلماتي الشبّية ، كلماتي التي جاءت تعوزها الرعاية التي تتميز بها كلماتك ؟ ما الذي فعل الحب بنا بما يستطيع أحد ان يفهمه ؟ أن احبك ، أن أستمّر في حبك ، على هذا النحو المستحيل ، المتناقض أصلاً ، وإذا فجأة حب آخر ، وهوس آخر - ولا أستطيع مها حاولت ان أجعل الواحد محل محل الآخر... لا تهمني بالتناقض ، يا حبيبتي ، أرجوك . ولا تهمني بالكذب . فانت الوحيدة ، الوحيدة قطعاً ، التي بوسعها ان تفهم هذا كله في . اني أعانق خيالك . اضاجع صورتك . أفكارك تثيرني ، وتستحني ، تجعلني أغبطك على ذكائك . انني دائماً أتخيل صوتك ، وقفنك ، حتى ثيابك وعريك . انك حقيقة جداً ، والحب في مثل هذه الحالة أمر منطقي لكلينا معاً . وإذا من خلال ذلك كله تنفذ صورة أخرى - غير انها صورة مرئية ، ملموسة ، ولا تناقض بين الصورتين - وهذا ما يقلقني . أي الصورتين أقرب الي « هنا والآن » ، لست أدري . قلت لك مرة ان الخيال والواقع ، بالنسبة إليّ ، متبادلان في أكثر الأحيان . ثم انك ما عدت شيئاً خلقه وهم فتتري مني ( كما حسبت ذات مرة ) : انك حقيقة كالخيز الذي آكل كل يوم . لقد أحسستك من الداخل . واحتويني في كيانك ( أتملّق نفسي بهذا القول ) . واحتوتك في كياني . والآن تحدث هذا الشيء الحديد - هذا الشيء الرائع ، المحير ، الملح . نعم ، كما قلت أنت ، علينا أنا وانت يوماً أن نكتب معاً كتاباً

عن الحب ، كيف أننا عن طريق الفرح نبحث عن العذاب ، وكيف أننا عن طريق العذاب نهلك صاعخين لرب السماء والأرض . إذا لم تفهمي أنت هذا ، فليس هناك من يفهمه . ولكنك تفهمينه . أمر عسير ، معقد . نعم وجيم . مستحيل ، مذهل ، جنوني ، وأحياناً لا يملوه إلا الألم . وها أنا أبدأ بالكتابة من جديد ، مع أنني أعلم أن الكتابة بفعل مؤثر مباشر كهذا لن تنتهي بالضرورة إلى أفضل ما يمكن المرء أن يكتب . ( آه ، ولكن فكري بالقصائد التي يمكن أن يسيل بها القلم الآن لو كنت أكتب شعراً ! ) إن لم أكن قد وضعت كل الضياع ، فأنني أوشك أن أضيع . أشعر أنني أحياء على مستويات عديدة في آن واحد ، وقد تتداعى كلها وتهاوى في أية لحظة . أرجوك ، أجيبي على هذه الرسالة . أتمتع بكل كلمة تقولينها . أتمتع بطرائق حبك الريفية . تقولين أنك لم تغضبي كثيراً للفراق لأنه أضفى على الحب بعداً جديداً له سحر جديد . أما أنا فغاضب جداً . ولكن ما الفائدة ؟ أكتبي ، انصحي ، اعتبي ، وبخي . قولي إنك غضبي ، إنك تكرهيني ، إنك تحبيني ، إنك ستمني . ولكن السنة القادمة ( الأمطار التي أراها من نافذتي لم تنقطع طوال هذه الرسالة ) أملاً حباً ، ودهشة ، وصراعاً عاطفياً ، وتبايل لرب السماء ، من أجل عينيك ، شفتيك ، ذراعيك . من أجل صوتك ، يدك . طرائق حيننا المضادة ، المقاطعة ، من سيفهمها ؟ وكيف أبرر اليوم أيتها الحبيبة حبي الآخر ، لتغفري لي ؟

وليد

لست أدري هل ثمة امرأة تستطيع مقاومة هذا الأسلوب الخطر ، هذا الأسلوب الأشبه بخطة عسكرية تلجأ إلى الحيلة والاستتار المعنوي أولاً ، ثم الالتفاف والضربة القاصمة .

تظاهرت بأنني أصدق ادعاء جنان بأن الرسالة موجهة إليها ، فسألته:

« وهل غفرت له ؟ »

قالت :

« لم أجب على رسالته . »

« وكانت تلك النهاية ؟ »

« تقريباً . »

« ماذا قصدت ، « تقريباً » ؟ »

« رأيته مرتين أو ثلاثاً بعد ذلك . »

« وعرفت من هي الأخرى ؟ »

« تخميناً . »

« من ؟ »

« لن أقول . »

« أين كنت عندما كتب هو إليك هذه الرسالة ؟ »

« في لندن ، حيث ذهبت لأرافق أمي أثناء علاجها ، وبقيت

هناك أشهراً عديدة . »

« وعندما عدت ؟ »

« لم يبق شيء . »

« هل تأملت ؟ »

« ماذا تتصور ؟ »

غير أن الأمر لم يكن بهذه البساطة ، مهما ادعت جنان ، لأنني أعلم أن وليد سافر إلى لندن ، حيث كان على موعد معها ، وحيث عاشا معاً لفترة قصيرة في بيت ريفي خارج لندن ، في « ستري » وأنها طريحة الفراش في أحد مستشفيات لندن . لا أظن أن وليد كتب لها أية رسائل تذكر ، لأنها كانت معاً طيلة الوقت ، سواء عند بدء علاقتها في بغداد ، أو عند ذهابها إلى لندن . ولا أظن أن وليد أحبها بذلك العنف الذي يروق لجنان أن توهما به .

اما الذي اعتقد انه واقع الامر ، فهو أن مستلمة الرسالة الحقيقية هي إحدى صديقات جنان الحميمات ، مريم علي الصفار . وهي أكبر منها ببضع سنوات . امرأة مشوقة الساقين ، تلفت النظر ببياض لونها ، وشفافية بشرتها ، بعينها الخضراوين وشعرها الطويل - وصوتها الغريب . عندها نزعة ادبية ينم عنها حديثها وإن لم تنشر اي كتاب حتى الآن ، فبما أعلم . ويبدو ان وليد كان معجباً بأسلوب رسائلها . كانت مطلقة ، او بالأحرى على وشك الطلاق ، وكان اهتمام وليد مسعود بها امرأ ظاهراً كلما التقينا في منزل الاصدقاء . ولا ادري ان كان لوليد علاقة بطلاقها اصلاً . وانا أعلم انها التحقت بجامعة ساسيكس بانكلترا للدراسة للماجستير بعد طلاقها .

كان ذلك كله في أواسط الستينات . وقد سجلت تاريخ زيارتها لعيادتي أول مرة في بطاقات المرضى التي أحفظ بها . وعدت الى بطاقتها قبل مدة ، لأنعش ذاكرتي ببعض التفاصيل . كانت في الثانية والثلاثين من العمر يومئذ ، وتشكو من أرق دائم ، وصداخ كثيراً ما ينتهي بها الى نوع من الغثيان . لم يكن من الصعب أن أرى أن علاقتها البائسة بزوجها هي السبب ، مضافاً اليه « انجذابها » الى وليد ، كما قالت . إلا انني بعد الزيارات التي توالى بعد طلاقها عدة أحسست بأنها لم تكن مجرد « منجذبة » لرجل تعجب به ، أو تحبه ، بل انها مهووسة به ، وعلى الأخص بطاقته الهائلة على الحب - على الجنس . لست أعلم إن كان وليد يدري انها كانت على علاقة بأكثر من رجل ، الى ان التقت به ، وأخبرت محاول امتلاكه لنفسها بشراة لا تكل ، وفي حوزتها كل ما تتمناه المرأة من أسلحة : جمال الوجه والجسد ، طلاقة اللسان ، ذكاء الجوار ، وذلك الشيق الذي يود كل رجل أن يتصوره في مشوقته ، الى ان يدرك انه لا قبيل له بكل هذا التهالك الجنسي الذي يتجدد عنيفاً كل يوم . غير ان وليد ، إذا صح ما قيل عن مواليد برج الجدي ، كان ولا شك كفوماً لها . ولو انه لم يستطع أن يضع حداً لأرقها ، وصداعها .

ينجبل إليّ أنني أظلم مريم بهذا الكلام . أعدت قراءة ما كتبت عنها هنا ، وإذا هي غير السيدة البارعة ، الناعمة التي أعرف : امرأة لا تأنس لأناتها كثيراً ، ومع ذلك تبدو جميلة وأنيقة . إذا جلست ، بانث كأنها لا تريد منك الانتباه الى جسدها ، بل الى صوتها وكلماتها . ولم يكن كثيراً عليها أن ترفض زوجها ( الذي راققها في أولى زياراتها إلي ، قبل الطلاق ) ، حتى بعد أن تم تعيينه رئيساً لأحدى المؤسسات التي جرى تأميمها أيامئذ ، لأنه كان رجلاً صنعته الوظيفة : شديد الانضباط ، شديد الأصول ، شديد التفاهة . لا أحسبه كان يجد هدفاً في حياته أعظم وأبهى من الكرسي الجلدي الأسود وراء منضدة خشبية ، تحمل تلفوناً أبيض وآخر أسود وتنساب عليها الأوراق دخولاً وخروجاً ، بلغتها الوظيفية الميتة ، وهوامشها الوظيفية الأشد موتاً . ومريم قطعة من جمر ، تتأجج في البيت عاطفة ، وخيلاً ، وتحرقاً للحياة ، يقابلها رجل لا يتمتع إلا بنهرق مؤخرته على مقعد سلطة موهومة ، ازاء كتبة وملاحظين ومدراء يوافقونه لوجهه ، ويخفرون له وراء ظهره . وحالما يخرج الزوج - نسيت اسمه : هشام ؟ هاشم ؟ - تلجأ مريم الى التلفون . لا لتصل بصوتها فقط ، بل بعشاقها . أو ، على الأقل لفترة مهمة ، بوليد مسعود . إحدى ساعات الصباح - التاسعة ، أو العاشرة - كانت ساعة الغزل التلفوني كل يوم . أو الغزل الفعلي ، إذا استطاع وليد أن يترك عمله بحجة ما . يسرع الى بيتها بسيارة أجرة ، وتلقاه بحرارة الجائع الملهف في غلالة النوم . وإذا ما تركها منهكة بلذاة الجنس ، وعاد الى عمله ، خابره أو خابرها ، للتأكيد من جديد على تشبهها بتلك اللذة ... كيف يكون العشق إلا هكذا ؟ محموماً ، مجازفاً ، ضارباً بكل التقاليد عرض الحائط ؟ لماذا يسخط المجتمع على فكرة الحب ؟ لأن الحب يخفز في المجهين كسل الدوافع التي يخشاها المجتمع ، ولا يبقى لرادع قيمة . الروادع ، بالنسبة الى المجتمع ، مهمة

للمفاظ على هيكل العلاقات السليمة بين الناس . ولكن الحب يتجاهلها كلها— وكان المحين في مجاهدة مستمرة لامكانية القتل أو الموت ، وهذه المجاهدة بالطبع تزيد من اللوعة والمتعة ، فيزيد التصميم عليها ، وهكذا يدور المحبون في حلقة مفرغة لا تنتهي .

اني أبدو في ما أقوله هنا وكأنني أدعي العلم بخفايا حياة الآخرين . ولكن ، بعد السنوات الطوال من الملاحظة ، وسماع اعتراضات المرضى ، ولجوء الناس إليّ للمساعدة أو العلاج ، اكتشفت وعلمت الكثير ، واطلعت على نواح من حياة الآخرين كنت قد حدثت بها أو استنتجتها من قبل . كان لمرم مكانة خاصة من نفسي ، لأنني وجدته أنورط شيئاً فشيئاً في تلافيف علاقات لم أحسب أول الأمر أنني مهياً لها . لم أكن أتوقع قط وأنا احاول أن اساعد مريم في مرضها — نوع من المستبريا ، ما من شك — أنني سأجد نفسي أشد إلى شفتيها ، إلى صوتها ، إلى رعبها ، أنا أيضاً . لست أدري ، بعد ان تم طلاقها ، وسافرت إلى الخارج . ثم عادت لتعمل في الجامعة ، لماذا كشفت لي عن علاقتها بوليد . بل انها ذات يوم أتت إلى عيادتي وأخرجت من حقيبتها دفترأ مدرسياً ، ولوحت به أمام عيني : مذكراتها ، يومياتها ، بؤسها ، عذابها — هكذا قالت ، والعطر يفوح من شفتيها . كانت الأسمية حارة ، رغم مكيفة الهواء المادرة بهوائها البارد . أخذتها إلى غرفة الفحص الداخلية ، وأقفلت الباب بتأكيد ظاهر ، وقبلتها وشعرها الطويل في زوينة حول وجهها ووجهي . لم تقاوم . أخرجت نهدبها من البلوز وقبّلت الحلمتين واحدة واحدة . وانبطحت على سرير الفحص ، وإذا هي نثار شهية يطيب الاجتراق بها . وهي تقول ، لا ، نعم ، نعم ، لا — وتكاد تغيب عن الوجود بين ذراعي . وقبل أن تخرج ، تركت الدفتر على منضدتي . بقي الدفتر في مكانه يتحداني ، وممرت ساعتان أو أكثر قبل أن أجرو على لسه . رأيت مرضى عديدين ذلك المساء ، ولم أكن استعجلهم ،

لأنني قلت إنني حالما أفرخ من فحوصهم ، سأبقى وحدي مع الدفتر، ولن أستطيع مقاومة قراءته ، فلأماطل . بعد أن دقت حلاوة جسد صاحبه ، خشيت أن تفارقتي الحلاوة بما قد أجد في كلماتها . ولكنني أخيراً أخذته بين يدي بجرأة اليأس ، وقلّبت أوراقه . لماذا سلّمتني اعترافاتها هذه ؟ ماذا يهمني من تحب ، ومن يحبها ، وأي الليالي قضتها مؤرقة ؟ هل هجرها ولید ، بعد أن تركها زوجها ، فلجأت إلي ، طبيباً لمرضها ، وعشيقاً لجسدها ، وكاهناً لمراسم كواييسا اليومية ؟

ولكن من يعيش بين المرضى ثمانى أو عشر ساعات كل يوم، مصغياً إلى أقاصيص الألم والبؤس والحياة كل ساعة من ساعات عمله ، تنصلب دواخله وتتخذ أحاسيسه . من الصعب أن يدهشني أو يثربني أو يهزني شيء من ذلك بعد عشرين سنة من الممارسة . ومع ذلك ، ففي تلك الأسمية ، وجسدي ما زال حاراً بما امتلكت من جسد مريم ، وجدت أن مشاعري لم تكن مصابة بشلل كلي ، كما كنت جعلت أُنحش ، واذ ما يتكشف لي من خفايا هذه الشقية الرائعة سيقلقي حقاً — ولو دون مرور . هل سلّمت نفسها إلي عن قصد ذلك المساء ؟ أتراها تستدرجني إلى اقتحام بؤسها ؟ نساء كمرم ، حين يغامرن بالجسد ، لا يتكلمن كثيراً عن الحب . ثمة فهن حاجة رهيبية لا يفي بها الحب — هوة فاغرة لا يملأها حتى الطوفان .

« قرأت كتاباً لميكيل اونا مونو ، » كتبت في إحدى الصفحات . « أنا معه في كل كلمة يقوله . » عليّ أن أعترف أنني لم أكن سمعت بهذا الكاتب الاسباني ، وبحثت عنه فيما بعد ، لعلمي أعرف ما الذي اتفقت مريم عليه معه . وعليّ أن أعترف أيضاً أنني ، دون علم منها ، أعطيت الدفتر في الصباح التالي ، إلى كاتب طباعة وطلبت اليه أن ينسخه كله في نسختين — « كوثيقة طبية ، » علّت ذلك لنفسى : « سأكتب

يوماً بحثاً لمجلة الجمعية السيكولوجية البريطانية ، اعتمد فيه على معالجاتي  
للمرم . » واعترف أيضاً أنني عندما أعدت الدفتر إلى صاحبه ، لم أخبرها  
بأنني نسخته بالآلة الكاتبة .

كانت الصفحات مزيجاً مضطرباً من الأسطر المتقطعة ، والرموز ،  
والفقرات الطويلة أحياناً دون أن تنتهي إلى نتيجة معينة . الحروف ترمز  
في الأغلب إلى أسماء رجال ، ولو أن بعضها يرمز إلى أسماء نساء أيضاً .  
ولم يكن عسيراً عليّ أن استنتج أن « م » تشير إلى مسعود - وليد  
مسعود :

« ٩ صباحاً . تلفون م . الذات للذات . »

« م المحنة الرائعة القائلة ٣ ساعات . لا خلاص . »

« كل يوم . صباحاً ، وبعد الظهر . وحتى في الليل ، لو كان  
الليل مؤاتياً . »

« لم يبق لشيء قيمة . اشخص قيمة . لا شيء . لا شيء ولكن م ؟ »  
« الرب الأكبر هو الوحشة ، كما لأونامونو ، حين أفقد الصلة مع  
الأنت ، كما للإنسان البدائي ، الذي يجب أن يخاطب الأنت . الحوار  
مع الله ، مع الحبيب ، مع الوهم - هو الهواء والمساء . ماذا أنا ؟  
ميتورة ، ناقصة ، أبحث عن مكملتي في الأنت . لا أنسى صداعي إلا  
على صوتك . كيف يكون الصوت موسيقى ورعداً وريحاً وفحيحاً وجنة  
وغابات وأدغالاً ، أرى بأذني وشفتي وأحشائي وأطفو على بحار عميقة  
ساكنة فسيحة وتطلع الشمس حراء وصفراء ويترف دماً على التلال وذهباً  
على الأنهار وجسدي ماء ولهب بصوتك ولذتك وشهوكت . ما أربع  
الوحشة إذا انقطع الحوار - معك ، مع الله ، مع الوهم . لا أريد  
ذلك . ولكن لا أستطيع التنفس بدونك . قصص ، زنازنة ، وعصفورة  
لا تغني إلا إذا أحاطت بها جذرائك العالية الصماء ، وجسدي صراخ

كالغناء ، كالموت كالربح كالتيارات الجارفة . أسمع ضحكاً في داخلي  
ولا أستطيع أن أضحك . سأفتح النافذة وأصبح للقيوم الراكضة . »

« كنا نائمين على الأرض في مكتبك : وكانت هناك أيضاً ج و س  
وأمرأة ثالثة لا أعرفها . كلنا تحت البطانيات . أنقلب عليك ، فتستقظ  
ج فتأخذها بين ذراعيك وأسقط على الطرف الآخر . ماء ، كأنني سقطت  
من قارب . وأجرك من يدك ، فتقع مني في الماء . وتغازلني والماء  
يغمرنا وتبتعد ج و س والمرأة الأخرى يراقبنا ويضحكن . وأخرج  
من الغرفة وتركض ورائي وأنا عارية وأنت في بدلة فاخرة . نزل الدرج .  
نزل ولا ينتهي الدرج ، ويقابلنا ع ويبعث بشعري وأقول أنت أفهى  
وتجلس على الأرض و - نيت ، نيت البقية . أناس كثيرون حولنا ،  
ويذك تعصرني ... »

« ٩ صباحاً . حوار حتى العاشرة . ارميت على وجهي وبكيت .  
الملح والمرارة ما زالاً في عيني . »

« نهار ماطر . خرجت ومشيت في المطر الدافق . لم أستطع أن أبتعد  
كثيراً عن الدار . عدت وتلفتت . لا جواب . استحجمت . نمت على  
القنفة وحلمت بـ ه . لا أذكر إلا المطر وهو يحاول أن يخرق جسدي .  
سرحت شعري من جديد . لنقرأ الجرائد - أخبار اليأس والكراهية  
فها عدا قصيدة صغيرة ( كيف تسربت إلى الجريدة ؟ ) . سأخسر كل  
شيء ولن يبقى لي إلا - لا لن يبقى لي شيء . غداً سأمتشي في المطر -  
إذا أمطرت . »

« أمس بعد الظهر نمت فحلمت . وفي الليل حلمت نفس الحلم .  
واليوم بعد الغداء غفوت فجاءني الحلم نفسه . في كل مرة عراك ثم  
مضاجعة . اختجل من التفاصيل . لا أجرؤ ان اكتهبها . لا أريد أن أرى  
هذا الحلم هذه الليلة مرة أخرى ، ربي ارجوك . جسدي مجروح ، مجروح . »



ما هذه الا فقرات متباعدة، ولا تبين على حقيقة اضطرابها وزعزعتها الا حين يقرأ المرء صفحة تلو صفحة من هذا الكلام المتوتر المتراكم لسبعين أو ثمانين صفحة. لم أكن واثقاً كلياً ان الرجل المقصود هو دائماً نفسه، وليد مسعود، بل لم استبعد ان مريم كانت في كتابتها تمازج بين رجلين او ثلاثة يمثلهم دائماً وليد. غير ان الجو كان واحداً، والدوامه هي ابداً ذاتها: شهوة محتدمة لا تنطفئ، لم أعرف كيف استطاعت مريم، أو جرؤت، ان تصفها بهذه الأمانة العجيبة. طبعاً، من الجائز أن بعضها موهوم، ومبالغ فيه. أحلام اليقظة عند البعض أعنف من أحلام النوم بكثرة. والتزعزع المرضية يصعب تحديد اتجاهها أو فرز الحقيقي فيها من الخيالي.

كانت قد مرت مدة طويلة على مراجعة مريم لي لأول مرة، ولكنني في ذلك المساء أحسست بأنني رأيتها على حقيقتها - أو على الأقل، على جزء كبير من حقيقتها. ولم يكن وضع جسدها بين يدي الا فقرة اخرى من فقرات دفترها السري.

في المساء التالي، تَلَقَّيْتُ اليّ، وجاءت الى العيادة في الموعد المصروب.

كانت جميلة، مثيرة، بقميص نيل، وتثورة نيلية قصيرة تكشف عن نصف فخذيها، وجوارب نيلية، تؤكد كلها على نضارة بشرتها وطول ساقها. وما كادت تجلس أمامي حتى وجدني عاجزاً عن البقاء جالساً الى منضدتي، فذهبت اليها وانفضتها واحتويتها بين ذراعي، وقبلتها. ولكن عندما همت باقتيادها الى غرفة الفحص الداخلية، تمتعت: «لا، أرجوك، دكتور طارق. عندي صداع.» قبلتها ثانية قبله طويلة، وقد استيقظت بي رغبة عنيفة، غير انني لم احاول التغلب على مقاومتها. هبطت في كرسيها، وأخرجت من حقبة يدها سيكارة،

فأشعلتها لها، وعدت الى منضدتي.

قلت بلهجة الطبيب: «قرأت الدفتر.»

فأدهشتني إذ أجابت: «هل تريد البقية؟»

«هل من بقية؟»

«ثلاثة دفاتر أخرى.»

«من نفس النوع؟»

«ربما أطلع.»

«لماذا تكتفين أموراً كهذه؟ ألا تخشين انها قد تسيء اليك؟»

«لم يكن لي مناص من الكتابة. انها تعينني على التحمل.»

«هل وقعت هذه الدفاتر يوماً في يد زوجك؟»

«لا أظن. كنت أخفيها بخدر شديد.»

«ولو رآها؟»

«لو رآها؟ لقتلني. كان شديد الغيرة. بشكل جنوني.»

ما ذهبنا الى سهرة، إلا وعدنا وهو يحاسبني في السيارة على مسا قلت

لهذا، وما فعلت لذلك.

«هل ضربك يوماً؟»

«عدة مرات. إذا ثارت به الغيرة كان يبحث في كل زاوية في

البيت، لعله يجد رسالة أو ورقة تثبت له انه على حق، ويضربني.»

«لا شك انك كنت تنقصين اثارة غيرة؟»

فضحكت، وهي تطفئ سيكارتها في المنفضة، وقالت:

«أنت المحلل النفسي. لك أن تقول ذلك.»

«بل كنت تتمتعين بذلك.»

«وفي الصباح التالي أخونته، لأؤكد لنفسني أنه لا يستطيع

التحكّم بي.»

« كنت أود لو أستطيع القول إنني أكرهه الآن . لكنه في عالم آخر . »

« إذن ، تعب أخيراً ؟ »

« لا . ولكن امرأة أخرى جاءت بيننا . »

« متأكدة ؟ »

« نعم . كتب إلي يخبرني بذلك . »

« غريب ! أتعرفونها ؟ »

« لست متأكدة . أظن أنني أعرفها . غير أن ذلك قد مضى . لأن أخرى وربما أخرى ثالثة قد لحقته . »

« أأنت تبالغين ؟ »

« أبدأ . »

كانت في جلستها ، والساق على الساق ، شديدة الاغراء . كانت الجوارب الزرقاء الطويلة التي تشف عن فخذيها ، تجتذب عيني ، رغماً عني ، وتثير فيّ رغبة أكبحها ما استطعت ، لكي أتمكن من الاستمرار بالاستجاب . وفجأة سألتها :

« هل أنت من مواليد برج الجدي ؟ »

« برج الجدي ؟ ماذا تقصد ؟ »

فتناولت مجلة أسبوعية لبنانية كانت على منضدتي ، وبحثت في صفحاتها الأخيرة ، الى أن وقعت على صفحة «حظك هذا الأسبوع» ، وقدمتها لها ، مشيراً الى صورة الجسدي ، حيث كتب التاريخ : من ١٢/٢١ الى ١٩/١ .

وقلت :

« هل ولدت في هذه الفترة ؟ »

« وماذا يعني ذلك ؟ افترض أنني ولدت تحت برج الجدي ؟ »

« مع وليد ؟ »

فهزت رأسها بشكل لم أدر أقصدت به الإيجاب أم السلب ، فكررت السؤال :

« مع وليد ؟ انه في مذكراتك واضح وضح النهار . »

« كنت أتمنى لو اطلعك على الدفاتر الأخرى . »

« وغير وليد ؟ »

« وليد كان كافياً . ورائعاً . كنت اتصور اني أستطيع ان أقضي أيامي كلها ، بساعاتها ، بنهاراتها ولياليها ، على صدره ، ولا اكتفي . »

« وهو ، ألا يكفي ؟ »

« أبدأ . »

« هل كان له علاقة بنساء أخريات في تلك الأيام ؟ »

« غير مهم . أنا التي اعترف لك ، يا دكتور ، أنا المهمة في عملية التشخيص هنا . »

« أرجوك أجبني عن سؤالي : هل كانت له علاقة على الأقل بامرأة أخرى ، في الوقت نفسه ؟ »

« لم يهمني ذلك . كان رائعاً ، لا يتعب . كنت أصرف عنه آلام الدنيا ولو لساعة . وكان هو لي كل شيء . »

« والآخرين ؟ »

« أحياناً فقط . »

« لماذا لم تذكر لي هذه الأمور في زيارتك الأولى ؟ »

« هل كان ذلك عقدي ؟ »

« والآن ؟ »

« انتهى كل شيء - أو تغير كل شيء . أنا الآن امرأة حرة . »

« وهو ؟ »

« ألم يخبرك وليد ؟ »

« لا . على كل في تاريخ ميلادي هو ٢٨ آب . أي برج ذلك ؟ »  
فراجعنا الصفحة معاً ، وإذا بذلك برج العذراء . فضحك مريم ساخرة وقالت :

« أرايت ؟ أنا من برج العذراء . لم أكن أدري . هل يعني ذلك شيئاً معيناً ؟ ماذا تقول المجلة هنا ؟ ( وقرأت ) « حاذري قبل أن تنلمي . أمامك فرصة جديدة . لا تتظاهري بالكبرياء . ستأتيك أخبار مفرحة ولكن يجب أن - « كلام سخيف . »  
وأعادت المجلة اليّ .

غير انني قلت : « الجدي والعذراء ! »

« اسطورة اغريقية ؟ »

« ربما ... غير مهم . »

سمعت جلبة في غرفة الانتظار ، ثم قرع الباب ودخل عليّ الفراءش ليهمس في اذني ان هناك رجلاً يصّرّ على الدخول لأنه يقول انه انتظر مدة طويلة .

فأطفاّت مريم سيكارتها في الحال ، وقالت :

« كالعادة ، أخذت من وقتك أكثر من حصتي . وغرفة انتظارك مليئة بالمرضى »

ثم انتصبت واقفة وقالت : « غريب ، دكتور طارق . أشعر الآن انني أحسن بكثير . »

« راح الصداق ؟ »

« كلياً ! »

وعندما مدت يدها لتصافحني مودعة ، لم أعرف كيف أنظر اليها بالضبط . غير انني قلت ، رغمًا عني :

« متى ستأتين ثانية ؟ »

« سأتلّقن » ، قالت ، وخرجت .

بعد ساعتين أو ثلاث ، إذ كنت عائداً في سيارتي إلى البيت ، خطر لي أن أحيّد عن طريقي قليلاً لأمرّ ببيت وليد . ولما رأيت البيت مضاء والسيارة في الكراج ، توقفت عند البوابة ، وضغطت الجرس .

فتح الباب وليد نفسه ، ولما تبين من الواقف في ضوء المصباح الخارجي ، جاءني مسرعاً ، مرحباً . ودخلنا معاً صالونه الجميل القليل الأثاث ، وهو يقول : « عاش من شافك ! » وأنا أعتذر عن مجيئي دون سابق انذار . واقترح هو أن ننعشى معاً ، إذ كان خادمه فرات في تلك اللحظة يهيئ له طعام العشاء .

وبعد لحظات جاءت زوجة البيرة ، وملأ لي كأساً كبيرة ، دون أن يشرب هو ، لأنه كان قليل الشرب .

لم ألح إلى الموضوع الذي جثت من أجله ، مترقباً فرصة سائحة ، وتناولنا العشاء معاً ، ثم عدنا إلى الصالون ، وجاء خادمه بالقهوة .

وقلت ، متظاهراً بأنني لا أغير الموضوع أهمية خاصة :

« أتدري ، مريم ما زالت تراجعني . »

فلم تبد عليه أية دهشة .

« مريم ؟ أظن أنك تعالجهما منذ زمن طويل . »

« طلاقها لم يخفّف عنها كثيراً . ولا دراستها في الخارج . »

« هناك دائماً امكانية النكسة عند كل مريض . »

« ولكن يظهر أن مريم لم تشف أصلاً لكي تنكس . »

« سيدة فاخرة . ولكنها غير محظوظة . »

وهنسا عزمت على المجاهرة ولو بطرف من الموضوع ، فقلت ، مشعلاً سيكارة :

« وليد ، أنت صديق قديم لها . »

« نعم . »

« وبأمكانك أن تساعدنا . »

« أساعدها ؟ »

« أو بالأحرى ، أن تساعدني أنا ، في علاجها . »

فضحك ، مستبعداً الفكرة بدبلوماسية :

« اتريديني ان اتدخل في امور طبية لا أفهم منها شيئاً ؟ »

« هل كنت تحبها ؟ »

لم يفاجأ بسؤالي ، بل نظر الي ، والضحكة ما زالت عالقة بشفتيه ،

ولم يجب . غير انني بقيت صامتاً بانتظار ما يقول .

« هل قالت هي ذلك ؟ »

« الواقع انها قالت انها كانت تحبك . تحبك جداً . وبشكل غر

معقول . »

« لست ادري ماذا أقول . ان كانت هي تقول ذلك ، وانه

تعاملها ، فلك ان تصدقها ، او لا تصدقها ، وفق ما يتكشف لك من

كلامها . »

« انا اعلم ان مدة طويلة قد انقضت على نهاية العلاقة بينكما .

ولكن يُخَيِّل الي ان أثرها ما زال باقياً في نفسها . »

لم يقل شيئاً اول الامر ، بل ذهب الى البوفيه ، واخرج زجاجة

براندي ، وكأسين ، وصب البراندي ، وقدم لي كأساً ، وقال وهو

يدير الكأس التي بيده ويتنشق عبرها : « رائحة البراندي الجيد تكفي

لأن تسكرك احياناً . »

ثم أخذ رشفة واستطرد : « أصعب ما في الحياة هو ان تعدد علاقاتك

مع اية امرأة ، بينك وبينها ، او بينك وبين نفسك . وأصعب من ذلك ،

.. تتحدث عنها للآخرين . »

« آسف ان كنت اوحيت لك بأنني اتدخل بشؤونك الخاصة . »

« أبداً ، أبداً ، طارح . انا أعرف اهتمامك بمرم - اهتمامك

باستعادة صحتها . انها سيدة رائعة ، ويجب ان تنقذ من آلامها . لينني

كنت استطع ان افعل ذلك . ما الذي اعترفت لك به ؟ ولكن ، المعنرة ،

الطبيب كالكاهن ، ولا يحق لنا ان نسأله عن اسرار الآخرين . »

« دعني أصارحك . بخصوص مريم ، لا أشعر انني افصح سرّاً

بالحديث معك عنها . بالعكس . انني اريد ان اعرف سرها منك انت ،

لعلمي استطع مساعدتها . الا ترى ؟ »

« افترض انني اعرف عنها ما لا تعرفه انت ، او ما ترفض هي

الاعتراف به ، كيف يفيدك لو عرفته أنت ؟ »

« شيء واحد بهمني ، وهو ان اعرف الحقيقة . هل هي فعلاً كما

تدعي ؟ ام انها مجرد غريقة في اوهامها ؟ »

« من منا ليس غريقنا في اوهامه ؟ »

وجرع ما في كأسه ، ثم ازجى الي نظرة شعرت انها مزيج من

سخرية وحزن . ولكنها لم تظل . اذ نهض فجأة وقال : « أنود سماع

آخر اسطوانة اشتريتها ؟ » واتجه نحو كومة من الاسطوانات . « متواليات

الهاريسيكورد لبورسيل . »

فضحكت معتزلاً بأنني تأخرت ، وان سماع الموسيقى يحتاج الى خلوة

البال . وقت ، وهو يقول :

« خلوة البال ؟ انت لا تحتاج الى الموسيقى عندما تكون خالي البال .

ولكن - ويل للتجي من الخلي . »

قلت : « تقصد : ويل للشجي ... »

ورفع غلافاً من الكومة الكثيرة الألوان ، واخرج منه اسطوانة .  
فقلت :

« طيب ، طيب ، وليد . انت لا تريد الحديث عن مريم . ربما في مناسبة أخرى ! »

لم يجب على سؤالي ، كأنه لم يسمعه ، ووضع الاسطوانة على الغرامفون ، ثم انزل الابرة . وانطلقت الموسيقى ، غير انني لم اترث . خرجت ، وكان الموسيقى تودعني . ولم اعرف جديداً منه ذلك المساء . او انني لم اعرف جديداً عن مريم . اما عن وليد ، فاني احسست بأنه دون قصد منه كشف عن ناحية من نفسه لم اكن قد انتبهت لها . لم تكن مراوغته جديدة علي . ومن حق ان يرفض الخوض في الكلام عن امرأة احبها واحبته ، مع اي رجل ، وان يكن صديقاً له . وكلنا غارقون في اوهامنا : هذا ايضاً ليس بالجديد . ولكن ان يكون وليد غارقاً في وهم له ، ويرفع هذا الوهم جداراً بينه وبين الآخرين — هذا ما بدأت اراه فيه . اي وهم بالضبط ؟ لست ادري . كما انني لست ادري بالضبط ما الذي جعلني اشبه في ان علاقة له بأمرأة جديدة تشغله ، او تقلقه ، ربما رغماً عن ارادته . وكان ذلك قبل مقتل ابنه مروان بسنة او حوالي السنة .

ركبت سيارتي ، وشيء أشبه بالفضب يتصاعد في نفسي . ما الذي يهني من اوهامه ، او شواغله ، او أسباب قلقه ؟ كان يوسعه على الأقل ان يدفعني ولو خطوة واحدة الى الامام في بحري . لا ، وليد اليوم غير وليد الامس . وتمنيت لو ان بي الجرأة ، حين اذهب الى البيت ، أن اغافل سميرة ، وأخابر مريم تلفونياً ، لاعلمها بما حدث .

« تبدو مضطرباً ، » قالت سميرة حال وصولي . قلت : « تقصدين ، متعباً . »

— « اين كنت ؟ تأخرت كثيراً ، ولم تتصل بي . »

— « مررت على وليد مسعود ، وتعيشيت معه . »

— « لماذا لم تخبرني بالتلفون ؟ وانا ما زلت بلا عشاء في انتظارك ؟ »

— « آسف ، حبيبي . والاولاد ؟ »

— « تعيشوا واناموا . »

— « حسناً . »

— « طابق ، أرجوك ان تخبرني كلما اردت ان تتأخر . متى

ستعلم ذلك ؟ »

— « لن أتعلم . ربما بعد عشر سنوات اخرى ... »

في الفراش لم استطع النوم . بقي وليد عبثاً يرهقني . وأمست مريم عبثاً آخر يرهقني ، وانا أقلب بين صخرتين . في حوالي الثانية ، نهضت من فراشي ، فأحست سميرة بذلك ، وقالت وهي نصف نائمة : « ما بك ؟ أمتعتك ؟ »

قلت : « لا ، لا . اريد ان اشرب كأساً من الماء » وذهبت فعلاً الى المطبخ وخطر لي ان اتسلل الى المكتبة لأتلفن لمرم . أف ! ما الذي جرى لي ! وعدت الى فراشي ، ووجدت سميرة نائمة .

في الثالثة — في الثالثة بالضبط — ذهبت الى المكتبة حافي القدمين ، دون ان اشعل ضوءاً . كان ضوء الرواق الذي تركه عادة مشعلاً طيلة الليل كافياً لغرضي . غير انني ، للمزيد من الحيلة اغلقت باب المكتبة ، وأزحت الستارة عن النافذة لأرى ، في ما يتسرب من ضوء الشارع الخافت ، ارقام التلفون . وأدرت الرقم . ادهشتني أنني ذكرته بوضوح وسهولة .

سمعت غرغرة التلفون الثنائية وكأنها رعد يهز دماغي . مرتين ، ثلاثاً . اربعاً . واذا صوت مريم يجب بحدري : « هلو ؟ »

- « مريم ؟ »  
 — « من يتكلم ؟ »  
 — « يظهر انك مستيقظة . لم اتوقع ان ترفعي الساعة بهذه السرعة ! »  
 — « من ؟ دكتور طارق ؟ »  
 — « نعم ! »  
 — « أتدري كم الساعة ؟ »  
 — « نعم . لا يخبر في مثل هذه الساعة إلا معنوه مثلي . »  
 — « لم تحب لثانيتين . فقلت : « زعلت ؟ »  
 — « فقلت بصوت صاف ، يكاد يضحك : « لا . ولكنني مندهشة . لماذا تتكلم همساً ؟ هل زوجتك نائمة بقربك ؟ »  
 — « لا . ولكن صوتي مختنق . وأنا مختنق . ذهبت إلى وليد بعد زيارتك لي ، ولكنه رفض أن يحدثني عنك . »  
 — « فشعرت بنبرة من الغضب تخالط صفاء صوتها : « ولماذا تحدثه أنت عني . »  
 — « لأنني معنوه . »  
 — « لسمع . »  
 — « نعم . »  
 — « لا تحدثه عني أبداً . ولا تسأله عني أبداً . »  
 — « طيب . »  
 — « ثم ... لماذا لا تذهب إلى فراشك وتنام ؟ »  
 — « لأنك منعتني عن اغماض عيني . »  
 — « خذ حبة فاليوم . »  
 — « أخذت . »  
 — « خذ حبة أخرى . »  
 — « أخذت . »  
 — « فتأففت ، ولكن بحلاوة مغرية : « اذن تعال إلي . »  
 — « فانتفضت : « الآن ؟ في الثالثة والربع ! »  
 — « نعم . »  
 — « أتقبلين ؟ »  
 — « إن كانت لديك الشجاعة . »  
 — « أتقبلين ؟ »  
 — « ماذا ؟ »  
 — « أحبك . »  
 — « قل لي : هل أنت أيضاً من مواليد برج الجدي ؟ »  
 — « وجاءتني ضحكتها عبر أسلاك التلفون صافية ، رنانة . فقلت : « أنا من مواليد برج النحس . زحل ، عطارد . »  
 — « دكتور ، جعلت تخربط . الأبراج معروفة ، وليس بينها زحل أو عطارد . »  
 — « هل آتي إليك ؟ »  
 — « نعم ، وبسرعة . هل تعلم أين بيتي ؟ »  
 — « في المنصور . ولكن أين بالضبط ؟ »  
 — « بعد ساعة أو ساعتين ، يطلع الفجر ... اسمع . سأنتظرك في سيارتي على رأس الشارع ، عند مدرسة الشموع . أتعرفها ؟ »  
 — « اعتقد .. نعم . »  
 — « لا تتأخر ! »  
 — « وسدت التلفون . »

هل كانت جادة ؟ هل أرادت أن تعبت بي ؟ هل أرادني أن أنصرف كالأبله المأفون ، فأخرج إليها ، مخادعاً زوجتي ، في عز الليل ، ثم لا ألقى أحداً في انتظاري ؟

هب أنها ستنظرنني . هل تقيم وحدها في المنزل ؟ لم أكن أعلم أن كان لها أطفال ، أو خديم يقيمون معها . هل هي على هذه الجرأة اللعينة من أجل تحقيق لذتها ؟ خواطر كنتك لم تمنعني عن ارتداء بنطلوني وحذائي بسرعة البرق ، والقمصنة التي وقعت يدي عليها في الظلام . وخرجت .

وفي أقل من عشر دقائق كنت عند باب مدرسة الشموع . لاسيارة . ولا انسان . شارع كثير الأشجار ، مهجور . حالماً أوقفت السيارة ، سمعت صافرة أحسد الحراس من بعيد . وأجابتها صافرة أخرى . فسقت الى نهاية الشارع ، وانعطفت الى شارع آخر ، ثم عدت الى المدرسة . وإذا بسيارة مقبلة في اتجاهي . والتقت السيارتان ، ضوءاً لفضوء . ثم استدارت السيارة الأخرى ، ولحقت بها .

بعد دقائق ، دخلت السيارة كراجاً ، فتبعتها بسيارتي . ونزلت مريم من سيارتها ، دون أن تقول شيئاً ، واتجهت نحو الباب ، وفتحته بفتاحها . ودخلت ، ثم قالت : « تفضل ! » .

وما ان دخلت ، وقد تملكيني شبق رهيب لهذه المخلوقة العجيبة ، حتى فاجأني خاطر افزعني . ماذا لو أن هناك رجلاً في البيت ؟ ماذا لو ان وليد نفسه ؟ - لا ، مستحيل .

مستحيل ؟

من أعماق إحدى الغرف . سمعت صوت رجل يصيح ، دوغما دهشة ، دوغما عاطفة : « هل جاء طارق ؟ » وكان ذلك صوت وليد . وليد نفسه ، ما من ريب .

وكمن ارتطم بجدار في الظلام ، او ككرة تضرب حائطاً بعنف ، ارتدت الى الوراء ، وفتحت الباب وركضت الى سيارتي ، وأدركت المحرك . لست أدري كيف استطعت ان أعود بالسيارة الى الوراء دون ان أضرب بوابة الكراج ، او الأشجار القريبة منها . وسقت كالمجنون في الطريق الخالي . سقت بسرعة مئة وعشرين كيلومتراً ، وأنا لا أدري الى أين . وجددتني أنعطف الى طرق لا استطع التأكد منها . لأن أضواء الليل تجعل الطرق كلها بالنسبة اليّ متشابهة الى ان طلع الفجر .

هل كان صاحب الصوت حقاً وليد ؟ أم انني توهمت ، وذعرت ؟ لا ، لم يكن القابع في غرفة النوم ، - غرفة النوم ولا شك - الا وليد نفسه . ما الذي فعلت بي هذه الفاجرة ، اللعينة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟

حال دخولي منزلي استقبلتني زوجتي مضطربة متزعجة : « أمريض آخر ؟ »

فقلت : « مات . لماذا يستدعون الطبيب والرجل في نزعه الأخير ، لست أدري . »

- « يبدو عليك الإرهاق . اذهب الى الفراش يا حبيبتي ، ونم ساعة أو ساعتين . »

وقبل ان تسألني سيرة من هو الذي مات ، قلقت بشبابي عني ، واستقبلت عسى فراشي . وعادت هي أيضاً الى فراشها وهي تقول : - « ارجو ، على الأقل ، أن يكون المبلغ الذي دفعوه يساوي هذا التعب كله . »

- « المبلغ ؟ طبعاً . »

في حوالي الثامنة من مساء ذلك اليوم ، خابرتني مريم في العيادة . لا أذكر بالضبط كيف جرى الحديث بيننا لأنني حتى اليوم لا أعرف كيف استطعت أن أبقي الساعة على اذني كل تلك الدقائق الطوال لأصني إليها .

— « ما الذي حدث ؟ »

— « أأنت تسألين ذلك ؟ »

— « لماذا هربت كالمذعور ؟ »

— « لكي لا أجيب الرجل الذي كان في غرفة نومك . »

— « أي رجل ؟ »

— « أي رجل ؟ مريم ، لماذا هذا الكذب ؟ لك أن تكذبي على

نفسك ، وعلى الآخرين . ولكن لماذا تفعلين ذلك بي ؟ »

— « دكتور طارق ، جرحني . أتيتك في آخر الليل مختارة ، وفتحت

لك بيبي ، ثم هربت أنت . »

— « هل بقي وليد حتى الظهر ؟ »

— « وليد ؟ »

— « جعلتني اضحكة لوليد . جررتني من بيبي في الثالثة صباحاً

لتبرهني لوليد انك مسا زلت قادرة على اجتذاب الرجال . ليأتوا إليك

راكضين بعد منتصف الليل . وعلى اجتذاب أصدقائه أيضاً إذا أردت .

أليس كذلك ؟ »

— « واهم ، واهم ، أقسم لك إنك واهم . لم يكن أحد في البيت

عندي ساعة دخولك . »

— « وكيف اتفق أنك أجيت على التلفون بتلك السرعة ؟ لا بد

أنك كنت مستيقظة — مع وليد بالذات : »

— « كنت مستيقظة ، نعم . لأنني ، كما قلت لك ألف مرة ،

مصابة بالأرق . لا أنام أحياناً حتى طلوع الشمس . »

— « أذن من كان ذلك الرجل الذي صاح : هل جاء طارق ؟ »

— « أنت واهم . لم يصح أحد . »

— « هل هذه لعبة أخرى ؟ »

— « أنا آسفة . لن أتصل بك بعد اليوم . »

وسدت التلفون فجأة .

كان حديثنا أطول من هذا بكثير ، غير أن الذي أذكره هو احسامي  
الفضيع بالمهانة ، واحسامي بالخشية من أن أصبح طرفساً في لعبة لا  
استسيغها ، أو لا أقدر عليها ، في حياة هذه المرأة الغريبة . ولكنني  
فيما بعد لم استبعد أنني كنت ربما واهماً ، وانني خفت ، واضطربت ،  
فسمعت صوتاً لم يكن هناك . أو أنها قالت شيئاً ، فخيّل لي أنه صوت  
رجل صادر من أعماق بيتها . ورغم شكّي ذلك ، فأنني قررت ألا أنزلق  
حيث تريدني مريم نفسها أن أنزلق . وشعرت أن عليّ أن أكتشف من  
وليد نفسه ، مهما راوغ ، ان كان هو حقاً هناك في تلك الساعة .  
كيف يميز لنفسه أن يتأمر معها عليّ ، على ذلك النجو المبهين ، المزري ؟  
أدرت قرص التلفون على رقم وليد . جاءني صوت الخادم وقال لي  
ان سيده ليس في البيت . فقلت له : « فرات ، أنا الدكتور طارق .  
تعميت عندكم أمس . »

— « نعم ، دكتور . »

— « أين ذهب الأستاذ وليد بعد خروجي من عندكم البارحة ؟ »

— « والله لا أدري . لأنني ذهبت ونمت . »

— « هل كان في البيت هذا الصباح ؟ »

— « طبعاً . أتريدني أن أقول له شيئاً عندما يجيء ؟ »

— « هل سيتأخر ؟ »

— « غير معلوم . »

— « قل له إنني خابرتة . »

— « طيب ، عمي . في امان الله . »

لم يخابرنني وليد ذلك المساء . ربما لحسن الحظ . ومرت أيام كثيرة



لم يتصل أحدنا بالآخر . وبقيت أول الأمر مزمناً بين أحاسيس المهانه وأحاسيس الغضب ، حتى كادت أخشى اللقاء بوليد ولو عن طريق الصدفة . ولكن يبدو أنني اقنعت نفسي بمرور الأسابيع أنني كنت واهماً ، أو أن الذي سمعت صوته قد يكون شخصاً آخر غير وليد . ولذا عندما دعاني وليد بعد ذلك بعدة أشهر إلى حفلة عشاء في داره ، جعلنا نتعاب ، ونحن — أنا وسيمرة وهو — محاطون بالأصدقاء الآخرين . وكان في الليلة التالية أن كشفت لي سيمرة عن سر من أسرار صديقتها جنان . جاءتني سيمرة بالعشاء ، وكنت قد عدت كالعادة متأخراً ، وجلسنا إلى المائدة بمواجهتي ، وقالت بلهجة من سيتمتع بالتفاصيل اللذيذة التي التي سيدلي بها :

« كل يوم يطلع شيء جديد ! »

قلت : « خير ؟ »

« جنان حدثتني اليوم بأشياء ما كنت أتصورها . »

« يعني ؟ »

« أتدري أنها كانت تحب صديقك وليد ؟ »

« لا ؟ »

« نعم ! كانت بينها علاقة لسنه ، أو لأكثر . والمسكينة تعذبت

كثيراً . من أجل صديقك هذا . وفجأة تخطى عنها . »

« تتحدثين كأنني أنا الموم في ذلك ! »

فضحكت سيمرة ، وقالت : « لكن الناس فعلاً أُلغاز ، ولا يمكنك أن تحزهم . يظهر ان وليد من النوع الذي لا يوفر امرأة إذا اعترضت سيله . »

« لا تبالي . علاقات من هذا النوع عليه ذات طرفين . »

« لا تنكر ان النساء عرضة للاغراء أكثر من الرجال . »

« ولكن النساء أقوى من الرجال على المقاومة . »

« ومن قال انهن أقوى على المقاومة ، ارجوك ؟ هكذا انتم الرجال تريدونهن ! فإذا ضعفت المرأة إزاء الاغراء ، التهمتوها ... » واسترسلت سيمرة في ازجاء الحكم التقليدية ، وفي اتهامي بأني أنا أيضاً ، والله اعلم ، لا اختلف كثيراً عن الآخرين . ولما قلت : « ولماذا علي أن أكون مختلفاً عن الآخرين ، ان كان هذا حكمك التعميمي عليهم جميعاً ؟ »

قالت ، نصف ضاحكة : « والله أذبحك ، ان اكتشفت ان لك علاقة مع امرأة غيري ! » ثم أضافت : « أنشرب قهوة في الطارمة ؟ الليلة بديعة ! »

فقلت : « فكرة مقبولة » ، وقت ، وأحطت كتفيها بذراعي ونحن سائران الى الخارج ، وانا أفكر : يجب أن أتصل بجنان نفسها ، لمعرفة المزيد . أما سيمرة فكانت في حالة تلاطف غزلي ، تسقيني القهوة وبودها لو تسقيني من شفتيها .

هذه كانت في الواقع ، البداية التي أدت بي الى الاطلاع على الرسالة التي زعمت جنان أنها موجهة اليها . فالصدقة القديمة التي كانت تربط بين والدة جنان ووالدتي — لأكثر من ثلاثين سنة ، أقامت بين أورتينا علاقات حميمة لم يفرط أحد منا بها . وقد ساهمت أنا في تطبيب والدة جنان ، ومساعدتها في ذهابها الى لندن للعلاج ، في السنوات الأخيرة . كما ان سيمرة كانت تعتبر جنان من أعز صديقاتها ، وتبدو دائماً كأنها تبحث عن زوج لها . ولم يغب علي ان سيمرة غضبت على جنان لأنها ، أولاً ، لم تخبرها عن حبها لوليد أيام كانت على علاقة به ، وانما جاءت تنبئها بأحزانها بعد أن أصبحت العلاقة قصة تروها لها ، لا فعلاً تنابعه معها ، وثانياً ، لأنها بطيشها في علاقة كتلك ، أو ربما علاقات أخرى كذلك . كانت تضيّع على نفسها فرص الزواج .

عندما تلفت لجنان عصر اليوم اليالي من العيادة ، واقرحت عليها المجيء لزيارتي ، وافقت دونما تردد - بل بشيء من الحرارة - كأنها تبغي التخلص من ألم في دخيلتها بمشاطرته مع أحد يعرف وليد . لم تذكر الشيء الكثير عند مجيئها الأول ، فيها علما أنها ، هي ووليد ، التقيا صدفه في لندن ، حيث كانت هي تُعنى بالدراسة - نزيلة المستشفى - وهو يقوم ببعض من شؤونه المالية - أو هكذا ادعت . غير أنها بعد يومين أو ثلاثة جاءتني بالرسالة التي تحدثت عنها . وجعلت أنا استقريء التفاصيل على طريقي . وفجأة اتضح لي لماذا كانت تلك الرسالة في حوزتها - ولماذا أطلعني عليها .

وليد ، في الرسالة ، يعرف لمريم بحب جديد ، ومن كانت صاحبة هذا الحب إلا جنان نفسها ؟ لا أعلم كيف أتيج لجنان أن تطلع على إحدى الرسائل الموجهة الى صديقتها - ومريم على كل حال لم تكن من النوع المتكلم بحد ، وتجربتي معها ما زالت حية في نفسي ، أعانيتها باستمرار - وعندما أدركت جنان أنها هي المقصودة ، أباحت لنفسها امتلاك الرسالة بطريقة ما . هل كشفت لمريم أنها هي المقصودة بالفعل ؟ محتمل جداً . ومما يكن من أمر ، فأنا لم يكن يهني أن أخترق أسرار جنان ومريم ، ومدى ما بينهما من مكاشفات أو ، ربما ، تعاون . كان هي الحقيقي وليد نفسه : فكلما رجعت نفسي حول ذلك الآن ، وجدت ان وليد أخذ يلج على دواخلي ، وهو غافل عني منهلك في علاقاته المتلاحقة . وما أرادت أن تؤكد علي جنان لي ، من خلال رسالة مريم ، هو ان لوليد علاقة جديدة ، كأنها تترك ان ذلك يهني بوجه خاص . غريب ! هي تتمتع سرّاً بأن وليد اعترف لمريم بأنه يحبها هي ، ثم تستغل الرسالة نفسها ، « الوثيقة نفسها » ، لتتهم وليد بأنه الآن يحب امرأة غيرها ، وتدعي انها تعرف مبن هي ... ومع ذلك فقد رفضت ان تكشف لي عن اسمها .

كدت أضحك من نفسي . كنت أوارب ، وأدور ، وأجعل من هومي بوليد حجة للحديث إلى جنان : لماذا ؟ لأنها تتحدث عن مريم بين الحين والآخر . وكلما ابتعدت عنها بالجديث ، أسقطت بن يديها سؤالاً يعود بها إلى الحديث عن مريم . كنت ما زلت أخترق إلى مريم . بل جعلت أتمنى لو أعود إليها أو تعود هي إلي . ربما غفرت لها تلك الليلة الجارحة التي أخذت تتبدى لي ، يوماً بعد يوم ، كليله من ليالي الرؤى . هل أنا حقاً خرجت في الثالثة صباحاً إلى امرأة تنتظري في سيارتها لتأخذني إلى منزلها ، عشقاً وجنوناً ؟ ( جنان ! حدثني عن مريم ! ) هل كان في اللاوعي مني شهوة في اتباع خطى وليد ، فأهجر مريم لجنان ، ثم أهجر جنان لامرأة ثالثة ؟ فلأضحك من نفسي لوقوعي في مزلق عاطفية كنت أنا الطبيب النفسي أحاول انقاذ مرضاي منها ! لا ، لم تُرني جنان في شيء . صداقتنا العائلية أعرق من أن تتيح لي أي اهتمام جنسي بها . اذن ، فلأعد إلى مريم . ولكن جنان ، بالبرهان الحبيسة في جسدها - أف ... إذا كان وليد من مواليد برج الجدي ، فإني أريد التصرف كأنني أنا أيضاً من مواليد برجه ؟ ( أجل ، لم يقتل وليد إلا ذلك الشبق الذي استحوذ على ذهنه ، أشبه بقوة شيطانية مظلمة جعلت ترحف على إشرافه الفكري ، وتتحط به إلى حيث ينغلق ذهنه أخيراً عن كل شيء ، ويمسي الموت هو النهاية الحتمية الوحيدة . )

كيف لو أنني حاولت الاقتراب يومئذ من جنان ، عاطفياً ، أكثر مما ينبغي ؟ لكنك أفسدت على نفسي صداقتها . وامكان استعادة اهتمام مريم بي . فجنان أعادني إلى مريم ، وهي لا تدري . أنسحت لي لقاءها ، حال عودتها من لبنان بعد ذلك بأيام ، ولا أظن أن مريم أطلعتها على ما كان بينها وبين سابقاً ( ولكن كيف لي أن أتأكد من ذلك ؟ ) . ومما يكن ، فإن مريم لم تكن أقل مني كياسة ودبلوماسية . لم تشر إلى تلك الليلة الجنونية - يا الله ! أشهر كثيرة قد مرت عليها ،

وهي ما زالت طرية في نفسي كأنها ليلة البارحة ! أما غياب مريم فلم يذهبها إلا نضارة . امرأة تعدت أواسط الثلاثين ، لا تفارقها الرؤى الحلمية ، وتكاد لا تفرق بينها وبين الواقع . بعد أن عادت بشهادة الماجستير ثم تعيينها استاذة في الجامعة ، وهي تتحدث عن نشر كتابها الأول ، وشعرها الطويل يسندل على كتفها . ويقع بين الحين والحين ليوارى خديها ، فتدفعه إلى الخلف بحركة من يدها فأشعر كأن طيور الدنيسا ترفرف فوق عيني ، ويشند بي احساس بالذنوب لم أكن أعيره اهتماماً في السابق . لعل سيرة هي السبب ، إذ جعلت تنشر جناحي عطفها على مريم أيضاً . لم أكن أحب لساني وأغض عليه يوم كانت مريم في دارنا مع جماعة من الأصدقاء ، فانتحيت بها جانباً وسألتها هامساً :

« كيف حال وليد ؟ »

فهمست إليّ :

« سأل امرأة أخرى عن ذلك . »

« تقصدين جنان ؟ »

« لا . »

« من اذن ؟ »

فخففت صوتها أكثر من ذي قبل حتى كدت لا أسمعها : « وصال ! »

وحين رأيته لم أفهم ، أعادت :

« وصال ، اخذك الصغرى ! »

وانصرفت بسرعة إلى الآخرين .

أسأل وصال ؟ ومتى كنت أخوض معها في أمور كهذه ؟ من الممكن أنها هي أيضاً ... أم أنها طريقة مريم ، بخلطها الدائم بين الوهم والواقع ، في استفزازي باتجاه لم يكن في حسابي ؟ رفضت المسألة من أصلها . وقررت في تلك اللحظة ألا أشير مرة أخرى أبداً إلى صديقي ، ان كنت

أريد من مريم اهتماماً بي . وليذهب وليد إلى الشيطان .

طبعاً ، تبقى القضية قائمة ، بدلالاتها الكثيرة ، وإهاماتها الأكثر . يوم سمعت باختفاء وليد ، أحسست كأن عنباً كبيراً قد أزيح عن صدري . ارتحت . أخيراً ارتحت ، ولقل مريم ما تشاء . ولقلل الآخرون ماشاؤا . ولكن لماذا أكون ، باستثناء كاظم ، آخر من يرى وليد وبجده ، كأنما عليّ أن أشيعه دون صحبه الآخرين ؟ حتى في الرطوبة أردت أن أسأله عن مريم ، ثم ضبطت نفسي . وكاظم لم ينتبه إلى أنني بعد أن سألت وليد أين سيارته في تلك الظلمة ، قصدت إليها عامداً لكي أرى : هل فيها امرأة تنتظر ؟ هل هي مريم ؟ ولكن لم يكن فيها أحد . فارتمت .

ولم يكن الشريط الذي أسمعتنا إياه عامر عيد الحميد قبل أسابيع إلا ليؤكد لي أن غريمي القديم قد انسحب من الساحة فعلاً ، مها يكن التأويل والتعليل . وخيل إلي أنني أضحك في عبي هذه المرة .

غير أنني لا أغفر لنفسي هذه الشهادة التي أظل أقول إنها لا تليق بي . ومع ذلك لا أستطيع إلا الشعور بضرب من الراحة الغريبة لأن وليد « اختفى » بشكل أو بآخر . أي أنه هزم . أي أنه أخيراً وقع قتيلاً في المعركة الهلالية التي التحمت فيها معه . مريم هي المرأة التي كان عليّ ألا أغفر لها ، لأنها أوقعني ودفعت بي ، أكباد أقول متمرعاً ، إلى حضيض كهذا . يحقر الانسان نفسه ، بل يمتقها أحياناً ، لما ينتابه من مشاعر لا تليق به ولكنه لا يستطيع إلا أن يستسلم لها : هكذا أنا أحياناً ، كلما فكرت بوليد . صديق ، أجل ، ولكن لأقلها صريحة لكي أخرجها من تلايف كياني — عاشق دائماً ، مفترس دائماً لما يشتهي الآخرون ولا يلقون منه إلا الفتات . ومع هذا كله ، كان عليّ أن ألف وأدور حوله ، وأعيد اللف والدوران ، لأعرف القليل القليل من حقيقته .

هل كانت عقدة وليد الدون جوانية أنه في أعماق لا وعيه ، يخشى أن يفقد زجولته ، فراخ يلوح بها في الأسرة : يميناً وشمالاً ، رجل ضالك في حقيقة الأمر ، متروك ، بكثير من المشردين مثله ، لوهم من القوة ، لوهم من الوطن ، لوهم من الانثاء ، يسعى نحوها بعزيمة لا تكبل ، ولا يلقاها إلا بتلويحه في حالات اليأس بهذا الذي يعرض له عن فقدان آخر . من هنا كانت قدرته الشاذة على إقامة العلاقات مع النساء . والنساء في الأغلب ، المقيمت في غربة جسدية داخلية ، حين تنقطع بين خيوط الحياة ، يسحرهن الغريب العابر ، لأنه الطير القادم المهاجر ، انه الرخ الذي يحملهن ، ولو يوماً واحداً ، من وادي الوحشة والكتابة إلى أعالي الجبال المشرفة على رحاب الدنيا ، ومدنها ، ومتاهاتها ، ثم يرحل . انه هذا اليأس ، هذا الحرمان ، هذا الشبق الخفي ، الذي يربط بين المثل والمثل ، ويستغل عبور الغريب الخسارج على كل قاعدة ، وكل وازع ، لأنه لن يبقى طويلاً لكي يحاسبه أحد . وهكذا عبر وليد طيراً مهاجراً ، وفي عبوره ، رماه صياد لا يدري به ، ولعل الصياد لا يدري أيضاً أي طير رمى بناره . والصياد كان محمله وليد نفسه بين جنيبه ، في انتظار اللحظة المؤاتية . فإذا صح رأيي أن وليد قتل نفسه ، تخلصاً من كل تلك التعقيدات التي جعلت تلتف حول كيانه التفاف الحبال ، فقد كان لا بد له من ذلك ، لأنه كان قد مهد للصيد الذي في داخله العدة وهياً له الفرصة مرة بعد مرة . هل كانت مزيم تعرف شيئاً من ذلك ، أو جنان ؟ أو أخني الحمقاء وصال ؟ أخني المسكينة وصال !

- ٦ -

وليد مسعود يكتب الصفحات الأولى

من سيرته الذاتية

منذ أن وعيت كانت المعركة أبداً هي نفسها : بيني وبين نفسي ،  
بيني وبين الآخرين ، بيني وبين العالم . معركة حب اردته لكل شيء ،  
لكل انسان . فاذا أردت تغيير العالم للحب ( يا للغرور ! ) ، وجب  
عليّ أن أغيّر الآخرين ، واذا أردت تغيير الآخرين ، وجب عليّ أن  
أغيّر نفسي .

أردت أن أغيّر العالم على هواي ، وأنا أنظر الى الغادين والرائحين ،  
من على شجرة تطل على الطريق ، وتطلّ من ورائه على الوادي . أردت  
للعالم أن يتغيّر وأنا جاثم بين أغصان شجرة ، آكل منها لوزها الأخضر .  
وأردت لنفسي أن تتغير ، وأنا ربما لم أنخط العاشرة بعد ، فلا أعرف  
كيف عليّ أن أغيّر .

الفقراء يملأون الطرقات والأسواق حركة وصياحاً . ينامون على الارض  
في بيوتهم القديمة المتهاطئة ، يضحكون كالمردة ، ويكون كالمردة ،  
ويتشاجرون كالمردة . يصلون بإيمان ، ونحرجون الى الطرقات والأسواق  
أيام الأعياد مستبشرين متناسين العوز والثياب المرقعة والأمهات الكادحات  
الضاحكات الباكيات . كنت من أجلهم أريد أن أغيّر شيئاً ما عميقاً في  
الأساس من الحياة : تتناهي رعدة داخلية للذة إذ أنجيل العالم يتغير ،  
يتزحزح ، يتلون . ليس كما يغيّره السياسيون ( كما أدركت عندما  
كبرت ) ، بل كما يغيّره الثمردون الذين لم يعرفوا بعبد النظريات  
وتخطيط الانقلابات ، لأن التغيير الذي يتطلعون اليه لا يتصل بمجرد

تغيير النظم ، وصراع الطبقات .

كانت خواطر المتمردين تحتاجني لأعيش طريقة تحقق ما أحس به  
بغير ما وضوح : طريقة من يرفض الشرائع والأعراف التي يجد أنها  
لا تتسجم مع حبه المطلق وحرية المطلقة . الحياة نفسها كانت هي الوسيلة ،  
هي الرؤيا ، هي الطريق . كأن أخل عن كل شيء ، عن كل علاقة ،  
فأسبح كطير مجهول في سموات مجهولة ، وفي تناقض عزلي عن كل  
شيء أكون على صلة مع حبي لكل شيء .

ولم يطل بي الأمر لأدرك ان ذلك سوف يعني العذاب ، والسهر  
عائياً في فلات ملأى بالذئاب والصفور . هل كان هذا هو السبب في  
أن الأنبياء كانوا يسعون الى البراري ، الى الغابات ، الى الكهوف البعيدة ،  
لكيما يحققوا تمردهم على هواهم ، وهناك ، ماذا يفعلون ، اغترعون  
الأحلام ، وغترعون الكلمات ؟ وما نفع الأحلام والكلمات ، وهم منقطعون  
عن الناس ؟ وحتى لو جالجت الكلمات كما تجلجل أجراس الكنائس ،  
ما نفعها إذا لم تملأ مسامع الناس ، وترسلهم سكارى في فجاج الأرض ؟  
غاب المسيح سنين طويلة ، ثم عاد الى الناس ليتحدث عن الحب .  
ولما عاد الى الناس صليبه . لا بد للمتمرد من أن يصلب اذن . ويكون  
انتصاره في صليبه . ولكن هناك السنن الثلاثين التي يبيع الانسان نفسه  
فيها للسنوات الثلاث الأخيرة الفاعلة . ما الذي تعرف عن تلك السنن الثلاثين ؟  
لم يكن لدي ما يهديني نحو غايي ، إلا الحدس ، والحلم ، واليقين الذي  
لا أستطيع أن أنطقه . وكما تطلعت بعيداً الى التلال والوديان ، والجبال  
البنفسجية التي تتماوج وراءها ، أحسست بأنها حية بالبراكين الكامنة فيها ،  
وان بوسعها أن تنفجر بين حين وآخر بحمم لعلها تغير كل شيء ،  
ولكنها لا تفعل ذلك ، متذكراً زلزال عام ١٩٢٧ .

شهدت الزلزال وأنا طفل في السادسة : لقد خضت الأرض كما لو

خضتها ربح وهيبة . كنت جالساً على الأرض مع غربي من الأطفال في  
البحر الصغيرة ، فحسبت أن الريح الهادرة هزت البنيان القديم هزاً  
عظيماً ، ولما انطلق الصبية مذعورين الى الخارج ، انطلقت معهم ورأيت  
الحجارة تنساق كتلاً من أعلى المبنى العتيق المقابل ، وتكون أمام عيني  
في ركام أبيض مريع . واتجهت أبصارنا من الخرابة التي نحن فيها نحو  
كنيسة المهدي نستنجد الله لانقاذنا . وجمعت بعض الكبار يقولون : إن كان  
هذا يوم القيامة فهل سيدفننا الله تحت الأنقاض ليقيمتنا من تحتها مرة  
أخرى ؟

رحلت أركض الى البيت ، فوجدت أمي مع عدد من نساء الحي في  
حوش الجيران ، وأخي الرضيع يسام على ذراعهما ، وفرحان والياس  
ببعين « الحجلة » مع الأولاد الآخرين ، وقد نهض بين الجميع الشيخ سالم  
بفتوة مدهشة . ومال طربوشه العتيق جانباً . كاشفاً عن شعره الأبيض  
الغزير . وفي يده عصاه المعقوفة التي أخذ الآن يلعب بها بخفة ، وعلى  
مقربة منه جلس أبو سميح وأبو صليبا على صندوق خشبي ، والجميع  
يتحاورون بأصوات عالية حول الزلزال ، والشيخ سالم يقول : « يا جماعة ،  
أقول لكم أنها نهاية الدنيا . صدقوني . وأنا أنصحكم ألا تدخلوا البيوت .  
هذه إشارة من السماء وبداية لما حكم الله . ستأتي زلازل أخرى . هذا  
الزلزال صدع البيوت ، وهدم المنازل القديمة فقط . أما الزلازل القادمة  
فسوف تهدم كل شيء ، ولا تبقى حجراً على حجر ، لتمهد الطريق  
للملائكة الذين سيهبطون علينا من السماء وفي أيديهم سيوف من نار .  
سيهبطون أولاً في تلال القدس ، ثم في بيت ساحور ، في حرش الرعاة ،  
ثم ينتشرون في طول البلاد وعرضها ، ليحوّلوا الأرض الى سماء . هذه  
الليلة ستبدأ المعجزات . تطلّعوا الى تلال القدس يا جماعة . اخرجوا الى  
الحواكير ، اذهبوا الى العراء ، انزلوا الى الوديان ، وترقبوا المجيء العظيم . »

فقول له أم سميح : « من أين لك هذا الكلام المخيف . يا شيخ سالم ؟ شوبدها الملائكة فينا ؟ »

فيرفع الشيخ سالم عصاه ، وطرفها المعقوف في يده ، ويشير بها إلى مواقع وهمية في الفضاء وهو يقول : « هذه العلامات أراها - هناك ، وهناك ! الباردة رأيت حلماً ما رأيت مثله في حياتي ، فأفقت وقلت : عونك يا رب ! رأيت أهل البلدة كلهم مجتمعين في ساحة المهدي الفقراء والأغنياء معاً ، ومن منّا ليس فقيراً ، يا رب ؟ رأيتهم مجتمعين يرقصون حلقات ، حلقات ، وينزل عليهم نور هائل من السماء ، وتشتعل من حولهم النيران ... ما معنى هذا الحلم أحلمه على وجه الصبح ، وبعد ساعات بذلك الزلزال البلدة كلها ؟ ها ، ما معناه ، يا امرأة ؟ »

في تلك اللحظة لمحتني أمي ، فأسرعت إليّ واحضتني بذراعها الطليقة إلى جسمها الحار ، وسارت بي في اتجاه بيتنا ، غير أن الشيخ سالم صاح بها من مكانه في وسط الحلبة : « أين أنت رائحة يا نجمة ؟ انتبهي ! لا تدخل مع أطفالك تحت سقف البيت ! » فاستدارت أمي نحوه ، وصاحت به هي أيضاً : « صابرلي نبي ، تأخر زمانك ! خاف من ربك يا أبو أنطون ! »

ألم يكن لله أن يجعل جنة السماء يومئذ ملكاً للأرض ، ملكاً لأمهاتنا المتسربلات بالفساتين الزرقاء والحمراء ، ملكاً لهؤلاء الفلاحين، والاسكافين، والتجارين ، لهؤلاء الذين يبيعون العنب والبندورة وفيهم أنفس الأمراء وكبرياء الملوك ؟ ولكن الرعب كان طاغياً ، وما حسبته حباً جاعاً في الطبيعة تحول إلى غضب منها غير مفهوم . غير انني بقيت على تصوراتي المهمة واحساسني بأن في جبالنا قوى تستطيع تغيير العالم . ولعلني ما أردت تغييره إلا لينسجم مع حاجات أهلي وبلدتي الصغيرة .

رأيت بلدتي إذ أخذت تتحمل ، تتشعب وتمطى وتستيقظ ضمن

سحب بيضاء . رعم دوحها حصصه موى تاريخه ودينه واجتماعيه قدعة . تسير في خطوط متعددة ونقطة . الكثير من الأراضي تمتلكها الكنائس والأديرة ، ولكن ثمة بضعة عائلات تمتلك بعض حبات الزيتون في الوديان المحيطة ، وكروماً هنا وهناك ، لا تدرّ أكثر مما تستهلكه أفراد العائلة في أشهر الصيف . عائلات كهذه تمتلك منازلها الحجرية منذ أزمنة قدعة بداياتها غير واضحة ، تعود إلى أوائل قرون الحكم العثماني الأربعة الطويلة المرهقة ، أو تعود إلى ما هو أقدم من ذلك بكثير .

وكان الملاكون الصغار أنفسهم على حال من الفقر كثيراً ما تدفعهم إلى الهجرة إلى أقطار أمريكا الجنوبية ، ليعملوا في بيع الأقمشة ، يحملونها على أكفاهم ويتجولون بها بين قرية وقرية في أصقاع غربة لا يعرفون لغتها ، إلى أن يستقروا على حال من اليسر ، وتبلغنا أنباءهم «المفرحة» . وكانت الصناعة المحلية المتميزة صناعة الصدف ، تمتنعها عائلات كثيرة . تتعالى أغاني الصنّاع في كل مكان وهم يربعون عسلى أرض المحترف المفتوح على الطريق ، ويصنعون من الأصداغ بأدواتهم البدائية ، وعلى ابقاع أغانيهم القدعة ، مسابح وصلباناً وتماثيل وحلياً دقيقة يترك بها السوّاح منذ أجيال ، لأنهم يأخذونها معهم من أرض الميلاد . وكانت مورداً طيباً لعيش مشكور ، ولكن الشباب جعلوا يرمون برتابته وانغلاقه .

وكان هناك من هم أشد فقراً ، قد يملكون داراً مهدمة وحاكورة أو اثنتين فيها بضعة زيتونات وأشجار رمان ولوز . وكان يليهم نزلان في طريق الفقر فئات لا تملك شيئاً مطلقاً : عائلات كان العهد العثماني بمظالمه الكثيرة ، وفرضه التي التهمت حقوق الأفراد والجماعات معاً ، قد أقتلعتها من أراضيها ودفعها إلى التنقل والهجرة بين أرجاء «الامبراطورية» المريضة ، بحثاً عن مأوى ولقمة عيش . وقد شهدت بيت لحم مجيء الكثيرين من هؤلاء المشردين منذ أواسط القرن التاسع عشر ، يأتيونها من

أصقاع ماردين وديار بكر وطور عابدين ، من قرى شمال العراق . وشمال سورية ، يأتونها من شرقي الأردن — من الكرك وماديه والسلط . وفي بيت لحم ، وأحياناً في القدس ، تشدهم أواصر الفقر والطموح ضمن أطر اجتماعية دينية معينة ، ويعملون في مهن كان المهاجرون بحاجة إلى من يقوم بها في غيابهم : فكانوا يعملون في مقالع الصخر ، ودق الحجارة ، وأعمال البناء . ووصف الطرق ، وتكحيل الجدران ، وسوق العربات ( وبعدها ، في سوق السيارات ) ، والحداة ، والنجارة ، وصنع الأحذية ، والبستنة في الأديرة الكبيرة . كانوا يأتون أميين في الغالب ، معدين دائماً ، ولكن مصممين على أن تكون لأطفالهم مدارس ، فلم يكن هناك طفل لا يذهب إلى مدرسة من نوع ما ، ويتكلمون حول كنائسهم ، فيتبرعون من كنائسهم العسير ما يقوم بأود الكنيسة — يكاد الكاهن في كل منها لا يفهم شيئاً مما يقرأ إلا باعتباره «كلاماً مقدساً» — وما يقوم بأود المعوزين والأرامل والعجزة . نظام اجتماعي مغلق يفي بحاجة أفرادهم ولو كفافاً ، ويمنع عنهم مدد اليد للآخرين .

وكانت البيوت التي يسكنونها — كل عائلة قد تبلغ العشرة بافرادها تقيم في غرفة واحدة — هي البيوت التي هاجر منها أصحابها أو تردت مع الزمن والاهمال ، أو أنها شبه اكواخ اقيمت في الحواكير للدواب أو للنواظير فبا مضى جعلت الجردان فيها اوكاراً لها ، سقوفها من الاحطاب ، وعلى السطح غطيت بتراب وحصى ، وكُست بالدراس . غذاؤهم الزعتر والزيت والزيتون ، والعدس ، وخبز الطابون أو التنور ، يصنعونه احياناً من القمح ، و احياناً من الذروة أو الشعير الذي يشترونه بالاكياس موسياً ، ويطحنونه في طاحونة أبو اسكندر المشهورة . صوت مدختها المتقطع يرتقم السكون المجاور ايقاعاً ، وجعجعتها تجعل الحديد في داخلها صراخاً ، وقد ابيضت وجوه البسوة والعاملين فيها بثار الطحين .

كانت البندورة كثيرة ورخيصة ، وفي الصيف يكاد العنب والبطيخ يكونان في متناول الجميع ، وكذلك البرتقال في الشتاء . اما اللحم ، فكثيرون يشترون عظام البقر والضأن من الجزار بعد أن تُشَفَقَ ، فيبقى شيء من اللحم عالقاً بها ، و احياناً يجازفون بقرشهم القليلة ويشترون الرؤوس والمقادم والكروش ، وقد يشترون في ساعة من التجلي والفرح نصف رطل من لحم الغنم ، ويصب رب الدار كأساً من العرق له ولزوجته ، وربما لاولاده الكبار وهو يقول : « ستين سنة وسبعين يوم ، وما حدا حوش ... » وبينما تطبخ النساء الطعام على نار حطب في الحاكورة ، يضع صاحبنا كفّه على صدغه وخدّه ويبدأ خافتاً : « يا ليل ، يا ليل » ، إلى أن تحمى حنجرته ثم يطلقها في موال يتأبل على ابقاعه ، وليكن ما يكون . لقد ذابت همومه نغماً ، ولو لساعة .

كنت ارى الناس جميلين ، و اشعر بقسوة العالم عليهم ، وهم يقاومون على مهل ، ولا يرضخون . أمشي حافياً ، أتجول مع رفيقي في دنيا اشبه بدنيا أول الخليقة : دنيا اراها مليئة بالاصوات والانغام ، ففسر كقطيع من الغزلان الهائمة من اول « راس فطيس » إلى ساحة المهد ، ومنها تنزل إلى « القناة » الفائضة ابدأ ، المستجيبة ابدأ للصبايا المصايحات المزدحمت حولها ، وقد شمرن اطراف اثوابهن القفصافضة المطرزة عن سيقان كالعاج ، ليملائن التنكات والجراير — ومنها تنحدر إلى الهندازة ، ثم تصعد في الطريق الضيق الذي تنضج منازل الحجرية بحسّ الازمان الغابرة ، وروائح الدواب والجمال ، وتذهب إلى المدبسة في ظل جرسية الالمان المخروطية الشاهقة وتجنح نحو الدهشة الممتدة بيوتها الكبيرة المتناثرة بين تلال الزيتون والصنوبر ، فتستقبلنا الريح بعصف شديد وصغير ... ثم نعود ، وقد نال منا تعب لذيق ، إلى بيوتنا المتلاصقة ، لنأكل خبزاً شهيماً ممسوحاً بالثوم والملح ، وينتظر كل منا عودة ابيه من العمل .



كنا ذات عصر جالسين تحت شجرة بيتنا المظل على الطريق ، بعد تجوال في البلدة من اقصاها إلى اقصاها ، حيناً مرت لوريات محملة بالرجال ، وهم يطلقون الرصاص في الفضاء ، ويصيحون :

« نحن الثوار جيتاكم ، نحن الثوار ! »

فوقفنا نلوح لهم بأيدينا ونهتف معهم : « ديروا الميه عالصفاف ، نحن الثوار ما بتخاف ... »

: وظلنا نكرر الهتاف حتى بحت حناجرنا . وسمعت تلك الليلة من أبي حديثاً عن البراق والمسجد الأقصى والخليل والثوار ، وتصورت العالم يهزه زلزال آخر ، وإذا هو يتصدع وينهار ويبرز من بين الركام عالم متغير جديد ، يبدأ من الافق الشرقي القصي وينتهي ببلال القدس التي تواجه بيتنا ... وبقيت تلك الصورة يوماً بعد يوم تلازمي ، مع تلك الأصوات الهادرة ، وهي تكبر وتكبر وتلف الكون - أو ذلك الجزء الصغير الذي أعرفه منه . وسألت أبي في الصباح الباكر ، وأنا اخرج معه الحصانين من « الياخور » : « يايا ، هل أنت من الثوار ؟ » فضحك في وجهي ، وقال : « إن شاء الله ستكون أنت من الثوار . » وراح بمشط غرة أحد الحصانين ، الذي كان يسميه تحبباً « مهرة وليد » ، ثم أردف : « يايا ، أنا كنت دائماً ثائراً ، منذ أيام السفر برك . ولكن زمانني راح . وجاء زمانكم - أنت ورفاقتك . إنها مشيتة الله . ناولي سطل الماء .. » وتمنيت لو أستطيع أن أركب الحصان وانطلق به في عوالم رائحة لا يعرف أحد عنها شيئاً حتى أبي ، ومعني صبية البلدة كلهم . وقد أصبحوا فجأة رجالاً يتلثمون بالحطة ويايسون العقال ، ويشهرون السيوف في وجه الدنيا . ولكن كان عليّ أن التقط كتابي ودفري ومقلمي ، وأقمحنها بسرعة في كيسي المدرسي ، وانطلق به ركضاً الى المدرسة ، حيث قد أتعلم شيئاً جديداً عن مشيتة الله .

وكنت أصدّم أحياناً بقسوة الآخرين ، فلا أفهم ، ولا يفهمي الآخرون . يوم العيد الكبير ، عيد الفصح ، نزلت الى الشارع لاسياً حذائي الحديد ومعني ثلاث بيضات مسلوقة ملونة ، وأسراب الأطفال مملأون الطرقات ، وقد ارتدوا أجمل ثيابهم ، وأقلها رقماً ، يتبادلون الملبس والبزر والفستق ، ويقامرون مرجحاً على البيض . وجاءني ولد يكبرني قليلاً ، اسمه نصري ( كان أبوه سائق سيارة ، وأبي ما زال يسوق عربة جدتي ) ، وبيده حفنة من البيض الملون ، وقال : « تلعب ؟ » قلت : « ألعب . » وأخذت بيضة حمراء من يده ودققت رأسها برفق على أسناني الأمامية ، لأعرف صلابتها ، ثم دققت عقبها ، بينا هو أخذ بيضة زرقاء من يدي وامتنح صلابتها على النحو نفسه . ولعبنا . ضربت رأس بيضته برأس بيضتي ، فانكسر ، وقلب بيضته ، وضربت عقبها برأس بيضتي ، فانكسر أيضاً ، فربحتها . ثم لعبنا مرة أخرى ، وربحت بيضة أخرى . ثم أخرى . حتى ربحت منه بيضاته الحمر الخمس ، وأنا لا أصدق ما أرى ، وأملأ بها جيوبي واحد يدي . وإذا هو فجأة يمسك بخناتي ويقول : « وليد ! أرجع لي بيضاتي ! »

ولو قالها بشيء من اللطف لكنت ربما أعدتها اليه ، كلها أو بعضها ، لكنني ، رغم تحولي الظاهر ، عنيد عناد أهل الجبال ، إذا جاءني أحد بالتهديد . فقلت : « ربحتها ، وأنت راض . لن أرجعها . »

قال : « والله ان لم ترجعها ، أخنقك ! » فدفعت بيدي الطليقة قبضته عن خناتي بأقصى قوتي ، وفكرت بأننا إذا تعاركنا ، سوف تتحطم البيضات ، وخطر لي أنني إذا استمرت العركة ، سأضغ ما في يدي منها وما في جيبي على الرصيف ، لكي أخمر ، فأبطحه أرضاً . ولكنكس لم يعطيني فرصة للمباطحة . استدار عني مسرعاً قرابة مترين ، وانحنى ليلتقط

حجراً كبيراً بحجم رأسه، وعاد رافعاً الحجر بوجهي وعاط : « أرجعها ! »  
فقطت به : « انزل الحجر ! » ( كنت قد عزمت منذ زمان على ألا  
أثلف بشتيمة مطلقاً ، حتى عندما أحاجم ) . ولم يخطر ببالي لحظة واحدة  
أنه سيستعمل الحجر فعلاً .

ولكنه دنا مني ولطمني به على وجهي لطمه عاتية أوقعني على الأرض  
وأنا أصرخ ، وغامت عيناى بغشاوة كثيفة . وحسبت أنني عيت .

أفتت على جمهور من الصبية والرجال والنساء يرفعونني بين أيديهم .  
ويقولون : « سليمة ، سليمة ان شاء الله ، سليمة ! » ووضعت يدي  
على عيني وإذا الدم من حولها حاراً على يدي : لقد شجَّ عظم الخد في  
الزاوية من عيني اليسرى . سليمة ، والحمد لله ! أما نصري ، فقد  
اختفى . وأخرجت البيضات من جيبى وجعلت أقذفها بالأرض واحدة  
واحدة ، وأنا أتساءل في دخيلي : ما معنى تلك القسوة كلها ، وهل  
لله مشيئة فيها ؟

ويوم هربت من الدير مع سليمان ومراد لتتنسك في كهف في كهوف  
الوادي السحيقة ، بعد ذلك بسنوات . هل كنت إلا مدفوعاً بتلك الرغبة  
الجامحة ، الغامضة ، في الاتصال بشيئة الله لعلي أفهم شيئاً منها ؟ كيف  
كان لنا أن نجعل الآخرين يفهمون نشوتنا الداخلية ومحاولتنا تغيير أنفسنا  
تمهيداً لتغييرهم هم ؟

عندما كبرت ، وجدت أن الكثيرين أرادوا تغيير العالم ، وتغيير  
التاريخ ، وأدركت أن تصوراتي الطفولية كان هناك من جعل لها منطقاً ،  
وهياً لها نظريات وثورات ، وأنا ما زلت مأخوذاً بكلمات المسيح من أن  
المساكين الفقراء سوف يرثون الأرض . ولذا فإن ثوار القرى الفلسطينية  
هم الذين في النهاية سيغفون كل شيء . فلما أرسلت إلى إيطاليا لأدرس  
اللاهوت في دير سانتا ماريا دولوروزا في ميلانو ، حسبت أنني سأجد

هناك المنطق الذي سيرر حلمي الذي لم يتح لي أن أفهمه في الكهف  
بيدي الجمل . وإذا بي أكتشف أن ما أرسلوني لدرسه قد جعلوه  
سبلة لتثيت العالم : لا لتغييره . أردت تغيير الأعماق ، تلك الأعماق  
التي بها سوف يخلق الإنسان بشراً جديداً . وإذا كل ما أراه هو العمل  
بحزن على مسخ السطح ، وردم الأعماق .

هكذا رأيت الجيوش العاوية المحشدة في الساحات ، تراوح بأحذيتها  
الثقيلة ، ثم تدفع دفعاً إلى مصر يدهلي ، ويغضبني . لم يفهم زملائي  
ما الذي يريد هذا الفتى العربي من فلسطين ، يؤمن بثوار الجبال التي  
حاج منها ، ولا يؤمن بخيرش روما الجديدة . انبرى لي أحدهم يوماً  
( ما رلت أذكر اسمه : بيترو برانثي ) وقال بحدة ، ونحن نتمشى في  
الرواف الحجرى المنخفضة الأقواس : « ماذا تعني بهديانك هذا ؟ »  
واستدار نحوي ، وأوقفني عن السير ، ويدي كتابي اللاتيني . « إذا  
كنت تريد للعالم أن يتغير ، كما تدعي ، فساخرط في صفوف هؤلاء  
المحتشدين الصارخين في ساحة الدوومو لأنهم في طريقهم إلى تغيير العالم .  
و ابقى مكانك . تقرأ الكتب في هذا الحوش القديم ، تروح ونجىء بين  
الحدران العتيقة المتآكلة . وانتظر يوم القيامة . تعال حارب الآن ، أو  
اقعد على مؤخرتك في الدير واسكت ! »

قلت له : « ولكن المسيح لم يحارب بأدوات القتل . انظر ما الذي  
استطاع أن يفعل باثني عشر تلميذاً معدماً ، أبرعهم صياد سمك من  
طبريا . في قرنين أو ثلاثة غير العالم . ولكن الامبراطورية الرومانية الهرمة  
عادت فالتهمت النصرانية ، واستوعبتها ، وجمّدت التغيير . » فhez  
رأسه مستهزئاً بمنطقي . فأضفت : « نصبت الامبراطورية المسيح مكان  
قيصر ، وجعلت منه قيصراً أبدياً يحكمون باسمه — وعاد الناس عبيداً من  
جديد لألف سنة أخرى . »

فصاح بي ، وقد تحول استهزاؤه حقاً : « أي تأويل هذا للتاريخ ، وللور الذي لعبته الكنيسة القديمة فيه ؟ أي كتب تقرأ هذه الأيام ؟ أهذا كلام يقوله مريد للرهبنة ، وفي دير كاثوليكي ؟ أنت بحاجة إلى الكثير من الصوم والصلاة - والندامة . » ثم امسك بتلايب جبني السوداء وقد جحظت عيناه : « أتعلم ، أيها المفكر ، أنك تكفر بنعمة من آواك في دير ايطالي ، بعد أن كنت تتسكع جائعاً في قرية فلسطينية ! »

فقلت له بهدوء : « لن نفهم ما أعني . » ولكنه ردّ صائحاً : « بل افهم ، وأكثر ! » وتركني ليخبر بأمرري الأب براماتي ، رئيس الدير .

تلك كانت إحدى لحظات الحسم في حياتي : قررت هجر الدير نهائياً ، مهاجبهني مصاعب العيش ومراراته في بلد غريب دفع إلى حرب لم يخلق لها . قررت الهرب إلى الدنيا .

ولم يكن قراري نتيجة خيبة في ما كنت ادرس وحسب: لقد بات بعد اشهر من الحيرة والقلق امراً لا بد منه إن انا اردت الاخلاص لنفسي ، لوطني ، للعالم . إن أنا اردت الاخلاص لحريتي وحرية الآخرين . إن أنا اردت أن استمر في سعيي نحو ذلك التغيير العميق الذي بات يثيرني ويعذبني لأنني ما زلت قاصراً عن ادراك ابعاده الحقيقية ، وانا في بلد غريب لا استجيب فيه إلى اناسه ومشكلاته ، ولا استجيب فيه إلا للصور والتأثيل والموسيقى ، لأنني اشعر انها جميعاً انما تشير إلى بلدي ، إلى بيت لحم والقدس وطبريا ، إلى فلسطين بسهولها وجبالها وبناتها .

كنت أقرأ كتباً من كل نوع ، علناً وسراً ، كتباً بالعربية والايطالية واللاتينية والانكليزية ، وكتب على هوامشها تعليقات ، أشعر أن عليّ أن احوها يوماً إلى دراسات تعيني في استيضاح اسرار كثيرة غير أسرار الكنيسة السبعة التي تمحنا على التأمل فيها كتب الكلية الاكليريكية . وبقدر

ما كنت اتمتع بالتأمل في المجردات اللاهوتية ، واخذت اتوق إلى الفعل ، إلى الحركة ، إلى الخروج إلى الناس ، إلى مجابهات تتخطى مجابهة الكلمات القديمة .

ثم انني كلما صارحت نفسي ، وأنا اكرر « فعل الندامة » كل يوم ، وجدني عاجزاً عن نكران جسدي كلياً ، وعيني تلتهم وجوه الفتيات في الكنيسة بنهم شرير ، كأنها تريد أن تحتوي في داخلها جلالاً يكون زاداً لمتعني الحبيسة في الأيام والليالي الكثيرة التي لن ارى فيها ، في اروقة الدير ، وجهها لامرأة . لم يكن الاعتراف كافياً لتطهيري من ذلك النهم . وقبل قاربت العشرين من العمر . اذن فلأصدق مع نفسي مرة أخرى : انا لم أصنع للرهبنة ...

وهربت ، هذه المرة إلى الابد .

بعد اسابيع قليلة كنت اعمل في بنكدوى روما ، في روما نفسها . زوجني احد زملائي من طلبة اللاهوت برسالة إلى عمّ له في العاصمة التي عزمت على السفر اليها . « أتعرف العربية إذن ؟ » قال سلفاتورى برونو ، أحد مدراء المصرف ، وهو يتفحصني من اعلى إلى اسفل ، وانا واجف داخل ثيابي الرثة ، وقام إلى خزائنة اضابير أخرج منها اوراقاً فيها كتابات عربية ، وهوامش ايطالية ، دفعها إليّ . « كنا نتعامل مع البلدان العربية قبل الحرب ، كما تعلم . معظمها مغلق دوننا الآن . ولكن لدينا اوراقاً يجب أن نلقيها ، والكثير منها بالعربية . شبايناً كلهم مجنونون ، لسوء الحظ . أعقد أننا نستطيع أن نعينك ... » وبسرعة رائعة ، عيني كاتياً في المصرف عنده ، ولكن براتب بخس .

كان يعمل إلى جانبي في المصرف رجل اعرج ، كثير الكلام ، كثير النكتة ، اسمه كارلو . « ها ها ! اردت أن تكون راهباً وأخفقت ! هل طردوك من الدير ، قل لي بصراحة ؟ هل مددت يدك إلى عجيذة راهبة وطاب لك ما أحسست ! من يترك حياة الراحة ، حياة الشرب والأكل

والكسل في سائنا ماريا دولوروزا إلا عَجَلٌ عربي مثلك ؟ ... وتحول في يومين من عبادة الله إلى عبادة موتن ... »

شيطاناً مموثقاً كان كارلو ، وهو بعيد على مسمعي قوله : « وليدو ! أنا ملاك شظره القدر شطرين . في داخلي تغني الأجواق تراتيل باليستينا ، وفي ظاهري لا يلذ لي إلا هذيان لساني على شفاه النساء . » أبة نساء لهذا الأصلع اللديم ؟

لم يمر على عملي بقره اسبوعان حتى اصطحبني معه في ليلة مظلمة ، وقد بدأ التعيم الذي نشرته الحرب في ربوع اوربا كلها ، إلى دار في زقاق متهاافت قديم ، على مقربة من المكان الذي أقيم فيه قرب المحطة . وأدخلني وراءه في رواق كتيب ، أدى إلى غرفة باهرة الضوء استلقت على مقاعدها خمس نساء أو ست في أوضاع جعلتني ، وأنا أكاد أموت بخجلاً وجبناً ، لا أعرف أين أنظر . أفخاذ ونهود مكشوفة في كل مكان ، وأنا لم أر في حياتي بعد امرأة عارسة . وقال لي : « اختر الفتاة التي تعجبك . » فبرزت رأسي رافضاً ، مضطرباً . وضحكت الفتيات وانصرفن إلى أحاديثهن . الجلال الذي أهواه في الغاديات الرائحات ، أين هو ، يا كارلو ؟ ولكنه كان يعرف إحدى الفتيات ، فذهب إليها ، ونهضت واقتادته إلى غرفتها ، في حين اقتربت مني أخرى ، تريد تهذبة روعي ، وابتسمت ابتسامة مصبوغسة بأحر كثيف تجاوزت تنف منه شفيتها إلى أسنانها الكبيرة ، وقالت : « سيكارة ؟ » .

قلت : « نعم ؟ »

قالت : « سيكارة . أعطني سيكارة . »

قلت : « آسف سينيورينا . أنا لا أدخن . »

فهزت كتفها ، واستدارت ، وأتت بحركة جانبية بأحد ردفها تعبّر عن لامبالاتها بهذا الصبي الذي لا يعرف كيف يتحدث حتى إلى مومس .

وفي تلك اللحظة دخلت فتاة سوداء الشعر ، تلبس « روباً » غير شفاف ، غطى قوامها كله ، فسرت نحوها ، راضياً عنها ، مفكراً : هذه امرأة من نوع آخر حقاً ! وفي الحال أخذت بيدي كأنني طفلاً ، وسارت بي إلى الرواق ، وصعدت الدرج ، وأدخلتني إلى غرفتها . ودون أن يفوه أحدنا بكلمة نزع الروب عن جسدهما العاري بحركة واحدة ، واستلقت على ظهرها في الفراش المنخفض ، وفتحت ساقيها ، ورفعت إليّ ذراعيها ، وقالت : « تفضل ... »

رأيت أنامي جثة ضخمة ، ذات فخذين أبيضين متفرجين عن شق أجرد كأنه شق بقرة . « تفضل ! ، لا ! مستحيل ... وإذا هي تضحك . » سأعلمك كيف . انزع معطفك أولاً . ... » قلت : « لا ، شكراً ، سينيورينا . لا ... » فأشارت إلى ساعة منبهة على الكومودينة القريبة منها ، وقالت : « تستطيع أن تبقى معي لعشر دقائق . عشر دقائق ، يا قلبي ... يا إلهي ! تحرك ! »

لا ، لم يكن ذلك اللحم الأجرد المشطور ما حلمت به . فثلقت حولي لأرى وجهي شاحباً ضامراً في مرآة كبيرة . وقلت : « هل لديك ... مشط ؟ »

فاندھشت . « مشط ؟ وماذا تفعل بالمشط ؟ »

قلت : « لأمشط شعري . »

فنتحت درجاً بالكومودينة وأخرجت مشطاً أزرق كبير الأسنان ، وقالت : « هاك ! » وأخذت المشط ، ومشطت شعري ، وأنا أراها خلفي في المرآة تضع يديها على فخذها الكبيرين . أعدت المشط إليها وتمتعت من بين شفتين جافتين : « شكراً . » واستدرت نحو الباب .

إن كانت هذه هي المرأة ، فلتحرم عليّ النساء ... خرجت ، أتلمس طريقني إلى الدرج ، إلى الرواق ، إلى الخارج . وعند الباب اتكأت على

الجدار ، وقد أصابني غثيان عنيف . أردت أن أقيء ، ولكن معدتي .  
رغم غثيانها ، لم تسعني . وكان عليّ أن أحمل ذلك الغثيان مدة طويلة .  
أي حبّ هذا الذي أحمله للناس ، للنساء ، للأشياء ، للعالم ؟  
أعراسيم كذلك تتكرر كان عليّ أن اغادر الطفولة ، والمراهقة ، كما  
غادرت الدير ، ملتبساً بالقهر ، بالقرف ، بالدهشة للهوة التي لا علم لي  
بها ، الهوة الفاعرة أبداً ، بين دوافعي الطفولية وبين الحقيقة المروّعة ؟  
أي قبح هذا الذي عليّ أن أقتحم كل يوم ، لأؤكد أن رؤيا ذلك ابولد  
الفقر القابع بين أغصان الشجرة المشرقة على الوادي ، وهو يأكل اللوز  
الأخضر ، ما زال لها ما يبررها . وان تغيير العالم للحب ما زال أمراً  
يستحق معاناة الانسان ؟

قال كارلو وقلم الرصاص بين يديه ، منعياً بصلعته البذبة فوق  
المنضدة الخشبية العتيقة : « أنا أعرف مشكلتك ، وليدو . أنت تريد  
مريم العذراء . ولكن مريم العذراء طارت إلى السماء منذ زمان . اسأل  
البابا ... قه قه قه . »

بابتعادي عن حياة التأمل التي علموني أن أعتبرها وحدها حياة الروح .  
أدركت أنني قد « سقطت » أخيراً في عالم الجسد ، عالم الحس .  
عالم الزمن — وهل كان لي إلا أن أحمل في صدري الكثير من  
عبارات القديس أوغسطين ( وهو الذي قضى ثلاث سنوات مهمة من  
حياته في ميلانو قبل يقرّون طويلة ) ، فأرى أحياناً بعض ما اغانيه في  
لغة تلقيتها من كنيه ؟ لقد أدركت أنني في حياتي الآن بدأت « المسيرة  
الطويلة » التي يتحدث عنها في مكان ما ، المسيرة الطويلة في الزمن  
وخلال الزمن ، إذ سقطت روحي عن « الأبدية » في مهاوي « الزمن » ،  
حين سمحت لذلك القلق العميق فيها بالتحكم بي ، فأردت الإقلاع عن  
التأمل المستمر الذي يجعلني جزءاً من أزلية الله ، لشهوتي في تجربة روحي

في عالم الزمن والحقائق الحسية .

فليكن الألم نصيبي بعد اليوم ، وهو نصيب الانسان إذا ما سقط :  
فالسقوط إلى الزمن انما هو الدخول إلى دنيا الفعل .

ولكنني كنت ، وأنا أمشي في طرقات روما القريبة ، أو جالساً على  
الحجارة عند فونتانا أيسيدرا الذي كان على مسيرة عشر دقائق من غرفتي  
البالية ، أتمنى عندما يتحقق لي الفعل ( في وطني ! في وطني ! كنت  
أقول ) ، ان أجد بينه وبين التأمل وشائج فكر أعرف أن أوغسطين  
نفسه كان سيري فيها انقاداً لي من السقوط .

مريم الصفار تتعلق بصخرة تسكن اعماقها

أين يقع رجل كامر ناجي عبد الحميد من بنية المجتمع في مدينة كينغداد ؟ في كل مدينة من مدن الغرب الكبيرة هناك دائماً ثلاثة رجال أو أربعة من طرازه ، يتنافسون فيما بينهم كمراكز جذب لذوي الشهرة ، والجمال ، والشخصية الفذة . قد تكون لهم أسماء ارستقراطية وقد لا تكون ، ولكن لهم قصوراً ارستقراطية أو ما يشبهها ، لم تزرعها نظريات وأساليب المساواة الاجتماعية المزعومة . ولكلهم دائماً ثروة تنفق بغير حساب . في بيوتاتهم تقام الحفلات اللألاء ، واللقاءات التي لا تعرف الصحف شيئاً عنها ، وهي التي تغذي أساطير المجتمع وشائعاته بأمتع ما فيها : ابداعات ، وغراميات ، وفصائح ، وأفكار تتبلور في اتجاهات ومدارس وتقليعات لا يكون الفن بمنجى منها ، ولا الأدب ، ولا السياسة . رجال كهؤلاء ، مع زوجاتهم وعشيقاتهم ، مع أصدقائهم وأعدائهم ، قد يلومون عقداً من السنين ، أو عقدين ، ثم يتلاشون أمام الزخوف المستمرة من كسل صوب ، ويصبحون مجرد أسماء ، ومراجع ، وتواريخ . أو لعلمهم لا يصبحون شيئاً يتعدى ذكريات أناس قلائل ارتفعت بهم الأيام ثم انخفضت ، والتهمهم الزمن فيما التهم .

عامر ناجي عبد الحميد واحد من هؤلاء - بل انه في بغداد يكساد يكون وحيداً في مجتمع خاص لا يشبهه في كيانه شيء في الكيانات المجتمعية المحيطة به . فهو ليس بظاهرة ، بقدر ما هو شيء من عالم آخر أو ،

ربما ، من عصر آخر . فيغداد ، في تاريخها العريق ، عرفت كسل شيء عرفته حضارات اليوم . ولعل عامر ، إن لم يكن مستعاراً من باريس أو لندن ، فهو مستعار من ماضي مدينته هو ، مدينته التي كانت قبل أكثر من ألف سنة حاضرة الدنيا في كل ما يفعله الانسان أو يفكر فيه . في وسط دسائس الحكم ، وتمردات الجند ، وصراعات أهل الدين ، كان هناك من يسمع في حجراته أروع الشعر ، أروع الموسيقى ، أروع الجدل : كان هناك من يلتزم على مادبته الملائكة والشياطين ، المؤمنون والزنادقة ، الموالون والثائرون ، على أن يتصفوا جميعاً بما يعجز أن يتصف به الآخرون من فتنه ، أو ألعينة ، أو لسان .

يقال هذا القول في عامر إذ يرى من الخارج ، ويوضع في منظور لا يابه له هو في الأرجح . فعامر اليوم يكاد يفرغ من النظر الى الوراء : انه لا يعود ببصره الى طفولته ، الى صباه ، الى سني دراسته ، إلا إذا ألحت عليه ذكريات تؤلمه ، ويرفض أن يرى فيها أي جمال . ولهذا يرفض النظر الى الماضي ، الى تاريخ أمته . قد يرى التاريخ كله يبدأ بجذده وهو يناهض العثمانيين عشوائياً في أواخر القرن الماضي ، ويتنامى التاريخ بالاحتلال البريطاني للعراق إذ يبرز أبوه محارباً وطنياً يشعر أن كل معركة يكسبها ضد الحكام ، بدخوله السجن أو بالأقامة الجبرية في بيته ، تدنو بالبلد من يوم تحرير يحلم به على غراره الخاص ، ولا يتحقق الحلم . وعامر يحس : منذ تحطى الأربعين ، بشأن حتى تاريخه القريب انفصل عنه ، بفجاءة لا يهتّم أن يعلّلها ، والتحق بالتواريخ الماضية التي غدت لديه أشبه بغرف كبيرة ملاءى براكيات يخشى رؤيتها : فيقفل الغرف ، ويضع المفاتيح في مجرة ذهني عميق مليء ، بدوره ، بمفاتيح من كل نوع وحجم .

عامر يعيش لحاضره ، لحاضره فقط . لهذه اللحظة بالذات ، العابرة

سريعاً كسحابة صيف في سماء بغداد . وبغداد تعني له داره ( التي ورثها عن أبيه ، وجدّها ) وحديقته القسيحة ، ومكتبته الزاخرة بالكتب الأجنبية - فهو ، على عكس أبيه ، يكاد لا يقرأ شيئاً بالعربية ، اللهم إلا ما يكتبه بعض أصدقائه ، كوكيلد مسعود ، مثلاً . وفي السنوات الأخيرة ، إذا أراد قراءة كتاب بالانكليزية ، فإنه يدفع بالكتاب إلى زوجته آن لتقرأه وتعطيه خلاصته ، وتؤشر له بعض الفقرات التي تهتمه على قراءتها . بغداد تعني له مائدته العامرة ، ومطبخه العصري المزود بمؤن تكفي حياً بكامله في سنة مجاعة ، ومجموعة خموره الفرنسية والألمانية ، وأنواع الويسكي الاسكتلندي والياباني ، وضروب الأجبان الفرنسية والانكليزية والسويسرية والدانمركية .

مستقبلي لا ينظرته إلى الفن ، والعلم ، والعمران فحسب ، بل إلى الحياة كما يتصور أن على المرء أن يعيشها . وهذه المستقبلية ، على حد قوله ، هي التي خلقت تلك الأواصر الغامضة التي ربطت بينه وبين وليد مسعود سنين طويلة . غير أن هذه الأواصر نفسها تدهش أصدقاء الرجلين : فهما ، في الظاهر ، تقضيان في الكثير من الامور - ولكنها أثبتا على مر الأيام أنها يتمان كلاهما الآخر ، كالفطين المتضادين ، حتى في شخصيتهما . فوليد يميل إلى طلاقة اللسان ، يتلذذ بالألفاظ ، عريضة كانت أم انكليزية ، تلذذاً واضحاً . ولقاءاته مع أصحابه ، إذا كانت الأسمية متجلية ، هي لقاءات تتطايّر فيها الكلمات وما تحمل من صور وأفكار نظائر الألعاب النارية . في حين أن عامر أميل إلى الصمت يبحث عن الألفاظ بحثاً إذا قال شيئاً ، ويشعر بأنسه لم يجد بعد الكلمات التي تعني فكرته حقها . ولكنه إذا نطق قال أشياء تصدم ، تذهل ، تغضب ، أو تضحك جداً . ووليد ، بالنسبة اليه ، يفك له عقده اللغظية ، ويطلق لسانه كالحصان الجامح بين أفكار كالغابات الكثيفة . ووليد يتمتع بذلك :



انه يجد في عامر مبرراً للجموح والهوج الفكري ، ويسعفه ذلك في مغامراته اللفظية .

وهو لا يدعش حين يخبره عامر انه فتح عينيه ، فكرياً ، أول ما فتحها ، على الكتابات الشيوعية . كان لأبيه الاشتراكي النزعة أصدقاء شيوعيون يغدون عامر سراً بالكتب والنشرات الماركسية ، ويوم ذهب عامر إلى لندن للدراسة في « مدرسة لندن للاقتصاد » ، كان فرحه الكبير هو في استطاعته مطالعة الكتب الماركسية بكامل حريته ، وحضور المحاضرات التي يلقيها أساتذة بارعون يفتنونهم بسحرهم الفكري . وعاد إلى بغداد في مطلع الخمسينات مشحوناً بذلك كله . ولكن بضع سنوات كانت كافية لزعزعة عقائده القديمة . شيئاً فشيئاً أخذ يدرك انه ، في قرارة نفسه ، لا يؤمن فعلاً بشيء . ذكاؤه المفرط دفعه إلى رؤية التناقضات ، لا في أفكاره فحسب ، بل في أفكار الذين يلتقي بهم . وهذا أدى به إلى محاولة التوفيق بين تناقضاته الداخلية الكثيرة ، وإذا هو يجد أن القضية التي يبقى التناقض قائماً في دلالاتها ، هي قضية يجب أن تهمل ، وأن حياته الآن تتسع لنواح وضروب من المعرفة قد لا تنتهي إلى حل مشكلات المجتمع ، وتغيير التاريخ ، ولكنها تعطيه منعة حيوية نابضة . بدأ جماهيرياً ، وبروليتارياً ، ككثير من أبناء الطبقة المرفهة الذين فتحو أعينهم المدللة على ما حولهم من فقر فذهلوا لما رأوا ، وانتهى إلى الإيمان بشيء واحد : التكنولوجيا .

كان ايمان وليد مسعود بالانسان ، الذي يستشفه عامر من آرائه وأقواله ، يضحكه أحياناً فيقول : « الإيمان بالانسان ، إذا جسده ، وضربته مثلاً في ألف ، أصبح إيماناً بالناس . والناس هم هؤلاء الذين يتراكضون ، ويتصايحون ، ويقررون اليوم وينسون غداً ، ويرفضون أن يغيروا — إلا بالقوة . وإذا تغيروا بالقوة قليلاً ، عادوا مرة أخرى

يتراكضون ، ويتصايحون ، يقررون وينسون ، ويبحثون عن يسلمون له رقابهم لكي يضع عليها نيراً جديداً ، من هذا النوع أو ذلك . »

فيقول وليد : « أنت تفكر بالتغيير بموجب قوة تفرض من فوق . انه تغيير من عبودية الى عبودية . أما أنا فأفكر بالتغيير بقوة تنبثق من الداخل . من عبودية الى حرية . من داخل الانسان ، يا عامر . كالقوة التي تحسها أنت في دمك ، في أحشائك ، وتجعلك أقوى من كل من يحاول وضع اليد على رقبتك . »

— « هذه القوة التي في داخلي لن أستطيع أن أهبط أحداً ، ومن العبث ان أحاول . كنت أخفظ مقاطع كاملة من « داس كابتال » فيها مضى ، بحثاً عن التغيير ، مهما يكن مصدر القوة المغير . ولكنني الآن لا يهمني أن أذكر كلمة واحدة من ذلك كله . لا يهمني أن أغير العالم ، عالم الناس . الكمبيوتر سيفعل ذلك عوضاً عني . »

— « ولكنك بتعلقك بالكمبيوتر واستعماله ، إنما أنت تغير العالم ، بمشيتك . أما الى أفضل أو الى أسوأ ، فمسألة أخرى . »

— « النتيجة الحاصلة تقررها المادة الخاضعة للعملية ... مع ذلك ، لا أظنني أريد أن أغير العالم . ماذا تقولين يا مريم ؟ هل تريدن أنت أو هشام تغيير العالم ؟ » ويقدم لي صندوق الشوكولاته الفاخرة لأخذ قطعة منها .

فأقول ، وأنا أخرج الحلوى من ورقتها المذهبة : « أنا لا أفكر بكلايش العظام . تغيير العالم أو تغيير التاريخ — كلايش كبيرة أسمعاها كل يوم ولا أعرف معانيها بالضبط . »

وينيري ابراهيم الحاج نوفل قائلاً : « تسمعينها كل يوم ، ولا تعرفين ، كما لا أعرف أنا ، من يؤمن بها إيماناً يضع تفكيره كله ، ونشاطه الحياتي كله ، في اطارها . عكركه وحجايته حكمة — وتبقى الحكاية ،

مها كبرت ، مجرد حكاية .

ولكن وليد يفاجئ ابراهيم بقوله : « لا يحدعتك عامر ، يا ابراهيم .  
انه ، رغم كل تنصله ، يسعى ليل نهار لجعل الكليشه حقيقة واقعة . »  
ويتناول بضع فستقات من الصحن الخشبي المحفور ، ويقشرها وبلتقمها  
واحدة واحدة ويقول :

— « عامر ، في زاوية مظلمة من نفسك ، هذه الكثيرة الزوايا  
والظلمات ، أنا واثق من انك تحتفظ بأمل عزيز عليك ، كجوهرة أودعته  
في مصرف فاطمأننت الى وجودها دائماً هناك ، مها تجاهلت أو سخرت .  
هذا الأمل هو أن شيئاً ما جعل فعلاً يتغير في المدينة ، في المجتمع ،  
في الناس ، بتأثير نظرياتك الأسلوبية ، والمباني التي أقيمت بموجبها .  
مكتبك الذي يخطط بمساعدة الكمبيوتر الطرق والمعابر والمسكن الناشئة  
على سلطان الخليج كلها ، آلة هائلة للأشكال ، وأنت تعرف ذلك .  
لا يهمل أن تغير العالم ؟ لا بأس . ولكنك تعلم ان الأشكال إذا تغيرت ،  
تغيرت مضامينها ، كما تغير المضامين الأشكال بالضبط . ولذا فإنك  
تتمنى سراً ، وأنت تعمل على تغير الأشكال والصلات المادية التي فيما بينها  
في محيطك هذا ، ان يتبدل في النهاية أيضاً شيء ما وراءها ، لكيابتر ،  
ولو بنفسك على الأقل ، خروجه على الناس في حياتك ، وفلسفة  
رؤيتك . وبين يوم وآخر تذهب الى قبر المصرف ، وتفتح خزنتك  
الغولاذية الصغيرة ، لتتأكد من ان جوهرك موجودة في مكانها ... »

ويشع وجه عامر انبساطاً لهذا القول ، « اذن أنا لست وحشاً أنانياً ،  
كما أتصورني أحياناً ؟ » ويطلق ضحكة عالية في فضاء المدينة ، ويجعل  
نظرة مرحة في وجوه الجالسين « بلسانه هذا ، يسيطر وليد على كل من  
يتعامل معه ، من دُبِّي الى لندن . يستخرج الماسة من كومة الفحم  
التي في صدورهم ! ، ثم يعود الى لهجة الجلد من جديد — مع انه

لا يستطيع أن يحجب نغمة المزح قليلاً في صوته حتى عندما يجذ : « في  
الواقع أنا تهني عملية الشيء أكثر مما تهني النتيجة النهائية . أنا أعجب  
بالارتجال البارع الذي يؤدي الى ارتجال أبرع وهكذا . عملية الشيء فن  
— كالرسم ، أو الشعر : تبدأ بشيء من الوحي ، بشيء من الجنون ،  
وتنتهي الى حيث ينظر الآخرون ، فيأخذهم العجب . »

فأقول : « التغيير لديك تجربة جمالية . »

ويقول زوجي : « وما دخل الجمال ؟ أنا لا أفهم . » فاضطر الى  
ان اقول له جانبياً : « أنت دائماً لا تفهم يا هشام . »

ويقول وليد : « هناك أقوام بدائية إذا سألتها ، لماذا تعمل ، أجابت  
نعمل لكي نرقص ... أي لكي نفعل حسباً ، وجالياً ، وجماعياً .  
انه تغير من نوع ما ، ولو لساعة . »

ويأخذ ابراهيم جرعة من كأسه : « ولكن هذا التغيير — هل يؤدي  
الى الثورة ؟ » ومن حيث لا يدري أحد ، يأتي بقول غير متوقع :  
« يقول لينين : عندما تجد الطبقات السفلى انها لا تريد الطريقة القديمة ،  
وعندما تجد الطبقات العليا انها لا تستطيع الاستمرار في طريقتها ، عندئذ  
فقط ، تنجح الثورة . »

وتصم جنان يدها لتطلقها عالياً كعصفورين مخلقين وتقول : « ويتغير  
العالم برمشة عين يا ويلي ! »

وهكذا يسترسل الحديث في ليلة حارة من ليالي الصيف إلى ساعة  
متأخرة ، في الحديقة الكبيرة الهافتة بالنسبات ، والماء يثرثر على مهل من  
عدة نوافير منتشرة حولنا ، مع الكونيك ، والجميلات ( من زوجات  
وغيرهن ) ، وموسيقى الباروك ، الصادرة عن الستراتو الياباني ، تقضي  
على الفوارق الشكلانية والزمانية بين بغداد وحواضر الدنيا ، قديمها  
وحديثها . ويذكر أحدهم كتاباً لوليد عن الحضارة ، ويتحدث جواد

حسي عن أن التخلّف « غياب حضاري » ، وكيف يكون الصعود الشاق إلى « مسرح الحضور » ، حيث « تتأطر الأفعال بالقيم ويُحكم عليها بمقاييس العقل . » وما هي القيم ؟ هل هي حقاً كلها عقلانية ؟ وبعد صمت طويل من عامر كان فيه يصني ولا يصني ، يضرب بقبضته على المائدة ضربات متعاقبة قائلاً : « الحضارات كلها هنا ! على هذه المائدة ، في نساتنا هؤلاء ، في كلامك أنت ، وأنت ، في أصوات الفلوت والهاربسيكورد ، في المقام العراقي ، في لوحات جواد سليم وفائق حسن المعلقة على الجدران . اليس رائعاً أننا نستطيع أن نذوق كل ذلك دفعة واحدة وقد جمعناه معاً من سومر ، من فلورنسه آل مدينشي ، من بغداد المأمون ، من عصر الصواريخ المتساقطة على القمر والمريخ ؟ كل ما عدا ذلك اتركوه وراءكم . أنسوه . القيم إما أن تكون حضارية أو لا تكون . وإذا اعترض أحد قائلاً إن التخلّف قائم في كل مكان نعرفه ، فليعرض . التخلّف لا يعالج : إنما أنت تتخطاه أو لا تتخطاه . فلا تكن مع الذين تخطّوا التخلّف قبل أن أقع ضحية له مع الضحايا الأخرى . وليد : ليس فيّ من المسيح شيء . أرفض أن أكون ضحية . »

بالطبع ، لم يكن عسيراً على عامر أن « يتخطى » ، أو يتصور أنه يتخطى ، التخلّف ، والمال لديه لم يعد مشكلة . فقد بدا أنه كلما اتفق ، ازداد دخله . فإذا كان وليد قد عاد بشيء من المال من أبي ظبي ودبي ، فإن مقاولات عامر البنائية جعلت تصبّ عليه أموالاً لم يكن يحلم بها ، بعد أن انتشرت في معظم مدن الخليج العربي ، بما فيها الكويت والبحرين ، وله شركاء يلقون شبكتهم المليئة بالخبرات والهندسة وقدرات التمويل عبر مساحات تضمّ قرابة نصف العالم . بوسعه لذلك أن يدعي أنه يعمر عالماً مستقبلياً في وسط عوالم التخلّف نفسها . مشكلته الوحيدة هي : كيف يحقق عن طريق ماله هذا أقصى ما يستطيع من متعة — ذهنية أو جسدية — تكافئ مع ذكائه . « بعد سن معينة ، »

يقول ، « سيكون جواز سفري جاهزاً للرحلة الأخيرة ... » كان يتصور انه بعد الخمسين لن يخشى مداومة الموت . ولما قارب الخمسين ، وقد تضاعفت ثروته واشتدت طاقته على المتعة ، أجلّ الأمر إلى الستين . ولعله يؤجله إلى السبعين ...

لماذا أريد أن أتحدث عن وليد ، فأنتحدث عن عامر عوضاً عنه ؟ هل هما وجهان لعملة واحدة ، وهما على هذا التناقض ؟ الحديث عن الواحد عندي يجر إلى الحديث عن الآخر ، فلا ضرورة للسؤال عن يسبق ومن يلحق . أنا عرفتهما معاً ، وأعجبت بهما معاً ، وعلي أن أذكر ذلك هنا ، في البداية ، لكي أخلص من أي نزعة إلى المداورة ، أو خوف من الصراحة . ولكن وليد أوقعني ( أم أنا أوقعته ؟ ) في دوامة لا أستطيع التحدث عنها بالشكل الذي يرضيني . ربما ، عندما أفرغ من كلامي المتشد الموزون هذا ، أعود إلى تلك الدوامة التي عصفت بي ودارت بي كالجانين أشهراً طويلة ، ولا أدري كيف لم تنته بي إلى الفرق . أم أنني غرقت ، وأنا الآن إنما أتحدث كصوت من وراء اللجج التي لا تبليغها يسد انسان ؟ في الأشهر الأخيرة علّمت نفسي السكون : فرضت على نفسي السكون . ولن أحتاج إلى ذكاء كثير لأدرك أن ذلك يعني التمزق من الداخل . كيف تستطيع أن توقف حركة العجلة ، والمحور ما زال في دوران المجاني ؟ مها يكن ، فهذه أنا . سلّمت نفسي للذكرائي لفترة ما ، كما سلّمتها لوليد ، وكان الأخرى بي أن أعود إليها . غير أنني أخشى الآن قراءتها ، كما أخشى أن أسمع شيئاً جديداً عن وليد قد يفتح في نفسي كوة ولو صغيرة على أمل . إذا كان قد لقي حظه ، فلا يهم كيف لقيه . وإذا كان قد اختفى ، عائداً إلى فلسطين لهكافح كما كان دائماً يتننى ، فليبق خفتياً ، يثر القوّل والتخمين . ( كل صباح أذهب إلى الكلية لالقاء المحاضرات : وأخشى أن أجد رسالة

في انتظاري تعلمني بأنه موجود في مكان ما ، ينتظر . ) أما أنا ، فلن أقول ، ولن أتحن .

ما كدت أخرج من « كلية بروت للنبات » ( التي بقيت ظلاً تسمى ، على السنة الكثيرين ، جونيورز كوليج ، حتى بعد أن صارت لها شهادتها الجامعية ) حتى وجدت هشام في بغداد يتردد علينا مع أهله لغاية مفصوحة . نخرجت مرهم ، ومما الذي تبقّى لها أن تفعل إلا أن تتزوج ؟ وهشام قد يكبرها بعشر سنين ، إلا أنه شاب وسيم في أواسط الثلاثين تمنى نصف بنات بغداد لو أنه يتقدم اليهن خاطباً ( كما كانت أمه تقول ) : ارسل في بعثة الى جامعة مابجسر ، في أواخر الأربعينات ، وعاد ليشغل وظيفة رسمية ، ارتفعت به الى مركز متنفذ - نسبياً ، على الأقل . بهوى التصوير والكاميرات ، ويكثر من السفر ، ويريد له أهله الميسورون أن يتزوج من فتاة تكاد تكون من الأسرة نفسها ، وميسورة الحال كذلك . وبسرعة ، تمّ الزواج ، بصدّق مقدّم قدره الف دينار ، ومؤخر قدره عشرة آلاف دينار ، وقضينا شهر العسل في روما ولندن ومحمدون ، ورزقنا بسنتين بعد ذلك بسنة . ومع ان ثورة ١٩٥٨ أفلقت هشام بعض الشيء أولاً ، إلا أنه بعد سنة أو أقل ، جعل مركزه يتحسن ، وعيّن مديراً عاماً . وكان في الوقت نفسه يعرف كيف يستثمر نقوده ، ونقودي ، في تلك السنوات التي سبقت الثأيمات الاشتراكية . وفي سنتين أو ثلاث بنينا داراً كبيرة في المنصور على قطعة أرض مساحتها ١٦٠٠ متر ( تحملت أنا نصف كلفتها ، وهي الآن كل ما أملك . )

ظاهر الحساب اذن : تصاعد في الطاقة المالية ، أو تحسن في الوضع المادي - إذا اعتبرنا دليلاً على ذلك اقتناءنا بيتاً جديداً ، إضافة الى بيت كان يملكه هشام سابقاً في الأعظمية ، مشرفاً على دجلة في حلة « السفينة » ، وبيت « أهدانا » إياه أبي في العطفية أقنا فيه سنوات

الزواج الأولى ( وتقيم الآن فيه أمي وأختي الصغرى ) . ثم الادلة الأخرى الكثيرة : سيارة هشام : وأخرى لي ، خادماً . ومربية ، وطباخ ، وفلاح ، وإجازات في لبنان ، وأحياناً في انكلترا . لا أنكر ان هذا كله أخذ يتناقص فيما بعد ، وان مواردنا جعلت تتضاءل ، في حين ان مصاريفنا بقيت باهظة على حالها ، واشتد بنا شعور بالضيق المادي ، ولكننا بشكل أو بآخر ، استطعنا الحفاظ على المظاهر .

أما باطن الحساب فقد كان من نوع آخر : توتر صامت فيما بيننا ، أخذ يشتد الى أن انفجر . كلما اشتد انخراطنا في حلقة عامر عبد الحميد ، اشتد احساسني بأنني تزوجت رجلاً لا يهمني بين الرجال . هو لا يحب ما أنا أحب ، ولا أنا أحفل بما هو يريد من الحياة . كانت ردود فعله عصبية ، تتحول فجأة الى العنف ، والتهديد بأنه سيقبطني ، أو أنه سيتنحر . وأكثر من مرة استعمل قوته العضلية فيّ ، ضرباً . وأخذني اغتصاباً ( وهسل لي أن أنسى تلك الليالي الجهنمية الطويلة ؟ ) . ست سنوات أو سبع من الحياة معه انتهت بي الى تحمة اليمّة . جعلت أنفر من لمسته ، حتى من صوته ، وأكره اقترابه الجنسي مني . كانت غيخته تدفعني الى بلاهات من القول والفعل صرت فيما بعد أشجعها ، عامدة . ما ذنبني إن أنا كنت جميلة ، واجتذب الرجال دون وعي مني ؟ أيقار من ذلك ؟ اذن فلأبالغ في اظهار جمالي ، واجتذاب الرجال ! أردت العودة الى الدراسة ، لاستحصال الماجستير . ذريعة للابتعاد عنه سنة أو سنتين . أردت أن أكتب رواية . أردت أن أدعو الى بيني الرسامين والنحاتين والشعراء . أردت ألا أسمع كلمة عن الوظيفة والموظفين والرؤساء والمرووسين . أردت أن أرى مشاهير الناس في بيتي ، عرباً وأجانب - أساتذة - صحفيين ، دبلوماسيين ، سياسيين . وبقدر ما جعلت أرى عامر ، أو وليد ، مرهقاً ، بارعاً ، غير متوقع ، جعلت أرى هشام

بليداً ، متكرراً ، لا أتوقع منه ائثاره . ثم كان هناك الأصدقاء الآخرون : احسان ، وابراهيم ، وعلاء ، وجواد ، وغيرهم كل على طريقته نموذج منع - هم ونساؤهم ، صديقاتي وغير صديقاتي .

ربما كنت واهمة . فقد أصبت بصداق نصفني جعل يتردد علي ويلازمني . وجعلت أتمنى حياة الآخرين ، وأرفض حياتي أنا . أتسلى قليلاً بحبيبي سيرين ، أعلمها الرسم ، ورقص الباليه ، وأقرأ لها حكايات من ألف ليلة وليلة . ثم أتحدر الى اعماقي الخاصة ، الى ظلماتي الخاصة ، في انظار رؤية أحد هؤلاء الأصدقاء ، أو محاربة تلفونية منهم . وكان بعد ذلك عامر . وكان بعد ذلك وليد . وجاء يوم وراح يوم . وجاء يوم آخر... كنت في العشرين ، ثم صرّت في الثلاثين . وأخذت أرتعب لمقدم الأربعين . وأخيراً أصبحت امرأة حرة ، مرة أخرى - نعم . مسافرة ، طالبة ، اكتب اطروحة تاريخية - نعم . امرأة متجددة ؟ لست أعلم . يجيء يوم يلتهب كئيران البراكين ، والتهب معه كئيران البراكين ، ويعود جسدي الى ذلك العنفوان الهائج المسائح القديم ، ثم تعاودني الشقيقة ، وأصرخ من الألم والاراق ، ولا أعلم شيئاً ، وأبدو اني مريم تلك الأولى ، مريم التي يتغزل بها الطلاب والأصدقاء ، ولا تستجيب بكبرياتها لأحد ، إنما حصوني قد سقطت ، وأسوارى انهارت . وحالما تنبج لي المحاضرات متسعاً من وقت ، سأجلس وأكتب . كل شيء .

كان هشام صديقاً لعامر منذ أن التقيا في انكلترا ايام الدراسة . عادا الى بغداد في السنة نفسها . وعملأ معاً في دائرة واحدة لفترة من الزمن . ولكن هشام بقي موظفاً ، يرضى بكفاف الراتب ، بينما استقال عامر من الوظيفة وانطلق في المسارات التي كان يصعب التكهن بها قبل الثورة ، وعاد من إحدى سفراته الى الخارج بزوجة انكليزية شقراء : وما حقق كل من هشام وعامر في النهاية إن هو الا ما كان كل منهما يستحقه ،

ولا يستحق غيره . وعندما التفت ، بعد زواجي ، بعامر وزوجته آن ، لم أنسجم معها على الفور . ولكنني جعلت احب آن ، لبساطتها ، لجأها ، « الكلاسيكي » الهادئ لاهتمامها بأصدقاء زوجها ، لاهتمامها بنا بوجه خاص . وفي سنتين أو ثلاث تغير موقعي ، وجعلت أود عامر أيضاً ، وأنا أراه يتغير ، وينضج ويزداد أصدقاؤه ، وترداد جاذبيته . وأن أكبر عون له . تعنى بولديها الاثنين ، وتبقى في الخلفية من اطار حياة زوجها الدائبة الحركة ، وتبدو وكأنها لا تطالبه إلا بأن تبقى قريبة منه ، تخدمه ، وتدارسه ، ورغم ذلك تبدو وكأنها ، بعينها الحاملتين ، وشفتيها البسمتين ، وعنفها الطويل ، قد نزلت للتو من إحدى لوحات غيتز بورو . على عكسي أنا ، قطعاً . فقد كان ظاهراً ان هشام هو الذي يقف في الخلفية من لوحة حياتنا . ولعل الانجذاب بيني وبين آن كان أيضاً انجذاب القطبين المتضادين . كما ان الانجذاب عامر لي كان لاختلافي الصارخ عن زوجته ، ولا شك ، بقدر ما جذبني اليه اختلافه عن هشام .

غير ان هذا الكلام فيه تحجج بالغ ، وتبرير لا يقنعني حتى أنا التي أقوله . فقد جاءت فترة في حياتي - وعلاقي بهشام على أسوأها ، إذ انفصلت عنه وعسدت الى بيت أمي وأختي - كنت فيها كاهشم الذي يشتمل لأقل شرارة . تعلقتي بوليد يأبئذ ، وبعد ذلك ، كان أسهل ، ومطلقاً أكثر ، لأن وليد كان في عداد الغزاة ، وزوجته منذ سنتين نزيلة مستشفى المجاذيب في بيت لحم ، والكل يعرف ذلك . أما مع عامر ، فكان علي أن انسى (ولا استطعت ان انسى) أن زوجته صديقتي وانني احبها . وكان علي أن اقنع نفسي بأن عامر يستحق مني الحب الذي يريد ، لانه رجل غير عادي ، بل لا يخلو من عبقرية . حتى عدميته كانت جزءاً من عبقريته ، والعلاقة بيننا جزء من هذه العلمية . ولا أنكر انني وجدت متعة شديدة حين وجدت أنوثتي تستدرج رجلاً مثله ، متعالياً ، أنوثاً ، مرموقاً ، يخاطب النساء والرجال بالعشرات ،

ليتهني الى صدري أنا ، طفلاً ساذجاً ، عاجزاً ، يطلب مني حمايته من العالم ... أي حماقة ، وأنا الواقعة بين حجري رحي : بين اندفاعاتي الموهوسة ، وبين شقائي الزوجي - انظر الى وجهي في المرآة وأحس بمجاله احساساً نرجسياً ، ولكنني أحس أيضاً بلعنة تخالطه ، ولا أعرف أين تكون حمايتي منها .

في تلك الليلة ، وأنا في زيارة لسوسن عبد الهادي - زيارة بريشة اصديقة كانت أقرب الي من أختي ، صديقة ترضى بأن تصني باهتمام وعطف الى تفاصيل مشكلاتي مع هشام وأهله ، وأهلي ، ولا سيما بعد الانفصال القلق الذي جعلني لا معلقة ولا مطلقة - في تلك الليلة ، جاء عامر أيضاً لزيارة سوسن وعلاء . ولكن علاء لم يكن في البيت - كان مسافراً الى البصرة أو الموصل في عمل ما ، الأمر الذي جعلني أعتقد أن الزيارة كانت مدبرة ، لأن سوسن تعرف انني سأقضي السهرة عندها - بل انها جاءتني الى البيت بنفسها واخذتني بسيارتها . وعامر يعرف أن علاء غائب في سفر ، وجاء بحجة رسم صورته دون مراقبة آن ...

أولاً ، طبعاً كانت الزيارة مدبرة ... فلأعترف بما حدث بالضبط ، ولا الجأ الى اللف والدوران ، كما لجأ عامر ، في جعل ذلك اللقاء يبدو وكأنه مجرد صدقة . ذهبت يوماً لزيارة سوسن ، فوجدتها ، كالعادة ، ترسم . واذا اللوحة التي على المسند ، والتي كانت تعمل عليها قبيل دخولي ، « بورترت » غير كاملة - في مرحلتها الأولية ، لوجه بدا مألوفاً لدى . وقلت : « سوسن ، هذا الوجه اعرفه - ام انني واهمة ؟ » فالتفت الريشة من يدها في مزهريه ملأى بريش من كل حجم ، وهتفت : « يا خبيثي ! طبعاً تعرفينه . ليس الشبه ظاهراً ؟ »

- « لحظة منه ... الصورة في أولها بعد . هل أجراً فأقول من أظنه هو ؟ »

- « عامر عبد الحميد . وفري عليك التخمين ! »

طمأنتها : « لا ، اكيد ، هو ... الشبه ظاهر .. »

مسحت يديها غرقة ملوثة ، ثم استصحبني الى الحمام لكي تغسل يديها ، وهي تقول : « زوجته آن هي التي ارادت الصورة . وانا كما تعلمين اخشى رسم الاشخاص . استطع ان ا رسم نفسي . اما الآخرون ، أف ! من يستطيع . أن يرضي غرورهم ؟ ولكن عامر يتمتع بوجه قوي التعبير . أليس كذلك ؟ الوجوه التي كوجهه يعجبني أن أرسمها . أن تريد اللوحة لغرفة النوم . »

عدنا الى غرفة الجلوس ، وهي أيضاً الغرفة التي ترسم سوسن فيها ، وناولتني سيكارة وأشعلتها ، وأخذت هي واحدة ، وقلت ، واللوحة تقابلني على المسند في ركن الغرفة : « المهم ان تبرزى هذه القوة التي تذكرينها . الشبه غير مهم . »

- « سأحاول . تعرفين قصة بيكاسو عندما رسم غيرتود ستاين ؟ انتهى من البورترت ، فقال له أحدهم : بيكاسو ، هذه الصورة لا تشبه غيرتود ستاين . فأجاب : مستشبهها ، مستشبهها ... وتعتقد غيرتود ستاين انها فعلاً تغيرت فيها بعد تشبهه هي لوحة بيكاسو ! »

فضحكت ، وقلت : « أرجوك ، سوسن ، اجعلي الصورة في شبهه ، ولو بمقدار ، واتركيه على حاله ! »

هزت رأسها ، وأخذت نفساً عميقاً من سيكارتها ، وقالت وهي تنفث الدخان في وجهي : « أعرف اهتمامك المكبوت به . اعقلي يا مريم . » وخطر لي في تلك اللحظة ان استنجد بها . « تخافين علي ؟ ساعديني . » - « كيف ؟ أيعرف هو اهتمامك به ؟ »

- « هل هناك رجل في الدنيا تهتم به امرأة اهتماماً خاصاً ، ولا يعرف في الحال ؟ اسمعي ، هل يأتي اليك كثيراً ، لكي ترسميه ؟ »

« أتى الليلة الماضية ، والتي قبلها ، طبعاً كان علاء في البيت . »  
 « هل أتى وحده - بدون آن ؟ »  
 « وحده . لماذا يصلب زوجته ، وأنا أرسمه ؟ »  
 « سوسن . في المرة القادمة ، أخبريني . »  
 « ولكن علاء سيكون هنا . »  
 « اجعلها مرة حين يكون علاء غائباً . أعرف أن أعمال علاء تأخذه باستمرار الى الموصل والبصرة . »  
 « ليوم أو يومين ، نعم . »  
 « ألا يكفي ذلك ؟ »  
 « آخ منك ... أحببته فعلاً ؟ »  
 « جداً ... وهو يعلم . »  
 « اتفقنا على ألا يأتي غداً ، أو بعد غد ، لأن علاء سيكون فعلاً مسافراً . »  
 « اذن تلفني له . اطلبني منه أن يأتي غداً ، مساء ... ارجوك .  
 وتعالني إليّ ، واحضريني بسيارتك ، لئلا تثرى سيارتي خارج المنزل مع سيارته ... هه ؟ »  
 « طيب ، طيب . وهشام ، كيف هو ؟ »  
 « لم أره لأسبوعين . محاصر بيتنا أحياناً مطالباً بخروجي اليه ...  
 يذهب الى بيوت الأصدقاء علّه يجذني هناك ... مصيبة يا سوسن . »  
 « أرادت سوسن ان تمتحنني ، وكأنها تتساءل : الى أي حد تستعد هذه المرأة المهووسة بعامر ان تندفع ؟ ولعلها أرادت أن تمتحن عامر أيضاً : هل يخفي وراء قناعه المتزمت الشامخ انساناً من لحم ودم ؟ ولكن الى أي حد كانت هي نفسها بريئة من دوافع أخرى يصعب تعيينها ، عندما وافقت على تدبير ذلك اللقاء ؟ »

كان فرحي هائلاً ذلك المساء . كدت أكون وحدي مع عامر ، لأول مرة بعد معرفتي به طيلة السنوات ، في تلك المكتبة الصغيرة التي تؤثرها سوسن على غرفة جلوسها ، ورحنا نتكلم بطلاقة وصراحة . وعندما تركتنا سوسن وحدنا ، لتهية بعض الطعام في المطبخ ، وقعت بين ذراعي عامر كامراً حرمت الحب سنين طويلة ، أقبلته ويقبلني ، فتنهار بيننا السدود ، وأود لو يطالبني بكل ما أمكك فأقدمه له راضية في الحال . ( ونخطر لي في تلك اللحظات خاطر من حيث لا أدري ، وهو ان وليد أيضاً قد يقبل عليّ بتلك الحرارة لو أردت ! )

وفجأة دق جرس الباب . آه ، أيها الضيف الطارق ، يا هادم اللذات ، من جاء بك في تلك اللحظة المسروقة الرائعة ؟ دخلت علينا سوسن مضطربة ، وأثارت ضوء المكتبة الكبير - إذ كانت الغرفة خافتة الضوء فقط - وقالت ، وقد انحطف لونها : « زوجك هشام ! انه واقف بالباب . رأيته من نافذة المطبخ . »  
 « أف ! كمادته ، يذهب من بيت لبيت باحثاً عني . »  
 « ماذا تفترحين ؟ »  
 « لنخرج اليه معاً . وتمالكي جأشك . ولكن لا تطلبي اليه الدخول . »

عامر وحده لم يضطرب . وقال ضاحكاً : « أأخرج أنا اليه ؟ »  
 فقالت سوسن : « أبداً ! ابق مكانك ! »  
 وخرجنا أنا وسوسن الى الباب ، وهشام على بعد عشرة أمتار ، واقف عند البوابة الحديدية . وهتفت سوسن : « هشام ! أهلاً وسهلاً ! »  
 ولكنه صاح : « هذه مريم عندكم ! »  
 فقلت : « نعم . ماذا تريد ؟ فضحتني بين الأصدقاء والأقرباء ، ذاهباً من دار لدار ، دونما حياء ، تسأل عني ! ماذا تريد ؟ »

وتقدمنا أنا وسوسن في اتجاهه ، وتقدم هو في اتجاهنا ، ووجه كلامه إليّ ضارعاً بنية متصاعدة : « مريم ، أرجوك ، خلّي عقلك في رأسك . تعبت . أريد أن تعود إليّ . تعبت يا مريم . هلكت ! »  
 - « اشش .. لا ترفع صوتك ! أتدري من في الداخل ؟ علاء ، وعامر وآن . خرجنا اليك ، لكي لا يسمعو كلامنا . لكي لا يسمعو عباطك . »

وقالت سوسن ، مسعفة إياي : « هل تفضل بالدخول ؟ ولكن ، ألا تتصور أن دخولك وأنت على هذه الحال سوف ... »

- « طبعاً ، طبعاً ، سوسن ، لا ، مستحيل . انسا لا أستطيع مجابهة أصدقائي على هذه الحال . ولكن ليترك تعبتين مريم بأن تعود إليّ ، بأن ترافقني الى البيت - الآن لو أمكن ... »

فقلت ، متساهلة : « طيب ، طيب ، هشام . لا تجعلنا نطيل الفصل . سوسن ، أنت عودي الى الجماعة ، لكي لا يتساءلوا ويخرجوا الينا . سأرافق هشام ... هشام ، سأرافقك ، ولكن الى بيت ماما . فاهم ؟ »

فقال ، وكأنه لم يتوقع تلك الاستجابة السريعة : « زين ، قبلت ... بلا . »

- « انتظر . عد الى السيارة . سأحضر جزداني ، وأعود اليك . »  
 وعاد هشام الى سيارته . وأسمرت مع سوسن الى داخل البيت ، ونحن نقول : أفنعنا ! أفنعنا الموقف ! نجيبنا الفضيحة ! وقلت لعامر ، وهو بكل برود يتصفح كتاباً أخذه عن رفوف المكتبة : « سأذهب ، وأعود . انتظرنى ... سوسن ، سأعود ! »

وفي السيارة عاد هشام الى توصلاته ، وتهديداته ، ومد مناه إليّ وهو يسوق ، ثم أحاطني بذراعه وجذبني اليه بقوة ، وقبّلني ، وأنا أقفز

من لمس يديه وشفتيه . ولم أحاول تصعيد المناقشة ، متحملة رحلة العودة كمن لا بد من دفعه للتخلص منه تلك الليلة ، الى أن بلغ بي بيت امي في العظيمة . نزلت ، ونزل معي ، وأراد استصحابي الى الداخل ، فرفضت . وقلت : « والله ، إذا لم تذهب الى البيت ، في هذه اللحظة ، سأزق ، وأجمع أهل المحلة كلهم عليك ! »

عاد الى سيارته ، راضياً ، حانقاً ، لست أدري ، أدار المحرك وانطلق فجأة بسرعة صاخبة . أما أنا ، فقد تريت بضغ دقائق ، ثم دخلت سيارتي ، وتقهقرت بها الى الشارع ، وانطلقت بسرعة صاخبة أيضاً ، الى بيت سوسن . ولكن من طريق آخر ، وأطول ، وأمن .

إذا أهار السد ، جرفت المياه الى حيث هي تشاء . لم أكن مشلولة الارادة فحسب ، بل محمولة على قوى غامضة تنطلق بي الى نقطة ينعدم عندها المنطق والتفكير ، وفي داخلي وهج رائع ، راعب لم أعرف مثله من قبل . عندما تتخطى المرأة الحاجز الأول ، تتساقط الحواجز الأخرى دونما جهد كبير . ولذا عندما فتحت لي سوسن الباب ثانية ، قلت « أسفة يا عزيزتي لأنني أزعجتك هذه الليلة . هلو عامر ! » وسرت اليه ، وكأنه الحب الوحيد الذي عرفته في حياتي ، وعانقته بجنون على مرأى من سوسن ، وليكن ما يكون ! ولتهدأ سوسن باكتشافها الحقيقة كلها التي ما عدت أستطيع مراوغتها ! كل سر جاوز الاثنين شاع ؟ فليشع !

لم يشع السر ، بقدر ما أعلم ، وعدت الى هشام ، وإلى منزلنا ، كأنني أعاقب نفسي على خطيئي ، وحاولت استئناف حياتنا معاً ، والحفاظ في الوقت نفسه على صلتي الخفية بعامر . ولكن نجاحي كان ضئيلاً ، لا لأن تعلّمتي به كان يتدخل ويفسد المحاولة - والواقع ، أن عامر أصر على ضرورة عودتي الى الحياة الزوجية ، والتسرّ على أمرتي بحزم وشدة -



بل لأن وجه عامر الثاني : وليد ، تدخل وأنا في غفلة من أمري ،  
والحواجز أمامي كلها متساقطة ، وأحميني في تجارب كنت أختشى ، حتى  
تلك الآونة ، أن أجاهر نفسي بها - وإذا بي الآن أريد أن ألاحقها ،  
وأسجلها على الورق . تحول هشام الى رقة وحلاوة ، أول الأمر ،  
وعدت الى بيتنا بنشاط من أسعف بدم جديد ، ومقويات طبية . الحب  
جعلت اعرفه لأول مرة - محرّساً أو غير محرّم . ما عدت أثريث  
للتساؤل . إنما المهم انني عدت الى هشام برضا جديد ، كأنني أبغني أن  
أجازيه خيراً على انه اتاح لي ما لم يكن في حسباتي ، وهو لا يدري ،  
وفي الوقت نفسه أوازن في نفسي مواقف وعواطف متضاربة . ويوم طلبت  
اليه ان يسمح لي بالذهاب الى لبنان لقضاء أسبوعين أو ثلاثة - وتموز  
يصب شواظله في طرقاتنا - لم يمنع ، وقال : « هذه هديتي لك يا حبيبتي ! »  
واعتذر عن ان عمله لن يسمح له بمرافقتي ، وكنت أعلم ذلك ، متعللاً  
بأنه ربما سيلحق بي فيما بعد بضعة أيام .

هل اردت الذهاب الى بيروت لأنني املت ان يكون في ابتعادي عن  
بغداد ابتعاد أيضاً عن نفسي الموزعة ، فأرى موطيء قديمي بشيء من  
الوضوح في هذا الطريق الوعر المظلم الذي اخترته عامدة لما فيه من خطر  
وإثارة ؟ أم لأنني ، ببساطة ، كنت أعلم أن عامر هناك ؟

كان عامر قد اشترى في شملان داراً من تلك الدور الجبلية القديمة  
التي تبدو من بعيد كأنها ترصّع منحدرات الجبل ، بين أشجار الصنوبر  
والصخور . كثيراً ما وصفها لأصدقائه ، أشبه بفارم صيف فرساً  
يعشقها ، ويدعوهم اليها إذا هم ذهبوا الى لبنان في الصيف ، وكان  
هو فيها مع عائلته . كان يتحدث عن أشجار الصنوبر ، والجوز ،  
والتين ، والكروم ، والعصافير التي تصم الآذان في الصباح بتغريدها  
ليتلوها ، إذا ما ارتفعت شمس الظهيرة ، صرير ملايين الزيزان ...

عرفت ذلك كله أيام دراستي في بيروت ، وبت الآن أتوق الى أحاسيس  
تلك الأيام العذراء التي أخذت تترأى لي ، وسط ضجيجي النفسي العاتي ،  
كجزر نائية من التناغم والصفاء وسط بحر غاضب متلاطم .

ساعة حطت الطائرة في مطار بيروت ، ونزلت مع الركاب الى قاعة  
جوازات السفر والأمنعة ، شعرت كأنني انطلقت من أحد قاصم سليمان  
الى الفضاء الفسيح : ولكي يجنني أحد ، لم يكن عليه أن يعبر مدينة  
النحاس - مدينة الموت والقنوط . هذي أنا ، مريم الصفار ، جنينة  
تمزّدت على ظم سليمان ، وكسرت ختم الرصاص على قفقه ، تملأ  
فضاوات الدنيا ورحابها ، وتحت قدمها تغور وتلاشى مدن النحاس  
كلها ، الى الأبد . أو ، على الأقل ، لأسابيع ثلاثة . وأول  
ما فعلتُ حالما استقرتُ بي امتعني في غرفة مبردة في أحد الفنادق القريبة  
من الحمراء ، أنني اتصلت تلفونياً بشملان ، بالرقم الذي كان أعطاني  
إياه عامر . كان الاتصال بطيئاً ، وكأنما البطء يقصص جناحي . ثم  
جاءني صوت من الطرف الآخر . عامر عبد الحميد ؟ غير موجود ،  
أسف . هل سيعود ؟ نعم بعد ثلاثة أسابيع . هل غادر لبنان اذن ؟  
نعم ، الى لندن ، مع العائلة : من يريد ، رجاء ؟ غير مهم - هذا  
ما قلت ، وأنا بائسة ( هل هرب عامر مني عن قصد ؟ ) وكذت أسد  
التلفون ، لولا انه خطر لي ، في اللحظة الأخيرة أن أسأل : « من  
يتكلم ، من فضلك ؟ » فأجاب الصوت : « وليد مسعود . »

- « وليد ؟ صدق ؟ »
- « السيدة عراقية . اظن انني أعرفك ؟ »
- « طبعاً تعرفني . الغريب انني لم أعرف صوتك . »
- « الصوت بعيد ، وغير واضح . »
- « انا مريم . »
- « الصفار ؟ »

« نعم . »  
 « أهلاً وسهلاً . متى وصلت الى لبنان ؟ »  
 « اليوم . قبل لحظات . »  
 « وهشام ؟ »  
 « جثت وحدي . هشام قد يجيء بعد مدة . »  
 « هل من خدمة ؟ »  
 « لا ، شكراً . »  
 « هل يمكنني أن أراك ؟ »  
 « لم لا ؟ » ( قلت لنفسني : انقلي يا مريم ! )  
 « أيعجبك ان تري بيت عامر هنا ؟ »  
 « لم لا ؟ من يقيم فيه الآن ؟ »  
 « انا . تعليم ، انا لذي مفاتيح البيت ، دائماً . »  
 « كيف المجيء الى شمالان ؟ عن طريق عاليه وسوق الغرب ، على ما أذكر ؟ »  
 « بالضبط . »  
 « طيب . »  
 « في أي فندق أنت ؟ »  
 « في الماي فلاور . »  
 « ورقم التيفون ؟ »  
 « لا أعرفه . »  
 « تجدينه مسجلاً على جهاز التيفون ، امامك . »  
 فأخبرته به . وخشيت انه سينهي المكالمة ، لأن موضوعها انتهى . فسألته :  
 « أترى أحداً من الأصدقاء هنا ؟ »  
 « اصدقائي هنا كثيرون . اتحبن ان تتعرفي على بعضهم ؟ »

الحديقة . وراح وليد يعرفني على هذا وذلك . وانسا اجفل بين الحين والحين إذ اسمع اسماً قرأت له ، أو قامت حوله ضجة . كان الرجال متساهلين في نوع الملابس التي يرتدونها . غير أن النساء كن أنيقات . مزوقات ، بديعات الشعر ، والغرفة الكبيرة المعصاة الا من ضوء الشموع مكتظة بمن فيها ، وقد جلس الكثير من الضيوف على الأرض أو الوسائد الملقاة عليها . وفي الدقائق الأولى احسست بغربة مزعجة ، إذ لم ألق احداً أعرفه ، سوى وليد . فتمسكت به اول الأمر ، وهمت له : « دير بالك عليّ . لا تتركني وحدي . » فضحك وقال : « لا تخافي . سيعون اليك ، على الرأس قبل القدم . » وبالفعل ، ماكدت استقر على كرسيّ تنازل لي عنه احدهم ، حتى رأيت رجلاً يحطو من بعيد نحوي ، ويسأل وليد ، على مسمع مني ، والكأس في يده : « السيدة من العراق ؟ » ثم همس له بالانكليزية ، وأنا ما زلت اسمعه : « جالها يدوخ ! » مما رفع من معنوياتي كثيراً . وقدّمه اليّ وليد . ثم جاء آخر ، وآخر ، ثم توقفت عندي فنانان قالت احدهما إن امها عراقية ، وقدّم لي شاب يلبس قميصاً مفتوحاً على صدره الشعر وينظرون من الجليتر كألسنة من الخمر ، وقال : « نبيذ ؟ ام ويسكي ؟ » قلت « نبيذ ، أحرر ... رائع ! » ودار الكلام في الحال عن كل شيء . ولا شيء . كان النبيذ حقاً رائعاً . ووليد يدور بين المدعوين ، ويعود اليّ . وبهمس : « أسمعني التعليق ؟ يعلقون على شعرك . وعينيك . ويقولون إن نساء العراق عندما يكن جميلات ، يكون جالهن قاتلاً . » مريم ، ابن كنت حتى هذه الليلة ؟ « وصاح بي شاعر معروف : يردد الصدى : « ابن كنت حتى هذه الليلة ، يا سيدي ؟ وجهك مرمر ، وشعرك خضّب بالذهب ... » فأجبته ( وأنا اجب وليد معه ) : « في انتظار كلمة منك ، في انتظار لؤلؤة ، يا سيدي ! » وافتقنا جميعاً على أن العراقيين كلهم شعراء : محاربون وعشاق مآ

وقال احدهم الواقفين : « لأن نساء بغداد منذ القدم جميلات و ... متممات ؟ » ، فقلت : « طبعاً ، والاّ فن أين يأتي الالهام ؟ » وقال الشاعر : « يا سيّ ، الالهام خطر ، رعب . » وضحك الجميع . وقال وليد : « الالهام هو أن تتلاشى فيها ترى - ولا أقصد فيها ترى بصرياً ، رؤيويّاً ، حليماً ، أي فيها ترى اضافة إلى رؤية العين . كتجربة الفنان السومري قبل خمسة آلاف سنة . انذكريسن المنحوتات السومرية الغريبة لرجال ونساء واقفين ، في كل منها تكون العينان متسعين اتساعاً مذهلاً بحيث تملآن معظم الوجه ، وتكحلان بالقير الأسود تأكيداً على اتساعها ، لأن صاحبها على اتصال برؤية ما بعيدة ، عميقة ، خارقة ، بينما تجدين يدي التمثال صغيرتين لحد التلاشي . لماذا ؟ لأن اليدين الصانعتين هما التأكيد على وجود الجسد ، والجسد في تجربة الفنان هنا ، يتلاشى ، لأن العينين الرائيتين ، نافذتي الروح ، اصبحتا كسل شيء ، واصبح الجسد لا شيء ... هذا هو الالهام . يكاد يكون انتقالاً من حالة الانسنة إلى حالة الالهة ... » وسكت . ونظر اليه الآخرون . ونظرت اليه بعينين واسعتين . وقال الشاب لابس الجليتر : « كلنا عيون ، وليتلاش الجسد ! ولكن لا هذه الليلة ... الجسد مهم يا وليد ، مهم . » وجاءنا المزيد من النبيذ .

لم يكن من العسير أن أرى أن من بين النساء الكثيرات كانت هناك امرأتان تدوران حول وليد بشكل لا تحفظه امرأة ، كما تلقيان اهتماماً من الجميع : رباح كمال وحنان عواد . وقد شعرت أنهما ، على نحو ما ، تنتميان إليّ - أو انني أنا انتمى اليهما . رباح حسناء اشبه بحيوان بري شارد تقارب الاربعين ، ولو أن لها قوام فتاة في العشرين ، علمت فيها بعد أنها أرملة لبناني ثري : طروب ، ربما ، ولكن بأنفة ارسطراطية لا تخشى الناس ، ولا يمس شخصيتها البراقة أي تبدل ، مها تبدلت . اما حنان - لماذا قالوا تلك الليلة إنني أنا الجميلة ؟ - فقد كانت امرأة

رائعة ، دون الثلاثين حياً ، لها شعر أسود قصير على بشرة بيضاء نضرة  
 وخذان ورديان وعينان زرقاوان تؤكد على روعتها بالكحل والآي  
 شادو . تتكلم وتضحك باستمرار ، وتفرض فنتتها على المكان بأجمعه  
 ( ويبدو أن لها مشاكل من نوع مشاكل المسكينة ! ) لم يخف عليّ  
 أن بعض ما يجمع بينها اهتمام خاص بوليد ( أو حب ؟ ) . « وليد !  
 وليد ! وليد ! » كانتا تتقاذبان اسمه ، كأنهما تتفاسمان رمزاً لزه براءة  
 مأكرة . وانفستنا اليّ بعد قليل ، وجعل اسمي يتردد على شفاهها خلاوة  
 عجيبة : « مسريم ، مرغريتا ، ماروشكا ... » لم أفهم شيئاً . لقد  
 ضمنتاني إلى ناديهما بحرارة هائلة : النادي الوليدي .

كيف كان ذلك كله ممكناً بتلك السرعة الغريبة ؟ الخمر تختزل الزمن ،  
 وبعد أيام الخيبة ، والالم ، والمرآغة ، بعد أيام الصبر والحمل والثورة  
 الداخلية ، بعد أيام الجفاف والقحط والظما ، تتحقق الشوة في لحظات ،  
 كهلوسة تحمل الدهن والحواس كلها في سفرة صاروخية إلى عالم من  
 السديم الضاحك ، اللذيذ ، النظيف . بدأ الدوران ، ولا دوار . كنت  
 في حركة بين أناس جادّين ماجتّين يصطنعون السذاجة ويصطنعون المكر ،  
 أصدّق كل شيء اسمعه ، ولا أصدّق شيئاً مما اسمعه . وعيني على وليد ،  
 تلاحقه ابننا دار بينهم ، ومهما شغلوني بمحاوراتهم : رجل متميز  
 بصوته ، بضحكته ، على صديقه وسالفه مزاج البياض السواد . عيناه  
 كعيني النسر في اتقاد ، وفه العريض يوحى بالعناد والقوة والإغواء .  
 سألتني رباح : « منذ متى تعرفين وليد ؟ ببغداد ، طبعاً ؟ » قلت :  
 « أوه ، منذ أربع أو خمس سنوات ... وأنت ، منذ متى تعرفينه ؟  
 فقالت : « منذ أن فتحت عيني ! منذ عشرين سنة . منذ أن كان في  
 القدس ، لا يعرف احداً ، ويعرفه كل احد ... » ثم هست في  
 اذني : « لا تقولي لاحد ، ماروشكا . وليد اول رجل قبّلتني ... ولكنه  
 ليثم ، لا يتابع ما يبدأ . طبعاً كنت على وشك الزواج ايامئذ وتزوجت ...

و .. دعينا من سيرة حياتي ، يا حبيبي . انحين ام كلثوم ؟ رأيتها  
 في القاهرة مؤخراً تفني « أنت عمري » . انحين « أنت عمري ؟ »  
 يجب أن تسري ام كلثوم وهي تغنيها . تجنّ ! كيف أتصل بك  
 غداً ؟ ... »

لم اعرف بالضبط ما صلة الاغنية بموضوع حديثنا . غير مهم . المهم  
 الحديث . المهم انني كنت قد انطلقت ، حتى من شباك عامر وعقائده  
 التكنولوجية . ولن تعود الجنّة إلى القمم بعد الليلة . وارتدت لرياح ،  
 ولحنان كذلك ، أن تعرفا انني لا أقل عنها اهتماماً خاصاً بوليد . بسل  
 ها انه يعبرني من الاهتمام ما لا يعبر غري . يطير غني كالصقور ولكن  
 رجله مربوطة بحيط في يدي . اسحب الخيط ، فيعود مرفرفاً اليّ .

ولما أخذ المدعوون بعد العشاء يتسحبون وبعضهم يقترح الذهاب في  
 جاعات إلى ملاهي الجبل ، لم اترك له مجالاً للشك في ما عزم عليه .  
 قلت له :

« أنا باقية . سأكون آخر من يذهب ... »

فصغط على ذراعي وقال : « لنشرب القهوة وحدنا على الشرفة بعد  
 أن ينصرف الجميع . »

حوالي الثانية صباحاً ، كانت رباح وحنان من اواخر من نزل إلى  
 الطريق حيث السيارات تنتظر . ولكن حنان تلكأت قليلاً ، وسألني .  
 « أنزل بك إلى بروت ؟ » فقلت : « لا ، شكرآ » ، فنظرت إليّ  
 بعينيها الزرقاوين نظرة بدية فاهمة ، ثم قالت : « يا وبلك منه ! باي  
 باي ! »

واخيراً ، بقينا وحدنا ، واللفظ ما زال يتردد أصداء في دماغي .  
 وحدنا ، أخيراً !

تركيزي وليد على الشرفة ليهيء القهوة بنفسه في المطبخ ، ثم عاد

« وليد ، أهكذا يكون الانتقال من - ما هي كلماتك ؟ - من الانسنة إلى الالوهة ؟ »

فهو رأسه : « تقصدين العودة من الالوهة إلى الانسنة ؟ ... »

ووضع الصحن جانباً ، واخرج بكرة كانت على جانب صف من بكرات التسجيل في عليها الحمراء ، وركبها في المسجلة . وانطلقت موسيقى كورالية شعرت انني لم اسمع مثلها في حياتي - موسيقى دينية اعرف أنه يحبها ، ولا اعرف عنها الا القليل . واستدار نحو واخذ يتأيل مع الانغام ويطلق صوته معها وهو يركز نظراته في . فضحكت وقلت : « وليد ! اترقص على الترانيل الدينية ؟ » فقال : « الانسمعين الاجواق وهي تصيح - باللاتينية طبعاً : تعظم نفسي الرب ، لانه اختارني من بين النساء جميعاً ... وكيف يكون التعظيم الا بالرقص والتهايل ؟ .. » وراح يدور ويترنح في الفسحة الصغيرة بين الفراش والحائط ، يأخذ لقمة من الدجاج ، ويستأنف ترنحه خولي ، وينحي عليّ وأنا أمضغ ، ويختطف قبلة سريعة ، ويلوح بذراعيه في حركات انسيابية متوترة .

رفع صوت المسجلة الى أقصى مداه ، حتى كادت الغرفة تختنص اختصاصاً بالأصوات الرائعة المشابكة ، وصاح : « مونتيغري ، ماغنيفيكات لسة أصوات ، عام ١٩١٠ ، ان كنت لم تعرفي بعد ... » وبغمة انفجرت الغرفة ببى انفجاراً مربعاً ، وقذفت الصحن من يدي ، وألقيت الغطاء عن جسدي ووثبت على قدمي ، وأنا أزعق لكي أسمع صوتي من خلال زوبعة الموسيقى : « وليد ! انت رهيب ! انت لعين ! لعين ! حطمتني ! هشمتني ! اريدك ، اشتييك ، سأقتلك ، واقطعك قطعاً صغيرة ، وأكل كل قطعة فيك . » ووقعت على صدره ، وأنا أخبط بقبضتي على صدره ، وانفجرت ببيكاء صارخ لم ابك مثله في حياتي .

يحمل ذلة ، وفنجانين . كانت القهوة اطيب من كل خر ، والدوامه آخذة بالتسارع ... دخلنا البيت ، بين فوضى الكراسي والوسائد والكؤوس والصحون ، وذهبنا رأساً إلى غرفة النوم ، التي لم تكن بفوضاها أحسن حالاً بكثير ، وارتمينا معاً على الفراش . ولم نخرج حتى مساء اليوم التالي ... سمعنا صدى عصافير الفجر ونحن في الفراش . وتلاها صرير الزيزان في الظهيرة ونحن في الفراش . ودق جرس التلفون عدة مرات ونحن في الفراش . واطبق صمت المساء على الاشجار والبيت والدنيا كلها ، ونحن في الفراش .

ورأينا بيروت من النافذة وهي تتألأ في حلقة الليل من جديد . وفجأة صاح بي وليد : « مريم ! انا جوعان ! ألسنت جوعانة ؟ » فقلت : « مينة جوعاً . »

- انخرج إلى الـ « كليف هاوس » ؟

- نخرج ؟ أبداً . نتمشى هنا .

- من بقايا البارحة ؟

- من بقايا البارحة !

وبقفزة واحدة ارتسدى وليد بنظولاً وقيصاً وسمعته في المطبخ « يطربق » ، وعاد بصحنين وهو يقول : « دجاج بارد مع البندورة . مدام . » وناولني أحدهما ، وأنا جالسة في الفراش ، ثم قال : « يربك ، هل تمشيت يوماً في حياتك وأنت هكذا عارية ؟ » وانتهت إلى ما كنت قد نسيت عن نفسي . ولما ابعدت شعري المشعب عن وجهي ، رفعت رأسي اليه في العتمة التي لا يدهاها الا النور المتهافت عبر النافذة من اضواء الجبل والمدنية البعيدة . رأيته واقفاً يتأملني . والصحن في يده : بدا لي طويلاً ، عملاقاً ، وعينه لا تملآن وجهه فحسب ، بل الغرفة كلها ، الدنيا كلها

وجسمي ينتفض انتفاضات ذبيحة وهو ممسك بي بقوة بين ذراعيه ،  
وانا انتفض وأغرول في نشوة رابعة ...

اصرخي يا أبواق السماء ، يا ملائكة الرب ، اصرخي ، اصرخي...  
ولكن الصارخة أنا . ووليد يضم رأسي الى صدره المكشوف لكي يدفن  
فيه صوتي ، وأحس دموعي تبلل جسده وتنساب عليه . وراح يسد  
شعري . ويقبله ، ويهمس في اذني : « هس ، هس ... أرجوك ،  
مرم ، اسكني ، اهدأي ، سيطري على نفسك ... » كيف ، كيف ؟  
ولكن صراخي تحول شيئاً فشيئاً الى نسيج وحشجة ، وتناقصت انتفاضاتي  
بين ذراعيه حتى سكنت ، ثم انقطع بكائي اخيراً ، وأحسست برغبة  
عميقة في النوم ، ووجهي ملتصق بصدرة ، وأصابعي ارتخاء في ركبتي ،  
وكنت على وشك الانزلاق والسقوط ، عندما اقتادني دفعا الى الفراش ،  
ورفعني عليه . وما كدت اضطلع حتى رحت في غيبوبة عميقة .

حين أفتت ، وجدتي تحت شرف يغطيني حتى العنق . ووليد  
جالس في كرسي كبير ، يرقبي ، وأنا أكاد لا أرى في الظلام الا عينيه  
ويديه . والسكون مطبق على كل شيء .

« وليد ، هل توقفت عن الرقص ؟ »

« منذ زمان . »

« رقصت لي أنا ؟ »

« ربما . »

« أنت رقصت لي . وأنت تعرف ذلك . »

« رقصت لك اذن ... أما أنت فيكيت ... لي ، ام علي ؟ »

« على نفسي أنا . نفسي التي حملتها أكثر من طاقتها . »

« مريم ، ستيكين اذن مرة ، ومرة . »

« لماذا تقسو علي هكذا ؟ »

« انا لا أحيأ الا عندما احمل نفسي أكثر من طاقتها . عندئذ  
يصبح الدنيا لعبة بين يدي . هذه الدنيا اللينة الجاثرة ، تصبح لعبة ،  
دمية ، تصوري ، اقيمها على قدميها فتفتح عينيها الواسعتين ، ثم تغمز  
لي باحداهما ، أنومها على ظهرها ، فترخي اهدابها الطويلة على عينيها  
المغمضتين ، اضغط على خصرها فتقول : آخ . »

« وأنا الآن اقولها : آخ ... جعلتني لعبة . اردت لك أن تجعلني  
لعبة ، تضغط على خصري ، لأنأوة لك . لأتحسر عليك . وعندما  
يحدث ذلك لي ، أبكي انسا كآلة كهربائية تتحمل فولتية معينة ،  
مخلودة . هكذا يبدو . إذا زادت الفولتية عن حدها احترقت ، والتهبت ،  
و ... جنت . إذا رأيته اخرج الآن الى الحديقة وأركض بين الاشجار  
عارية ، لا تندهنش ، هه ؟ »

« هذا بالضبط ما سنفعله كلانا معاً . »

« لا ، لا . أنت يجب أن تبقى مكانك ، وترقبي . لكي اعود  
اليك . انتظني ابالغ ؟ شوف ! »

ودفعت الشرف عني ، وقفزت عارية إلى الأرض شاعرة بعزيمة  
هائلة في جسدي ، وأخذت يده وأقنته إلى باب الدار . « أنت قف  
هنا ! لا تتحرك ! فاهم ، حبيبي ؟ » وتركته وركضت حافية إلى  
الاشجار التي لم اكن اعرفها ، في عتمة وامضة ، طرية ، باردة ،  
أدور حول كل جذع ، وأحوم حول كل صخرة الحجارة المكسورة  
الحادة أحسها تنغرز في قلبي فتزيد بها خضة ، وجسدي الوثني المشرع  
لوحشية الليل المنخن بالنجوم ينفذ في الاشياء كلها ، وتنفذ الاشياء كلها  
فيه ... أهو تالاش هذه الوجد كله ، أم وجود ، وجود عنيف كله ؟  
بلغت الطرف القصي من الحديقة حيث تنحدر الأرض إلى بحر كثيف  
الشجر رأيت فيه أناساً يتمشون ، فصحت من مكاني : « وليد !

أنزل إلى هذا المر ، إلى قاع الدنيا ؟ » كانت ذراعه تتأوج وهو يصيح : « عودي ! عودي ! »

عدت راکضة . واخترت حوضاً من اشجار الورد كان محاطاً بحلقة من الصخور ، وتحدثت فخذاي عيناً ويساراً ، وتوقفت بفئة ، وأخفيت ، والتقطت صخرة من الحوض وحملتها ، رغم ثقلها ، وعدت إلى وليد ، الذي لم يتزعزع من مكانه وهو يرقب جنوني ضاحكاً ، وقلت له لاهئة : « خذ ! » وناولته الصخرة . فأخذها مني ، قائلاً : « رائعة ، مثلك ! » ودفعني بها برفق إلى الداخل ، وشعرت بصلايتها الندية على خاصرتي ، وعدنا إلى غرفة النوم ، وارتيمت في كرسية الكوبر وأنا مبهورة النفس ، والقي هو بالحجر على الفراش ، صامتاً . ثم استدار نحوي ، ورع بين ركبتي . وقال : « سيكون مقتلي على يدك ، أنا واثق . » وأناهل على نهدي ، وشفني ، مبتلكني للمرة العاشرة وكأنها المرة الأولى . وأنا اقبض شعره ، وأرفع رأسه لالتهم فـه . وبين الحين والآخر الملح ، وراء كتفه ، الصخرة غائرة بثقلها في الفراش .

ترى ما الذي عنت لي تلك الصخرة في تلك اللحظات ؟ وما الذي ظن وليد أنني عنت بها ؟ ولماذا تبقى أبداً ماثلة أمامي ، لغزاً جميلاً ، مغرباً ، رمزاً مشحوناً بكل ما لا يستطيع وضعه في كلمات مهما حاولت ، سنة بعد سنة ؟ رأيتهما تكبر وتكبر وتغدو جيلاً ، وأنا على قتهما . أتشبث بها وزوابع الرغبة تمزقني ، ورأيتهما تصغر وتصغر وتغور في الفراش ، فأغور وراءها أبحت عنها ، أريد الامساك بها ، وتفلت من بين أصابعي .

في الصباح التالي رأيتهما لطخات من الدم على أرض الغرفة . كانت اللطخات في خط متعرج من مدخل الدار إلى غرفة النوم . كلنا قديمي

كانت مجردة تقطر دماً ، ولم انتبه ! وعندما لبست خذائي ، آخ ! كان الألم نافذاً ( ليذكرني . ليذكرني دائماً . ) كان صباح الاثنين ، وعليّ أن اغادر المنزل قبل مجيء « الصانعة » أم رياض . نزلنا أنا ووليد إلى الطريق العام ، الذهاب إلى سوق الغرب وعاليه . عندما ركبت سيارة الاجرة وحدي ، وتلفت خلفي بانطلاقة السيارة لأرى وليد يتباعد ويتباعد ، شعرت أن بيني وبين الواحدة . بعد الظهر ، عندما يأتي إلى وليد في بيروت ، هاوية سحيفة لم أصدق أن أياً منا سيفلح في عبورها . خمس ساعات ؟ أنها خمسة دهور لم أكن أدري أن مثلها يوجد في حياة الإنسان ، أو يمكن أن يوجد . ووجدت لذة في الاحساس بألم الجراح والحديث والرضوض التي في فخذي وقدمي . الألم يؤكد لي أن كل شيء فعلته ، وأفعله ، حقيقي ، وليس حلماً ، وأن الحقيقة يستتبعها منطق الواقع ، وأن الزمن في هذا الواقع هو ما تعدّه الساعة الصغيرة في معصبي . فلا أصدق .

في الفندق ناوطني كاتب الاستقبال مع مفتاح غرفتي رسالة تلفونية : من هشام ببغداد . قرأتها ، أنها رسالة من عالم آخر . ببغداد ؟ أين ببغداد ؟ ومن هشام ، زوج مريم الصفار ؟ ومن مريم نفسها ؟ أنا أنساة أخرى ، في عالم جديد أرضه حجارة عاشقة تجرح الأقدام العاشقة ، وهوأوه خر رهيبه . قلت للكاتب أنني قضيت الليلتين السابقتين في الارز . فأجابني بلطفه الماكر : « بابين عليك . وجهك ملوح بهواء اللوح . » القيت برسالة هشام في علبة النفايات ، وصعدت بالمصعد إلى غرفتي .

لأسبوعين دارت بي الدوامسة بسرعة مدوخة : دوامة من الناس والأماكن والمطاعم والبحر والجبل والمراقص . وليد ، وليد ، وليد . وأيضاً : حنان . قلت لها : أنها تذكرني بصديقتي جنان الثامر - لا من حيث الاسم فقط ، بل من حيث الشخصية والمزج . ولكن جنان

حبيسة البيت والاسرة ، تستنزف الجدران المطبقة نضارتها . فقالت : « وأنا تستنزف خلاياي الحركة العشوائية بين بيروت والجبل . سأكف عن هذا كله . حالما استقل بجيأتي سأعود الى الرسم . سأقطع الى الرسم . » ( ورباح ، وعارف ، وانسي ، ورياض ، ونزار ، و... نسيت الاسماء . وزرنا مروان في مدرسته الصيفية برمانا ، وقضينا معظم النهار معه . ينتج الاخبار السياسية بنهم ، وهو لم يكمل الرابعة عشرة بعد . فلسطيني حتى جلور شعره : طويل بالنسبة الى سنه ، ضامر الوجه كأى مراهق ذكي ، وعينه في تألق دائم . لم يهتم ببس كثرأ - هل حسب أنني اغتصبت مكان امه ؟ ترى هل كان يعرف أين امه ؟ لم اسأل ولید اسئلة تخرجه . كان يغيب عني في اتصالات مع أصدقاء له فلسطينيين فانتظره في مقاهي الحمراء ، أسبقه مساء الى دار العراقي في شمالان ، وأنا في توقع دائم ، وتحقيق دائم . والعشاء مع الاصدقاء في الكليف هاوس ، مع أطباق المازة الخمسين كلها ، مع التبتولة والعصافير ، والكببة النبعة ، وأسياخ الكباب ، والفروج المشوي ، وبطحات العرق - انما يجعلني في تحفّز دائم للمزيد ، للمزيد من كل شيء : للمزيد من الكلام ، والضحك والأكل والبكاء والعشق والنوم على صدر ولید . وكلما تساءلت : ترى هل بلغت القضية حدّ الفضيحة ؟ هزّزت كتفي ، لا أريد أن اسمع الجواب حتى من نفسي . ايتها الجنيّة المنطلقة ، العالم مليء بالنحيب ، وسيأتي دورك ، فقيم العجلة ؟

وبدون سابق انذار قال ولید ان عليه ان يطير الى القدس في اليوم التالي . رجوته ان يؤجّل سفره ، فقال ان لديه مواعيد لا يمكن العبث بها . مواعيد ماذا ؟ رفض ان يحدّد . بعد ظهر اليوم التالي ، السبت ، سيسافر مع طبران الشرق الاوسط . تطير الطائرة في الثانية والنصف ، وعليه أن يكون في المطار قبل ذلك بساعة ، وسيترى اليه مباشرة من شمالان . وسنلتقي بعد ذلك ببغداد ، بعد اسبوعين او ثلاثة . زين ؟

زين . زين جداً . وترمّل مريم اسبوعين او ثلاثة . ومن قال ان ببغداد ستسهّل اللقاء ، ولا تأتي الا بالزيد من الرّمّل ، واليّم ، والفجيعة ؟ في اليوم التالي ، السبت ، في الساعة الواحدة والنصف بعد الظهر ، كانت مريم تواجه موظفة الشرق الاوسط في المطار . باسبورت ، بطاقة الى مطار قلنديّة ، حقيبتان - مع وزن زائد قليلاً . وجاء ولید متأخراً بعض الشيء ، ورآني واقفة انتظر .

« مريم ! جئت تودعيني ! أحبك ! »

« تحبني وتريد ان نهرب مني ؟ »

« لكي يزيد حبك لي حين لا تربيني . »

« هذه معادلة قديمة لا أصدقها . »

أنهى معاملته مع الموظفة . تناول حقيبة يده ، وسار باتجاه مأمور الجوازات . وسرت معه . وعند الحاجز التفت اليّ ، وقال :

« أعطني بنفسك . عودي الى ببغداد بسرعة . »

وسلم جواز سفره . وأخرجت أنا جواز سفري من حقيبتي وسلمته المأمور . فانسحق ولید : « ما هذا !؟ »

وضحكت ، وانا اندفع معه الى قاعة المسافرين ، وقلت : « رجلي على رجلك ! وهل أرى القدس مع أحد أفضل منك ؟ »

ونظر إليّ نظرة حيرة ( هل أغضبته بمفاجأتي هذه ؟ ) ، ولكن الحب كان ملاً قهات وجهه . وانحنى إليّ وهمس : « أموت على ربك ! سيكون مقبلي على يدك ، أنا أعرف ! » واختلس قبلة سريعة من خدي وانتشرت في جسدي رعشة من اللذة . وثقلت حولي لأرى هل هناك من يعرفني ...

كان ذلك صيف العام الذي سبق صيف هزيمة حزيران . لو لم يبق لي من ولید إلا ذكرى القدس وأسوارها ، ذكرى وديانها وتلاها ، لكان ذلك حسي . بلغتها وكلّ نشوة ، وخوف ، واثارة ، وحزن ، ودهشة .



بلغتها وأنا امتلك ولید ، وامتلك الدنيا ، وأعرف أن قدمي على حافة الهاوية . وفي أشهر قليلة كنت قد فقدت كل شيء . في الظاهر . وفي الخفاء بقي كل شيء غائراً في أعماق ذاتي ، كنتك الصخرة . المدينة السحرية ، والليالي السحرية القليلة ، أعماقها أعماق أزمان الحضارات والتواريخ كلها ، اختفت فيها ، واختفت في . ما أن حطت الطائرة في مطار قلندية ، حتى أردت البكاء . هذه الطبيعة ، هذا الهواء ، هذه الألوان - لم اعتدها ، لم اعتد مثلها ، لا استحقها . والطريق العريضة بين التلال الخضراء والبنفسجية ، ترصعها منازل الحجر البيضاء - الله ، ما أسهل الوصول إلى الفردوس ، كنفاذ سكين حادة إلى القلب ! أنا أدري أن وليد لوّن لي كل شيء ، وعقّده ، وضاعف فيه المنعة والفجیة معاً ، وهو يقوم بدور الدليل مع هذه السائحة العاشقة : رام الله هناك ، وهنا بيت حنينا ، وعلى اليمين القدس . التي اغتصبها العدو ، وليس لنا من معين ، وهنا القدس التي سنحميها بدمائنا ، وليس لنا من معين . وعند باب العامود استقلنا سيارة مرة أخرى ، وبمحاذاة الأسوار ، نزلنا في طريق ضيقة ملتوية بين أشجار الزيتون . الطور وجبل الزيتون وراءنا ، وراحت السيارة تلف ، وتنطف ، وتهبط وتصعد وأنا أتثبت بذراع وليد ، وهو يتحدث عن هذه الأرض التي يعرفها شبراً شبراً ، كما لم يعرف أي أرض ، أو أي جسد . وبعد نصف ساعة كنا في مشارف بيت لحم ، ومنها نزلنا وادياً آخر إلى اليمين ، ثم صعدنا ، وصعدنا ، بين الزيتون والصنوبر والكروم . إلى أين نحن صاعدون هكذا؟ إلى بيت جالا . بلدة صغيرة ، تتلوى الطريق فيها صاعدة بين بيوت كبيرة ، قديمة ، بين أناس واقفين بالأبواب يتصاحكون ، إلى أعالي أخرى ، إلى المزيد من الزيتون والصنوبر والكروم . وفي القمة كان هناك فندق ، وصلناه ، والشمس المنخفضة تشع من بعيد في عيوننا كقرص ذهبي كبير ، وقد انكسرت حداثها ، والريح تهب نشطة باردة عبر آفاق

زرقاء ، شافة ، تتوالى ولا تنتهي .

أخذنا غرتين متجاورتين . قال وليد إنه معروف لدى الجميع في المنطقة ، ولكن سناداري الأمر بقدر ما نستطيع ، دفعاً لأي لفظ ، وبالطبع سيلغطون . ثم أضاف : « في الواقع لديّ دار صغيرة في بيت لحم ، تقم فيها خالتي وتعتني بها ، لكي أجد مكاني مهياً كلما جئت هنا - مرة أو مرتين في السنة . »

في الأيام الثلاثة التالية كنت في حركة مستمرة بين الكنائس الفسيحة ، والأديرة الكبيرة ، والشوارع الملتوية الضيقة ، المليئة بالناس ، والباعة ، والدواب ، والسيارات ، والمنادين ، والأطفال ، وبنات المدارس في أزياهن الأنيقة . النساء بفساتينهن الزرقاء أو الحمراء الطويلة وحطائهن البيضاء الصافية . هنا القرويات لا يلبسن السواد المفروض عليهن في قرى العراق منذ أن يفتحن أعينهن : ما أوسع الشقة بين رمز الحداد والظلام ونفث الحياة ذلك ، وبين هذه الألوان الإيجابية المشتقة من الفرح وأنبلج النهار ... « انه موقف من الحياة لا يمكن أن يفهم . » قلت لوليد . أخذني إلى مخيم اللاجئين في الدهيشة ، على طرف من بيت لحم : مدينة مصطنعة ، مزاولة ، بيوت حجرية بائسة تتخللها الصخور من كل ناحية ، تعج حركة ، وتوج وجوهاً ، وأصواتاً . ومنظمة رغم اضطرابها المشحون ، تنظيماً غريباً ، والأطفال في كل مكان . « هنا خلايا الثورة ، » قال وليد . « عراقيل ، وتعجيز ، من كل لون . ولكن خلايا الثورة تتوحد في كل شبر من هذه الصخور . » أقبل علينا الرجال ، يصافحوننا بحرارة . شربنا معهم الشاي والقهوة . يعرفون أبا مروان كواحد منهم . يهايمونه . يعاملوني كواحدة منهم . وكان أطيب ما سمعت ، تعليق امرأة واقفة بالباب ، حياها وليد ، فقالت : « ما أحلاها ، امرأتك ، يا أبو مروان ! » وما كان مني إلا أن انقبت عليها وعانقتها ، وقبلتها على خديها بحرارة .

وكلا دخلت كنيسة ، ورأيت صورة أو تمثالاً لسمي العذراء ، استعبد لها شمعاً ، وأسقطت في الطبق أو الصندوق ورقة نقدية ، وتمت بكلمات بني وبين نفسي ، ورفضت أن أفصح لوليد عن النذر الذي كنت أنذره . مرة بعد مرة . وفي كنيسة المهد ، ومغارها الميلادية المظلمة ، المنارة بقناديل زيتية قديمة ، أحسست ، على غير ما توقع ، بأنني جزء من تلك الأرض الحجرية الصلبة ، جزء من صمودها وعنادها ، جزء من قدسيتها ، وإن جيتي مقدس مثلها ، وعليّ أن استمر بذلك الحب معها حدث .

وهكذا فعلت في القدس ، حيث انتقلنا بعد ذلك ، وأقنا في فندق خارج الأسوار . لسوف أظل اسمع تلك الأصوات الغريبة . وأرى تلك الطرقات المعقودة العتمة ، وهي تنتهي فجأة إلى مشهد من فضاء وهاج عريض تتلألأ في وسطه قبة الصخرة . بقيت أنجول فيها وحوها كالمأخوذة بين اناس كثيرين ، ولوليد بدتني بالتواريخ والأحداث والأرقام . وعندما أردت دخول المسجد الأقصى ، أوقفني بالباب شيخ بلطف : « سيدتي ، لا يجوز دخولك هكذا ، عارية الذراعين . » وقبل أن أدرك حقيقة الموقف ، أسمعني رجل آخر ، مسنّ وقور ، قائلاً : « تقضي ، وخذي حطتي . » ونزع عن رأسه العقاب ، ورفع كوفته ونشرها على كتفي ، بحيث غطت ذراعي العاريتين ، ودخلت مع الداخلين . ما أقل ما أعرف من تاريخنا ، وأنا طالبة التاريخ ! ولما خرجت ، كان الرجل الوقور واقفاً قرب الباب ، لأعيد اليه كوفته ، متلحمة بكلمات الشكر .

لم يكن ولید دائماً معي . مواعيده التي جاء من أجلها شغلته ساعات كثيرة ، وأنا لا أعلم عنها شيئاً . لم أكن كثيرة السؤال حين رأيته يرفض أن يسهب في الجواب بشأنها . كان يهمني ألا يطل الغياب . وألا يتركني في الليالي - فقد تركني وحدي لليلتين فلم يغمض لي جفن فيها .

وعلمت - وإن كنت قد اشتبهت في ذلك منذ البداية - انه عضو في منظمة فدائية ، يتحدث عنها كثيراً بحماس ، ولكنه لا يخوض في الموضوع بالنسبة إلى نفسه . ( أيقنت من ذلك بعد اعتقاله وتعذيبه على أيدي الصهاينة في خريف السنة التالية ، بعد احتلالهم الضفة الغربية . سمعت التفاصيل من جنان وأنا أدرس للاجستير في انكلترا . ) ولست أشك في انه بقي عضواً نشيطاً في المنظمة حتى النهاية .

آه ، تلك الصخرة ! ست سنوات أو أكثر قد مرت ، وهي ما تزال أمام عيني ، رمزاً مغرباً بالانزلاق إلى طوايا الذاكرة وشوارد الهمم ، وأنا لا استوضح تماماً نزفي وعمودي ، ولا أعرف بالضبط كم أحبني ولید . ولكنني أعرف كم أحبته أنا - ذلك الحب الحارق الذي ، رغم النذور والشموع ، أو بسبب منها ، فجر في أعماقي هم اللوعة واللذة لأشهر غيرت حياتي كلها ، ثم تركني أنحيط كيفما اتفق .

سبقت ولید إلى بغداد . وتسارعت الدوامة جنوناً وهوساً ، وسقطت في اشكالات متعاقبة مع هشام وأنا احاول اخفاء جنوني وهوسي ، عنه هو على الأقل . وبعد بضعة اسابيع انفصلت عنه للمرة الاخيرة - في عاصفة مريضة من المشاهد العائلية المؤلمة - ثم تم الطلاق ، بشأن تنازلت عن الصداق المؤخر ، وتنازل هو عن حصته في البيت ، بقيت مقيمة فيه . ( وتزوج هشام بعد ذلك بسرعة من امرأة لست ادري من أي رصيف التقطها . ) وجاءتني مع ولید تلك الاشهر التي ، إذا قسنتها بتعاقب الأيام والاسابيع ، بدت قليلة جداً ، ولكن إذا قسنتها بعمق الساعات من كل يوم بعد يوم ، بدت وكأنها التهمت نصف سني حياتي - أو على الاصح ، اضافت سنين بقدر عري إلى حياتي . كل ساعة عنة وخلاص ، كل يوم جموح جديد ينداح بي نحو شطآن أبعد فأبعد ، فأتسع اتساع الكون ، وتقود كل ذرة تقع تحت حسي في

روعة الشمس وهول الزواجع . حتى ما عدت افترق بين البقطة والحلم .  
بين احساسيس الجسد وهلوسات الذهن . بين النشوة والعذاب .

ولكن العذاب كان في ازدياد ، والمدينة تشدد ضوضاؤها في رأسي .  
أروي لوليد احلامي الغربية ( ولا اكف عن تسجيلها في دفاتري ) ، ثم  
جعلت أروي له كوايبيسي ، وهي تتواتر عليّ ... مع الامطار جعلت  
النشوة تززعني . وكلما صارحت سوسن بشيء منها قالت : « مريم ،  
الا تخشين على عقلك ؟ افعلي شيئاً حاسماً ! غيّر حياتك . »

لم يفهم عامر بعد انقطاعي عنه ، ما الذي أصابني . وانا واثقة من  
انه تظاهر بذلك ، ليوفر عليّ الحرج ، ويسهل عليّ الأمر ، ولم  
يطالبني بشيء . وعندما قام ولید باحدى سفرات اعماله الطويلة ، وجدت  
أنه لم يبق الا أن انقذ أخيراً ذلك القرار السذي كنت اتخذه قبل أكثر  
من سنة حين بلغني القبول من جامعة ساسيكس لاستئناف دراستي . وصباح  
يوم أغبر قارس البرد ، اخذتني سوسن في سيارتها إلى المطار .

في اثناء السفارة القصيرة من دارنا إلى المطار ، شعرت بأن المفارقة  
ساخرة وجارحة حقاً . قلت لسوسن : « اذكركين ذلك السماء ، عندما  
اخذتني بسيارتك هذه إلى بيتك في انتظار عامر ؟ »

بقيت عيناهما مركبتين على الطريق ، ثم اجابت : « ها ! بداية لم  
تكن بالبال ، لنهاية لم تكن بالبال ... لكن هذه الآن بداية أخرى . »

— « نعم ، لنهاية لن تكون بالبال ... »

في المطار وجدت امي واختي في الانتظار لتوديعي . قبلتهما وانا أقول  
لكل منهما : « اعطني سيرين . واكتبي لي كل اسبوع . » ثم همست  
لسوسن وانا أقبلها : « سلمني لي على الجماعة . واكتبي لي عنهم . »  
فقال : « ماذا ، كل اسبوع ؟ ! » وضحكت .

كتب إليّ ولید : وكتبت له . ومرضت لفترة . وكان حزيناً

الفاجع ، وانقطعت الرسائل بيننا .

ما زلت اخشى عودة الشقيقة في نوبات مباغتة تشل حركتي . ما  
استطعت أن أحب أحداً بعد ولید . ( الجنس ؟ لا ، الجنس امر آخر ،  
يختلف عن الحب بالمرّة . ) وبقي ولید بحرفه تيارات اخرى ، اسمع  
أحياناً عنها ولا اعرف مبلغ الصحة فيها . تركت ذلك لغيري . اراه في  
حفلات الاصدقاء ، صديقاً عزيزاً مهياً دوماً للجدل ، ولكن اخشى الافاضة  
في الحديث معه وحدنا . وعامر وأن يدهشان الجميع كل يوم بمجديد ، امتاعاً  
للاصدقاء ، ودفعاً لها عبر بحرهما المائج بقلق غريب . وعامر ، بأنفته  
وكبرياته ، لا يشير إلى شيء مما كان بيننا ولو بكلمة . وقد تحولت  
سهراته ، لزمان ما ، إلى حفلات راقصة . فبعد انسحاق الهزيمة وكآبتها  
بسنة أو سنتين ، عمّ الطيش ، وعمت شهوة التسيان ، وعمّ المني  
سكربت ، وعلا صخب « الروك » في كل مكان .

أما أنا فعلا بي صخب آخر ، مدمر يدعوني إلى الاعتراف . تلك  
الصخرة اللذيذة العينة التي تنفل اعماقي ، هل من وسيلة للتخلص منها الا  
بجعلها محوراً لحديث يفتتها ، يذبيها ، بالكشف والتكرار ؟ ولكن عندما  
وضعنها بين يدي الطبيب النفسي طارق رؤوف ، لم تنفت ولم تلب ،  
بل تحولت إلى صخرتين ، كتبت يقطع رأسه فينبث له رأسان ،  
وأدركت أن التنتين ، كلها استمررت بقطع رؤوسه ، نبثت له رؤوس  
أخرى . فارتعيت ، وقطعت الطريق على طارق . أشفقت على سميرة ،  
أذ ، لم أشفق على طارق . له أن يداري صخرته كيفما شاء ، ولكن ما  
ذنب زوجته حتى أضيف شقاءها إلى شقاوي ؟

منى ، متى سأكتب كل شيء بوضوح ، وتفصيل ، ودقة ، كما  
ينبغي أن اكتب ؟ غير انني لسن انسى ذلك الكاتب الفرنسي الضحوك  
الذي لقيته في احدى حفلات العشاء في حديقة عامر وأن ، حين قال

لي بلغة انكليزية تلوّتها لهجته الفرنسية : « أتريدن أن تكتبي ، مدام ؟  
ولماذا تريد امرأة جميلة مثلك أن تحمل نفسها مشقة الكتابة ؟ » وقبل  
يدي ، وانصرف .

حقاً ، لماذا أريد أن اكتب ؟ ما الصخرة الا باقية مكانها ،  
واقعاً ، وهلوسة ، وهاجساً بما لا يمكن أن يكون . ثم ان الكتابة :  
إذا اردت أن يكون لها قيمة حقيقية ، ليست الا اشغال نيران الفضايح .  
وأنا في غنى عن الفضايح . فلأنصرف إلى اتمام محاضراتي عن داود باشا .  
الكتابة عنه أسهل وأجدي . انه لا ينتمي إليّ ، ولا تقلقني ذكره في  
ليالي الصيف . لم اقتلع صخرة من حديقته ، ولا هو يستطيع التدخل في  
شأن من شؤون حياتي . وما اكتبه عن حياته ستساعدني الجامعة على  
نشره . ولا أظنها ستساعدني عن نشر ما قد اكتبه عن حياتي أنا . أو  
عن وليد .

- ٨ -

وليد مسعود يفتقر إلى أمطار التجدد

مطر . ما أعذبه . ما أمره . أحبه ، أخشاه ، أترقبه ، وأتمنى  
استمراره . وأتمنى انقطاعه . أصواته الناقرة ، الضاربة ، المخرخرة ،  
تثيرني ، فأريد الحب ، والغناء . وأريد الثلاثي . والموت . كان ملاً  
الوديان ، والطرق ، ويزأ من بيوتنا ، ويخترق سقفها المسكينة بحثاً  
عن بواطنها ، اسرارها . وهل للفقراء اسرار ، وللأطفال أسرار ، وهل  
للأمهات أسرار ، في الليل يتصبب عليهم المطر ؟... بهمي جميلاً ،  
بهمي على رساه ناقرأ أوراق الشجر ، ناقرأ زجاج النوافذ ، مسريلاً  
الكون بغلالة من الخرز ... وينفجر قوس قزح فوق الهضاب والوهاد ...  
ثم يعود المطر ويزمزم ويخط ويقرع ويرسل غريان الطوفان في أرجاء  
الأرض . ما أطيب السير في مطر أول الليل على الأرصفة في المدينة ،  
والماء يتلظى عنها الى السواقي . والناس يسرعون الخطى ، ويتقنون الليل  
بالجرائد ، بالمعاطف ، ومسا أطيب التخطيط في البرك الصغيرة الوضاء  
بالوان الكهارب ، والشعر يتلبد أكثر فأكثر على الرأس . وحول الوجه ،  
والسيول الصغيرة تترقرق على الخدين . والأنف والذقن . مطر ، مطر .  
والشآبيب تضرب حجارة الأسوار الكبيرة ، السوداء ، الرابضة منذ القرون  
الحوالي في الظلام المديد العريض ، المثقّب بالأنوار القليلة المتناثية ،  
المصدّع بالبرق والرعد ، المختترق بالرياح والصفير والعويل . في ردهة  
باب الخليل : حول نار من أخشاب الصناديق العتيقة ، الليل ، والتعب ،

والبرد ، واللفاف الصوفي حول العنق ، والمعطف الأسود الثقيل ، والأقدام الرطبة لا تندفأ ، واللَّهَبُ تتصاعد وتتلوى وتلدخن ، ووجوهنا في النور المتراقص تتغير من قناع الى قناع . وفي الداخل سؤال يُسمع كأنه صادر من أعماق بئر سحيقة : من أنا ؟ من أنت ، ما الذي أفعله هنا ؟ من هم هؤلاء الذين حولك يضحكون ، يضحكون في وجهه الموت ، والمدينة يلتهمها الوحش عضواً فعضواً ، ساعة بعد ساعة ، والمطر ينهمر وينهاوى ويلعلع مع الزواجع — أي فجعية يتنبأ بها كل هذا الحزن ؟ كل شيء أسود ، عتيق ، هرم ، والمطر يهطل يهطل . مطر مطر مطر مطر مطر ... وتنبثق حياة رائعة وثابة في الأعماق ، ويتحول الأسود إلى أخضر ، والعتيق يرقص ، والهرم يلهب نضارة ... مطر مطر مطر ... فلأمت ! تخميت الموت تلك الليلة . أنا وبشر وطهوب أخذنا الجندي الانكليزي إلى غرفة قرب « نقطة » البوليس المجاورة ، وجردناه من زيه الخاكي لكيما أتذكر فيه ، ولم يقاوم . وبعد ساعات قليلة انتهينا من العملية وسمعت الدويّ انقاص المجلجل الزاعق ، وتصورت كل شيء . آه فلأمت ، ان كان لك بموتي أن تحييي يـا مدينتي . يا أوغسطين قرطاجة ، ما الذي كنت ستقوله لو علمت ؟ شعبي الأعزل يقتلونه ، ويقتلعونه ، وينسفونه ، ويبيعرون أشلاءه عبر وديان الأرض وجبالها . مطر مطر مطر مطر . فلأقتل ، ولأمت بعد ذلك . نهاوت الجدران ، وتعالى الصراخ ، والمطر ينهمر ، وأفواه القرب تنفثاً أحشاء الساء بمجموعها على المدينة المجرحة المسكنية ، المدينة المشوقة المتهكة في المطر ، وفي الليل ، المتهكة في الضحى وفي الظهيرة ، في الصحو والغيم والعاصفة والسكران . بكيت صامتاً . وجهي تضربه الريح والمطر . جزعزت على أخي القليل ، وجزعزت على أهلي القتلى ، وجزعزت على صحي ، وأمي ، وجزعزت حتى على من قتل في تلك اللحظات ، ومن سوف يقتل ... والمطر يبدق النوافذ ، والأبواب ، يريد أن يحترق

البيوت والمغلقات والأعماق ، يريد أن يجري أنهرأ في الحنايا والخفايا ، مهدداً بالموت ، ومنقذاً من الموت من أحب ، من سوف ألد ... مؤذناً بحياة تضطرم وتضطبخ وتتناسل سرّاً وعلانية ... أيها المطر ! أيها الفجر الأسود الذي لا ينبج ! أيها الساعات المحملة بالهدم والردم . بالانقاص والحرايب ، أيها الصباح المحشرج بسيلو الدم التي ستدق اليوم ، وغداً ، وبعد غد ، والسنة القادمة ، وما أنفكت تدق عبر خمسين سنة من صراع ، وجراح ، في كل ساعة من ساعاتك الثقيلات الباكيات ... بعد أقل من عشرين سنة ، جاءوا إلى داري بيت لحم ، قرعوا الباب ، خبطوه بعنف ، والمطر يقرع ، ويخبط معهم ، ودخل ثلاثتهم عليّ وهم ينفضون عن معاطفهم اللبل . « وليد مسعود الفرحان ؟ نعم . تفضل معنا . في هذا المطر ؟ آسفون لازعاجك : أأسكن هنا دائماً ؟ يعني . يعني . ماذا ؟ يعني هذه بلدتي ، مدينتي ، أرضي . طيب ، طيب ، طيب ، امش معنا . أأسمحون بأن ألبس معطفي ؟ نعم . من يسكن معك ؟ لا أحد . ستفتش البيت ... فتشوا الغرف . قلبوا الكراسي ، فتحوا الدواليب . وضعوا الأصفاد في معصمي . دفعوني نحو الباب . نزلنا الدرج . كانت السيارة العسكرية على مسافة عشرين متراً من مدخل الدار ، علينا ان نعبها من خلال المطر . عبرناها ، وتبللنا جميعاً . اركبوني في الحوض الخلفي بين اثنين منهم ، وجلس الثالث قرب السائق . الطرق مهجورة . كانت البلدة تلبس المطر كما تلبس الشكلي ثياب الحداد . رأيتها تتألاً كجوهرة ، وتمالاً أجواءها عصفير السنونو ، ورأيتها وزهر اللوز والشمس يحضن منازلها وتنطلق الزغاريد من شبايكها ، ورأيتها والثلج كتياب العرائس يملأ طرقاتها وسطوحها ، ورأيتها يوم ٧ حزيران ومدافع الاسرائيليين تلك منازلها ، وتصرع أهلها ، ثم جاءوا بعد الظهر فاتحين محتلين . وفي اول امطار الخريف ، وبعد جداد الزيتون ، تفصّدت أجواؤها دموعاً ، ورأيتها مجرحة وأنا في سيارة الجيب ، والأصفاد

في معصبي. صامتاً انظر الى الوادي والتلال البعيدة عبر الغلالات الجميلة الحزينة. ان كان لك أن تحي بعدايسي، بموتي، يا مدينتي، فليجدوني، ولأمت. من هم هؤلاء الغزاة الذين لا وجه لهم؟ أعرفهم ولا أعرفهم. رأيتهم في التواريخ التي شحنت دماغي. يأتون، يهدمون، يقتلون، ثم يتهديمون ويتساقطون. ونزلت بنا السيارة وهي تختص وتطلق نحو الموردة، وأخذت تصعد في الطريق الملتوية مارة بدير مار الياس. كل حجر أعرفه ما زال هناك. وكل شجرة. ولكن أين الاراجيح، أين بانعو الجرار الصغيرة، أين المتعاركون الضاحكون حول بثر الماء، أين بانعو الكباب والمعاليق والطحالات، وروائح الشواء تتأوج بين أشجار الزيتون؟ أين زجاجات العرق، والفتيات الجميلات، ومغنو العتابا والميجانا؟ أتبيكن يا تلالي المسكنة؟ هل أقفز من السيارة العسكرية الى حواكيرك، وأنغرس في طينك، وأصبح جزءاً من ترابك، واشواكك وشقاقلك، وصعدنا. صعدنا الى باب الخليل، وحجارة الأسوار الضخمة، كاللوحش الرابضة، تنتظر. تحت ضرب المطر، تحت دق أحذية الجنود الغازية، تنتظر. لا تبسم. ولا تبكي. تنتظر. وبمحاذاة السور صعدنا، ثم دخلنا «المسكوبية» - الكنيسة الروسية القديمة مسا زالت هناك: لكنهم أخذوني في الاتجاه الآخر. وأتزلوني الى الزنزانة. ثم أخذوني الى غرفة فيها رجال أعرفهم دون ان اكون قد رأيتهم من قبل. متعبن، شاحين، صامدين، وجيملين. سمعت أصواتاً خليطة. صراخاً. أجساداً تجرر على الأرض. وقابلت المحققين في تلك العملية البذيئة، المبتذلة، التي عت وجهه الأرض، ولا تنتهي. امك، عرك، عنوانك، ابوك، امك، وصدمة الكلمة على عينك تعميك للحظتين. ضربني صبري بالحجر على وجهي لأنني كسبت منه خمس بيضات ملونات يوم العيد الكبير، ولكنه ضربني وهرب. هنسا لا يهرون. يضربونك، ويقفون على رأسك، لأن يدك مقيدتان، وشعبك مقيد.

ما علاقتك بفتح؟ أنت هاجرت الى بغداد. أقت في الخليج. في بيروت. ماذا تعمل في بيت لحم؟ من رأيت في الخليل؟ في بيت ساحور؟ في نابلس؟ في رام الله؟ في البيرة؟ لم أر أحداً سوى زوجتي. زوجتك حجة واهية. أبداً. كانت الزنزانة الرطبة لا تتسع لقامتني وقوفاً. أغلقوا بابها، ظلام تام، حتى ولا ثقب في جدار، أو ثقب لفتاح. ولم يكن فيها: إلا تنكة الغائط. أه لو أستطيع النوم، لو أغيب عن الوعي. بعد ساعات، صراخ وعويل أسمعها وانا في الزنزانة. وليد، تذكر طفولتك، تذكر أيام الدبر، أيام الحرب في ميلانو وروما، أيام القدس، تذكر الياس جثة مهشمة تحت الأنقاض، وتلك الليلة الرائعة، الرهيبة، والمطر الدافق وسيارة الجيب «المصادرة» التي سقتها وهي مشحونة بالدبناميت، عبر منطقة ج. ثم منطقة ا، ثم منطقة ب، وأنت بلباس الجندي الانكليزي، وبقرتك الجندي الانكليزي الآخر الذي كان هو أيضاً يريد الانتقام لجماعته. شتاء ١٩٤٨، وكأنها البارحة! عشرون سنة يا رجل! ويسألونك من رأيت؟ وماذا تعمل هنا؟ المهم ألا أنهار. يكفي أن ريمة انهارت، تعيش حياة الموتى في المصح. جروني من ذراعي وشعري، ركلوني في الاليتين، دفعوني إلى الغرفة الاخرى، المليئة باقراني الديسن لا أعرفهم، ولكني أعرفهم جميعاً. خذ حذرک من شيمون، يقولون. ونهتاهمس باسمائنا. طاهر، عمر، ياسر، زهدي... ويتجدد التحقيق. تهوي العصا على كتفي، فرسل رجات كهربائية في بدني. ألقوني على ظهري، امسكوا بوجهي بأيد شرسة، أعملوا أظفارهم واقحموا خرطوماً في فمي، ملأوني بالماء، ملأوني ملء القربة، وقلت ساموت. يجب ألا أنهار... ثم قلبوني على وجهي على البلاط القذر، واندلق الماء من فمي، والقيء... وتكرر التحقيق. اعطوني سيجارة، وقدموا لي شايًا حاراً. وتضاحكوا معي هذه المرة كككب معروقة لدينا، قالوا. وحركانك كذلك. وعضوبتك

في فتح . ونريد أن نربحك . من أنت ، بالضبط ؟ من رأيت ؟ من ، من ، من ... ثم العودة إلى الزنزانة والظلام الاسود ، فعودة إلى الغرفة الساطعة البديئة . وكانت تلك الهجمة التي فوجئت بها ، حين لووا ذراعتي خلفي ونزعوا عني بنطلوني وامسك شيمون بغتة بحصيتي ، وجعل يحرق جلد عانتي بحجارة سيكاره الغليظ هنا ، وهنا ، وهنا ، ثم أطفاله على مهل على ذكري . صرخت . صرخت صراخ رجس في السادسة والاربعين ، يشعر بأن في صدره شاباً عاتياً في السادسة والعشرين . كان البياض يخفف الألم وفجأة سألوني : اين طهوب ؟ ومن طهوب ؟ ألم تكن معه في عملية نسف شارع بن سوميخ عام ١٩٤٨ ؟ لا ادري عن ماذا تتكلمون . إذن هم يعرفون عن تلك الليلة الرائعة الماطرة قبل عشرين سنة ، ويدكرون طهوب ؟ كأنهم يقرأون دماغسي . ولكنني ادركت من استلثهم انهم غير متأكدين من شيء . والا فلماذا هذا التعذيب والجنون ؟ المهم "الا" انهار . التحمل والصمت حتى الموت . ولكن اين الموت ؟ الموت سهل لو جاء . الألم أروع من الموت بكثير . ترى هل توقف المطر ؟ هل تعود الشمس فتدفيء المدينة من جديد ؟ سأقوني إلى الزنزانة . ما عدت اعرف شيئاً عن الزمن . يجرؤوني من غرفة إلى غرفة . ورفاتي يتبدلون ، والمعدّيون يتبدلون - أم انني ما عدت أميز وجوههم ؟ والوطوبة والجدران والارض الباردة تذكرني بأمر غابرة غامضة . سأروي ذلك لروان عندما أراه . إذا لم أمت . ترى ما الذي يفعله الآن في برمانا ؟ أقرأ دروسه ؟ ألبع كرة السلة ؟ أنت بارع في كرة السلة ، ولذا جعلوك كابتن فريق المدرسة . مروان ، حبيبي ، اذكر اباك ، حافظ على اسمه تقياً ، حتى لو قتلوه هنا كالكلب . المهم "الا" انهار . والرجال ينهارون . أنا لست حديداً ، ولكنني ان انهار . فجأة عملاً الزعيق الدنيا . صراخ أجش ، يتلوه زعيق نساء . ميجر شابير ، كيف يستطيع انسان أن يجمع هذا القدر الفظيع

كله من الحقد في صدره ؟ فقال : « حقد ؟ هذا ليس حقدأ . نحن نريد أن نربحك ، أن ننهي عذابك . لا تتصور نفسك طرزان . ستعترف ، عاجلاً أو آجلاً . هذه ورقة ، اكتب عليها عشرة اسطر مما نسألك عنه ، وتخلص من كل هذا . تفصل سيكارة . آ ، لا تريد أنه تدخن ؟ ترفض أن تكتب ؟ خذوه . دائماً ، وابدأ ، مرة بعد مرة : « خذوه ، فهتموه . دبّروه . اجعلوه ينطق . » وفي غرفة ذات شباك صغير في اعلى الجدار ، اخيراً ، يندفق ضوء رائع من سماء زرقاء تجرّتها القضبان الغليظة إلى مربعات . عشرة ، عشرين ؟ - كم رجلاً نحن ؟ ننام على البلاط الواحد ملتحماً بالآخر . ويتقطع الزمن إلى فترات . بما يقذف البنا من حساء فاتر في علب من الصفيح ، وشيء يابس يسمونه خبزاً ، وسائل بارد يسمونه شايًا . وأهملوني بضعة أيام . ينادون اسماء متوالية بمكبرات الصوت ، يفتحون الباب فجأة ، وعلينا أن نهض جميعاً - يوقفوننا على ارجلنا بالعصي ، وأنا اصبحت لا استطيع الوقوف "الا" بجهد قاتل . كل عضلة فيّ تن . كل عضلة فيّ منفصلة عن الاخرى . يأخذون واحداً منا أو اثنين كل مرة . والذي يأخذونه قد لا يعود . أو يعود مهشماً ، ممزق الثياب ، ملطخاً بالدم ، ويبقى طريحاً على البلاط في أنين مستمر . ويوم نادوا اسمي ورفقي واخذوني ، كانت غرفة التحقيق ملأى بهم : شيمون وشابير وآخرين كثيرين ، البعض جالس ، والبعض واقف . وادخلوا عليّ محمود كاملة ، ووجهه كوجه من قام من قبر ، وراح يمشي تائهاً ويده مغلولتان خلفه . أتعرفه ؟ لا ! أتعرفه ؟ لا ! أتعرفه ؟ لا ! قابلونا الواحد بالآخر . كان محمود رائعاً . عيناه تقدحان في محجرتيها العميقين ، رغم شحوبه المريع : لم يرفّ له رمش عند رؤيتي . قد دام من الضرب . يا الله ! يجب الا انهار ! ومحمود هو أهمّ من أنصل به في المنطقة . صلب كحد السكين . ولما يبلغ الثلاثين . وهز شيمون برأسه لأحد جلاوزته . ففاجأني بكلمتين



قويتين في معدني . أتعرفه ؟ لا . ونختلط الوقائع بالاحلام بالكوابيس .  
نختلط الوعي بالانغماء بالانين بالصراخ . وأجرجر جيئة وذهاباً . ووقت  
ثقل كالرصاص : اسود كليل الموتى ، يمر . اشتبهت بغداد . اشتبهت  
بيتي اشتبهت الموسيقى اشتبهت وادي بيت لحم أبو ظبي بيروت شبلان .  
مروان ! كان في ملتباً بالسدم . أمّاه ، أمّاه . أتبيكين ؟ وأبي ،  
أبيكي ؟ والملائكة : أتبيكي ؟ والله ، أبيكي هو ايضاً ؟ وأوغسطين ،  
أيقرع صدره ويبكي ؟ ومونيكا تبكي ، والعذراء تبكي ؟ أيام تمر .  
حتى الكوابيس غدت مبتذلة ، ترقم التاريخ البربري .

أعطوني اوراقاً بالعبرية ، قالوا إنها الامر بايعادي . دفعوا بي إلى  
سيارة عسكرية . كان الجنود الثلاثة والسائق صامتين . ودفق المطر من  
سماه شهباء كرصاص . أحذيتهم واحزمهم ومسدتهم تملأ السيار  
الصفيرة ، وأنا مضغوط بين اثنين صامتاً مثلهم ارقب المطر . تدمرو  
فيا بينهم من هذا المطر ، والسفرة طويلة ، وقالوا : في الغور لـ  
يكون هناك مطر . وقال واحد منهم بلهجة عراقية : « بعد ساعتين ،  
ستركك . أتذهب إلى بغداد ؟ » فظفرت إلى وجهه ، إلى عينيه ،  
كانتا حزيتين . حزيتين جسدأ . هززت رأسي . وعند الجسر المهدم  
كانت هناك معاملات أخرى . قواي منهوكة ، خائفة ، أكاد أعجز عن  
الوقوف على قدمي ، وانا في معطفي المعفر الذي اصبح فضفاضاً علي .  
فقدت نصف وزني في شهرين . وكان هناك جنود عرب ، ينظرون  
إليّ كأنني عائد من عالم الموتى ، كمحمود . ولكن مشهد العائدين من  
عالم الموتى لم يعد يدهش احداً . يتكرر كل يوم ألف مرة المهم أن  
ابقى واقفاً ، الا أنهار ، أن أبلغ مروان .

كنت محظوظاً حيث شقي الآخرون ، ويشقون . أراد العدو رأسي  
لأنني ضربته اكثر من مرة ، لأنني ساهمت في تنظيم ضربه مرة اثر

مرة . وكنت محظوظاً لأنني افلحت في مراوغته مرة اخرى ، لأن جسدي  
تفسخ عضواً عضواً ، وبقي ذهني متماسكاً تحت سيطرة ارادتي . ولكن  
لو تعرّص جسدي اليوم إلى مثل ذلك التفسخ ثانية ، هل تتحمل رعبه  
الارادة وتجترح المعجزة ثانية ؟

خرجت غائماً الحياة باجمعها من جديد ، انشق الهواء البارد . ما  
اطيبه ! ما ألهه ! خرجت طفلاً تجاه الحياة ، اتمكز جسدياً ، ألم  
اوصالي بعضها إلى بعض ، واما ذهني ، وأما نفسي ، فاركض في فيافي  
الأرض كالفهود ، كالغزلان . غير انني جوبت بمسائل كسان عليّ ،  
لكي افهمها ، أن اتعلم لها الالف باء من جديد . وأية ألف باء كانت  
تلك ، أشق من المسهارة والميروغليفيه ، حين رأيت بلادي التي أرضي  
من اجلها بعذابات الجحيم ، تسلط تلك العذابات نفسها على كل من  
تقع عليه أيدي المنتفذين . من الخليج إلى المحيط سمعت صراخاً ، وسمعت  
بكاء ، وسمعت اصوات العصي والخراطيم البلاستيكية ، والمخبرون بملاؤن  
العواصم والقصبات ، بملاؤن الذرى والسفوح ، ورجسالم بملابس مدنية  
انيقة يروحون ويجيئون في سياراتهم كآلف مكوك في ألف نول ، يسوقون  
إلى مراكز الظلام اناساً بالعشرات ، بالآلات ، يضيعون بهم في متاهات  
الاروقة والزنازين ، ليرتفع في الليل والنهار صوت السؤال والانكار  
والاعتراف ، صوت الططاط يهوي على عري الجسد ، لتتراكم التهم  
والاكاذيب في الاضابير ، وتمتلئ الافواه بالدم . كيف استطيع أن اتعلم  
ذلك ، واقبله جزءاً من الحياة ؟ مروان ، كلما سقطت الامطار ذكرتك ،  
وذكرت كسل من أحب ، ذكرت طهوب وبشير ومحمود ، وامتألت  
كثيراً وخيلاً ، وكلما سقطت الأمطار ذكرت هموم امي ، ذكرت  
تخطيطها وأوجاعها ، وامتألت حزناً وفجيعة .

- ٩ -

وصال رفوف تكشف أوراها

(١)

المعجزات . انهما تهبط عليك من السماء كصخرة ملأى بالآلآء ،  
يسقطها في حضنك طير كبير ، جميل ، مجهول ، ضحى يوم مجنون .  
المعجزات هي هبات السماء هذه . فجأة ترى بين يديك روعة الوجود ،  
مبسدة : روعة الكون الاشجار والأشجار والغابات والجبال والبحار  
وشلالات الدنيا كلها . وفي لحظة عمقها دهور سحيقة تعرف كل شيء .  
وتنسى كل شيء . وتتركز اللذائذ كلها بعينيك ، بيديك ، بشفتيك .  
عرفت ولدت منذ سنوات . منذ ان كنت طالبة في الكلية . كنت  
اتصور انه يجذني جميلة محبوبة ، ولكنه يتجاهل . وكنت اتجاهل أنا  
ايضاً . كان في عالم لا تصلني به صلة ، اول الأمر . اراه وانا مع أخي ،  
او ابي ، او אחي . تحيات وحديث ، وشيء من ضحك ، وفراق ،  
فنسيان . ومررت السنوات ، وبقي اهتمامي بوليد ، او اهتمامه بي ، امرأ  
يردد بين الواقع واللاواقع . كنت اتصور انه كلما تعلق بأمرأة ثم ما  
عادت تهمة وما عاد يهتمها ، ربما خطرت انا بباله ، كومة من  
ومضات المستحيل ، وأنا تشادني عاطفة مبهمة أخشى ان استوضحها حتى  
لنفسني .

في يوم من ايام تشرين الاول ، في صباح انحصرت عنه حدة شمس

الصيف أخيراً ، والجهنميات تلتهب ألواناً خارج النافذة ، وأنا ما زلت  
أتناول الفطور ، أخذت دليل التلفون ، وبحثت فيه عن رقم وليد مسعود .  
ثم أخذت جرعة كبيرة من الشاي وأسرعت بعدها الى التلفون .

« هلو ! »

« هلو ! »

« هل الدنيا رائعة عندهك مثلها هي عندي هنا ؟ »

« بل أروع . »

« مستحيل ! »

« من الذي يتكلم ؟ »

« هل انت وليد ؟ »

« نعم . وأنت ؟ »

« كنت اتصورك أسرع من ذلك . حديثنا كله الليلة الماضية ،

هل نسيته ؟ »

« وصال ؟ »

« الحمد لله ! ولكن الحديث لم ينته إلى نتيجة أمس . »

« في وسط ذلك الضجيج والموسيقى الصارخة ، كيف ينتهي أي

شيء إلى نتيجة ... افرديين أن تسمعي قصيدتك ؟ »

« بالتلفون ؟ وأنت ربما لم تقطر بعد ؟ والشعر العظيم ، كما قلت

أنت ، حدس نبوي . يا ويل الانبياء ! »

« لا ، أنا أفطرت ، ومستعد لتلقي الحدس ، نبوياً كان أو غير

نبوي . »

« ولكنك لم تحدد حتى بالتي فتحت لك التلفون في الصباح

الباكر ... هل أنت مشغول جداً ؟ »

« هل كنت مصممة على دمه المخابرة منذ أمس ؟ »

« طيلة الليل . لم أتم . ربما لأنني شربت كأساً من الويسكي

ارضاء لك .. وأنت تعلم اني لا أشرب ابداً . ثم شربت كأساً أخرى  
وأنت لا تدري . »

« كأسان اثنتان منعنا عنك نوم الشعراء ؟ »

« بل كلامك ، على الأرجح . ما السذي ايضاً قلته أنت

اتذكر ؟ »

« هل قلت ما يمنع النوم عن أخذ ؟ »

« لا توارب . »

« أخشى اني اكثرت من الشرب وقلت ما لا يحسن أن أقوله . »

« ابداً . ابداً . سأذكرك فيها بعد . هل انت مشغول هذا الصباح ؟

هل أستطيع ان أراك ؟ »

« أشغال الدنيا كلها فداك يا سيدي »

« وليد ، انا جادة ! »

« وأنا كذلك جاد . »

« اتستطيع اذن أن تمر بسيارتك على بيتنا بعد قليل ؟ »

« على بيتكم ؟ الآن ؟ »

« لا تخف على سمعتك ! »

« هكذا ؟ فكلت من هو الخائف . هل أنت حاضرة الآن ؟ »

« أمهلني ربع ساعة . »

« ربع ساعة ؟ الصباح الرائع لا يستمر الى الأبد ، كما تعرفين . »

« ولكن أريد أن امشط شعري ، و ... »

« طيب ، عشر دقائق . »

« ستجديني بالباب . »

هكذا ، من غير مقدمات . او بعد مقدمات دامت بضع سنوات .

وسهرة في بيت عامر - سهرة من تلك السهرات التي لا يجيد أحد غير

عامر وزوجه اقامتها . بيت مليء بالتحف والكتب ، وحديقة تسع لآلف

شخص ، ملأى بالنخيل والجهنميات وأحواض الورد . وقد قُسمت أشكالاََ تحداها جدران أقيمت هنا وهناك ، بارتفاعات متفاوتة ، بعضها أصمّ تنعكس عنه الأضواء ، وبعضها يحوى أقواساً رهيبة تؤدي إلى مماش تنق على جوانبها الضفادع ، أو تؤدي إلى جدران صماء مظلمة .  
 متاهة المينوتور ، مصغرة ، معصنة . وهي تنعكس ذهن عامر عبد الحميد ، الكثير التلايف والشعاب ، المتمتع دائماً بتضليل نفسه والآخرين ، والذي يستقر في عمق ما مظلم منه ، مينوتور يلتهم الناس والأفكار والأشياء ، ولا يشبع . ووليد يجتذب اناساً فيهم هذا التعقيد وهذه التلايف - أو أنهم هم الذين يجذبونه . فين المدعويين في الليلة السابقة شعرت أن هناك الكثيرين ، والكثيرات ، ممن يريسدون اقتناص هذه الضحية اللذيذة السهلة . ولكنني كنت مصممة على ألا أفوت الفرصة هذه المرة . الليلة رائعة ، المتاهة منتشرة ، ووليد لم يفلت من يدي إلا إذا ثبت أنني غيبية ، عديمة السحر ، لم اتعلم بعد كيف أسوق الكلام إلى غاية في نفسي . وقد شعرت ، حين رأيت تحت أحد الأقواس والكأس بيده ، أن موجة ترفني فجأة إلى علوٍ شاهق ، مدوخ . كان وحده ، للحظة ، قبل أن تحط الغريبان . وصال ، هذه فرصتك . أخيراً ! أسرع إلى في خط مستقيم مباشر . وقلت له :

- « وحده ! ضائع ؟ أم أنهم هجروك ؟ »

فقال مندهشاً :

- « نعم ؟ »

لم أخفف وطأة الهجوم المباغت ، فقلت :

- « ضائع ، أكيد ! »

وبكل بساطة ، قال :

- « لا . رحى وملأت كأسى من جديد . أأحضر لك كأساً ؟ »

ومع أنني لا أشرب ، قلت :

- « نعم ، أرجوك . »

ورافقته إلى مائدة قريبة مضاءة بالشموع ، وسألني :

- « ويسكي ؟ مع التلج ؟ والماء ؟ »

وناولني الكأس التي صممت على شرب ما صبه لي فيها ، ولو كان سماً . وفي الحال اقترب منا آخرون وهم يتصاحكون ، ليصبوا الشراب لأنفسهم ، فابتعدت بصحيتي ، عائدة إلى ركن بعيد تحت نخلة كبيرة ، منخفضة السعف ، وأنا أقول ( دون أن أتأكد أنني أنطق كلاماً بحمل أي معنى ) :

- « غريب ... يتصور الواحد منا أن الآخرين ضائعون ، ثم يتبين أنه هو الضائع . اليس كذلك ، استاذ ولید ؟ أحياناً أسير مسافة أربعة أمتار ، وأتصور أنني قطعت أكبر صحراء في الدنيا . ما أجمل عذوق الرطب هذه . ما نوعها ؟ مكتوم ؟ انت لا تعرف الكثير عن التمر . كيف تعرف ان هذا مكتوم ؟ عامر أخبرك . لا شك . كرسي واحد فقط هنا ، وفي الحديقة مئات الكراسي . لحظة ، سأحضر كرسيّاً آخر . ستحضره انت ؟ شكراً . سأساعدك . أعني ، سأرافقك وانت تحضره . لي حديث طويل معك . هنا تحت القطوف الدانية ، كما يقولون . »

وخطرت ليالي في تلك اللحظة مريم العذراء ، والميلاد العجيب . هل أهر إلى مجذع النخلة ؟ أنا البتول التي سمّاني ابي بالوصال . وصاله هو بمن كان يحب ، زوجته الثانية . وكذلت أقول لوليد : لم يسني بشر ، عندما لمحت مريم الصفار تسير نحونا مسرعة : هذه المرأة المشوقة الجسد ، المرسلة الشعر على الكتفين كستارة من ذهب . خفت منها تلك اللحظة . كرهتها . طعنتني الغيرة في خاصرتي حين قالت : ولید ، اين اختفيت ؟ ما زلنا بانتظارك . ثم التأمت خاصرتي حين أجابها : سآني اليكم فيما بعد . وهو يعني : اذهبي عني . عندي من يشغلني عنك ،

وعنكم - هذه العذراء التي ستشرب الخمر من أجلي وحدي ...

قالت مريم : « هلو ، وصال . بماذا تشغلين وليد ؟ » وقبل ان تسمع جوابي ، استدارت وعادت من حيث أتت . وقلت :

- « امرأة رائعة . لماذا لا تعود الى جماعتك ؟ ولكن لم أذق بعد الكأس التي ملأها لي . أنا لست بحاجة اليها ؟ ربما . لكنني أشعر انها ستعطيني قوة ما . اضافة الى قوتي ؟ انت دبلوماسي ، انا أعرف . من اين لي القوة ؟ انا باستمرار معرضة لرياح تهب علي من حيث لا أدري وتقتلني . اتعلم قصة الرجل الذي وقف امام الحاكم وقد كتب على جبينه « لا حظ لي » ، ففطن الحاكم بحكم عليه يؤيده ... أشعر انني كتبت على جبري كلمات من هذا القبيل . لا ، لا تضحك . أو بالأحرى - اضحك . اضحك ، أرجوك . مسا لنا والحظ ؟ أسعد الناس تسأله ، فيقول : لا حظ لي . ليس هناك من هو قانع بما قسم له ، أو بما حقق . أنت مثلا : هل أنت سعيد ؟ » .

فقال : « إلى حد ما . »

- « إلى حد ما ؟ نعم ، أو لا ، هذا هو الجواب الأهم . »

- « اذن : نعم ، ولا . »

- « قد أعلم لماذا أنت سعيد، ولكنني لن أعلم لماذا أنت غير سعيد . »

- « القصة طويلة . »

- « شيء منها ، أرجوك ؟ »

خضت اللجج في كأسه : « مصعب ، آلام ، أزمات ... »

- « من يراك هنا وهناك ، أو يقرأ ما تكتب ، أو يسمع حديثك مع الناس ، يتصور أنك دائما مشرق ، متفائل . يعني : سعيد . »

- « رغم المصاعب والآلام والأزمات ؟ لعلي من النوع الذي يصبر على التفاؤل ، ولو أنني أعتقد أن التفاؤل في معظم الأحوال حماقة وقصر

نظر . في الأيام الأخيرة ضعف اصبراري . أشعر أن زحف الظلام حولي :

علي ، يشتد يوما بعد يوم . في الحياة قبح ، وعوز ، ومظالم - »

- « أرجوك ، قل لي شيئا جديدا . »

- « ولكن فيها أيضا روعات فجائية تتشلنا ، ولو لحظات ، إلى

حيث تلتهب على حين غرة نيران الفرح ، نيران اللذة . »

- « ولكنها تنطفئ بسرعة ... »

• - « هذه اللحظات القليلة ، تنشب بها . نشرب الروعة قطرة قطرة ،

كخمر نبحل بها حتى على أنفسنا لقلة ما لدينا منها . تقولين إن الرياح

تهب عليك من حيث لا تدريين ، وتقتلك ؟ لا بأس . ربما كان لا بد

لك من اقتلاع ، ولا بد لريح ما من هبوب . بعض العواصف يحمل

المطر الشافي العذب . انها لحظات الفرح ... »

فقلت :

- « وما الفائدة ؟ هذا المطر لا يكاد ينهمر ، حتى ينقطع ! »

- « لكي لا تفريقي ، يا وصال . »

- « وليد ... أتسمح لي أن أدعوك هكذا ؟ عرفتك منذ أكثر من

سبع سنوات ، أفلا يحق لي أن اسميك باسمك ؟ وليد ، أنت ما زلت تعاملني

ككفلة . وتحدث إلي ككفلة . ألا ترى أنني أستحق معاملة أفضل ؟

أنا في السادسة والعشرين من عمري . أم أنك لا تدري ؟ »

- « أتصورك دائما في العشرين . منذ أن رأيتك في الحلال الأحمر

تبعين الثياب الفلسطينية المطرزة بنقوش بيت لحم ، ورام الله . أتعلمين ؟

أمي كانت ترتدي فساتين كذلك التي كنت تبيعنها ذلك اليوم . »

- « ولكنك نسييتي حالما اشتريت مني ذلك الفستان ... وكان عليّ

أن اذكرك ، كلما التقينا ، بأنني أنا تلك التي باعتهك فستاناً أنت في

غنى عنه . »

« من صوت النبوة ؟ قطعاً لا . »

واقرب مني وهمس :

« هل أنت نبية - نبية ... صغيرة ؟ »

وتعنتت في تلك اللحظة لو يأخذني بين ذراعيه ويقبلني على في .  
كنه ابتعد ثانية وأفرغ كأسه في فمه ، وأنا أقول :

« لا نبية ، ولا شبه نبية . متطفلة فقط . على الشعر ، على  
نيا . حتى عليك . »

« لماذا اذن لم تتطفلي علي من قبل ؟ »

« سأفعل ! »

« اتفقنا ؟ »

« يا ويلك مني ! أتضحك ؟ ألس تخاف من تهديدي ؟ ولكن  
أنا الخائفة . أتعلم ؟ حتى هذه الليلة كنت أخاف أن اقرب منك أكثر  
من اللازم . هل أنت خيف ، حقاً ؟ »

استمر في ضحكه ، ولم يجب . فأكملت :

« أعني انك تبدو خيفاً . اني اقرب منك وكأنني اقرب من نار  
أعشى أن تمتد إلى ثيابي إذا لم أنتبه . هل تسمع قصيدتي ؟ لا لست  
نبية . ولا أريد أن أكون نبية . أنا ستمتالية ، لا أعرف كيف  
أستخدم عقلي لثلاث دقائق متواليات . »

وإذا هو يقاطعني بلهجة الجد ، قائلاً :

« الحلس . الحلس هو الهم . الحلس النبوي . »

وعلا صوت الموسيقى شكل ضاج . فرفعت صوتي - وأنا أشعر  
بدوخة في رأسي ، ويارتحاء للذبذبة في ذراعي :

« أنا مليئة بالحلس . وأحس الآن بأشياء لو حدثت لك عنها ... »

« لا تخيفيني ، أرجوك . »

« أبداً . ما نسينك لحظة . »

« أنت نجاملني ، كالعادة . »

« أبداً . »

« اعتراف خطير . لماذا لم تنسي ؟ »

« أمور كهذه معقدة ، ويصعب تحديد أسبابها . »

« أرجوك . سبب ، سببان ؟ »

« ماذا تريدني أن أقول ؟ لأنك جميلة ؟ طيب . لأنك جميلة ،

ولأن عينيك في لون العسل ، ويصعب نسيانها . ولأن يديك جميلتان ،

صغيرتان . ولأن ضحكك ... »

« لماذا لم تقل لي ذلك من قبل ؟ لماذا لم تكتب لي قصيدة ؟ »

« وهل من واجبي أن أكتب قصيدة في كل من ألتقي من

جميلات ؟ أنا أصلاً لا أعرف كيف يكتب شعر الغزل . »

« هذا الويسكي صعد إلى رأسي . »

« أهذه السرعة ؟ »

« نعم . هذه أول مرة في حياتي أشرب فيها مسكراً . أنظن

أنني سأدوخ من أول كأس ؟ كنت أريد أن أحمك قصيدة كتبها أنا .

ولكن لساني الآن لن يستقيم لتلاوتها . »

فضحك ، وخيل إلي أنه قال :

« ألا تظنين أنني سأدوخ من أول قصيدة ؟ »

فقلت :

« لا أريد أن أدوخك . »

« دوتخيني ... ولكن ، أنا لا أدوخ . أنا إنما أنتشي ، أو

لا أنتشي . »

« اذن ، لن تنتشي . الويسكي أفضل لك . »

« لم لا ؟ »  
« لأنني غيبى جداً تجاه هذه الأمور . وخصوصاً تجاه حدس فتاة جميلة تشرب الويسكي لأول مرة . »  
« استاذ وليد ، قلتها مرة أخرى ... »  
« ماذا ؟ »  
« أننى جميلة . »  
« أنت جميلة جداً . »  
« ها هم يعودون اليك . لينهموك . »  
عادت مريم وبرفقتها جنان ، ورجل لا أعرف حتى اسمه . ونهضت عن كرسي وانطلقت بين المدعوين ، قبل أن أتورط في قول أو فعل أندم عليه . واستمرت الموسيقى في ضجيجها . وذهبت إلى مائدة الشراب ، وأخذت كأساً أخرى من الويسكي . ورأيت أخي ، وقلت له :  
« طارق ، هل هذه حفلة رائعة ، أم أنني واهمة ؟ »  
فقال :  
« ما هذا ؟ أتشرين ؟ »  
« أليس فيك شيء من الشعر ؟ شيء من النبوة ؟ »  
« سكرت ، حبيبي ! كفك شرباً . »  
« لا يا حبيبي ، عد إلى زوجتك ، وامنعها هي عما تريد . »  
والثفت إلى الخلف . ولكن وليد لم يكن هناك . في لحظتين ابتلعته المتاعه . ونميت لو أجلس على الأرض ، وأبكي كما لم أبك منذ سنين . وقررت أن أتصل به في الصباح التالي ، وليكن ما يكون .  
كان الصباح هائلاً . ففرت من فراشي ، وكأنني أدخل في موجة ترفعي ، مرة أخرى ، على منها ، وأبقى هناك في القبة القلقة الرائعة . ولم أصدق أن غابرتي التلفزيونية ستحقق ما أريد بذلك السرعة . في أقل

من ربع ساعة كنت واقفة بالباب . وجاء وليد بسيارته ، وصعدت إلى جانبه . وبقيت الموجة في تصاعدها . وانطلقنا نكمل حديث الليلة الماضية . كأنه لم يكن ثمة انقطاع . وعندما قال : « أقرأ لي قصيدتك » . قلت :

« ستبدو تافهة بعد هذا الحديث كله . »

« أقرأها . »

أخرجت الورقة من حقيبتي ، وقلت :

« أتدري ؟ لا بد أنك الرجل الذي كنت أحلم به دائماً . »

الثفت إليّ مشدوهاً ، ولم يقل شيئاً . وأكملت :

« كطفلة ، كمراهقة ، كامرأة . أتدري ؟ »

« أقرأ لي القصيدة . »

استدردت نحوه ، وانتهيت إلى يدي المسكة بالقصيدة وهي تنزل سحباً بلوزي وشعرت أن نهدي الأيمن يخرج من الرخمة ، بحركة تلقائية مني ، نصف خروج . وعندما الثفت إليّ ثانية ، فوجيء برؤية صدري نافراً ، عارياً ، وراء البلوز المفتوح . لم يقل شيئاً ، ولكنه أطال النظر ، ثم عاد بعينه نحو الطريق ، متتبهاً لسياقته . وقرأت القصيدة .

لم يثفت إليّ حتى فرغت من القراءة . وانتظرت كلمة منه . كان قد أصغى إليّ صامتاً ، لا يقاطعني ، مركزاً ذهنه على كلماتي ، أو على الطريق ، لست أدري . ثم نظر إليّ ، وانحدر بصره إلى صدري ، وقال :

« نهدك رائع . فتي . قبة صغيرة من ذهب . »

فاعتدلتي بجلسي ، ورفعت السحاب ، وقلت :

« تعني أن قصيدتي ليست رائعة ، أليس كذلك ؟ »

« قصيدتك ؟ أنا لم أسمع قصيدتك . سمعت صوتك . »



« قصيدتي ، ولید لم تسمعها ! تلاوتي ، شطارتي ، نبوتي -  
كلها راحت هدراً . »

« اقرأها مرة ثانية . »

« أبداً ! »

« ونهداك حاسران . »

« أبداً . »

« أرجوك . »

« طيب . شريطة أن تركز على كلماتي . »

« طبعاً . »

وهل كان لي إلا أن أستجيب لطلبه ؟ كان النهار رائماً ، جنوبياً .  
كانت الموجة تعلو بي ، وتعلو ، وتعلو . ما كنت أنصور أنني أستطيع  
مثل هذه الجسارة ، مثل هذه الشيطنة . كان يسوق على غير هدى ،  
مبتعداً عن المدينة ، في طريقنا إلى الصحراء . « أماننا القلوجة ،  
فالرمادي ، فالصحراء ، » قال ولید . « ولكننا سنعود إلى الجهنميات  
وهي بعد في غفوانها واحتراقها . للصحراء وقت آخر . هناك دائماً وقت  
للصحراء . اما الجهنميات ... »

« تلتهب اليوم وتنطفئ غداً ؟ أبداً . لن نسمح لها بأن تنطفئ .  
سنشعلها . نؤججها . دائماً . دائماً . دائماً . وإلى الأبد ! »

ضحك ولید . قهقه . كأنه سمع أكبر نكتة في حياته .

« إلى الأبد ؟ يا سيدتي بكيفيتنا اليوم ما نحن فيه . مالك وللأبد ؟

ما لنا وللأبدية ؟ »

« لست أدري ، هكذا أشعر . »

« لست تدرين ! كل كلمة تقوليها ، تعقيبنها بـ « لست أدري » .

وصال ، أنت أكبر عارفة . أنت عرافة ، سيبلا ، انكشفت لك حجب  
المستقبل . »

« أخذت تضحك عليّ ؟ »

« لا ، هذه قناعتي . عينك نافذتان . »

« أدري ، هذه المرة . شرفتان ... »

« لا ، لا ... أقصد انها تنفذان إلى المجهول . ماذا ترين أيتها

العرافة ؟ »

فاستلرت نحوه بأجمعي ، وقبضي مفتوح حتى الخصر ، ورفعت  
كفّي ، وشججت أصابعي في وجهه وثملت ، بصوت عميق « رهيب :  
« أرى حياً ... أرى عشقاً صاعقاً ... أرى وجهك تدميه  
القبيلات ... أرى اناساً يغارون منك ، يجدون لك السفايد ... ووصال  
تحملك من مغالبتهم ، بأسنانها ، بمخالبها ... »

قال :

« اموت على أسنانك ، على مغالبك . »

وعندما اخذني الى منزله لم أخف شيئاً ، لم أخف احداً . دخلت  
بيته كأنني كنت موعودة به منذ يوم ولدت . وعلى القفزة ، قرب  
النافذة ، على مرأى من الجهنميات الحمراء ، أخذني بين ذراعيه . كان  
يتكلم . كنت اتكلم . ماذا قلت ؟ ماذا قال ؟ لا اذكر . ما قلناه بعد  
ذلك اذكره بوضوح شديد . باظافري حزرت صدره . « لئلا تنسى ، »  
قلت له . فقال ان الجروح السطحية تلتئم في اسبوعين أو ثلاثة . فهددته  
بانني سأجعل الجروح أعمق من سطحية .

ولم أدر أنه هو الذي سيجرحني جراحاً لن تلتئم ، كجراح مسيحه  
الخمسة .

وفجأة وجدت انني أبحث عن كلمات ، غير التي أعرفها . كلمات

نقول أشياء جديدة ، نصرّة ، تستعق الجراح ، وتشفيها معاً . صرت أريد أن أحدد أفكارى في صيغ ما خطرت ببالي من قبل .

تجربتي معه ، بالنسبة إلى تجاربي الأخرى ، هزت الأرض تحت قدمي . فتجاربى ( وربما كنت في ذلك كثيرى من الناس ) تصغى عادة على مبعدة من هؤلاء الذين هم من التجربة نفسها : كنت أعسى نفسي كشيء منفصل ، كشيء يفعل بقوى خارجة عنه ولا ينتمج فيها . أما مع وليد فقد جأمتني ذلك الكشف الغريب بأنني أندمج ، أصير ، أندخل ، وأعود وأنا غير ما كنته قبل ذلك . أحسست وهو يتكلم ويناقش ، يحاورني ويغازلني ، أنني نقلت إلى مواطن إنسان آخر ، كأن أحداً سمح لي بدخول بيت كبير مظلم عجيب الغرف ، ويدي شمع ، أجول بين الأثاث والتحف ... عرفته من الداخل ، ادور في مداراته الذهبية ، في مداراته النفسية والعاطفية . جعلت أعرفه وأحبه ، وأغار عليه . وساورني وهم ألح عليّ بأن وليد هو ... أنا . جعلت أعرفه وأحبه كما أعرف وأحب نفسي . فإذا لم أره ، كنت في حديث مستمر معه — مع نفسي . ولأن الحديث بيننا كان دائماً ذا مذاق لذيق خاص ( لا يغازلني إلاّ والكلمات تدفق منه على جسدي ، حتى مسام جلدي كانت تصغى إليه ، وتبهج ) ، كان لا بد لي أن أجد الكلمات الجديدة التي تحدد ما أريد أن أقول : وما أريد قوله كان أحياناً مناقضاً لما يريد قوله هو ، أو مكملًا له ، أو بديلاً عنه . فكفوني أنا هو ، أو هو أنا ، ليس معناه أننا على اتفاق سكوتي : أنه يحتمل التناقضات ، ولا يستقر على مجرد أسود وأبيض ، وما أنا أغدو شبيته . الحب جعلني مثله ، أحمل التناقضات ، وأرفض القرار على فكرة تجريدية أخيرة .

هل هذا هو الذي جعلنا ضروريين الواحد للآخر ؟ لا أنكر أنني شعرت ، لمدة طويلة ، أن الالتحام فيما بيننا لم يكن مجرد شهوة جسدية —

مع انه كان يشتهي بعنف ، يذهلني كيف يستطيع الأبقاء عليه . انما الذي كان بيننا هو شهوة الالتئام بعد الانفصام ، أو خوف الانفصام بعد أن تداخل النصفان واكتملا في واحد « الهى » ( الهى من كلماته . لم اكن أعلم تماماً ما الذي يقصد بها إلاّ في مثل هذه الحالة . ) قال إن علاقتنا تأكيد لفقرات يسردها أفلاطون في إحدى محاوراته . وقد قرأتها في « الوليمة » ، وضحكت . وضحك وليد لضحكي . قلت : « لم اقتنع . » فحملني عارية بين ذراعيه حول الغرفة ، وأنا أقاوم ، ثم حط بي على الأرض ، محاولاً تنفيذ نظرية أفلاطون — أو اثباتها ، حسب هواه .

« كلمات . كلمات ، كلمات ... » همس في اذني ، من بين خصلات شعري . وقد وقف خلفي واحتواني بذراعيه . ثم ادارني لأواجهه ، وهو ينظر في عيني . « شكسبير ، ما امره ! يجعل هاملت يقول ذلك . فيحب الكثيرون أنه يعنى : فراغ ، فراغ ، فراغ ... للبعض ، ربما . لعجزة اللسان ، لذوي الحصر في النطق ، للبيغوات . ولكن شكسبير أخو المتنبى ، وكلاهما ربّ الكلمات . انه في الواقع يريد مسن هاملت أن يصرخ في وجه بيغوات الدنيا : كلمات ! كلمات ! كلمات ! اروع ما وهب الله الانسان ! تصوري لو أن رجلاً كالمتنبى أحبك : ما الذي كان يقوله والكلمات ملء فمه ، ملء يديه ، يرقىها ، ويصقلها ، ويلقي بها على كل ما في الحياة القاء الدور — كتلك الدنانير ، الظلال التي تفر من البنان ، كما يقول ... الكلمات كل شيء . وفي النهاية من كل شيء لا تبقى إلاّ الكلمات . وإذا لم تبقى الكلمات ، لم يبق شيء . الفتنة ، الخوس ، القتل . كلها في الكلمات . البغضاء ، السأم ، الأنتحار ، الليلة المقمرة ، الليلة المقفضضة ، الليلة التي ترفض أن تنتهى ، الليلة التي تذبذب على الشفاه سكرًا وقيلات : كلمات ... ، قد تكون الكلمات لا . لا .

ونعم نعم ، قد تكون مواء ، وهرهرة ، ولكن إذا أوتيت المرأة قدرة  
المتني ... ستفقد الكلمات مضجعه : لا ألتا ولوعة فحسب ، بل طرباً  
يمزق الجسد بلذته الشريرة . وصال ، هناك الابطال الصامتون ، وهناك  
الابطال الناطقون ، أنا أدري . هناك الخاسرون الصامتون ، وهناك  
الخاسرون الناطقون . الموتى بصمت والموتى بكلام . المفصحون بالاشارة ،  
والعاجزون عن الافصاح حتى بالالفاظ . أدري ذلك كله . ولكن  
الكليات ... ذوو الكليات يسوطون انفسهم بالحروف التي يدمونها .  
يعشقون ذبذبات الحنجرة . والمحبتون إذا غاضت الكلمات على شفاههم ،  
أن يغضب الحب معها ايضاً ؟ الكلمات هي كل شيء ... وسنجعل اوزن  
هذه الكلمات اليوم ، الكلمة التي سأسميك منذ الآن بها : شهد ... »

ولفترة ، لعبنا معاً لعبة الكلمات ، لتحاييل على تلك القسوة التي لا  
تطاق ، قسوة ألا نستطيع اللقاء كل يوم : اكتب له كل ليلة شيئاً ،  
ويكتب هو شيئاً لي ، وأمرٌ بمنزله بسيارتي ( تحاييل على الدنيا كلها  
لكي أمرٌ بمنزله في ساعة ما ) ، فأجده واقفاً ببابه الحديدي الكبير ،  
وكانتأمرين ، اسلمه رسالة ، ويسلمني رسالة ، وانطلق هاربة بكتري .  
« الآن نرى كمن ينظر في مرآة ، » كتبت له مرة ( وهو يعرف  
عن أفتيس ) :

الآن نرى كمن ينظر في مرآة  
في الظلام ،  
غير أننا فيما بعد سترى  
كمن ينظر وجهاً لوجه  
في وضع النهار .  
هل الحب مرآتي وظلامي ،

أرى فيه وجهك مع وجهي  
ليصبح يوماً وضع نهاري ؟

ولكن فم سؤالي !  
حسبي أن أرى بعين  
وجهك  
ولو غمامة في الظلام ،  
ولو طيفاً في أعماق مرآتي  
أو سراياً في وضع نهاري ،

لأدرك أن حبك هو مرآتي .  
ظلمة ليلى ، وشمس نهاري ،  
فأكف عن السؤال .

وكتبت له أيضاً ، في اليوم التالي :

لا الليل ولا النهار بحاجب  
وجهك غني  
وكل ساعة خلوة  
ساحة صراع مع خيبي .  
ألا نُحرم إلا عينيك عيناى ،  
وشفتاى إلا شفتيك ؟  
حتى م انتظاري ، فريسة أحلام  
تتكرر كل ليلة  
عن مكان دوماً مختلف

والقصة أبداً هي نفسها ؟  
أعليّ ساعة ألقاك  
أن أسرع بوضع قناعي  
وأنت من وراء قناعك تعرف أنني  
من وراء قناعي لا أشتهي  
إلا الوقوع على شفّيتك  
واحتواءك كلك بين يديّ  
كوردة ، كحفتين من عطر ،  
كجوهرة أخبثها  
في قميصي ، بين نهدي .  
توقّ سوى بالموت لن ينتهي .

وكتب اليّ ( وأنا أعرف عمّن يقتبس )  
ما خرجت قطّ امرأة  
من أطراف ثوبٍ مثلك ،  
ببهاء كبهائك :  
سيدتي ، أنا الصبح ،  
أنا الندى ،  
وأنت أنت الشجرة .

سيدتي ، في أرضنا  
ما نبت يوماً شجرة  
بأغصان كذراعيك  
أو فاكهة تتحدّى كتهديك .

أنت أنت الشجرة  
وأنا النهار أضيئي  
ببريق عينيك ،  
أنا الريح أهبّ عليك  
غادياً رانحاً أملأ الدنيا  
بشذى من ذراعيك وتهديك .

من فستان امرأة  
ما انساب يوماً ركبتيّ  
انسياب ركبتيك ،  
وما حملت ساقان قدّاً  
كساقيك ، سيدتي  
أنت أنت الشجرة  
وأنا الشمس أنال  
من ناري عليك ،  
وأنا الليل أخفيك أخيراً  
كالسرّ في صدري  
من غبرتي عليك .

وليد ، كيف عرفتك ، واحبينك ، وغضبت عليك ، وغرت ،  
وجنت ، وسهرت ألف ساعة أهذي بالكلمات لك ! وكنت أعلم ، كلما  
فعلت ذلك ، انك تفعل الشيء نفسه بالضبط . نحن وتغار ، وبجافيك  
النوم ، وتشيلك بخار من الكلمات وتحطك ، إلى أن يطلع الصبح ، والسهد  
قد كحلّ عينك كما كحلّ عيني . « عينك الكحلّاء تحييني » تقول لي ...  
وليد ، لا بسد لي من الحديث الآن . عيني الكحلّاء تبحث عنك . في

غرفك المتداخلة ، بين أثاثك المتناثر ، بين أوراقك المكدسة . ولم لا أقول انني أبحث عنك هنا ، في دمي ، في دخيلة دخيلتي ، بين حرقاتي التي كنت تلهبها وتطفئها على هواك ... فلأحدث ... حديثي بمسك لي ، فيجسدني أنا أيضاً من جديد .

خطاياك معي كثيرة، وليس أقلها أنك علمتني هذه الكلمة: « الجسد » وأنت أشد من عرفت في حياتي تعلقاً بأمور الروح ، بأمور الذهن، بأمور لا تمت للعالم بشيء . أوقعتني هكذا في خطيئتك : أن تلهب الجسد ، ثم تبحث عن الجمر في الروح . ولكن الجسد كثيراً ما يلتهب ، ولا يبقى للروح ، أو فيها ، إلا الرماد . كم أغنى لو أنك الآن أمامي لأسمع دفاعك . توقعني في خطيئتك ، ثم لا تترك لي ولو شيئاً من الفضيلة اللاحقة ، فضيلة الجمر في الروح . ليس في عروقي الآن إلا رماد . أترى وأنت هناك - أين أنت ؟ أين ؟ لماذا لم تأخذني معك لتنهني معك أيها القاسي الشرير ؟ أترى كيف أنني أحاول النفخ في الرماد ، لعل فيه جمرة أخيرة تالفة . ولكنني أكذب . أكذب على نفسي . أكسب لأن جسدي ، كلما تحدث إليك ، يعود فيتنفض ويستوي . فلأحدثك إليك . لأغازلك . لأهيمك . لأخاصمك . أحبك حب المجانين، حب العواهر ، ولا أتزوجك . تقنعني بأنني أنا أنت ، ثم ترسلني إلى بيتي مفصومة ، شظية من شظاياك ، لأقول للعالم إنني هنا في منزل أبي وأمي واخوتي انتظر شاباً يطلب يدي ويصبح جزءاً جديداً من حياتي . كان ذلك أمر ممكن لمن أصبحت هي جزءاً منك . جزءاً لن ينسجم إلا مع شفتيك ويدك وصدرك . من الذي أبقى المستحيل مستحيلاً ؟ أنا برفضي المستمر أم أنت الغارق في مستحيلاتك ؟ أراوغ الناس من أجلك ، أسافر ، أعود ، أتهجج ، أأزعم أبي ، أخطب وأفسخ الخطبة . ومروان كدت أعشقه من أجلك . له عينك ويداك ، كنت أقول . وأقول إنه

أجمل منك . فتضحك . هل كنت أنت جميلاً مثله في شبابك ؟ لا أظن . ولكن من قال إنني أحببتك لأنك جميل ، أو قبيح ، أو طويل ، أو قصير ؟ غير أنني لا أريد الحديث في أمور ساذجة كهذه . ولا أريد الحديث في سر إغرائك لي ، وأنت أغويتني قبل سنين ، حين لم أكن أكثر من مراقبة ، وأنت لا تدري . أريد الحديث عن اقتلاعك لي : اقتلاعك لي من جذوري ، ومحاولتك أن ترزعي في أرضك . ثم بقيت مغروسة ، غير مزروعة . أتلقى حرارة الشمس ومياه الأرض . ومع ذلك أبقى مقلعة ، ملتفة على جذعك وأغصانك، وحياتي لا تتغذى بالشمس أو المياه بل بما أمتصه من نسغك أنت .

ولكنك سرفض هذه التهمة . ستقول أنك أردتني لأنني أنا ما أنا ، وأنت لم تقتلني بل أنما احتضنتني ، لتطلقني حيناً لتعود فتحتويني ، فتطلقني ، فتحتويني . وللمرة الأخيرة أطلقني - إذا كان لي أن اصدق قولك - ولم تنتظر عودتي لتحتويني للمرة الأخيرة . ولكنني هنا أيضاً أكذب . أو أعتقد أنني أكذب . أنا التي لم أعد . أنا التي يجهل ونزفي خشيت أن أعود . ولما عدت ، لم أجذك . وعدتك ، وأخلفت . ولما عدت أنا ، كنت أنت قد ذهبت . كيف كنت أزعج إذن أنني أنا أنت ، وأنا لم أعلم بما في ضميرك في اللحظات الأخيرة ؟ لن اصدق هواجس الحب بعد اليوم ( كأن شمة بجلا للحب بعد اليوم ! ) . في مدينتي هذه ، لن أرى إلا العيون التي تتوهج بالموت ، بالخديعة ، بالموت ، بالخديعة ، بالموت . هل تتوهج الخديعة في العيون ، وهل تتوهج الموت فيها ؟

حبيسي ، ما عدت أعرف الكلمات التي علمتها . في يومين اثنين نسيت كل شيء . عندما علمت بمقتلك - هل فعلاً قتلوك . أم أنها شائعة الحدادين والتافهين ؟ كيف أستطيع قول الذي لا يقال ؟ وما أنا

أفوله : قتلوك وجندلوك ، وتمنيت لو كنت ساعتئذ ملتفة حول خصرك .  
 وصدرك ، لأفك من نفاذ الرصاص . وأفك من الرضوض إذ رحت  
 تندرج من صخرة الى صخرة ، لأفك وجهك من الشوّه ، ويبقى في  
 على فك درعاً لك ضد رصاص العالم كله . وفي يومين نسيت الكلام  
 كله ، والعقل كله ، والمطلق كله . وعندما لبست سواداً اندلعت أمي .  
 « على من تلبسين السواد ؟ » سألتني . « على الانسانية كلها » أجبت .  
 قالت : « اذن لن ينتهي لبس السواد . احزان الناس لا تنتهي . »  
 فقلت : « ألبس السواد على رجس معين . » فظرت إليّ بحيرة ،  
 وبارتياح : « رجل ؟ » « نعم ، ماما . رجل أحببته - منذ زمان .  
 وسمعت أنه قد قُتل . » فتلفت حولها لتتأكد من أن أحداً لم يسمعي .  
 وقالت : « لا تكرري هذا الكلام . يكفيني ما نحن فيه . قومي وبدلي  
 ثيابك . » فقلت : « ألبس السواد على كل هؤلاء الشباب الفلسطينيين  
 الذين يقتلون في عملياتهم الفدائية . ألا يحق لي ذلك ، ولو يومين أو  
 ثلاثة ؟ » فاضطربت ، ونهضت ، وتركني ، ولم تعد الى الموضوع ثانية .

ليس المهم أن تلبس المرأة السواد ، وأن تعاف نفسها الأكل ، وأن  
 تحرم النوم . وأن ترى الكوابيس إذا غفّت لحظة واحدة . المهم هو أن  
 تبقي على عقلها ، على ارادتها ، على قدرتها على التصميم . التصميم على  
 ماذا ؟ أنا في انزلاق عنيف مستمر ، كأنني أترجل على ثلوج الألب ،  
 منحدره نحو هاوية فظيعة ، ولا أستطيع أنوقف . دائخة ، غاضبة ،  
 حاقدة . ستقول لي ، كعادتك : « ترقعي عن ذلك لا تحقدي !  
 لا نهبطي الى مستوى الآخرين ! » ما أصعب ذلك . ردّ الفعل الطبيعي  
 عندي هو ان أرفع يدي بالكلم ، وأرفع صوتي بالشتم . ولكنك لن  
 ترضى بذلك . ستأخذني الى بيتك ، وتريني آخر لوحة عراقية اقتنيتها ،  
 وأضع في المسجلة كاسيتة أحبها ، وتغلق عليّ وعليك محاركتك عن الدنيا

كلها ، وتترع عني ثيابي قطعة قطعة - ونجعلني أهذي مع  
 وتلهمني جسداً ، وتبيني عشقاً ، لكي أحيأ من جديد .

القصيدة التي قرأتها لك في السيارة ذلك الصباح الشرقي المعجز .  
 ما الذي جعلني أقرأها ؟ ورحمت تقالبي بقصيدة جديدة كل يوم .  
 « أين الرموز ؟ » تقول . « أين الكتابات ؟ أين روعة الكون ؟ أين  
 الجراح ؟ أين الفاجعة ، أين الفرح ، أين الفداء ، أين أين أين ؟... »  
 يحتاجني كما يحتاج البحر حصاة على الشاطئ ، ثم تسأل : أين الصخور ؟  
 أين الغابات ؟ أين الملائكة ؟ رسمت لك صخوراً وغابات وملائكة .  
 رسمت لك نساء ومدناً وزوايا : هكذا تصورت قصائدي . وأنت لا تقنع .  
 ويوم علمت انني لم أكن الوحيدة في حياتك - على الأقل بعد ذلك الصباح  
 الشرقي المذهل - جئت . لهذا السبب تريد الكون كله ، تريد الصخور  
 والغابات والملائكة والنساء والمدن والزوايا ؟ متى ، متى ، ستكتفي ؟ ألبست  
 وحده تكتفي ، ألبست الذي كنت دائماً أأشاه عليك ؟ جئت وأكتفي  
 رضيت باعترافك . كانت الأوراق التي تعطيني إياها . كلما التقينا .  
 صكوك غفران مسقة . فترك كان أجمل من قصائدي كلها ... ربما لأنني  
 كنت في رسائلك المركز والمحور والمحيط . المسافة والمساحة . الطول  
 والعرض والأرتفاع . أو لأنك كنت أنت فيها كذلك بالنسبة إليّ . وأي  
 شيء تكتبه يغدو في الحال قناعة لي وإيماناً ... إلى أن وضعت في يدي  
 اعترافك بوجود المرأة الأخرى التي كنت تتلهى بها عني عندما انقطعت  
 عن رؤيتك ، لأنني حسبت انني فعلاً ، أخيراً ، سأزوج ، بكل حماقة  
 المرأة المروية التي تعرف أن لا بدّ لها من زواج رغم كل عشق وهيام .  
 قرأت اعترافك وأنا في البيت ، وتقطعت له أعصابي وبشريبي ...  
 اسمع كلماتك يا حبيبي القليل . ولتمت جنان مرة ، ولتمت شهد ألف مرة :  
 « لم أكن أستطيع أن أراك ، فكنت أكتب اليك . كل يوم . بضعة

أسطر . وأحياناً بضع صفحات . كأنني أتحدث اليك . تغيرت الدنيا فجأة  
أسماء ناظري . غدت رائحة على نحو لا يطاق . وغدت مريعة أيضاً ،  
على نحو لا يطاق إذا لم تكوني أنت هناك . كل شيء ينبئ عنك ،  
يوحي بك . شهد ، أنت أنهيت خولي ، قصوري الذاتي . أنهيت خدري .  
ربما كان الأفضل ألا تنهي الخدر . فالألم في غيابه الآن يباغتني ويمزقني .  
مزقني أباماً . فإذا التقينا ، تمزقت فرحاً ، لذة . ما أشهى قبيلاتك ،  
ما أشهى فلك ولسانك . ثم أعود الى الدنيا الرائعة بك ، المريعة بفراغها  
منك . الوحدة التي كنت في السابق أنشدتها أصبحت سيجني . أخرج الى  
الناس كالمتوه . أذهب الى جنان ، وأخونك معها . أخونك عامداً ،  
محاوياً ألا أذكرك . وأنت تملأين رأسي بروياك . شهد ، حبك جاءني  
عقاباً . جنان تتصور اني لها وحدها ، وهي لا تعلم انها لا تملك مني  
سوى لحظات قلقي المجنون بسبك أنت . كانت تشك في أمري معك ،  
ولكنها تخشى أن تعرف الحقيقة ، فسلا تلاحق السؤال حتى الاعتراف  
الأخير . ولكن حبك كان عقابي الذي أمتنع به ، وأغضب عليه ،  
وأخيراً أستزبد منه . ذات يوم قال لي جواد انه حالماً ينهض في الصباح  
يقوم بتأريين رياضية تبقي على شباب جسمه . ثم سألتني : « وأنت ؟ »  
قلت : « أنا حالماً أفكر بالمرأة التي أحب ، هذه رياضيي الوحيدة . »  
ذلك ما كان يعطيني تلك الشهية العينية للحياة ، ويجعل الحياة تبدو ثمينة ،  
عزيزة ، تستحق التعب والتضحية والتشيت . شهد ، تعرفين كل ذلك .  
أذكره لأستعيد استسلاماتك اللذيذة ، لأستعيد ملمس بشرتك على يدي ،  
لملمس فخذيك وبطنك على وجهي ، لأستعيد همسك المحموم ، الراعب ،  
كان سيفاً سيهوي على أعناقنا حالماً تنتهي من العناق . الفضاءات العريضة  
كلها انكمشت ، إنغلقت ، علينا . لم يبق ثمة شمس ، وأشجار ، وطيور ،  
ورسوم ، وأناس ، تستحق منا النظر . لم يبق إلا وجهك الأجمل من  
الشمس ، وجسدك الأجمل من كل طير ومن كل رسم . وإذا ما تركتك ،

مكرهاً دائماً ، أنعثر عودة الى عالم فارغ منك ، وجدت الفضاءات  
العريضة كلها منكشمة ، مظلمة ، مغلقة . هذا كان العقاب : أن أحرم  
الذائدات الأخرى كلها دفعة واحدة . ولولا إحساسي ( وان لم أثق به  
دائماً ) بأن الشيء نفسه يحدث لك أيضاً ، وانك تشاركيني ما أنا فيه ،  
لنمردت ، لطلبت نهاية لحبي ولو بالموت . ولكن التناقض بقي يسود  
أبامي . كل شيء رائع ، وكل شيء ينبئ عنك ، كل شيء أشبهه  
من أجلك . غير أن كل شيء مظلم عديم الطعم ، لأنك لست فيه .

« كانت جنان تستنار ، وأنا أدفع بها ، شامناً من نفسي ، نحو  
القسم من متعتها ، واريقها وهي تتلوى ، وتصرخ ، واشمت أنا من  
نفسي ، من حقدني على ذاتي ، من سخفي بأنني لا أكتفي بهذا العشق ،  
لأنني من روعة الحياة كلها لا أرضى إلا بك أنت . أنت ، أنت ،  
أنت . شهد ، شهد . كان كلامي كله موجهاً اليك . بحثت عن الشق  
الأخر مني حتى وجدتك ، وأحسست عندئذ جهول انفصالك عني ، بأنني  
مشطور أعيش كيفما اتفق في انتظار التحام الشطر بالشطر ، الشق بالشق .  
بقيت في انتظار توحيدي بك ، توحيدي بتلك التي حكم عليها وعلياً ألا  
تتوحد بي إلا في لحظات من النشوة ، عميقة عمق البحار . سريعة سرعة  
الأعاصير الكاسحة . »

وليد ، كيف استطعت أن تذكر جنسان ، حتى في محاولتك البرهان  
على حبي عن طريقها ؟ نجحت ذلك اليوم في تمزيقي غيرة ، بعد أن  
مزقني حباً . وأرغمني على الركض عودة اليك . غيرة ، لا شيء  
أحر . اردتك أن تبتذل ، أن تتعذب ، أن تحرم عليك النساء بعدي .  
ورحت بشطرك المفصول عني تحاول استعادة شطري عن طريق جنان !  
وقررت يومها ، وفي الحال ، وتصميم عني ، ألا أتزوج ، لكي ابقىك  
لي أنا حتى لو لم أعد اليك . وعدت اليك . هل سألتك يوماً عن جنان؟

هل خاصمتك حولها ؟ امرأة غربي لكنت تهجرك حالما تعلم بوجود امرأة أخرى . مهما تكن الأعذار ، أما أنا ففعلت العكس ... عدت إليك . ولكن عدت وفي نفسي شك لم أكن أعرفه من قبل . هل بقيت ترى جنان كلما غبت عنك ؟ طويت نفسي على شكوكي . وتظاهرت كأن رسالتك لم تنفض سرّاً جديداً عليّ .

هل هربت من كل شيء في اللحظة الأخيرة ، للتخلص من حيرتك بيني وبين جنان ؟ ولكن هل يمكن ، هل يعقل ، هل أصدق ، أنك وضعتني يوماً في الميزان ازاء أية امرأة أخرى ، جنان أو غير جنان ؟ عدت إلى هذباني ! لماذا أجعل من نفسي مركزاً لمأساتك ، وأنا أعلم أن لمأساتك مركزاً أتمنى لو أنني لا أؤمن بوجوده . ملائكة ملاءى بالنقااص ارتجلت الكون ارتجالاتاً شريراً على شاكلتها ، فجاء مليشاً بالنقااص - كما قال أحد مؤلفيك الاغريق . وما أنا اليوم أقرّ له بذلك . جئت غربياً ، تحارب ، وبقيت غربياً ، تحارب ، وعلى جبهات كثيرة ، في عالم مجبول بالنقااص . آه ! « ضائع الوقت » كله الذي ليس بالحلب نقضيه ... » ولكن الحسائر كانت كثيرة ، أمها الحبيب ، والذي ضاع لم يكن الوقت وحده . وعندما فقدت أنت مروان ، أدركت أننا أني أيضاً مثلك فقدت كل شيء . ومع ذلك بقي الكون على نقائصه ، لم يتغير فيه شيء . جئت غربياً ، وذهبت غربياً ، وجعلتني أنا أيضاً غريبة في وسط أهل وعشيرتي . وأنا وحدي تغيرت . جهنميات بيتنا تلتهب ، وأنا لا أفهم لماذا هي تلتهب . كأنها تحب انها ستدفعني مرة أخرى لرفع سماعة التلفون لأضرب معلق موعداً لقراءة قصائدي وجسدي يحرق حواسك كلها . المعجزات ! صرة ملاءى باللائى سقطت من السماء في حضني . أجل ! وما هي صرة أخرى تسقط عليّ من السماء ، ملاءى بالمقارب .

لم يكن سهلاً العثور على مروان في بيروت ، رغم ارشادات صديق وليد ، خالد أبو مطر . راقتني خالد أخيراً إلى نجيم صبرا ، وبعد الأسئلة الكثيرة وجدنا مروان هناك . نظر إليّ مستغرباً : « ماذا تريدين ؟ » لم أعرف كيف أجيب . عينا ، عيناه الجميلتان ، كانتا عيني أبيه - ولكن مع برق أشد ، وقسوة لم تعرفها عينا وليد . أردت أن أتخيل أنني أرى وليد في ذلك الزي الحاكم المرقش وتحت تلك الحطة القدائية ، وهو يحمل الكلاشنكوف . ولكنني لم أر إلا مروان نفسه ، طويلاً ، غير مبتسم ، رافضاً إلا عشيرته الجديدة في تلك المدينة المخيم التي أحسست انها تعود بي إلى جوهر الأشياء المسميّة .

قلت له : « أنا وصال رؤوف . جئت من بغداد ، ولي رسالة لك من والدك . »

أخذ الرسالة ، وقراها ، ونحن واقفون على قارعة الطريق الضيق المزدحم بالناس ، وأنا أتأمل وجهه التيّ وشاربه الخفيف لا يكاد يبين على شفته . أخذنا ، أنا وخالد ، إلى مكتب صغير ، وجلسنا على مقاعد خشبية . وسألني عن أبيه . عرّفنا على زميلين له يرتديان زيّاً كرتيه . قدّموا لنا شايّاً . كان اللقاء صعباً . ولكن الحديث بقي مستمراً ، وتصادعت فيه الحرارة شيئاً فشيئاً . ذهبنّا في جولة في المخيم وأخذ مروان يعرفني على أناس كثيرين . وكانت بعض النسوة يقلن : « أهلاً وسهلاً بالعراقية ، أهلاً وسهلاً بالبغدادية . » وتخلت أن أحدها قد تكون أمّاً لوليد . لقينا شاباً يعرفون بغداد ، وبعضهم درس فيها . وتمنيت لو يقبلوني بينهم . وقلت لمروان : « علمني ضرب النار . » ونظر إليّ ، وأنا في بنطلوني الضيق ، وقال : « حالما تقرر ذلك ! »



في ظهيرة اليوم التالي جاءني إلى الفندق ، وخرجنا للغداء في مطعم على البحر . قلت له - بعد أن غطى النادل المائدة بصحون المقيلات : « مروان ، أنت لا تعلم كم يحبك أبوك . ليس له في الدنيا غيرك . لماذا لا تأتي إلى بغداد ؟ »

لم تكن نظراته لتستقر في عيني أكثر من لحظة : يلتفت نحو البحر ، حزيناً ، ولا يتكلم كثيراً ، ويكاد لا يأكل . « لا حاجة بي للذهاب إلى بغداد . حياتي هنا . في المخيم . عندنا مهام كثيرة . » قلت : « اعن نفسك . »

فاندمست : « لماذا إذن التحقت بالجبهة ؟ ألكي أعني بنفسي ؟ » فاردت أن اقله له : « اكمل دراستك الجامعية أولاً » ، ثم عد إلى الجبهة ، غير أنني ادركت أن كلاماً كذلك سيغضبه . أخرجت رزمة من أوراق النقد من حقيبتي ، وقدمتها له ، وهمت : « هذه لك . ارسلها أبوك معي . »

نظر إليها وهي في يدي كأنها حيوان غريب يخشى لمسه . « ما هذه ؟ »

- « مثنا دينار . قد نحتاج إليها . »

فهز رأسه ، قائلاً : « شكراً . لا أريدها . »

- « أرجوك ! »

- « لا أريدها . »

- « أرجوك ، خذها قبل أن يلتفت رواد المطعم البنا . »

- « لا . عندي ما يكفيني . وحياتك . »

- « غريب ! »

- « أبداً . لا أريد أية نقود . ماذا أفعل بها ؟ »

- « أف ! مروان . خذها بلا جدل ! »

- « أبداً . ارميها في البحر ، إن شئت . »

- « والله أن لم تأخذها ، رميتها في البحر ! انتظن أنني لن أفعل ذلك ؟ »

- « لرميها ! لتفرح بها الاممك ! »

- « انك عينا أبوك ! عنيد ... كلكم عنيدون ، انتم الفلسطينيين ! » وأعدت الرزمة إلى حقيبتي . وفجأة سألته :

- « هل تعرف ما علاقتي بأبيك ؟ »

وبكل برود قال : « تحببه ؟ » فأحسست بألم نافذ يشق احشائي ، وتتمت : « أعده ، أموت عليه . »

نظر إلي صامتاً ، وشعرت أن يده ترتجف ، اذ رفعها عبر المائدة الصغيرة ، وحطها على كففي . « وأنا أحبه ، وأمي كانت تعبه . ولكن ... »

وعندها طفرت الدموع من عيني ، واختنق صوتي : « ولكن ماذا ، ماذا ؟ »

سحب يده وقال متهدداً : « كافح طيلة حياته ، وتعب ، ويرفض أن يكف . أنتعدين أنك تستطيعين أن تعينيه على ... على أراحة نفسه ، على الأقل ؟ »

لم أفهم بالضبط ما الذي قصد . ولكنني قلت ، وصوتي ما زال مختنقاً : « يا ليت ، مروان ، يا ليت ... الحياة معقدة ، وتطالبنا بالكثير دائماً . لو تعلم فقط أي رجل هو ! »

وأخرج متديلاً ناولي إياه . « إذن ساعديه . ساعديه . »

مسحت دمي بمنديل ، ثم توقفت . « أساعده ، أنا ؟ »

— « أنه بصر على الاستمرار بالقتال . بيده . يطالب بأن يشاركه في العمليات . الا تعرفين ؟ »

— « لن يدهشني ذلك منه . ولكنه لا يحدثني بهذه الأمور ... كنتم ، كنتم جداً . »

— « عندما كان هنا في الشتاء الماضي ، أثار الموضوع مع جماعته . ثم أثاره معي بشكل ضايفي جداً . العمليات يسبقها تدريب شاق . وهي تحتاج إلى شباب يستطيعون الركض ، والقفز ، والجوع ، والتحمل . وأبي يتوهم أنه ما زال الفتى الذي كان قبل خمس وعشرين سنة . قلت له : إذا كنت تريد الانتحار ، فاعث عن وسيلة أخرى . فغضب لقولي ، وتشاجرتا ، وشمعني ، وعاد إلى بغداد ، ولم يكتب إلي كلمة واحدة طيلة هذه الأشهر . الرسالة التي جئت بها هي اول رسالة يبعث بها إلي منذ ذلك اليوم . وقد سمعت أنه أعاد اتصالاته بشأن القتال ... بقيت انظر إلى مروان ، وأتخيل ولده وهو يتكلم ، فقد كان في صوت الابن نبرة قوية من صوت أبيه . « ولكن لماذا ترفض لأبيك ما اخترته أنت لنفسك ؟ »

وإذا وجهه يتقد . « لأن دوري يختلف عن دوره . المرحلة تختلف . رجل في الخمسين لا يفيدنا في شيء وهو يعمل الآر . بي . جي . إنه يفيدنا في التنظيم ، في التمويل ، في إيجاد العلاقات الضرورية كخلفية للقتال . الا يكفيك ذلك ؟ ثم إنه كافح طويلاً ... »

لم أجب . وفي صمتنا انتهت إلى البحر وهو يهدر حولنا ، ساطعاً . لا يهدأ . البحر ينتمي إلى مروان ، إلى ولده ، وأحسست في تلك اللحظة أنه ينتمي إلي أنا أيضاً ، لأنني أردت لنفسني أن تنغم في بلج منها . أي كفاح كافح أبي ليعين وزيراً في الخمسينات ؟ أي فكر قدم ، أي صراع عبر عنه ، سوى الصراع مع المرض منذ أن تزوج أمي ؟ أي

توق ، أي شهوة ، أي حرقه ؟

نفقت هذه الخواطر غني لأركز انتباهي في الهدير الأزرق الذي يحيط بوجه مروان . قلت : « والآن ، أراض أنت عن أبيك ؟ »  
أدهشه السؤال ، كأنه غير وارد . « أنا راض ؟ المهم عندي أن يرضى هو غني . هذا ما أريدك أن تساعدني فيه . الا ترين ؟ »  
ناولته مندبله ، مستحكة . « ولكنك لا تتعاون معي ؟ »  
— « كيف ؟ »

— « الا تعلم أن رفضك هذه النقود سيفضيه ثانية ؟ ها ، مروان ، خذها . »

فتحت حقيبتي ، وهمت باخراج الرزمة مرة أخرى ، غير أنه سارع إلى دفعها بيده ، وسد الحقيبة عليها ، قائلاً : « مستحيل . قلت لك لا أريد نقوداً . »

نظرت إليه يائسة ، وسكت . وإذا هو يتسم . رأيتة فعلاً يتسم . لأول مرة ! وانطلق صوتي من حنجرتي بمسءل حريته : « مروان ! ابتسمت ! »

فبدت منه قهقهة قصيرة . « شو ، معجزة ؟ »

— « نعم . حياتي هذه الأيام مليئة بالمعجزات ، أتدري ؟ »

— « اشكري ربك اذن . »

— « أوه ، أنا اشكره كل يوم الف مرة ! والآن ، ما الذي استطعني في هذا المكان الجميل ؟ »

— « بيروت على حسابك . »

— « ستمك بحري ، ما رأيك ؟ ما اسمه هنا . سلطان ابراهيم ؟ »  
وجاء النادل ، وسجل طلبنا . لأول مرة ناداني مروان باسمي قائلاً :  
« وصال ... »

فضحكت وقلت ، وكأنني أسخر من نفسي : « لا أظن انها تستنى أي شيء له علاقة بأبيك . »

رفع التادل المقيلات، وجاء بالسلك وقلت : « هل لك صديقات هنا؟ قطب حاجيه ، ثم استرخى وجهه ثانية . « يعني ... البنات هنا كثيرات . حتى في المخيم . ولكني مشغول بأمور أهم . » صمت لحظة ثم أردف : « عندنا تدريب قاس ، عنيف ، أنا ومجموعتي . لا أصدق متى سنعبر الحدود . والوضع في عمان متوتر جداً ... »

قدحت عيناه بغضب مفاجيء ، ثم أدار وجهه مرة أخرى في اتجاه البحر ، وفكاه منطقتان بتصميم غريب . أردت أن أعيده إلى شيء من المرح ، فقلت :

« مروان ، هذا السلك فاخر . »

فأدار وجهه نحوي ، والتصميم ما زال يملأ قفاه . « لك مني وعد ... »

« وعد ؟ »

« أن اطعمك ، يوماً من الايام ، سمكاً من بحيرة طبريا ، وانا وانت وأبني جاسون على ضفتها . ولو بعد خمس سنوات . او عشر سنوات . موافقة ؟ »

« موافقة جداً . وسأنتظر ... »

وعندها أخذ الشوكة والسكين بيديه . وفعلت مثله . وقلبي يخفق بألف عاطفة ، وأنا لا أعلم أعجب به ، أم أخشى عليه ، هذا الفتى الذي أحسست بأنه يجعل البحار تهدر فوق رأسي .

كان الموج حولنا يتراكض فيضرب الصخور القريبة ، ويجعل من زرقته المندفعة بياضاً ضاحكاً يتلاشى زبدًا ، ليلحق به المزيد من موج يتراكض .

« نعم ؟ »

« شعرك جميل . هل تجعلينه دائماً قصيراً ، هكذا ؟ »

« مروان ، ادهشني ! جعلت ترانني ! »

« شو ، معجزة ثانية ؟ »

« في الواقع ، قصدت شعري هنا قبل يومين . أيعجبك ؟ »

« جداً ... ويذكرتي - »

« بماذا ؟ بمن ؟ بأحدى صديقاتك ؟ »

« بسيدة عراقية أخرى جاءت مرة لزيارتي مع أبي ، وأنا طالب

في برمانا ... قبل حوالي أربع سنوات . »

ودون أن أخذ الخدر سألته : « ما اسمها ؟ »

« لا أذكر . ولكن شعرها كان طويلاً ، بشكل يلفت النظر .

وجمبلاً أيضاً . كنت في الرابعة عشرة من عمري . »

« عراقية ؟ »

« نعم ، عراقية خضراء العينين . أتعرفينها ؟ »

وهبط قلبي دفعة واحدة . « مريم ؟ مريم الصفار ؟ »

« مريم ، نعم ! هذا كان اسمها ! »

« جاءت لزيارتك مع أبيك ؟ »

« نعم . أعتقد انها التقيا صدقة في بيروت . »

قلت : « ربما . » وفكرت : بالتأكيد ، لا . مروان ، أتريد أن تذكرتي بأنني مجرد امرأة أخرى في حياة وليد ، ولكن ماذا يهمني أبة امرأة أحب ، أو أحبه ، قبل سنوات أربع طوال ؟ وقلت لمروان : « انها احدى معارفنا الكثيرات . وهي الآن أستاذة في جامعة بغداد . هل من سلام خاص اليها ؟ »

« لا ، لا ... لا أظن انها تذكرني . »

وأنا أقارب الحسين ، ألا يحق لي ان أحب بلدي ، وأقاتل الدنيا من أجله حتى لو قاربت التسعين ؟ .. »

— « بلى ، بلى ... » وأصجمته قربي على الأرض ، ووسدت رأسه على صدرى . ساعة ؟ ساعتين ؟ انقضى النهار ونحن أشبه بجثتين ، التفت أحدهما على الأخرى . العالم لا يفهم . ولن يفهم . ليس لي إلا ان أرفض عالماً لا يفهمني . وليس لي أن انطوي على جراحي ، لا أحدث بها أحداً ، واستمر في رفضي . وانتمى الى الرفضين .

## ( ٤ )

من عادة أخي طارق في بعض أيام الجمعة ان يزورنا ، مستصحباً سميرة . وأحياناً مستصحباً معها اولادها الثلاثة . يأتي لأبي بأدوية من التماذج التي تقدمها المذاخر مجاناً للأطباء ، ويلعب معه الطاولة « داساً » او البين . ويتناقش معه في الأقايم الثلاثة التي لا يشغل أبي غيرها : الحديقة ( التي يهضي منذ ثورة ١٩٥٨ معظم وقته في العناية بها ، وهي ، على حد قوله ، الشيء الوحيد الذي تعلمه عن فولتير ، ويستجلب لها ، من أقطار شتى ، أنواع الأبخصال والاوراد ) ، صحته ( التي يتصور دائماً أنها مهددة بأمراض من كل نوع ، وعلى طارق أن يثبت له العكس ) ، ونشاطه السياسي منذ ثورة العشرين — وهو ابن ثمانية عشر عاماً — حتى آخر مرة استوزر فيها عام ١٩٥٧ ، وهي فترة يمضي نفسه دائماً بكتابة مذكراته عنها . ولكنه في الصيف يذهب إلى لندن ، وفي الشتاء يجد ركبتيه لا تدفآن مهما فعل ، فلا يستطيع التركيز على شيء . والربيع موسم التمتع بالحديقة ، والحريف يكاد لا يكفي لتقليم الجهنميات

كتبته الى وليد بطاقات ورسائل كثيرة ، وعندما عدت الى بغداد في اوائل ايلول ، وجدت أنه كان قد غادرها . لم يكن « اختفاؤه » دون سابق انذار لأحد من اصدقائه امرأ غريباً . لعله كماداته يتابع شؤونه في ابي ظي ، او لندن او بيروت نفسها ، هكذا يتكهنون . ولكنه هذه المرة كان في الأردن . عاد بعد قرابة شهرين منهكاً ، محطماً ، وتخلّى لي عن ثكنته — أخيراً . قضيت صباحاً تشرينياً آخر في بيته ، وكان صباحاً قاتلاً . راح يروي لي أخبار المجزرة المجنونة البشعة ، التي قاوم فيها ، حاملاً كلاًشكوف لم يكن يحلم بأنه سيعرف كيف يطلق ناره . وغضبت انا بدوري عليه . « ألا تفكر بي ابداً ؟ ألا تعلم كم انا اناية فيك ؟ عندما تقارب الحسين ... »

فانفجر بصرخة لم اسمع مثله من انسان : « اخربي ! اخربي ! » وأطبق بكلتا يديه على وجهه ، واستدار نحو أقرب حائط . وانكفأ عليه نحوار أجش ، فظيع . تسمّرت مكاني . ارتعبت ، وانا ارقبه يضرب رأسه بالجدار ، وجسده يرتج ، وينفض . وبدت غرفته كأنها تضيق عليه وعلي ، كأن جدرانها تستهال علينا معاً ، ثم أخذت تدور بي دوراناً اريد ان اوقفه ولا استطع . وارغمت على الأرض أنثبث بها ، وزحفت نحوه وسقط وجهي على قدميه ، ووجدتني اخنق ، وأنحب ، أنتحب ، ولا أفهم . وبعد دهر طويل — هل أغمي علي ؟ لست ادري — رأيته منهاراً علي ، مكّوماً فوقي . أخذت وجهه الشاحب الميخض بين يدي . ومهست : حتى اسمه بات صعباً علي ان انطق به من حنجرتي الكليلة . « وليد ... وليد ... » وقع بين ذراعي ، والصق شفتيه بأذني . « ان كان يحق لي ان احبك وأنا أقارب الحسين ، وأقاتل الدنيا من اجلك

وتهمة المومميات الشنائية . وهو لا يهوى الكتابة اصلاً ، ويفضل الكلام ، لأنه حينئذ يستطيع أن يسترسل في حكاياته ومواقفه البطولية ، ولا يطالبه أحد بالتدقيق أو التمهيص الذي يواجه به كلما وضع قلماً على ورقة . ومع أن طارق يتهمة أحياناً ، دعاية ، بأنه لم يخلص لزوجته الثانية الأولى ، أم طارق ، التي توفيت عام ١٩٣٩ ، بقدر اخلاصه لزوجته الثانية التي تزوجها وجسد أم طارق بعد لم يرد في مثواه في مقبرة الامام الأعظم ، فإن أبي ينكر ذلك ، ولكنه يعود فيعرف بأنه استعجل قلباً بزواج أمي : « كانت فتاة رائعة الحسن ، وخشيت أن تضيع من يدي إن أنا تلكأت ... ثم ، مولانسا ، من كان سيعني بك أنت وفصل ولعان ، وكلكم اطفال ؟ »

لم نشعر قط ، أنا وطارق ، أننا لسنا اخوين شقيقين . فأنا أوثره على جميع افراد اسرتنا ، باستثناء امي وأبي ، لأنه الوحيد الذي أجده دائماً يقيم جسراً مفتوحاً بينه وبينى . ولما كان يكبرني بحوالي ست عشرة سنة ، فقد ظل ينظر اليّ نظرة العطف والحماية ، عدا المحبة ، يدلّتي لأبي ، ولكنه في الوقت نفسه يعترف بأنني لا أنصاع بسهولة لكل من قال لي كلمة حب . ومنذ أن تخرجت في العشرين من عمري ، وتوظفت في البنك العربي قبل تأميمه بسنة أونتين ( حيث رأيت ولید لأول مرة ، قبل أن يبدأ بمغامراته المالية الكبيرة في الخليج ) ، جعلت أجد في النقاش مع طارق تحدياً فكرياً أمتنع به . ينصحي بدراسة المزيد من الاقتصاد ، وأنا أحدثه عن اهتمامي بالشعر ، وأقرأ له قصائد يرفع لها يديه ، قائلاً : « الغاز ، الغاز ! الا يكفي مرضاي والغازهم النفس ؟ »

هكذا كانت تنقضي زيارات يوم الجمعة في معظمها ، إذا زارنا . وهو يناد لا يزورنا في أي يوم آخر . غير أنه جاءنا ذات مساء غير الجمعة

بعد التاسعة ، عائداً من عبادته . لم يكن أبي في البيت ، وأردنا اننا وامي أن نهيء له عشاء ، غير انه كان في عجلة من أمره . انفرد بي لحظة ، وقال : « اسمعي وصال . لنخرج معاً في سيارتي . لسدي موضوع احديثك فيه ، ولا اريد لأملك أن تسمعه . »

شعرت بالدم ينسحب من رأسي . « لماذا ؟ »

« اسرعي . قضية مستعجلة . » ثم رفع صوته : « ماما ! أريد أن آخذ وصال إلى النادي . سميعة في انتظارنا . » وجرتني من يدي . وخرجت معه وبني هاجس بأنه ، أخيراً ، سيتحدث عن علاقتي بوليد . ما كدنا نستقر في السيارة ، ونخرج بها إلى الشارع ، وأنا صامتة ملأى هاجسي ، حتى قال ، وهو ينظر أمامه ، ويداه على السكان :

« وصال ، أتعرفين ما الذي تفعلينه ؟ »

تجاهلت . « بخصوص ماذا ؟ »

« أنت تعلمين . منذ مدة ، وأنا أتردد في مفاتحتك بالموضوع . »

« طارق ، أي موضوع تقصد ؟ »

« ولید ، من غيره ؟.. هل توبينه بكثرة ؟ »

« بكثرة ؟ لا ... أراه كلما استطعت . »

« لماذا توبينه ؟ »

« لماذا !.. لماذا ترى أبة امرأة رجلاً ؟ »

« رافع ، وصال ! »

« أهذه قضيتك المستعجلة ؟ متى اكتشفت اني التقي بوليد ؟ »

« منذ زمن . »

« لماذا اذن تثير الموضوع الآن فقط ؟ »

« لأنني ما عدت أطيق الصمت . الكثير من أصدقائنا وصديقاتنا أصبحوا يعلمون بالأمر . »

- « مثلاً ؟ »  
- « أتريدن استجابي ؟ المهم انني ما عدت أحمل الفكرة . »  
كان عليّ أن أبدي شجاعي كلها ، وصلايتي كلها . فقلت :

« طارق ، أنت تعلم أنك أقرب الناس إليّ ، ربما أقرب إليّ حتى من أبي وأمي - »  
فقاطعتني : « ولذلك أثير الموضوع معك . أخشى عليك من الأذى ، ألا تفهمين ؟ »

فاستمريت بما أردت أن أقول : « أكثر عليّ أن أتعلق برجل هو أصلاً أحد المقرّبين اليك منذ سنين طويلة ؟ ألم تحبه أنت كصديق ؟ »  
- « ولكن ... فارق السن ، فارق الخلفية ... اوه .. الف فارق .  
وليد رجل معروف ، وأية علاقة معه تنفضح في الحال . »  
- « أكثر من سنتين مرّت على علاقتنا ، إن كنت لا تعلم . »

- « نعم ؟ »  
- « كل امرأة اتصل بها ، أصيبت بالجنون ، أو المستعريا . لعلك لا تعلمين أنني عالجت زوجته قبل سنين طويلة .. في الـ ٥٧ ، على ما أذكر ... تعلمين أنها جيّت ... »  
- « ربحه ؟ حدثني عنها . »

- « و ... مريم الصفار ، هل حدثك عنها ؟ »  
- « لا ، ولكنني أعرف عنها ما يكفي . »  
- « لا ، أنت لا تعرفين شيئاً . عالجتها هي أيضاً ... أنقذتها من جنون وشيك . ما الذي تعرفين عن مثل هذه الأمور ؟ أتريدن مني أن أرى اليوم الذي أعالجك فيه أنت أيضاً ؟ »

- « يوم أجنّ ، حبيبي طارق ، دعني في جنوني . أرجوك . ان كنت تحبني ، فلا تتدخل بيني وبين هذا الرجل . ما الذي بقي له ؟ كتبه ؟ »

- « بقي له الكثير ، فلا تحزني ! بقي له أمواله ، وبقي له أصدقاؤه ، وأنت تعرفينهم . »  
- « أجل . وبقي له أعداؤه . »

- « وبقيت له وصال رؤوف ... هنيئاً له بها ! »  
قلت ببطء ، وكأنني أكشف له عن ناحية في نفسه يخفيها عني :  
ولا يفلح : « طارق ! أنك تغار ، تغار من وليد ! عجيب ! لماذا هذه الغيرة ، وهو لا ينافسك في شيء ؟ »  
التفت إليّ بعدة ، كأنه أراد أن يجيب بعصية . غير أنه أحجم ، وعاد بعينه إلى الطريق .

- « أنظنين انك ستزوجهينه ؟ »  
- « على الأرجح ، لا . »  
- « اذن ما معنى انك - »  
- « أحبه . ألا يكفي ذلك ؟ »  
- « طبعاً لا يكفي . تتحدثين كأنك ولدت أمس . اسمعي . يجب أن تقطعي علاقتك به . أنا أصلاً لا أراه كثيراً هذه الأيام ، كما تعرفين . »  
- « غير مهم » ، بالنسبة إليّ .

لم يجب طارق . انجسه بسيارته نحو الجسر المعلق ، وعبرناه إلى الجادرية ، في اتجاه مبنى الجامعة . كانت الليلة راتقة جميلة ، حزينة ، كما هي ليالي نيسان ، وتمنيت لو أن رفيقي فيها كان وليد ، بكل أحزانه . وفجأة قسال طارق ، وكأن الصمت الطويل استمرار لأفكاره :  
« ألا تجدلين وليد رجلاً غريباً ، غامضاً ، غير مفهوم ؟ »  
- « ماذا تعني ؟ »

ثم قال : أنت حرة فيها تفعلين . أذهب الى النادي ؟  
لم يقل شيئاً بعد ذلك ، ولم يهد بأي عنف . ولا أنا انفجرت بالغضب  
أو البكاء . تلك كانت مرحلة تخليتها ، تركتها ورائي .  
أو أنها كانت مرحلة في الغيب ستاتي ، وعماً قريب .

( ٥ )

بعد اسبوعين أو ثلاثة زارنا طارق مستصحباً سميرة والأطفال ، وكان  
معه هذه المرة كاظم اسماعيل أيضاً ، ولم اكن قد رأيته منذ ان جاءنا  
يوماً ، « حاملاً » يؤس البشرية على كفيه لأن سوسن عبد الهادي لم ترض  
به زوجاً لها ، رغم توسط عائلته وعائلتنا في الأمر . اعتذرت سوسن  
قائلة انها تحترمه كثيراً ، ولكنه يكبرها بسنين كثيرة ! ولا ريب عندي  
انها في الواقع أرادت أن تقول : قد يكون كاظم كاتباً على شيء من  
الأهمية ، ولكن ما الذي أنجز في حياته مما قد يجعل أية امرأة تهرع اليه ،  
حتى وان تكن أرملته - دع عنك أرملته فارعة القوام ، نحيا حياتها حلمياً في  
لوحات مليئة بعشاقها الحقيقيين ؟ وليد ، من غيرك وغيري يفهم هذا كله ؟

لم أتحس كثيراً لضيوفنا ، ولكنهم كانوا في مرح عائلي أصروا على  
اجتدائي اليه . أخذهم والذي الى الحديقة ليرسم آخر أوراده النادرة -  
ولا سيما تلك الوردة البنفسجية التي أفلح أخيراً في جعلها تنبت ، ومعها  
ثلاث أخريات « في روعة الفجر » . قال أبي ، فهو يحفظ عن ظهر  
قلب كل الكليشيات المناسبة ، كغيره من أهل السياسة . وأعلن لهم  
جميعاً : « سأسميها وصال . وسأكتب عنها الى جمعية الأوراد في لندن .

سأجعل تهجتها دليو ، آي ، اس ، آ ، ل ، إي - على الطريقة  
الفرنسية . ما رأيك يا دكتور ؟ » فضحك طارق وقال : « رأي الدكتور  
من رأي أبيه . وهل يجوز أن يقول له لا ؟ »

وقال كاظم : « أبو طارق ، اريد ثلاث فساتيل من شجرتك الرائعة ،  
مقار الطير . »

أجاب أبي : « تأخرت . كان يجب أن تخبرني في شباط الماضي .  
على كل ، سأحفظها لك حتى الخريف القادم . » ثم أضاف بخبث :  
« ونرجو في هذه الأثناء أن تكون قد وجدت لك ابنة حلال تناسبك -  
مالك وللفنانين والفنانات يا رجل ؟ »

وحين نظر إليّ كاظم نظرة فائضة بيؤسه العتيدي . هبطت معدتي ،  
ووددت لو أصرخ بوجهه : أما تكفيني مأساتي يا غبي ! وعدت أدراجي  
إلى الداخل .

بعد الغداء انسحبت إلى غرفتي وإذا طارق يفتح الباب عليّ ،  
ويقلعه خلفه .

- « زعلانه عليّ ؟ تعالي ، هاتي يوسه . »  
وقبلي على خدي ، كما كان يفعل أيام طفولتي .  
وقف أمامي ، ونظر في عيني ، ثم هس : « ما أخباره ؟ »  
فهزئت رأسي ، ولم أجب .

- « زرنانه أنا وكاظم قبل أيام ، هل أخبرك ؟ »  
فهزئت رأسي مرة أخرى .

واستمر : « متى سيسافر ؟ »

قلت : « بعد يومين أو ثلاثة . »

- « متى بالضبط ؟ »

- « يوم الأربعاء . بسيارته . »

— « صدق ؟ في نفس اليوم الذي سنسافر فيه أنا وكاظم ؟ »  
فقلت : « غريب ! »  
قال : « غريب ، حقاً ! سنسافر إلى لبنان ثم اليونان . بسيارتي .  
اثنتين معنا ؟ »  
فابتسمت بسخرية . « حالاً ! » ثم أضفت : « إذا التقينا بوليد ،  
إعتنيا به . »  
فضحك طارق . « أمرك يا سيدتي ! بس اضحكي قليلاً ! ما زالت  
الدنيا بخير ، أتعرفين ؟ »  
وفتح الباب وخرج .

- ١٠ -

مردان وليد يقتحم أم العين مع وفاء



رامات يوسف تكاد تكون على الحدود . وهي في الأصل قرية عربية تدعى أم العين، احتلها الاسرائيليون عام ١٩٤٨ ، واخرجوا سكانها العرب وأبدلوا اسمها ، وحصنوها ، تساندتها في السنوات الأخيرة مدفعية ورشاشات وبضع مدرعات . وهي جبلية متوسطة الحجم ، تحيط بها بساتين الفاكهة ، وحول البساتين اشجار الزيتون ، وغابات السديان المتصاعدة إلى قمة المرتفع الذي بنيت القرية على اواسط سفحه . درسنا موقعها على الخرائط التي لدينا يوماً بعد يوم ، وشرح لنا العم عزي وضعها الطبوغرافي ، فهو يعرفها معرفة جيدة ، لأنه من ابناها الذين اضطروا إلى مغادرتها قبل ثلاث وعشرين سنة ، أيام كان شاباً في العشرينات من عمره .

كان قرار الجبهة أن نقتحم أم العين ، وذلك بتحريك مجموعات ثلاث : الاولى تهاجمها من السفح الشمالي الشرقي للجبل ، والثانية من السفح الشرقي حيث تبدأ غابات السديان ، والثالثة من الناحية الجنوبية . وأنا احد افراد المجموعة الأخيرة ، التي عليها ، تجنباً للكشاف ، أن تبط وادياً صخرياً وعراً شائكاً ، ثم تصعد في اتجاه القرية .

تحركت مجموعتنا إلى منطقة العملية في الساعة العاشرة من ليلة مقمرة - سرنا على الإقدام على نسق فردي إلى المنطقة المحيطة بالهدف . كان عددنا بهذا المحور حوالي الأربعين . وقد تحركنا بفئات صغيرة تضم

الواحدة منها عشرة افسراد ، حاملين السلاح والذخيرة . أخذنا ، عبد الرحمن ، بحمل رشاشاً متوسطاً لاعطاء كثافة النيران ، وآخر ، جمال ، بحمل جعبة اسعاف إضافة إلى رشاشه ، والجميع يعملون مع السلاح كميات اضافية من الرصاص . أما أنا فأحمل قاذفاً صاروخياً واربعة صواريخ ، وبخزامي سدس صغير اعطاني آياه أسامة ، ونحن في القاعدة ، لحماية نفسي إذا فقدت صواريخي ووجدتني اواجه الاعداء مباشرة .

في الحادية عشرة بلغنا الأمر بيده العملية . سرنا ، فئة بعد اخرى ، بسكون لا يتخلله سوى صوت أحزمة البنادق والجعب وهي تتأرجح على أجسامنا . المسيرة طويلة نحو نقطة الانطلاق ، ثم اختراق القرية . كان جانب الوادي شديد الانحدار ، نزلناه وضغط السلاح الثقيل الذي نحمله يدفعنا دفعاً إلى الأمام ، وامتألت سيقان بنطلوناتنا بالأشواك . التفتنا بعد ذلك صاعدين ، بين الصخور والأشجار ، وبلغنا مواقعنا ، وتوزعنا : فانجبت كل جماعة بالاتجاه المحدد لها حسب الخطة الموضوعة ، لكي تتمركز أمام أهدافها الأولية مباشرة . أخذنا نتسلل بحذر ، وندنو ما نستطيع من أهدافنا دون أن نكتشف ، ربما تصل قوات المحورين الآخرين إلى نقاط انطلاقها . تقدمنا متحنيين ، ثم مرفضين ، ثم زاحفين ، وإذا نحن نشرف على المباني الاولى المتباعدة على طرف القرية . وهناك مكثنا ننتظر اشارة الهجوم .

هذه عمليتي الثالثة ، ولكنها أكبر من العمليتين السابقتين ... أشعر بارتياح داخلي لم أتوقعه . لست أشعر بخوف أو توتر - غريب ! ولا أشعر بذلك الحاس العصبى المرهق الذي كنت أتصور انه يجب أن يسبق المعركة ، والذي اتنايني في المرتين السابقتين . انظر إلى نفسي ، متدأ ، هادئاً ، من بعيد - وكأنني لست مستلقياً بحضرة وتصميم بين أشجار الزيتون . قناعتي بما أفعل ثلاثي ، والليل الفلسطيني ساكن ، فيه قرصة

برد طيب ، ووراء الزيتون أرى النوار مكومتاً على أشجار النفاخ وهو يلتصق فضياً أخضر بضوء القمر . رائحة التراب الندي أنلذذ بها ، والسهاء صافية لا تخفي القمر المتناقص كل نجومها . أسندت رأسي على سلاحي بطمأنينة ، وهمت لعبد الرحمن : « أبو عوف ، مرتاح ؟ » فشد يده على يدي ولم يجب .

جاءتنا اشارة الاقتحام . وكنا قد اتفقنا على ألا نحرك فوراً ، بل نترث قليلاً . اشتعل الليل دفعة واحدة ، وأنا مع عبد الرحمن في وحدة التراب التي اختفينا فيها ، ننتظر . وببي شعور متناقض بنفاد الصبر وركود الأعصاب ، في آن واحد . تولت الانفجارات ورشقات الرصاص ، وانشحن الجو ببريق الانفجارات والخطوط النارية . في هذه الأثناء كانت الجماعات التي إلى اليمين وإلى اليسار تنطلق ، وتطلق مزيجاً من الرصاص والصواريخ على الدشم والمواقع المواجهة لنا . ومرت فترة لا أرى فيها سوى لمان البارود الملتهب . والمتدلج من فوهات البنادق ، وكما أطلق صاروخ ، انطلق معه طب قوي ينبر الأشجار حتى الأفق . يتجه الصاروخ نحو الهدف وأراه مندفعاً كأنه نجمة حمراء ساطعة النور ، مسالتبت أن تحدد .

أهداف العدو تردّ بالمثل ، وتطلق نيران الرشاشات الثقيلة . تنطابح الخطوط النارية فوق رؤوسنا ، متباعدة من نقطة في أعلى السفح المشرف علينا ، وإذا رشاش آخر يطلق نيرانه من أماننا ، وثالث يهدير بقذائفه ، لا من القرية نفسها ، بل من قمة جبلية نائية في الجنوب يرمي بانجائها عبر الوادي الكثيف المظلم . الرصاص الخطاط يتشابك في الفضاء ويرسم أشكالاً مذهلة بتقاطعاته ، أو عند اصطدامه بالصخور وانحرافه عن خط سيره ... السفح مليء بالنجوم البيضاء المتناثرة ، باصطدام الرصاص المتفجر عند آخر مداه ، أو بانفجاره في السماء فوقنا ليزيد من عدد النجوم فيها ...

وجاء دور جماعتي . ضربنا أولاً موقعاً مكوناً من أكياس الرمل كان أمامنا ، في الطابق الأسفل من مبنى حجري يتألف من ثلاثة طوابق . وفي الحال أخذنا نبادل النار مع كل نوافذ المبنى بطوابقه الثلاثة ، إذ سلطت النار علينا . وفجأة انطلق رشاش بئرانه السريعة من شباك منزل آخر كان على بعد قليل من يسارنا ، ولكن على مستوى أخفض من المكان الذي نحن فيه . ولم يصب أحداً منا . والأرجح أن جندي العدو كان يطلق النار عشوائياً - لرهيبنا ، ويشجع نفسه . قفز عبد الرحمن وجعل بعيداً عني . وقفز الآخرون كل إلى طرف . ووضع عبد الرحمن رشاشه المتوسط بين رجليه ، وجعل يطلق النار بغزارة . واستأنف جمال وجماعته اشغال مبنى الطابق الثلاثة ، بينما انتفضت أنا وقذفت النافذة بأحد صواريخي . كان الوهج هائلاً . وسكت رشاش العدو في الحال ، فيها خرج من المنزل جنديان يركضان هارين ، ولحق بها أبو عوف برشاشه ، ورأيتها يقعان أرضاً معاً .

ردة الفعل منا سريعة . ويدهبني عدم اضطرابي لرصاص الأعداء ، ونحن منبطلون ، أو جالسون . أنظر إلى المشهد بوعي وبرود ، وألاحظ كيف يضيء لهب الرشاش والقذيفة الصاروخية البستان كله ، وكأن « الجمل » مسرح ينيره البارود ، ونحن المتفرجون ، والأصوات الراجعة تمثل أدوارها .

قضيتا على الموقع القريب بشيء من السرعة ، غير أن نيراناً غزيرة ستمرت في مختلف النواحي ، وأخذ هدير الانفجارات يتصاعد ويتكاثر ، وهي تقرب من مكاننا . وأدركنا أنه قصف معاد ، وأخذ عبد الرحمن ومهند يشآن « عرض » القذائف ودينها وهي تنهال حولنا . أما أنا فكنت صامتاً ، أقرب وأصغي . أحياناً أسمع صفيح القذائف القادمة فوق ضوضاء المعركة ، وأحياناً لا أشعر بها إلا عند انفجارها ، فيأخذ عيني

وميضها الخاطف ثم يجثي خبطها المريع . وانتهت الى صوت غريب يرافق انفجار القذائف - صوت كخشخشة الحشرات الكبيرة الطائرة ، وتبين انه صوت الشظايا وهي تتناثر ، حاملة الموت ، والشظايا تنساق حولي الآن ، بعد كل انفجار ، كأنها حبات زيتون تنساق من الأغصان التي فوق رأسي .

اختلطت القذائف بالرصاص ، ولم يصمت الرشاش المدمدم عبر الوادي ، وبات يصدر عنه سيل احمر متواصل من النار ، بخط منحني ، كأنه سيل من البول الأحمر . ثم ملأ الجو صوتاً جديداً - صوت مولول ، تحدته القذائف الضوئية التي أطلقها العدو لاثارة ساحة المعركة وتحديد أجسادنا في موقعنا . وإذا ما انتهت القذيفة كان صوتها يوشوش كصوت القنيل المشتعل . في ضوء هذه الأقمار الوافدة ، انبطحت على الأرض وكيفت جسدي ليتسق مع تموج التراب ، وأنا في انتظار أمر جديد . نزع جعبة الصواريخ عن ظهري ، ووضعها هي وسلاحي تحت جسعي حماية للرؤوس المتفجرة من احتمال الإصابة والانفجار ، خدي الأيسر بلامس التراب ، واليمين يلامس الحديد البارد .

في هذه الأثناء كانت الجماعة التي الى اليسار تتقدم حسب المقرر بقودها قائد وحدتنا أبو رائد . انسان جريء ، صلب ، مندفع بحب هائل للرجال الذين يأتمرون بكلمته ، وشديد العصبية معهم عند وقوع أي خطأ . وجهت القاذف ، وأطلقت صاروخاً على مسافة معينة أمامه . وانتظرت الجماعة قليلاً ، وأطلقت صاروخاً آخر . وقال عبد الرحمن : « انتهت القرية ! سندخلها الآن . » ومن بين الأشجار رحنا نركض واحداً واحداً نحو القرية المظلمة . اخترقت مجموعتنا . مجموعة أبو رائد ، المنازل وهي تظهر الموقع تلو الآخر . واعترضنا قناص ، فاحتجب أبو رائد لحظة ، ثم سمعنا يطلق عليه النار بعنف ، وعاد الى الأنظار ثانية ملوحاً

لنا بالتقدم . وفي قلب القرية استولينا على مدفع رشاش ثقيل ، بادر إليه مهتد ، وأداره على أحد المنازل وأطلق منه نارا كثيفة ، وهو يضحك ويشتم بالتعاقب .

كانت الساعة الآن تقارب الرابعة صباحاً . مرة قائد كل مجموعة على عناصره يتفقدهم وذخائرهم . عندنا بعض الجرحى . ولكنهم قادرين على المشي ، ولو بصعوبة ، فبا عدا اثنين يحملهما الرفاق ، وبدأنا بالتحرك للعودة من خلال الصخر والشوك ، وبنسق فردي ، كما جئنا . جعلت القذائف تنهمر من جديد من مواقع بعيدة — يصحبها رصاص قناصة يبحثون عنا في الظلام — الذي اشتد كثافة بعد غياب القمر .

العودة ليست كالقدوم ... النزول شاق ، والصعود أشق . ولكن ذهني صاف . أن أدخل فلسطين مقسّاتلاً ! سأروي التفاصيل لأبي . حالما أصل إلى القاعدة ، سأرسل إليه خبراً في بغداد ، وأطلب إليه أن يقول لوصال « هذا أول الوفاء بالوعد . » ستفهم . ذهني صاف ، وجعيتي ترتطم بظهري ، بصاروخها الواحد المتبقي ... تشتعل قذيفة في القضاء ، فينبصغ السطح المديد بالأبيض الفضي ، وتظهر : للحظة خاطفة ، عشرات الأشكال السوداء وهي تتحرك — عشرات الظلال ، لأن القنبلة القادمة يأتيها نذيرها بصوتها المولول ، فيرتمي الجميع أرضاً خلف الصخور وبين الأعشاب .

وابتعدنا عن نقاط الالتحام الفعلي ، رغمًا عن الوميض المتكرر والرصاص المتباعد . غير أنني أحسّ بالتعب لثقل حولي ، ويرهقني الانبطاح مرة ، والقفز مرة ، والسير منحنياً مرة أخرى . صممت على أن أرفع رأسي ، واستنشق الهواء الفلسطيني القوي الرطب ملء رئتي ، وسرت للحظتين منصّباً بطول قسامتي ، غير مهم بصغير الرصاص ، ساخراً من احتمال إصابتي ، كأنني بعد تلك التجربة حظيت بحصانة سحرية ضدّ رصاص

الأعداء جميعاً . وإذا أبو رائد يصبح من حيث لا أعلم : « انبطح يا وليد ! الدنيا كلها تراك ! »

انبطحت ، وكان عيد الرحمن دليلي ، فهو قد اشترك في عدة عمليات من قبل . وتذكرت قوله : « الموت أكبر حيال .. يجب أن نخاطله بحيلة أكبر ، دائماً . » ونهضت بحذر شديد هذه المرة . يجب أن أعود إلى القاعدة ... وقطعنا مسافة من المتحدر الصخري ، ببطء عسير . حالما نعتطف شمالاً سيحميننا التلّ .

وفجأة انبهرت عينا ، وأطبق صوت يزن أطناناً على رأسي لا أدري ما هو . « مروان ! » سمعت أبو عوف يصيح . « مروان أصيب ! مروان ! » وامتلاً القضاء العريض بوجه واحد هائل .

وصحت : « أبي ... أبي ... » ولم يعني أحد .

- ١١ -

أبراهيم الحاج نوفل ينبش  
الكوامن حمد الفجر

أيا شجر الحايور ، يا شجر دجلة والفرات ، يا شجر أنهار العالم  
عظيبي . مالي اراك مورقاً ، كأنك لم تحزن على -- لا ، لن تحزن يساً  
البشر لا يحزنون ، فكيف تحزن أنت ؟ ومن يقوى اليوم على  
حزن ؟ سأعلن الحداد بارتداء أزهى الألوان . سأعلنه بشرب العرق  
الريسيكي - أيها ميسر . وأورق يا شجر ، وتفجر يا قلداح ويا زهر

أفتقده كل ليلة . أذكره كل يوم ، أراه في كسل غير أبصر فيها  
شجرة حب . معي هو في حوار مستمر . وفي خضاء مستمر . والخصاء  
أطيب من الانسجام مع أي انسان .

كنت أقول له : « حوارنا هذا ، كم يكشف حقاً عن حنايانا  
الذهنية ؟ » فيقول : « قليلاً جداً . بل أنه يغطي على الكثير منها . »  
هل فينا الشجاعة الكافية للخوض في تفاصيلنا الداخلية كلها ؟ شهواتنا ،  
سلامنا ، رعبنا ، فرحنا ، ما نخشى وما نرجو ، تجارنا المذانة ،  
تجارنا المشينة -- الا نقيها في غياب ، كامل أو جزئي ، لكيما نقول  
شيء ؟ ماذا لو حاولت أن أقول كل شيء ، مما أصعب ذلك .  
الكذا كان يقول . وهو الذي مثلي ، يتمتع بالحديث أكثر مما يتمتع أي  
رجل آخر بالعبث بأبناء النساء . أقول كل مرة انني سأحاول أن أرفع  
ثم قشرة واحدة من القشرات الكثيرة التي تكسو ذاتي ، بل ذواتي ،

ولكن ما أكاد ارفع واحدة حتى أجدني أضع مكانها قشرة أخرى . ومع هذا ، فلأحاول ..

وليد ، على نحو ما يذكرني بالاسكندر يوم حزم امره للحصول على سر الخلود . يدوخون العالم ، هؤلاء الباطشون بالعالم ( لشدة مساجيحونه ! ) ، ثم يطلبون الخلود . كلكامش فعل ذلك ايضاً : فعل ما فعل بأهل أوروك ، ثم كبر وعقل وحزم امره للحصول على سر الخلود ، ولما حصل على الثبنة التي ستهب اياه بعد الجهد والآلام ، أكلتها الحية ، وحللت دونه . والاسكندر ، رغم ذهابه إلى بابل ، حيث لا بد أن أحدهم روى له قصة كلكامش ، لم يتعظ .

امتطى فرسه ، مستردفاً عليها جارية تقوم بخدمته — هكذا تقصون رواية أبيي، ولكننا نعلم أن هؤلاء الذين يدوخون العالم لا يستطيعون البعد عن النساء ليلة واحدة ، فيدوخون هم بن أخيراً . وكان ثمة الهبة اغريقية ، أو بابلية — جونو ، مثلاً ، أو اناثة ، أو عشتار-تهديسه ( أو تفضله ! ) وهو يقطع الفيافي والقفار ، ويدمى لبطاح العراق التي لا حد لها ولا نهاية ، إلى أن يبلغ بشرًا تحرسها الافاعي ، فعلم أنه أدرك غايته . ماء الخلود ينبع من اعماق البئر ، فليقتل الافاعي وليشرب منها . فقالت له احسدى الافاعي ، وقد عرفت مسأ دار في خلده : « عينا تقطنان ، يا ذا القرنين . ولكن لك أن تملأ من الماء قربتك ، على ألا تشرب منها هنا . لأنك إن حاولت ، ندغتك واحدة منا قبل أن يبلغ الماء شفتيك ... خذ القربة ، واذهب مسافة عشرة فراسخ ، تجد بستاناً جميلاً . علق القربة على غصن شجرة ، ونم تحتها إلى أن تستريح . ثم انفض ، واشرب وحدك ، على رسلك ، فتصبح من الخالدين ... »

ملأ الاسكندر قربه ، وحمل القربة وراء الجارية ، وأسرع بحصانه إلى البستان الموعود . ولكن الحصان راح ينهب به الأرض ، ولا يصل .

وبقي على تلك الحال ساعات ، إلى أن شاهد أشجاراً من بعيد ، فاستشر خيراً . وما كاد يصل إليها حتى كان التعب قد هذه ، وترجل وأمر الجارية بأن تعلق القربة بأحد الأغصان ، وتحرسها ، وربط الحصان إلى شجرة ، وارتمى على العشب الاخضر في الظل الوارف ، وغرق في نوم عميق ... وإذا غراب أسود يحط على القربة ، على مرأى من الجارية ، وينقر القربة بمنقاره الحاد ، وينقبها . واندلق منها الماء الثمين ، فرشفت الجارية منه مقداراً وهو ينصب على الأرض ، كما رشف الغراب منه حتى ارتوى .

وأيقظت الجارية الاسكندر من نومه ، فغضب لما رآه ، بعد ذلك التعب المضني كله ، وعندما قالت الجارية إن الغراب شرب من ماء الخلود ، وأنها هي أيضاً نالت شيئاً منه ، طار صوابه ، وضربها بسيفه ، فجدع أنفها ...

ولكنه رقى لحالها ، فصنع لها أنفاً من طين ... وكانت نتيجة سعي الاسكندر أن الغراب هو الذي أصبح خالداً ! اما الجارية فما زالت ، والعهدة على الراوي ، على قيد الحياة حتى يومنا هذا — تلقى بنفسها على صدر أي رجل تراه نائماً ، فتكون كابوساً ثقيلاً تمنع عنه التنفس ، ظناً منها انه الاسكندر ، ولا تبارح صدره الا إذا هددها بجدع أنفها ... لأنها تخشى أن يعرف أحد أن انقها من طين .

وهذا كله يذكرني بوليد ، مع القارق بالطبع . سعى ما سعى ، وحقق ما حقق ، ليتمتع غراب هنا وغراب هناك بما حقق ، ولا يحصل هو حتى على قبر يعرف أحد بالتأكيد أنه قبره . ولا أشك أنه ترك أكثر من امرأة تبحث عنه في الآخرين ، وتخشى أن يكشف أحد أن انقها من طين ، ولكنها لا تكف عن البحث .

يجب الا أنحرف بالتشابه إلى حيث لا أريد ، فأبتعد عن الحقائق ،

وأقول: ما لم يخطر ببالي أن أقول ، كذلك الأمير الذي قال : أيها القاضي  
 نعم . ثم حمله حسب السجع إلى أن يردف : قد عزلناك فقم . لأنه لم  
 يند كالمه أخرى يميزها سجعاً . لا ، لن أعزل أحداً . حياً في سجع  
 أو غيبة في تقفية ، ولو أنني أود لو أعزل الكثيرين ممن أراهم كسل  
 يرم . وهم أقل براعة بكثير ، وأشد لؤماً وخيانة بكثير ، من قاضي  
 نعم المسكين . ولكن الله لم يجعلني أميراً ، ولم يقلدني سيقاً عانياً ، بل  
 دس في يدي زجاجة أطرب لصوتها عندما تدق رأسها بالكأس وتصب  
 من جوفها النار الذهبية . وقال : إبراهيم ، انطق ! فرحت انطق ،  
 وإذا لم تستطعني الرجاجة العسدية ، استطعني الذئاب البشرية - إن لم  
 يكن كلاماً ، فصراحاً . أنا أتوق إلى الصراخ توك السجين إلى الحرية .  
 وقد رأيت سجناء كثيرين في زمانسي . في أبي غريب ، وغير أبي  
 غريب . يقولون : حزينك بين يديك ! أقول : أيها خارجة عني ،  
 جدران تحجبها . ولا تحجبها . كان بيبي وبينها زجاجاً مضيقاً أريد  
 تهشيمه لبلوغها ، لرؤيتها كما هي ، كما خلقها ربها ، لكنه زجاج لا  
 يخترقه رصاص ولا تنال منه مطرقة .

في شبابي . كنت كل صيف أثير الجسد والشغب في البيت حول  
 ضرورة سفري إلى أوروبا ، لأنني في سفري أجد شيئاً من تلك الضوضاء  
 التي تحرق اليها . وكنت أعلم أن عند أبي . الحاج نوفل إبراهيم ، من  
 المال ما يتكلم بشأنه حتى تجاه زوجته ، دع عنك أولاده . لمن يحفظ أبي  
 هذا المال كله ، كنت أقول ، وهو - على الأقل في الظاهر - الحاج  
 الزاهد في الدنيا . المنطلع إلى الآخرة ؟ أبي لم ينقصه الدهاء يوماً طوال  
 الأربعين عاماً التي قضاها في مكتبه التجاري في منطقة البنوك من شارع  
 الرشيد . جعلني أدرس الاقتصاد ، وهو الذي ختم علم الاقتصاد دوننا  
 كتاب أو معلم . واستطاع أن يزوج أخواتي الأربع زواجا « لانقا » .

سكن واحدة منهم ، نجلاء ونوال ونعوس ونضار ، تخرجت من كلية ،  
 وتوظفت . ثم وجد لها أبي ( أن لم تجد هي نفسها ) زوجاً على شيء  
 من اليسر . وبقيت أنا ، أقرأ الكتب ، وأغازل اليسر ( هكذا كانوا  
 يقولون عني ) ، وأمني نفسي بالثورة البروليتارية ، ولا أحرك أصعباً  
 في عمل مجد ، كسلاً أو تمرداً . حتى في مكتب أبي ، وجدت العملية  
 الاقتصادية المزعومة عملية آلية عملة رجوت نابي أن يعتني منها . كان  
 همي الوحيد هو أن اكتب . حتى في الاقتصاد كتبت . وكتبت في  
 النفط ، أيام كانت المطالبة بمشاركة العراق في عشرين بالمئة من أعمال  
 شركة النفط الانكليزية تعتبر مطلباً وطنياً عبر التحقيق يقتضي الماثبسة  
 والأصرار . ولما كان لا بد لي من عمل ، علمت معلماً في ثانوية أهلية ،  
 أعلم الاجبدية الانكليزية ، ومن خلالها : كلما استطعت ، نطقت ككفرأ  
 في مواضيع اقتصادية وسياسية ، والكفر لم يغب امره يوماً عن ذوي  
 المدرسة ، ولا ذوي السلطة .

وكان لي اصدقاء رسامون ، فانخرطت في حلقاتهم ، ووجدت أن لي  
 ميولاً فنية مكبوتة ، كما كانوا يقولون ، فاطلقت فيها قلبي . أخذت  
 اكتب عن الفن . وفي الخمسينات ( ولماذا لا أقول : حتى اليوم ؟ )  
 إذا لم تجد ما تكتب عنه ، كان لك دائماً أن تكتب عن الفن ، وما  
 من أحد يخطر له أن يسألك : ما هي مؤهلاتك التي ، يسا سيدي ،  
 جعلتك تنصب نفسك قاضياً على الفنانين ؟ مؤهلاتي أنا كانت عشقي لما  
 تراه العين ، وصداقاتي مع الرسامين ، وقدزرتي على تحريك قلبي في أي  
 اتجاه أريد . وكلما جئت إلى البيت ، ومعني جواد حسني ، أو كاظم  
 اسماعيل ، حاملاً صورة زيتية أخرى أعلقها على حائط غرفتي ، تأفف  
 أبي من هذا العبث ، وأخذني جانباً وقال : إذا بقيت على هذه الحال  
 فهنايك السجن ، أو السماعية . متى ستصبح آدمياً ؟ « فاضحك في  
 وجهه ، وأقول :



— « بابا ، ما يخالف . أريد عشرة دنانير . »

— « عشرة ؟ لماذا ؟ »

— « ثمن اللوحة . »

— « عشرة دنانير ؟ هل جنت ؟ لن اشترىها بعشرة فلوس . »

— « عشرة دنانير ، بابا . سأفعلك فيها بعد . »

— « لا حول ولا قوة الا بالله ... »

أما في اول الصيف ، فكان لا بد من إثارة الشغب ، ورفع الصوت بالشجار . وكنت أعلم أن ابي ، مهما يُعرض عن امدادي بالمال أولاً ، سيفكّ الكيس أخيراً ، ويقذف على المنضدة مئة او مئتي دينار — نقداً ، دائماً . فأنقظها وأركض الى المصرف ، وقد هبأت جواز سفري مسبقاً ، لأحولها الى صكوك مسافرين .

وهكذا تعرّفت على وليد مسعود — في مطلع الخمسينات ، وفي البنك العربي بالذات ، الذي كان ابي يتعامل معه . كان التعارف سهلاً وسريعاً ، لأن وليد كان يعرف اسمي ، وأنا أعرف اسمه ، مما تنشره الصحف . نحن جيل الوثبة ، كنت اقول . ولو ان وليد لم يكن قد جاء الى بغداد في أوائل ١٩٤٨ ، بل جاء بعد ذلك بسنة . لم يرنا أيا الوثبة ، التي كانت فاتحة الحياة الحقيقية : السياسة ( كما كنا نفهمها أيامئذ ) ، الكتابة ، الفن ، التوقيف ، الرؤية الطوباوية الهائلة . كنا نكتب في الصحافة المحلية ، ونسرب مقالاتنا الى لبنان ومصر ، أنا ، وكاظم ، وجواد ، ووليد ، وآخرون . بعد مظاهرات عام ١٩٥٦ أوقفنا جميعاً . وكنا في الموقف في السراي لا نزال نردد ما نحفظ من أبيات الجواهري :

فالوعى بغيّ والتحرر سبّةً والممس جرمٌ والكلام حرامٌ  
ومدافع عما يدين غرّبٌ ومطالبٌ بحقوقه هدامٌ

وفي تلك المرة ، أبعد وليد الى الحدود الاردنية . أخذوه من مكتبه الى سيارة الشرطة . ولما لم يكن يحمل أوراقه ، رفضت السلطات الأردنية السماح له بالعبور ، فأعيد الى الرطبة ، ثم أعادوه الى الصحراء ، ثم أعيد الى الرطبة ، لعبوا به لعب الكرة ، وبنو الحلال في بغداد يسعون من أجله — كلنا كنا نسعى ، وزوجته رجمة تكاد تنهار أعصابها خوفاً عليه ، الى ان وافقت السلطات على عودته ، بكفالة تاجر مسجل في غرفة التجارة ، ووضعه تحت المراقبة لسنة ، الى آخر تلك الأساليب المشهورة .

كان كتابه «الانسان والحضارة» في المطبعة بيروت أيامئذ . فنصحناه عند عودته بالتريث في نشره ، غير أنه أصرّ على إصداره ، وجاء الينا الكتاب في نهاية السنة ، وأثار اللغط ، وهاجمه كاظم اساعيل هجوماً بعيداً عن المطلق مستهدفاً شخص كاتبه . غير أنه عاد ، بعد ذلك ببضعة أشهر ، فكتب عنه مجدداً ما أرضانا جميعاً . ولم نعلم أكان ذلك عن قناعة منه جاءت بعد إعادة النظر في الكتاب ، أم رتقاً لصداقة جعل نسجها يتمزق بينه وبين وليد ، بل بينه وبينى في فترة عسيرة من حياتنا . هل كانت الكلمة حقاً على ذلك القدر العجيب من الأهمية ؟

قبل ذلك بسنوات ، يوم جابهني وليد من وراء منضدة ، يهيج لي معاملة التحويل الخارجي — في أوائل صيف ١٩٥١ ، أكاد أجزم — لفت نظري شيء ما في مظهره ، ترك أثره في نفسي . ضمور وجهه ؟ سعة عينيه ؟ طول شعره ؟ من الصعب أن أحدد . بدا لي أشبه بالنسك : شيء رهباني فيه يجعله يتبعد عنك ويقترب منك في آن واحد . ولم أدهش حين علمت بعد ذلك ، بأنه ترهب فعلاً في صباه . كان قادراً على بذل الجهد ، والتركيز ، والحزم ، والضحك ، والحب ، كلها معاً . يعمل من أجل نفسه ، ومن أجلك في الوقت عينه ، ويوحى بطاقة مخزينة فيه

لا تستند . وأحياناً ينفرك باصراره على ضرورة الانصاف ، على استعمال العقل ، على العزم عن حب ، لا عن حقد - كما كان يقول . هذه مثاليات أقدرها في غيري ، ولكنني لست أريدها لنفسني قطعاً . أنا إذا أحببت أردت أن التهم حبيبي ، وإذا حقدت أردت أن احطم وأهشم ، لا عقل ، ولا انصاف ، ولا ما يحزنون . ولكن ولید كان ولید : إذا حاججته في نفسه ، ضحك ، وانصرف الى موضوع آخر .

يوم التقيته ، كما قلت ، كان يقدم امتحاناً في الاقتصاد لجامعة لندن ، كطالب مراسل . كانت كتبه على المنضدة ، مع أكذاس الحوالات والرسائل والصكوك . بدأ الدراسة قبل ذلك ببضع سنوات في القدس ، ولكن نزوحه من مدينته ، وبعثه الى بغداد ، وهو لا يحمل ، كما قال ، إلا الثياب التي على ظهره ، أخيراً دراسته بعض الشيء . ويبدو أنه انخرط لفترة قصيرة عام ٤٨ في جيش الانقاذ بدمشق ، الى أن سرّح الجيش . وصمّم على أن تكون بغداد منطلقاً جديداً - له ، ولكل فلسطيني ، بل لكل عربي . ولتكن بداية النصف الثاني من القرن ، أول الثورة العربية الحقيقية ... وأول الثورة ، هو أن تكون لك رؤية جديدة - في كل شيء ، من الاقتصاد حتى الشعر - مبنية على معرفة حقيقية . كل شيء ترفقه ، يجب أن تعرف ما هو بالضبط ، لكي تتوصل الى معرفة البديل . وهدف الرؤية ، في النهاية ، بعد كل نظرية سياسية واقتصادية وفنية ، بعد كل صراع ، ونضال ، هو أن تحقق انساناً أمثل ، انساناً حراً ، انساناً له أن يفتن ، وله أن يعارض ، وله أن يرفض . انسان كهذا ، هو الذي في النهاية ، سيجدد الأمة ، سيعيد ميلادها ثانية ، لتساهم في تقدم البشرية . هذا طبعاً تبسيط شديد للكلام الكثير الذي لم يقطع بيتاً . غير انني كنت أرى أن ولید ، باندفاعه النظري ، وبعدم اعتناقه مذهباً فكرياً ، كالماركسية مثلاً ، يعينه في تسير اندفاعه في وجهات متصاعدة متكاملة ، كان يفرض على نفسه الدوران في دوائر ،

قد تكون لولبية في صعودها نحو غاية نبيلة ، غير أنها لا تنجح له المنسرح الكامل لكل قواه . كان أشبه بطير كبير الجناحين ، يحلّق في قاعة كبيرة - فيضرب أحياناً سقفها ، ولا يستطيع الانفكاك الى الأجواء التي وراءها .

أما هو فكان يرى غير ذلك . كان يرى أن انتهاء الفكري لا تحده حدود موضوعية ، وأن اعتناق المذهبية مُسبّقاً ، هو الانقفاص في قاعة كبيرة ، عوضاً عن التحليق في الأجواء التي لا تنوم لها . وهذا في التحليل الأخير . هو سرّ المأساة في حياة ولید مسعود . أراد أن يكون قديماً في عالم من الفجور ، منظرراً مفرداً في عالم من الأحزاب ، عقائدياً غير عقائدي ، وفي عالم من التزمت الدعاوي . أراد أن يتكلم برموز حسب أن لها معانيها بين الناس ، ونسي أنها غير الرموز التي يحملونها كالرثي حول أعناقهم . ودهش ان الذين فهموه ، في خاتمة المطاف ، لم يكونوا إلا قلة من الناس - ولعلها القلة التي أحببت فكره لأنها أحبت لشخصه . لشيء ما فيه يشعّ من عينيه ويديه وصوته .

كانت رغبة ، قبل أن تنهار كلياً ذلك العام المشؤوم ، في قلق دائم عليه . تشبّث به ، وتشاجر معه ، وتحشّى كلما خرج أن يضلّ طريق العودة إلى البيت . وبأويله إذا تأخّر عن مواعيده : تخرج إلى الشارع ، وتذرعه جيئة وذهاباً في انتظاره ، وتخابر أصدقاءه واحداً واحداً لتسأل عنه . وأكثر من مرة اتصلت بمركز الشرطة المجاور تقول لهم إنه ضاع ، وهلا خرجوا يبحثون عنه ، كأن طفل في الخامسة من عمره ! ولذا كانت أيام توقيفه وإبعاده أيام رعب لها ، هزتها هزاً عنيفاً ، وزعزت عقلها .

كانت امرأة هائلة ، نجها جميعاً ، وأنا أودّها بوجه خاص . يظهر أنني أعجب بالنساء اللواتي فيهن مسّ من الجنون : العيون الزائفة ، الشعر

المرسل كالشظايا ، الضحكة الهوجاء ، مع الإيماء بالقدره العملاقة على التمتع بالحلب ، بالجنس . جاء بها من القدس في خريف عام ١٩٥١ بعد أن تعرفت أنا عليه بفترة قصيرة - وأوجدت له بيتاً أنيقاً قرب ساحة عنزة يستطيع استقبال أصدقائه فيه ، بعد أن قضى سنتين أو ثلاثاً يلتقي بهم في المقاهي بشارع أبي نواس وفنادق شارع الرشيد المتهترئة ، والغرف الأشد تهرواً عند بعض العائلات في البتاوين . فجأة ، كان وليد شيئاً جديداً - اجتماعياً ، وهو أصلاً كثير المعارف والأصدقاء . أما نفسياً ، أما إنسانياً ، فإنه لم يتغير قط حتى يومه الأخير . وكانت رغبة ، على عكس ما توقعنا من خطفتها التي وصفها لنا ، انبساطية ، مرحية ، تحب الجدل والمناقشة ، وتوحي ، فيما نقول ، بتوتر عاطفي يجعلها في حركة مستمرة . تنبأه بوليد لدرجة إحراجة أحياناً ، وتقبل على الحياة باندفاع وحرارة . وإلى هذا كله ، كان فيها كبرياء رهيبة ، يخشى الواحد أن يمسيها ، فتفجر في غضب لا تحاول إخفاؤه . إذا كرهت أحداً ، عاملته بحفاء صريح ليعرف شعورها نحوه . كنت أعجب بها ، وأخشأها ، معاً . وفجأة ، انكفأت على ذاتها . انغلقت . انغلقت دون الناس جميعاً ، حتى وليد . حتى طفلها مروان الذي كانت تمسكه ، لم تعد تهتم به . وكانت النهاية المحزنة .

أذكر هذا عن ريم بعد هذه السنين كلها لأكثر من سبب . بعضها شخصي ، وبعضها يخص وليد . أنا ، كما قلت ، وكما أستم في القول . أحب هذا الضرب من النساء : يقبضن على كل شيء ، ثم يفلتن من قبضتهن كل شيء . في السنوات الأخيرة أعجبت بتلك المرأة الأخرى التي أرى فيها شيئاً من جنون - مريم الصفار . هذا الهوج الطاغى في المرأة ، الذي يجعل من حياتها فوضى ، من علاقاتها فوضى ، من سياقتها السيارة فوضى ، من كتاباتها فوضى ، يستخرج الفوضوي من أعماقي ، يستخرج القرد الترق ، الكلب الكلب ، الذي ما عدت أستطيع إسكاته في .

فأشرب ، لاؤكد على جنون العالم الأجرى الخائن الذي أعيش فيه . يوم علمت بأن ريمه أخفت إلى مستشفى المجاذيب ، بكيت بخوار كالنور . هؤلاء اللهاء كلهم حولي ، هؤلاء الذين لا يستحقون أكثر من أن يقيدوا بالسلال في سرداب مارستان من خلق القرون المظلمة ، يملأون الأرض أصواتاً وبذاءة وقبحاً ، وتلك المخلوقة الجميلة التي تجعلل ضحكها كجرس من أجراس الجنة ، من بين شفتين توجيان بمذاق الفسق الأخضر ، يلتقي بها في مصح إلى الأبد - لا ، غير صحيح . الطبيعة ظلمة ، مجرمة . الكون لا يعرف المنطق . سأظل أرفضه ، وأرفض أي انسجام معه . ولعل هذا هو السبب في أنني لم أتزوج حتى الآن . المهووسات الرائعات لا يقنع بيدي . غشيت لساني ، غضبي ، وهن لو يعلمن فقط أن هذا اللسان وهذا الغضب لن يستهدفا إلا الآخرين دونهن ! ولكن ، ولو تبقى لي يوم واحد من الحياة ، سأزوج مريم . سأترك هؤلاء النسوة اللواتي ملئت أردافهن الكبيرة وعطرهن الرخيص وكركرانهن الفجة . وأبي ، رحمه الله ، سيغفر لي حينئذ . بل سيفرح حين يرى واثرة الذكر الوحيد يتزوج من امرأة « متعلمة ، وغنية ، وابنة عائلة » - واستاذة في الجامعة . ولعلنا حينئذ سنصلح العالم أيضاً - بعد فوات الأوان .

أي شيطان أعور يستحقني على هذا الكلام كله ؟ لعله نفس الشيطان الذي أطلعتني مرة على أمر لم يدهشني ، بقدر ما زود جنونياتي بحجج إضافية . يوم قبلت الوظيفة لفترة قصيرة ثم هجرتها إلى الأبد . وكان ذلك باغراء من هشام الصفار ، قبيال طلاقه من مريم الزيزية ، الخاتونة . دعاني إلى اجتماع المدراء في دائرته ، التي عينت فيها خبيراً بالتجارة الخارجية . لبحث قضية أخلاقية خطيرة : فقد تبين أن لأحد الموظفين الكبار علاقة جنسية - أو هكذا قيل ، بعد التحري ، الخ - بفتاة شابة كانت موظفة لديه . كان السيد هشام في الاجتماع المغلق قاسياً جداً على

كل من تسول له نفسه العبث بالأخلاق ، قائلاً : « هؤلاء الخارجون على تقاليد هذا الشعب . الداعون إلى الاباحية . المستغلون سذاجة الفتيات » ، إلى آخر المعزوفة . » يجب معاملتهم بأقصى الشدة . يجب سن القوانين لتفريعهم . وإقالتهم ، وسجنهم . لاجتثاث جرائم الفساد من المجتمع . » عال . جيد جداً . ولكنني أعرف ما حدث مساء ذلك اليوم بالذات . شكراً لشيطناني الأعور .

ذهب السيد هشام إلى البيت ، بعد أن تناول غداءه في النادي مع أحد زملائه . وأخذ غفوة قصيرة . وما أنما أتصوره ينهض . ويستحم . ثم يذهب رأساً إلى المطبخ ، ويتأكد من أن التلاجة تحوي ما يريد من طعام للمساء . وبعدها أخرج مكعبات الثلج من التلاجة ووضعها في سلة الثلج الفضية ، وفي غرفة النوم جعل زجاجة الويسكي والكأسين على منضدة تواليت زوجته . لقد أرسل زوجته إلى لبنان ، فهي بحاجة إلى الراحة ، مريم العزيزة المسكينة . وأرسل ابنته الصغيرة عند جدتها لتعني بها أثناء غياب أمها . وابنته تتمتع بالإقامة مع جدتها ، ولا شك ...

ترجعه نحو التلفون ، وأدار القرص . وهمس : « الطقم طيب . » فأجابه صوت نسائي : « ولكنه حار قليلاً . » وبعد نصف ساعة - كان الظلام قد جعل ينجّم على المدينة - دخلت كراج البيت سيارة فولكسواغن ، توقفت خلف سيارته . وخرج صاحبنا اليها مسرعاً ، وأغلق باب الكراج وسدّه بالمزلاج . وأخذ بيد المرأة النازلة من السيارة ، واقتادها إلى المنزل « ما هذا ! أطلت انتظاري ! ألا تنتهي اجتماعاتكم ؟ » قالت المرأة الجميلة ، وهي تنثني وتتكسر ، وتقع بين ذراعيه .

في غرفة النوم ، أراها الكاميرا الجديدة التي سيهديها إياها . أنها « بولارويد » ، تلتقط صوراً ملوّنة ، وتظهرها في الحال . « هائلة ! » كما يستجّل . يستجّل ما تريدين ويسمّلك إياه فوراً . العلم هائل ... »

وأخذت تتعزّى ، قطعة قطعة ، وهو يلتقط لها صورة بعد أخرى ، ويربها إياها . رائعة ! هكذا ... استديري قليلاً ... ارفعي نهديك ... نشطتي حلمتيك ... رائع ! جنى ! شوفي ! فخذيك ... ردفيك ... جنى ... استلقي على المخدة . خذي هذه المرأة بيدك ... احلمي ... ربة العشق أنت ... جنى ! ويسكي ؟ .. دعيني أصبه في سرتك ، ليسيل بين أذغال غايات الحب ... لأشرب منه ... المسجّل طبعاً شغّال . هذه تنهّداتك الحارة ، المثيرة ... اسمعي ...

قالت ، وساقها العارية مرفوعة في الهواء ، والكأس تلامس شفيتها : « تصور لو ان زوجتك ترى هذه الصور ، وتسمع هذا التسجيل ! .. هاها ! » فقال : « أرجوك ، لا تفلسدي عليّ متعني ... »

في صباح اليوم التالي ، استأنف الاجتماع لاتخاذ قرار أخير ، وكان السيد هشام قاسياً جداً مرة أخرى . وملاً أساعنا بحكمة الأجيال : « الفساد يستشري في بدن المجتمع . لا بد من قانون صريح يعالج ذلك . الامصرة في خطر من مثل هؤلاء الفاسدين الذين يجعلون من الفجور بديلاً لسن الحياة القويمة ... » وفي عصر ذلك اليوم ، ذلك اليوم بالضبط ، كانت ربة العشق نفسها في منزلي ، تروي لي ما حدث لها مع هشام في اليوم السابق ، وأروي لها ما قال لنا عن سنن الفضيلة . وطلبت الي أن التقط لها صوراً بالكاميرا إياها . لكنني صورتهَا بكامل ملابسها ... نهضت ان أكون نسخة من هشام .

في أشهر ثلاثة أو أربعة ، تمّ الطلاق بين هشام ومريم ، في جو قائم من التهم المتبادلة التي بلغت أذان الأصدقاء ، رغم كل تكتم . ولا أنكر انني سمعت البعض يتهاوس أيضاً باسم وليد مسعود . ( ان كان حقاً قد أحب مريم ، فحسناً فعل ! انه مثلي ، يعشق المهاويس . ) وأنا كذلك لم يظل مقامي في الوظيفة في دائرة هشام - ولو ان استقالتني

كانت لأسباب أخرى : لقد اكتشفت ان الوظيفة بالنسبة إليّ مضية للوقت ، فضلاً عن انها مهانة للانسان في معظم الأحيان . وجدت أنها العبودية الجديدة : استرقاق منظم منذ أيام البابليين والفراعنة . وفي اتساع مستمر ، لأسياد صغارهم انفسهم مسترقون لأسياد لهم . في هذا الرق تُعْتَن لكل عبد حصته الهزيلة من العيش ، ويطرق الوسط فوق رأسه كل يوم في شكل أوامر وعقوبات تتكدس على المناضد المتهاقصة في الغرف المكتظة . ويتحايّل العبيد كيف استطاعوا على الأوامر والعقوبات الى ان يتحرروا بعد عشرين ، ثلاثين سنة ، بالاحالة على التقاعد . وتأتي حربتهم هذه وقد فقدوا كل ما يؤهلهم للتمتع بها ، بعد ان ضيعوا العمر وزوا المناضد التافهة ولا يعرفون ماذا يفعلون بحريتهم ، فيصابون بحزن الى رقهم القديم . والحزن رق آخر . لا ، فضلت مكتبي الذي خلّفه لي أبي بعد وفاته ، رغم تقلص الكثير من أعماله . وبقيت لفترة على صليّ القديمة هشام ، عن طريق ربة العشق اياها سعدية علوان . ولا أشك قطعاً في أنها لم تحرم صديقي من التمتع بأخبارها معي ... كلهم نخوة ، كلهم .

« هلموا الى المناحات ومباهج الأسواق وملتقى الباعة والشراة! كأس أخرى ، وتنضح الأمور أكثر . الليل خمر والنهار أمر . الليل عرس ، والنهار ماتم . من فاتحة لقاعة . والبقاء في حياتكم . البقاء في حياتكم : البقاء ... كنت أتكلم عن ريمة وانهارها ، وماساة وليد ، وعشقي لكل امرأة تشذ عن منطق البشر . وأذكر حكاية ذلك السياسي الشهير الذي ذهب الى حفل صامت ، وجلس على أحد الكراسي المصطفة ، ورفع كفتيه وقرأ الفاتحة ، فاندحش حين نخره جليسه المجاور ، فالتفت اليه وقال : « والله نسيت . قل لي ، أمانم أم عرس ؟ » أجابه : « بك ، عرس ! » ولم يتحرّج السياسي العجوز ، وهمس : « ماكو فرق ؟ »

وشرب كأس الشرب التي قدمت له . لا ، ماكو فرق . هلموا الى المناحات ومباهج الأسواق وملتقى الباعة والشراة . المهم أن تتحرّكوا .

كان انهار ريمة نهوضاً مذهلاً لوليد . بقي يُعنى بعلاجها ، في المصح بيت لحم ، ولكنه أخذ يعيش ليومه يترق لا فرق فيه بين اليأس والأمل ، بين العرس والماتم . اتضح له ان ريمة لن تنحس : انها في سبات عقلي مطلق . وسبأها وراء جدران المستشفى أطلق مارداً عربيداً في وليد : وما هي الا سنوات حتى كان يتجول بأعماله ، وافكاره ، بين بغداد ، واقطار الخليج ، واقطار العالم . بدادة فطرية كانت دفينه في دمه انطلقت من كل اسار . كيف كان يستطيع الكتابة ، رغم اعماله وتحرّكاته تلك جميعاً ؟ بقي مستقره في بغداد ، بين اصحابه الكثيرين . ادعشني أنه لم يذهب الى بيروت للاستقرار فيها ، كغيره من الفلسطينيين اللامعين . « ضربت لي جذوراً في هذه المدينة التي لا يعرف روعتها الا من أدمن عليها . أبعد عنها كل مرة بلهفة ، واعدو اليها كل مرة بلهفة . وأريد لأبني مروان ، الى أن نعود الى فلسطين ، أن يقيم فيها . » ومن قال له إن بغداد ستخلص له أكثر مما اخلصت إليّ انا ؟ ولكنه يقول اقوالاً كهذه : « المهم أن تحب الآخرين ، لا أن تحبوك . » عجيب ! في أي زمان تعيش يا وليد ؟ إذا لم يحبوني ، قلبت الدنيا على رؤوسهم وأدّرت لهم دبري . كلهم نخوة .

هيا ، كأساً أخرى . انهم يقولون : ما هذه الاموال التي تحقّقها يا وليد أنت وزملاؤك ؟ لماذا لا تبقون لتعفنوا في المخيمات ، بل تسمحون لانفسكم أن تتحركوا في العواصم العربية ، وتمارسوا اعمالاً كبيرة تنثر حسد الناس ، وتنسبكم واجبك الاوحد نجاه بلدكم السليب ؟ لماذا لا تحاربون بآيديكم الغزاة الحروب التي تحجم عنها الدول العربية بجيوشها ؟ وطبعاً ، حالما تتحركون ، سيضربونكم على رؤوسكم وينسفون الأرض

نحت اقدامكم . يعلمون انكم القوة التفجيرية الرهيبة التي تنتظر الساعة المؤاتية . يعلمون انكم الوحيدون الذين لا تنسون ، وأن العالم العربي بدونكم لن يتحرك شبراً إلى الامام . المشلولون المتحجرون يريدون منكم الشلل ، والتحجّر . يريدون للبركان أن يبلغ نيرانه ويدفن في احشائه همه ...

كنت اقول له الكثير من هذا في تلك الأيام ، ولم يخطيء حدسي . جاءت اواخر الستينات بالدليل الملموس ، وكذلك اوائل السبعينات . فوليد انما هو ذلك الفلسطيني الراض ، الرائد ، الباني ، الموحد (إذا كان لامي أن توضح) ، العالم ، المهندس ، التكنولوجي ، المجتد ، المحرك للضمير العربي بعنف . وليد ، كما عرفته ، كان يرفض القيام بدور لا يفتنه . ودوره الاهم هو تغذية الروح الجديدة المبينة على العلم ، على الحرية ، على الحب ، على التمرد على السلفية -- تحقيقاً للثورة العربية كلها . والثورة لديه ليست مجرد تغيير طبقي في نظام الحكم ، أو مجرد وضع اليسار مكان اليمين ، أو بالعكس . الثورة لديه هي وضع العربي في خضم العالم الكبير ، وإثبات قدرته على الصمود من جهة ، وعلى العطاء من جهة . إذا لم استقرئ حياة وليد على هذا النحو ، فاني لن أفهمه . سأبقى اناقشه ، واخاصمه ، وأحاجه ، ولكنني أعلم أنه واحد من هؤلاء المنفيين ، الذين من مواقع مفاهيم يزعمون العالم العربي ليعيد النظر في كل ما صنع وفكر ، ويمألون العالم ذكرى لاسم العربي ، مها تكن النعوت التي يطلقها عليه الاعداء ، الذين تركبهم العقد النفسية تجاهه .

ايها كان هناك بروز في علم ، أو مال ، أو فكر ، أو ادب . أو تجديد ، وجدت ذلك الفلسطيني المنفي : تراه فاعلاً ، محرّصاً ، منظرّاً ، محققاً لكل ما هو مختلف . ايها كان هناك عمل جريء ينتهي إلى التضحية

بالذات ، وجدت الفلسطيني . فلا عجب أن يميل عليّ رجل ككاظم اسماعيل ويهس في اذني : « الفلسطيني خطر . خطر .... » انهم من الخلف يأتونك يا وليد ، وأنت لا تجزع ، ولا تستدير ، ولا تنسى .

هلموا إلى المناحات ومباهج الاسواق ، لأنني ما عدت أعلم إن كنت مثقالاً أم منشأماً . الخمر تفرز بعض الامور في الذهن اشدّ القرز ، وتدمج بعضها الآخر اشدّ الدمج . لا اذكر من قال إن التقدم ، حين يكون تفاؤلياً ، يعد دائماً بضرب من الخروج من التاريخ كما نعرفه . بضرب من الانطلاق إلى صعيد آخر من الحياة . اشعر احياناً اننا بدأنا بذلك الخروج من التاريخ كما نعرفه . كل شيء في تغير ، شكرًا لجيلي المتمرّد . أي صعيد نسعى اليه ؟ ربما كان الجواب يوماً عند وليد . يوم اعتقله الصهاينة في بيت لحم بعد هزيمة حزيران وعذبوه ، ثم قذفوا به عبر النهر ، أي صعيد كان يتصور اننا نسعى اليه ؟

ما حلت مصيبة برجل مثله ، الاً وخرج منها اقوى واصلب . فالصعيد الذي يدم وجهه شطره يومئذ كان في اعلى القمة . ولو أنه كان يعرج ، ويسعل ، ويده ترتعش حين يشعل سيكراته . اما انا فصقت على العالم . ومنذ ذلك اليوم ، أظن ارى احلاماً اجديني فيها أبصق على العالم . انهض في الصباح ولا أريد أن احلث احداً ، واخشى أن ارى احداً فاضطر إلى الكلام ، فألجأ إلى الحديقة . واسقي الثيل والازهار ، وأجد اني اتكلم معها كلاماً عذباً — أو انها هي التي تخاطبني بأعذب الكلام . يقولون انني اصبحت كارهاً للبشر . ولم لا ؟ هل من يستحق الحب — اللهم الا مريم ، واثنين أو ثلاثة آخرين ؟ اني أخرج من التاريخ نحو صعيد لا أفهمه .

وأعود إلى ذلك الكاتب الفلورنسي القديم الذي ترجم لي وليد يوماً عبارة من كتاباته المذهلة بتفاؤلها ، فاعطيتها لخالد الخطاط لكي يخطها

على رقعة بالكوفي ، وعلقتها بالمكتبة ، وأتأمل فيها من جديد .

« قال الله للإنسان : وحده انت لا يقيده رابط ، إلا إذا اتخذته أنت بالارادة التي وهبناك إياها . في مركز الدنيا وضعتك ليسهل عليك أن تتلفت حولك وترى كل ما فيها . لقد صنعتك مخلوقاً ، لا أرضياً ولا سماوياً . لا فانياً ولا خالداً ، لكي تكون خالق نفسك ، وتختار أي شكل تتخذه لنفسك .. » — ييكو ديلا\* ميراندولا .

لكم أردت أن أصدق ذلك ! لكم أردت أن أكون خالق نفسي ، أتلفت حولي من مركز الدنيا لأرى ما فيها ! ولكم كتبت مدفوعاً بذلك ، ولكم تكلمت ، ورحلت ، وأحببت ، وكرهت ، وشربت ، وأنا أتلفت حولي وأرى — أرى كل شيء ، رافضاً كل قيد ، موجهاً ارادتي ضد كل رابط — معطياً نفسي التبرير في تحليل نفسي من أي شيء لا ينسجم مع مشيئتي . لوليد علاقة بذلك ، ولا ريب ، باصراره على ذلك التحرر الداخلي الذي كنت أعتقد أنه المولد الحقيقي لطافته المذهلة . بعد سنين طويلة من الانهائات الفكرية والسياسية ، وجدتهني أسير على هديه ، أو ما تصورت أنه هديه ، دون أن أقر له صراحة بذلك ، ودون أن تهمني اشاراته الى القديس أوغسطين — الذي لم أستطع أن أتنبه في كتاباته الصعبة منطقاً في أن تلاميذه في ارادة الله منحه حرية يقصر عنها العقل . ولكن النتيجة التي بلغتها كانت بالضبط عكس النتيجة التي بلغها وليد : فأنا لم أحقق في النهاية إلا أن أرى في الناس الشر ، والخساسة ، والذل ، دون أن أقنع يوماً بغيراتهم لها .

ومع هذا كله ، لم أستطع أن أعزل نفسي عن الناس كل العزل . يموت الديك وعينه على المذلة . في المذلة البشرية إغراء لي لا أستطيع مقاومته ، في حين أن وليد ، مهما قال وكيفما تصرف ، استطاع في الآونة الأخيرة من حياته أن ينقطع عن الناس ، حتى قبل مصرع ابنه في عملية فدائية ، تحنى وليد لو أنه هو الذي قُتل فيها . الانسان ليس

جديداً . فقبل ذلك بأشهر وجدته يعزل نفسه عن الناس بقدر ما يتمكن ، ولكن حين جاءت النعي المشؤوم رأيته يتهدم ، ولا يطبق رؤية الناس — فيها حدا بضعة من صحبه المقربين ، يصفي اليهم ، ولا يتكلم .

أما أنا ، فقد رأيت من الحياة كل ما يجب أن يبعثني عن المزايل البشرية ، ولم أزد إلا نقراً وحنأً فيها . وكلما نفرت ، وبحت ، ارتفع التن . وشربت المزيد . ويقولون عتي : كاره البشر ! لا ، أعشقهم لسواد عيونهم . أعشق الصعاليك والقردة والأقزام وهم يكشفون عن عوزاتهم ويتباهون بها ، كأن الله خلقهم ، وكسر القالب ! ووليد يعرف ذلك : تقيضي ، وناصحي ، والمحتار في أمري . ولتسمع ذلك مريم . العاجية الجسد ، المجتنة العينين ، الرائعة الصديغين . سارقي من سوسن عبد الهادي ، وهي لا تدري . وسوسن ، لبضعة أشهر ، كانت واحتي الظليلة في بوادي السأم والغضب .

سألته نوال : « هل تعرف سوسن عبد الهادي ؟ »

قلت : « الرسامة ؟ التقيت بها مرة أو مرتين في بيت عامر عبد الحميد . أليست هي زوجة المهندس علاء الدين ضبري ؟ »  
قالت : « بالضبط . وهو الذي خطط لنا بيتنا الجديد . مات قبل مدة ، أتعرف ؟ »

قلت مندهشاً : « علاء مات ؟ ولكنه شاب — من عري ، ربما . »  
— « قام من فراشه في الصباح ، وذهب إلى الحمام ، وسقط على الأرض . وبعد ساعتين كان قد أسلم الروح . »  
تأسفت جداً فقد كان مهندساً موهوباً . وقلت : « مسكينة زوجته . أن تمرل وهي شابة ... »

تبين أنها احدى صديقات نوال . ونوال أقرب اخواتي إلى نفسي ، وهي تصغرنى بضع سنوات ، وكانت في صباحها تنظر إليّ كأنني منقذ الناس من الضلال ، وترجع إليّ كلما تصعبت في دروسها ، أو كلما أرادت مساعدة تخشى أن تطلبها من أبي أو أمّي . تقرأ ما أكتب ، وتتساءل عن أصدقائي ، وتحذرنى - عندما كثرت قليلاً - من التورط في أمور ( تقصد سياسية ، بالطبع ) قد تجرّ بي إلى الأذى . وفيها بعد ، كلما لحق بي الأذى ، كانت أسرع من في الأسرة إلى اسعافي والعناية بي . أردت لها زواجاً من أحد أصدقائي . ولكن أبي كان أقوى منّي ، ورتب لها زواجاً من أحد أقربائنا . ولم تمنع هي . فقلت لها قبل عقد القران يوم أو يومين : « إذا وجدت حياتك تشقى يوماً مع وهاب ، لا تركضي إليّ طلباً للنجدة ، فاهمة ؟ » فانفجرت بالبكاء ، والقت رأسها على كتفي . فقلت : « طيب ، طيب . اركضي إليّ ... تزوجيه . وأرجو أن أراك كل يوم تركضين إليّ » . فاستمرت بالبكاء ، إلى أن سئمت الموقف ، وقلت : « وافقت ، حبيبي ، وافقت . أتمنى لكما السعادة معاً » . والغريب ، أنها سعدت بزواجها ، على عكس ما توقعت . يبدو أنها لم تكن إلا « على قده » ، وإن وهاب أدري بها مني .

« سوسن ، حياتها بائسة » ، قالت نوال .

« يجب ألا تبخلي عليها بوقتك . لا أنت فقط ، بل وهاب أيضاً . » ثم خطر لي خاطر أفزعني لحظة ، ثم أضحكني . « أرجو انك لا تريدني مني أن أتزوجها ؟ »

« أنت لا تكفّ عن مزاحك . اقترحت عليك في الماضي خسين فناء ، ورفضت . ولن اقترح أحداً عليك مرة أخرى . »

« اذن بلغها تحياتي . »

« هل رأيت رسومها ؟ »

« مرة أو مرتين . لا بأس بها - إذا اعتبرناها امرأة نادرة في ساحة مزدحمة بالرجال . »

« ابراهيم ، أنت لا تهتم بصديقتي . اريد منك خدمة ، ها حبيبي ؟ »

« تدلّي . أي شيء ، ما دام الزواج خارج الموضوع . »

« لا ، أنا جادة . سأخذك إلى بيتها ، لترى رسومها الجديدة . وإذا راقت لك - »

« أعرف الباقي ، نوال . تريدني أن أكتب عنها . أليس كذلك ؟ »

هل هي التي طلبت ذلك ؟

« بصراحة ، نعم . »

« وماذا يقول الناس عن ابراهيم الحاج نوفل ، وهو يكتب عن سوسن عبد الهادي بعد وفاة زوجها ؟ »

« ومتى كنت تأبه لأقوال الناس ؟ لا تداهرني ، أرجوك ، فداء . »

دون رغبة مني ، وافقت على الذهاب مع نوال الى بيت سوسن . ذهبنا عصر يوم كثير الألوان ، ووجدناها وهي تلبس السواد في انتظارنا ، مع صديقة أخرى لها - جنان الثامر . وتأكيذاً على الأصول الاجتماعية ، كان هناك أيضاً أخوها الأصغر - نسيت اسمه . رحبت أفرج على رسومها الزيتية ، فجعلت تثر في اهتماماً متصاعداً . كانت كبيرة ، من الحجم الذي طالبت أنا الرسامين به سنين طويلاً . اثوية على نحو لم أعينّه أول الأمر ، ثم جعلت أتبين تفاصيله . وتمعت في عيني سوسن ، كأنني أبحث عن صلة خفية بينها وبين رسومها . ونوال وجنان تتمتعان في اللوحات برفقتي ، تصغيان الى تعليقاتي الحذرة ، وتشجعاني على المزيد .

« ست سوسن ، » قلت ، « هؤلاء الأشخاص ، كلهم أنت . الأطفال ، والمراهقات ، والعاريات المتغطيات الافراس بين صخور البحر ، والوجوه المجزأة المتداخلة - كلها أنت ... أنت في حالة حلم مستمر . »



قالت وهي تقدم لي فنجان الشاي : « أهذا ما سكتبه اذن عني - ان كتبت ، استاذ ابراهيم ؟ »  
تناولت الفنجان ، ولم أجب . لم اشأ أن التزم على عجل بوعده كهذا . ونظرت في عينيه ، وضحكت .

هل كانت ثيابها السوداء مع عدم استعمالها أي « تواليت » نسبب حدادها ، هي التي تؤكد على شحوب وجهها الشمعي ، ولحمية شفيتها الناضجتين ، وسواد عينيها - اللتين لم تحجم عن توسيعها بخطوط الكحل ؟ كان وجهها نظيفاً مشعاً ، أقرب الى وجه طفل يتوهج عافية ، منه الى وجه امرأة توحى بجاذبية جنسية . وشعرها الأسود المشدود في « كعكة » خلف رأسها يضيف الى نقاوة مظهرها ، ونصوع عبقها . لا ، لم تكن بريئة بالقدر الذي يبدو على عيائها - وصورها ، إذ أرسل البصر فيها . أشبه بقناصل موقوتة ملفوفة بأوراق مزوقة . وقررت أن أكتب عنها . سواء أكان قرارى عن ضعف ازاءها في تلك الساعة ، أم عن اهتمام حقيقي بلوحاتها .

كنا كلانا مهياين للعبة ، ومتهيين منها . أردت أن أرى رسومها عدة مرات ، فرحبت بي ، مع وجود الآخرين في الزيارات الاولى ، ثم جعلنا نلتقي وحدنا . واستمرت علاقتنا سنة أو أقل ، راجعت نفسي فيها بشأن الفن ودوره في الحياة مراجعة دقيقة .

كنت أقول لسوسن : « الفن يشير إلى تحرر الانسان في ساعات ابداعه ، ليعطي مذاق الحرية للآخرين إلى الأبد . رسومك دليل واحد ، دليل على محاولتك التحرر . عندما أتحدث عن الفن ، أنا لا أتحدث عن رسومك وحدها ، أو عن الرسم فقط . أقصد بالفن كل ابداع ، بالصورة أو الكلمة . كتاباتي ، وكتابات كل شاعر أو روائي سحقت كيانه حتى الخلق . كلنا عبيد ، وكلنا نريد أن نتحرر . وأن نهب الآخرين ما نحظى

به في لحظات النشوة الأليمة الهائلة . » فتقول ، وهي تركز نظراتها القلقة الخارقة في عيني : « أنت وحدك عرفت سري . وحدك يا ابراهيم . التحرر - اني أخشى أن ألفظ الكلمة . ولكنني انقذ مدلولها كل لحظة أمسك فيها بالريشة ، وأقف أمام لوحة فارغة . اللوحة جنني الموعودة . وتحقيق الصورة هي دخولي جنني كل مرة من جديد . أدخلها هاربة ، لاجئة ملئعة ، متمتعة بلذة كلذة الحب ، بخوف كخوف الموت . ابراهيم ، أتفهمني ؟ وما يتحقق في النهاية قد لا يوحى بذلك ، لأنني ربما فشلت فيه . المهم هو المناهة المدوخة التي أمشي فيها وأمشي ، كأنني شربت عشر زجاجات من الخمر . »

كتبت عن رسوم سوسن عبد الهادي مقالاً طويلاً ، مليشاً باللف والدوران ، مليشاً بشكوكي وتساؤلاتي ، وكلمة كتبت في الصباح فقرة جديدة ، توقفت لأرى : هل اضطرب حكمي الجلي ، وادراكي التقدي ، بحلاوة الشفتين اللتين امتصصتهما كالمجنون في المساء السابق ؟ ساعات العشق لم تكن كثيرة ، ولكنها كانت عنيفة كل مرة ، وكل مرة تقول لي سوسن : « ابراهيم ، كيف تستطيع كل هذه السيطرة على نفسك ؟ » فأقول : « سيطرة ؟ » فتقول : « نعم . ألا ترى كيف أجنّ أنا ، وأعظم بين يديك ؟ وأنت النيف في كل ما تكتب وتقول ، تصيح الفيلسوف المنطقي ، العاقل ، تعطي بمقدار ، ووو ... أوه .. ابراهيم ... »

تلك الواحة الخضراء الريانة - كادت تعيدني إلى العقل ، والحب . والعمل من أجل مستقبل يدعي الجميع أنهم يحملون به . ( واهون . مزيقون ! ) المزيلة البشرية كدت أنساها . أحسست بأنني عدت وغدوت جزءاً من عملية الخلق التي كنا أنا ووليد والآخرين نتحدث عنها دائماً على أنها عملية خلاص الانسان . كان وليد قد بقي في الأرض المحتلة بعد هزيمة حزيران ، وعندما بدأت اتهامي بسوسن ، لم تكن نعرف

ما الذي حدث له . وكان لنا في الفن تخمين للجراح ، ويلمس لها معاً وكذلك في الكتابات التي لم أنشر منها إلا القليل . « الفن ضروري للأنسان » تقول سوسن . « يعيد به التأمل في كونه وكيانه ، في وجوده ووجوده . أرجوك ، ابراهيم ، علمني كيف أتحدث عن لوحاتي . دراستك التي سأنشرها في دليل المعرض ستعطي النقّاد ما يتحدثون به . وتسمل عليهم الكتابة . أما أنا فيجب أن أقول غير الذي كتبته أنت . ألا تعتقد ؟ »

مسكينة سوسن . لم تقم المعرض الذي كانت تعمل على تهيئة لوحاته إلا بعد ذلك بمدة طويلة . ربما أنقذت نفسها بالرسم من آلام الترسل والوحشة ، ولكنني في شهري معها لم أكن راضياً عن انتاجها كل الرضا ، فبدفعتها ذلك الى المزيد من العمل . كان انتاجها غزيراً ، ترسم كل يوم . في الليل كما في النهار . الى أن أحسست يوماً أن رسمها قد نضج ، أخذت تضع في الصور الكثير من الاشارات الخفية الى علاقتنا - بل كانت لا تترك صورة إلا وتضع فيها رمزاً ما ، له مدلول جنسي ، يعرفه كلانا ، ويتصل بتجربتنا الخاصة . كنت أريد من رسوماتها ما أريده من كتاباتي أنا - لو كتبت شيئاً ذا قيمة - أو ما كنت أراه في كتابات ولید في السنين الماضية : مجابهة الانسان للعالم ، على نهجه الخاص . المجابهة . الغلبة . تأكيد الرؤية الفذة . التجلي الميتافيزيقي عبر المادة الحياتية ... « مشكلتك يا سوسن ، انك ذكية ، وبارعة ، وجميلة ، ولكن التجربة لم تأكل لحملك بعد بما يكفي . أنت تخمين بالتجربة . كنت تخمين بها طيلة أيام صباك ، وزواجك ، وبقيت تخمين بها . ربما لأنك امرأة ، وامرأة شرقية فوق ذلك . فبقيت رؤيتك بعيدة عن المزلة البشرية . بقيت رؤيتك زخرفية . بدعية ، لكنها هامشية . هل أنا أطالبك بما لا يحق لي أن أطالب به امرأة ؟ ربما . ولكن تخميني

كما تخمين شرابي ونزواني ، قبل أن ينقصر المجتمع عليك ، متجاهلاً عبقريتك الفنية كلها ... أريد مراجعة الماضي كله - ماضي الانسانية : منذ أن كان الانسان يقتل الوحوش بيده ، ويرقص بعد ذلك لالهة الغاشم رقصة يلوتم بها الليل والنجوم ، الى أن يقع على الأرض مغشياً عليه من التعب ... أريد الماضي موجوداً في الحاضر - لا ، لست أعني مجرد تراث ياسوسن ، بل ما هو أعمق وأبعد وأهم - الأزمان كلها وهي تدفع الدهن بين مجاميل الوعي واللاوعي ... متاهات الماضي في اتساع مستمر ، ونحن أصحابها كلها ، نحملها معنا ونحن نهم على أوجهنا في فضاءات الزمن الداخلية ... لا ، لست أهذي . فضاءات الزمن التي تحملها كل ثانية تمرّ على خلايانا الجسدية ... سوسن ... كما في لحظات عريك على جسدي ... تنفتح أبواب وعي عجيبة . ندخلها ، الواحد تلو الآخر . ثم ننظر الى الخلف - فلا نرى جذراً ، ولا أبواباً ... هل عن الحب أتحدث ، أم عن الفن ، أم عن ماذا ؟ لحظة أخرج ، وأسمع بابك ينصفق خلفي ، تسع الدنيا اتساعاً لا يصدقته عقلي ... الى ان أرى فجأة أمامي : المزلة البشرية . »

لماذا كان يروق لي تلك الأيام أن أتصور سوسن بعيدة عن المعرفة المرأة . الجارحة ؟ لماذا كان يروق لي ان أتصور ان المرأة التي أحبها خرجت للتو من حمام بلوري ، نقيصة من أوضاع المستنقعات والأمن ، ولم يبق في ذاكرتها مكان إلا للجمال ( الكاذب السخيف ) الى آخره . الى آخره ؟ أمست لقاءتنا صعبة ، وحادة ، وملينة بالخرج ، ولا نفي بحاجة المتصاعدة الى لمس ذلك الجوهر الأنثوي اللاهب الخفي وراء شفتي سوسن ، وعينيها ، وصوتها . ويوم « فكت » حزنها ، وليست بلوزة صفراء تبرز استدارتي نهداها بعنف ، وينطلونا أمر يبرز استدارتي ردفها بعنف ، وأرسلت شعرها الى الكتفين بسواد كثيف ملتصع ، ورتت ضحكها في

أذني رنين صنج صيني : ذلك اليوم أدركت ان ابراهيم الحاج نوفل . غسبي أحمق ، لا يفقه مسن الحياة شيئاً . مخدوع ، دعي ، وضحية . لو قتلني سوسن ذلك اليوم ، لقلت لها: اقتليني ثانية . اقتليني ثلاث ورباع . دخلت السياسة وخرجت منها صفر الدين . دخلت الاقتصاد وخرجت منه صفر الدين . دخلت الفن وخرجت منه صفر الدين . ودخلت الحب ، ولم أشته منه إلا القتل ، إلا ان أموت ، وانتهي : في عالم كله خونة . وكيف أستطيع العيش بدون كأس أخرى ، وأخرى ، وأخرى ؟ قلت لها : « سوسن ، اقتليني . اقتليني كما أنت وحدك تعرفين كيف يكون قتلي . »

نظرت إليّ من وراء خصل شعرها المتساقطة على وجهها ، وعيناها السوداوان تقدحان كعيني نمر ، وأنزلت راحتيها ببطء على جانبي ردفها على البطلون الأحمر ، ومررت بها نحو وسطها حتى التقى ، وأنا واقف أمامها ، أتلذذ بكل حركة منها ، وهي صامئة مصممة . تقدمت نحوّي ثم فكت حزامها الجلدي العريض ، ودفعني إلى الجلوس على كرسي كان ورائي . وجلست هي على ركبتيّ تواجهي ، مفرجة الساقين .

فصحت : « سلّمت ! الزواج ! الزواج ! »

« وفكرت : ما أسهله حلالاً ! »

ولكن سوسن لم تقل شيئاً . فقط ضحكت . ضحكت . ضحكت . وعطرها بماء رأسي بقرع الصنوج .

في تلك الأثناء كان وليد قد عاد ، يحمل مآمي الدنيا في عينيه وعلى منكبيه ، وهو يجالّد ويريد البقاء ، واستمرار الصراع . يذهب . ويعود . يروح ويحيى . بين عواصم الدنيا . وأراه في داره ، في دارنا ، في دار عامر عبد الحميد ، في دار جواد حسني . وحدثه — بشيء من التردد — عن سوسن ، وإذا هو يعرفها منذ سنوات ، ويعرف زوجها

علاء . وقال انه كان دائماً يعتقد أنها موهوبة ، ولكن زوجها كان يغار من مواهبها ويقلل من شأنها . « حالماً تنطلق — إذا استطاعت بمعجزة ما أن تنطلق — فإنها ستحقق طموحاً فنياً لا تعرف حتى هي ، ربما ، مبلغ شدته في نفسها ، » قال وليد . وكانت صديقتها جنان تدافع عنها وعن حاجتها إلى شيء من الاستقرار النفسي لكي تستطيع الانصراف إلى عملها بماء طاقتها . وبعد أن سافرت جنان إلى انكلترا مع أمها، وعادت، أدهشها العدد الهائل الذي تراكم من لوحات صديقتها ، وراحت قلبها واحدة واحدة ، وهي لا تصدق عينها . وكمر مرة قالت لي : « لقد كسرت لها الطوق أخيراً ، يا ابراهيم . فإلى أين الآن ؟ »

وأنت سوسن ذات مساء إلى إحدى حفلات عشاء عامر عبد الحميد بخمس لوحات كبيرة علقتها زوجته آن الواحدة قرب الأخرى على جدار واحد في غرفة الضيوف الكبيرة ( بعد أن أنزلت اللوحات الأخرى التي كان عامر يقتنيها بانتقاء ودراية ) ، فكانت حديث الجميع في تلك الليلة التي بدت كأنها تطلق سوسن في فضاءات حياة لم تألفها . وكانت هناك في تلك الليلة : من جديد ، مريم الصفار ، وقد عادت من دراستها من جامعة ساسيكس . وما أن صافحتها لأقول لها « الحمد لله على السلامة » ، حتى حدثت حديثاً قوياً مزعجاً أن هذه المرأة ، إذا لم أنتبه ، ستزعزع كياني وتشوش عليّ حياتي ، ولكن هناك ألف سوسن ... كانت سوسن في الأشهر الماضية تحدّني عن مريم حديثاً لا ينقطع . تقرأ لي رسائلها ، وتطلعي على الرسائل التي تكتبها إليها . وطالما كررت لها أنني معجب بالاثارات اللواتي كمرم . فنقول لي : « ما الذي تعرفه أنت عن مريم ؟ أسرارها عندي ... إنها أروع مما تتصور بكثير . » فاضحك قائلاً : « اقتنعت يا سيدتي ، اقتنعت . أكتب إليها رسالة اعجاب ؟ » فنقول : « سأكتب إليها عنك ، أنا . » وقد كتبت إليها

عني بالفعل ، وجاءت الردود تتساءل بشأني : هل عقلت ؟ هل كتبت  
جديداً ؟ هل قلت شيئاً رائعاً يستحق التسجيل ؟  
عندما صافحتها ، أوحى إليّ ملمس راحتها وضغطها الرفيق بأناملها على  
يدي ، أشبه برقبة تبلغني أياها بالشفرة ، أنها تعرف عني كل شيء .  
وتعرف أنني سأكون عجيبة بين يديها حالما تقرر هي ذلك . وفجأة أردت  
أن أدير لهاظهري ، لكي لا أرى عينيه ، لكي لا أرى قوامها ، لكي  
أتمكن من رفض ذلك الهاجس الصاحب في . ولجأت في الحال إلى وليد  
الذي كان منخرطاً في حديث جاد مع عامر وجواد حسني حول شؤون  
الخليج . وجاءت الينا سوسن ، وجنان ، وانصرفت مريم إلى الآخرين  
الكثيرين الذين راحوا يعانقونها ويقبلونها ويحمدون الله على سلامة عودتها .  
ثم يعاودون النظر إلى اللوحات ، وينادون : سوسن ! تعالي ! إحكي !  
منذ متى غيرت أسلوبك هكذا ؟ رحم الله علاء ، لو كان حياً لرى  
كيف اذك الخ ، الخ .

عصر اليوم التالي جاءني نوال على غير توقع ، بمفردها . كنت لنتو  
قد أفقت من النوم ، فرجوتها أن تنتظر في المكتبة ريثاً أخذ دوشاً سريعاً .  
ولما ذهبت إليها أخبراً ، وطلبت إليها أن تنتقل إلى غرفة الجلوس ،  
قالت : « لا ، لا حاجة . هذه غرفتي الصميمة . كتب جديدة ؟  
ولوحات جديدة ؟ مكمومة في كل مكان ! ولا تسمح لأحد بأن يرتب  
لك أمورك . »

« ربما تحقق ذلك ، غصباً عني . ها نوال ؟ »

« يظهر أنك لا تسمع لفظ الناس . »

« لفظ الناس ؟ »

« عنك ، وعن سوسن . »

« نوال . هذا صنع يدك . أتأسفين على ما بدأت ؟ »

« أنا أعزّ سوسن أكثر مما تتصور . »

« لعرف كم تحببنيها . وهي تحبك كثيراً أيضاً . »  
« ولكنني جعلت أسمع أقاويل مزعجة جداً . »  
« فهمنا يا سني ! سنزوج ، ونفصّ المشاكل . »  
« يقولون إن بهوسن كانت لها علاقة — أقصد قبل وفاة علاء —  
علاقة مع .. »  
« نوال ، إلى متى هذا السخف ؟ »  
« اسمع أولاً . كان لها علاقة مع عامر عبد الحميد . »  
« كذب ! لا اصدق ! مجرد صداقة بين العائلتين . »  
« وكان لها علاقة مع صديقك وليد . »  
« مع وليد ؟ ومع من أيضاً ؟ »  
« واتّنها يسرت له الأمور مع مريم الصغار ، زوجة هشام ، قبل  
أكثر من سنتين : قبل طلاقها . »

« . ما هذا الحديث الأجوف ؟ أرجوك ، نوال ، كلام النساء  
لا آخر له . ثم كيف كانت لها علاقة مع وليد ، ثم تفصلت ويسرت  
له الأمور ، كما تقولين ، مع صديقته أيضاً ؟ »

« من أين لي أن أدري ؟ »

« لا تصدقي كل شيء تسمعينه في هذه المدينة . »

« المهم ، ابراهيم ، هو أنني صرت أخشى على تورطك معها . »

« هل يقولون عني أنا أيضاً ؟ »

« وماذا تظن ؟ هل سيوفرونك لمناسبة خاصة ؟ »

« أنا جادّ باهتمامي بها ، نوال . »

« أرجوك ان تروى قليلاً . »

« البادئ أعظم . »

« انا طلبت منك ان تكتب مقالاً عن رسومها ، لا أن تتورط مع أرملة شابة مهيأة لاغراء أي رجل أعزب — أو غير أعزب . والغريب انني لم أسمع أبداً من هذه الحكايات من قبل . »

« نوال ، انها صديقتك ، تذكرني . ثم أنا رجل بلغت الثانية والأربعين من العمر ، ولست بحاجة الى نصائح من أختي الصغرى ، ولو انها أختي المفضلة ، الحبيبة ... جاسم ! أحضر الشاي ! »

« بس وهاب دوخني . »

« آ ، اذن هذه الحكايات من السيد وهاب ؟ ومن أين جاءته كلها ؟ »

« من هشام . »

« صديقكم المحترم ! اسمعي يا حبيبي . هذا سوسن القديم أشرف من رأس هشام . و هذا مريم القديم — »

« بس ، بس ! لست أدري لماذا أتدخل في شؤونك . »

« لأنك تحبييني . »

« لأنني لا أريد لأختي الوحيد إلا أروع ما في الدنيا . أروع ما في الحياة ، بما في ذلك الزواج . »

« اذن لا تصني الى صديقكم الموتور . بل قاطعوه . »

« أف ... هاك الشاي . »

« عندي كعكة في اللاجة . »

« من شغل سوسن ؟ »

« نوال »

« اني امزح . لا أجرؤ ان آكل كعكة . ألا تراني سمعت في الشهرين الأخيرين ؟ »

« وسوف تسمعين بعد ... جاسم ! أحضر الكعكة التي في اللاجة ! »

« آخ منك ، برهومي . لا فائدة ترجى منك . على كل ، أنت تعلم أنني أحب سوسن . ولكنني قلقة . قلقة جداً . أتدري انها لم تلمح إلي يوماً بأن بينكما شيئاً ؟ شلون كتمان ! ولكن — اسمع آخر ما عندي . قو أعصابك ، واسمع . »

« الفضيحة الأخيرة ؟ الفضيحة التي منتهى كل الفضائح ؟ »

« اسمع . ما علي . لا بد أن سوسن بشر عميقة ، وأنا لا أدري . »

« كلتي آذان . قوليهما وفضيبي . »

« يقولون إن سوسن لها علاقة بكازم اسماعيل . أنتعرف ذلك ؟ »

« ها ها ! لم يبق إلا كازم من أصدقائي . »

« خذ مني كذباً . هذا ما سمعته . أتريد الصدق ؟ لم أسمع شيئاً عنك أنت مع سوسن إلا منك أنت . ربما لأنني أختك ، فلا يذكرك أحد بسوء أمامي . أما كازم ، فيقولون انه سيتزوجها . وأنت تحب أنك أنت الذي ستتزوجها ! هل ذكرت لها الزواج فعلاً ؟ »

« كازم ؟ غريب ! التقينا ثلاثنا معاً ، هذا صحيح . ولكن لم يخطر ببال — »

« هاك ، حبيبي ، استكاناً آخر . »

« نوال . كل ما قلته كلام فارغ . أتدريين ؟ »

« إن شاء الله ! »

« أخبريني ، أنتعرفين مريم ؟ »

« زوجة هشام السابقة ؟ طبعاً يا غبي . أنت دائماً تنسى أن هشام كان ولا يزال من أقدم أصدقاء وهاب . ولكننا لا نرى مريم كثيراً هذه الأيام . »

« كانت مسافرة ، وقد عادت . »

« ويعني ؟ ألا تعرفها أنت ؟ »

« أعرفها . ولكن أودّ أن أراها أكثر . »

« من أرملة إلى مطلقة ! ثم ماذا يا إبراهيم ! »

« امرأة هائلة . »

« ذكية . ذكية جداً ، ولكن مطشرة . مشوشة . يدهشني أنها

استطاعت أن تكمل دراستها . وسوسن تحبها كثيراً . إذا قررت أنت

الزواج من سوسن ، فلا بد أنك ستراها كثيراً . »

« ساعدني الله ! »

« شوف ، عيوني . أخرج هؤلاء النساء من ذهنك . على الأقل ،

لو فكرت بجنان الثامر — فهي غير متزوجة — »

« لا ، لا ، أروجك ، نوال . جنان ليست من فصيلي . »

« سوسن ومريم اذن هما من فصيلتك ؟ طيب ، اسمع . أعترف

وصال رؤوف ؟ أخت الدكتور طارق ؟ »

« من ؟ آ ، أعرفها ، أعرفها . التقيت بها عدة مرات . فتاة

جميلة . ولكنها صغيرة ، صغيرة جداً . »

« ماذا تعني بصغيرة ؟ عمرها أكثر من خمس وعشرين سنة — إذا

لم تقارب الثلاثين . »

« لا ، لا ... وصال تذكرني بحبيبة صغيرة ضائعة . نوال ،

قضيتنا هذا العمر معاً ، وأنت لا تعرفين ذوقي في النساء . »

« طيب ، طيب . بس تروّ ، هـا ؟ الصداقة شيء والزواج

شيء آخر . »

« هل من نصائح أخرى ؟ ولكن كل نصيحة بقطعة كعكة —

مكومة بالكريم . »

« والله لو تسمع مني ، لرضيت ان آكل هذه الكعكة كلها ،

ولأسمن كاللبن ! آه لو شافت عيني ، بس !... »

آو لو شافت عيني ! يا نسل الافاعي ! زجاجة اخرى ، كالعروس ...

لذكراك بس ابا مروان سأشرب ، إلى أن يشيب الرأس كله ، ويشيب

الصحب كلهم ، وتشيب اجمل الفتيات . ما زلت في مركز الدنيا ،

انتقلت حولي ، وارى الغربان تنقر القرب ، قربة بعد قربة . ونسبح

المياه عليها تحظى منه بقطرتين . ما رأيت شريراً الا ووجدته يريد أن

يعيش إلى الابد . فلنأخذ القرب بولا . لنأخذها أسناً ، علقها ، سمّاً زعافاً .

وليشرب منها الحوثة ما وسعهم الشرب . كلهم خوثة . وتلك بالضبط

كانت حصّة كاظم من القربة الموهومة ... لم يتزوج سوسن — خطبها ،

الخ ، ولا ادري بالضبط ما الذي حدث ، لأنني لم اشأ أن ادري ، ولم

أسأله ، ولم أسأل سوسن ، ولم أسأل احداً . انما المهم أن النتيجة كانت

قطيعة اخرى بين كاظم والآخرين ، ومراة اخرى تسري إلى كتاباته

المتهمرة اصلاً . اما أنا فلم اعد إلى ذكر كلمة « زواج » مع سوسن

بعد ذلك اليوم السذي رأيتها « تفك » فيه حزناً . ولعلها ادركت ،

بحساسيتها المرفهة كفنانة ، أنني إذا وجدت عاطفة تستبدّ بي ، وتقلق

نومي ، أعددت العدة للتراجع عنها بكل احترام . والذي أخبرني به

نوال ، على تفاصيله الخاطئة في معظمها ، بدلاً من أن يشحذ في

نفسي همّة المتحدّي ، انما هيأ لي المنعطف السذي كنت في انتظاره ،

والسذي كنت ولا ريب سأبلغه واسير فيه اخيراً حتى لو لم يكن هناك

لسوسن عشاق ، أو خطاب ، آخرون . ومريم كانت منعطفاً رائعاً ،

اشبه بمن يسير بأرض جبلية وعرة ، ثم يصادفه ممر جانبي يدخله فيقع

فجأة على واد أخضر عميق ، تلتع فيه الفواكه على الأشجار ، وتتساقط

فيه المياه بين الصخور ... آه ، أنا الخائن ، أنا الذي قلت إن سوسن

واحتي ، وجعلت منها بعد نصف ساعة طريقاً وعرة في جبل . وأنا

لا جبلاً أبقيت في حياتي ، ولا وادياً . هل كنت اهرب من النساء

لاصطدم بالنساء ، وربما كما كان يفعل وليد — أو ينجّل إليّ أنه

يفعل ؟ كم امرأة عرف في حياته ، قبل رجمة ، ثم ، وعلى وجه أخص ، بعدها ؟ كنت اشعر أن في اعماقه شيئاً يرفض تسليمه لأية امرأة : وحالما تبلغ العاطفة فيه نقطة الاحتدام ، يخشى على ذلك الذي في اعماقه من الاحتراق ، فيصد الحبيبة عن نفسه ، وقاية ، أو حفاظاً ، كأنه يتحكم بتجربة داخلية يرفض التخلي عن سيطرته عليها . وما الذي كان يبقى للنساء بعد ذلك منه ؟ أحب مكثوم ، أم حقد ظاهره عديم المبالاة ، وباطنه لطيف يأكل نفسه ؟

الليل طويل . لم اكن اتصور أنني سأتمكن من أن أرقبه وهو يتحرك كقطار يصغر ويسرع ، ولا ينتهي ، أو كحبة من حبات الاسكنلر ، تسعى ، ولكنها دوما امامي . أعود متخبطاً في ظلام ماطر على الارصفة الطينية ، أعود إلى حيث مراكز الشرطة ، والسجون الاشبه بمدن النمل . أخالف قواعد المرور ، وأدفع الغرامات . والمدارس القديمة المعتمة ، بضوضائها المستمرة وأنفاسها الفاسدة وحماستها الضائعة ، ما زالت هناك تملأ المشهد التسع دوماً - المنقبض دوماً ( لا مشهد الوادي الذي هو العزيزة الفاتنة السارقة المقتدة مريم ) . أعود إلى حيث تساوت القرعاء وام الشعر ، إلى كل حفلة كزيمية الحصى والقلق ، إلى حيث العصفور يضحك على القلق ، حيث إذا طلعت من يد الحرامي وقعت بيد فتاح الفال ، واهل السوق يقفون على رأسك ، والابتسامة من تحت الثوابر الكثة تقول لك : « تريد ارنب خذ ارنب ، تريد غزال خذ ارنب . » ولكنني عقلت ، وتبت . والليل طويل . وما زلت اشتهي الا أحيب ابي وهو في قبره ، فأضيف إلى ما أورثني من مال ولو دينارين - أو الا أضيق مما أورثني أكثر من نصفه ، ثلاثة ارباعه ...

لست ادري ماذا يريدون مني - اخواتي وازواجهن . إذا بعث ارضاً ، فأتما ابيع ارضاً هي ملكي ، حلالي . لتبدأ احتجاجاتهم عندما أغش

وأدلس وأبيع أراضيهم ويوتهم هم وأنفق اثمنها في شوارع لندن وبارلين وباريس . كم مرة في لندن مشيت مع المظاهرين ، وأنا لا يهمني بالضبط ما الذي يتظاهرون بشأنه . انهم ضد شيء ما قائم ، وأنا ضد كل شيء قائم . فلا أضف صيحتي إلى صيحاتهم . ولكنهم في لندن لا يصيحون كما كنا نصيح في مظاهراتنا ببغداد في الازمان الماضية . لو رضي بي الفدائيون ، لكنت معهم كلما ارادوا اختطاف طائرة . ولكنهم يقولون إنني متقدم في السن ! ولا يصدقون أنني في أيار ١٩٦٨ ، اذ كنت في باريس احاول أن اكمل صفقة تجارية ، رحلت اشارك الطلبة في مظاهراتهم الكاسحة الجنوبية - وكتبت إلى سوسن رسالة كل يوم عن القصائد الجدارية ، والهجوم على الواجهات الفخمة ، وقلب السيارات وحرقتها في بوليفار سان ميشيل ... ابراهيم الحاج نوفل ، يا ابا المشاكل ، يا عاشق الازمات ، يا قصبة مكسورة ، يا جداراً مائلاً ، يا مطالباً متعباً بالحرية . ولكنني لم اكتب إلى سوسن عن الثائرة ، بولاند ، ذات العشرين عاماً ، التي كانت تلبس قبص الجيتز مفتوحاً على نهدين ثائرين ، وتتكلم بفصاحة رويسير مطالبة بقطع رؤوس الخونة كلهم ، وكيف أخذتني في المساء إلى غرفتها الصغيرة في الطابق الثامن من عمارة في مونتارتر صعدنا درجاتها كلها ، لأن لا مصعد فيها ، غرفة ليس فيها الا فراش مضطرب ، ومنضدة محملة بالكتب والمجلات والمصقات ، وأخذتني بين فخذها طيلة ساعات الليل ، ثم انكفت على صدري ، حتى اشرفت الشمس وقالت ، وفهما على عني : « آه الشمس لا تستحي . انها تداعب ردي ! » فقلت وفي يغمغم في شعرها : « وماذا تنتظرين منها أن تفعل وقد كشفت عن رديك لها ؟ » « أوه ، لا تفرصني ! قرصك يوجع ! » ونزلنا إلى مقهى عتيق في العارة . وشربنا كافيه اوليه ، واكلنا كرواسانت وخبزاً حلى ، وهي تحدث عن بارون هوصمان السني قبل مئة سنة لم يترك بتخطيطه بوليفاراً في باريس الا وقطعه بشوارع اخرى - منقطعة

بمراكز للشرطة بالطبع - للقضاء على أي تمرد... قالت « السلطة تعرف كيف تديم نفسها ، أو هكذا هي تتوهم . » وكان ذلك آخر ما رأيته من الثائرة الحشنة ، وعدت إلى بغداد ، دون أن اكمل صفحتي التجارية . ( اكملتها في بغداد فيما بعد ، وحقيقتي لي رجحاً لم أكن أتوقعه . بركات يولاند ، وهي لا تدري ! )

الليل لا يرحم . أنه لا يتحرك ، ولكنه يطير . كليل العشاق وأنا استطرد لأن حياتي كلها استطرادات ، ثم أفاجأ بالشمس كشمطاء عوراء تحرق في بعينها الواحدة . وتهتهه قهقهتها الشنيعة وهي تقول : « ابراهيم افندي ، يوم آخر ! » لا بأس ، لا بأس . في الزجاجة بقية بعد ، وفي الليل هزيع آخر بعد . كلهم خونة ، محدود الداعات ، وواضعو التقاوم ، ومستقرئو الفلك ، والعرافون بما لا يعرف . شيء واحد أعرف يا وليد . لا مقولة سقراط ، بل مقولة أخرى : وهي أنك جثث وذخيت ، وكأنك لا جثث ولا ذخيت ، غير أن الليالي التي قضيتها معك في هذه الغرفة ، ها هي متحجرة على الجدران ، أراها ، اسمعها ، وكأنها تماثيل صغيرة ، كلها يذرف دمعاً - أنها تغرقني بطوفان دمعها ، بضوضاء نجيبها .

ولكنك أدري مني بأن هذه كلها كنباتات للشعراء ، تجسد الحقيقة وتحققها معاً . لا ، أنت لست هنا ، ولا الليالي تنثيث على جدرانها . أنت زوبعة في دماغي ، وصوتك أحله في صوتي ، وأنا أسأل أسئلة من ذلك النوع الذي تعرف : أي رجل يطلب منه ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟ أو يطلب منه سمكة ، فيعطيه أفعى ؟ طلبنا الخبز والسمكة ، فأعطونا الحجر والأفعى . وغضبت أنت أخيراً ، رغم كسل حبك ورسالتك : أمر ما وقع فكان القشة التي قصمت ظهر الجمل . من حزيران ٦٧ إلى أيلول ٧٠ إلى آذار ٧١ ، حين قدم مروان دمه الفتي قرباناً لقضيتك .

ولا اذكر التواريخ السابقة ، وما أكثرها ! غضبت وحزنت ، وما يشت . أم أنك يشت أيضاً ؟ لن أصدق ، لن أصدق أنك ثلاثيت كسراب في البادية ، تعبيراً عن موقفك الأخير . لأنني أعرفك جيداً . زوبعتك تستمر في أدمغة كثيرة ، لا دماغي وحده . وهل لي أن أناقص نفسي - وما أكثر ما ناقضت نفسي ، فلم لا أناقص نفسي فيك مرة أخرى - فأقول انني احس بك جالساً على هذا الكرسي ، أمامي ، والكأس بيدك ترشف منها رشقات صغيرة ، جبراً لحاطري ، لأنك لا تريد أن تشرب : بل تريد أن تتحدث ، وتريد أن تسمعي أنلوا تلاواتي الفاجرة ، التي يجب أن تحرك فعلاً ما ، في مكان ما ، في يوم ما .

ولكنني أعرف - دون أن تقولها أنت - أن على هالخمص ما بصير عيد . وأراني في الصباح ، في مكتبي استقبل رجلاً خاطبني هكذا ، بعد أن احترمه وقدمت له استكان الشاي : « شوف ، استاذ . أنت تعرفني ؟ أنا رجل بسيط ، صريح ، احب البسطاء والصريحين . » فأهرز رأسي موافقاً . ويكمل : « وأنا أودك واحترمك وأريد خاطرك . » فأقول : « شكراً . شكراً ... » ويردف : « وإذا لم أزرك لمدة طويلة وعشتي ضميمي وقلت لنفسني : متى سترور الاستاذ في مكتبه ثانية ؟ أسألني ، لماذا ؟ لأنني لا اتمتع بمحبتك فحسب ، بل لأنني - واقولها بصراحة ، لا أمامك فقط ، بل على رؤوس الاشهاد - لأنني استفيد علماً وثقافة من حديثك . » فأكرر بنجمل : « شكراً ، شكراً ... » ويستمر : « يا أخي ، ما أقلّ المثقفين الحقيقيين الذين نلتقي بهم هذه الأيام ، وتتلذذ بسباع كلامهم . في الواقع ، المشكلة - » عندها أتوقع اكتشافاً خطيراً ، ويبيط صاحبي قليلاً في ايقاعه ، تأكيداً : « المشكلة ، هي هذا التفاف . مدحونك لوجهك ، ولكن حالما تدبر لهم ظهرك ، رأف الله بحالك ! وأنت تعرفني جيداً ، استاذ . » أنا في الواقع اكاد لا أعرفه ،



ولكن يبدو أنني سأبدأ معرفته جيداً ، حين يستمر وأنا ساكت : « تعرفني ، أنا لا أحب النفاق ولا المنافقين . ولا أحب اغتيال الناس ، ولا الحديث عنهم وراء ظهورهم . عيب ، والله عيب . هذا ... ما اسمه ... فلان - تعرفه أنت فلان الفلاني ، ولد طيب . لا بأس به . يظهر لطيفاً أول الأمر . ولكن ما الفائدة ؟ له لسان كلسان الحية . بل دقق النظر فيه ، تجده يشبه الحية . الحية الصفراء . ولو لم يكن صديقي لكان الأمر . ولكن الانسان ، يا استاذ ، أدري باصدقائه من غيرهم . وأنا أعرف كل جيئاته وروحاته ، وأعرف من أين تمتلئ جيوبه ، ولن يستطيع أن يخدعني بمظاهره ... » ماذا تقول لتخزير كهذا ، وهو يتحدث عن احد اصدقائك ، أو احد معارفك ، على هذا النحو ؟ تتشجع يدي لكي تمتد إلى الاستكان الذي على منضدتي وتقذفه بوجهه . غير أنني أقول له : « يبدو أنك قادم من المزيلة البشرية ، يا استاذ ، تمام ؟ » فلا يدرك بالضبط أنني أهتة ، ولو أنه يشبه في ذلك قليلاً ، فيضحك ضحكة « صفراء » ، وتند من بين اسنانه كلمة « تمام . ها ها . تمام . »

وكل يوم على هذا النوال ، مضروباً بعشرة . وهلموا إلى المناحات ومباهج الاسواق وملئقي الباعة والشرأة ! مع هكذا باعة وهكذا شرأة ، لكي يقال إنني أقوم بعمل ناجح يحفظ ماء الوجه ، ويُبقي لي القدرة على الاحتفاظ بجاسم ، وبسيارتي القديمة ، وهذا الشراب ... بيتنا في الاعظمية ، المشرف على النهر ، سابعه قريباً : اسعار البيوت في ارتفاع ، وحسابي المصرفي في انخفاض ، فليلق الباعسة والشرأة ... لعلي بينهم ألقى نور عيني الحبيبة ، التي ما زالت تحزّ في نفسها قصتي مع سوسن - أجزم اليوم أن سوسن كلما أنجزت لوحة تبدى لها عاشق في زي مشرّ قرأ كتاباتي عنها ، وأعادها هساً في أذنيها .

بعد اختفاء وليد ببضة أشهر أتتني سوسن بمفاجأة غريبة . تلفت إليّ

بعد انقطاع طويل لتخبرني أنها قررت أن تهديني احدى لوحاتها . كان معرضها في الشهر السابق ناجحاً ، فقد باعت معظم الصور ، وظهرت عنه عدة مقالات ، بعضها يمدح وبعضها يتحرقش ، وبعضها يثن بالغرة ، وبعضها مبطن بسوء النية ، وبعضها مرصوف بما يشبه لغة النقد ، بمازج بين السياسة والفن على نحو تحسبه جاداً ، وإذا هو قطعة أخرى من ذلك الهديان الدعوي الذي امتلأت به السوق هذه الايام ، من قلة الخليل .. وكانت دراسي المنشورة في الدليل هي المكتأ ، للهادجين والقادحين معاً . ولم لا ؟

فلما أخبرتني سوسن أنها ستهديني احدى لوحاتها ، ورفضت أن تعدّد اللوحة التي قالت إنها ستأتي بها إلى داري ، توقعت أن تكون ، بالطبع ، احدى اللوحات التي عرضت ولكن لم تبع . وبعد ساعتين كانت سوسن بالباب ، تفتح صندوق سيارتها لتخرج صورة قلبت ظهرها إليّ لكي لا أراها ، إلى أن دخلت البيت . ثم قالت بلهجة تكاد تكون « رسمية » ، وشعرها مشدود كالعادة عبر صدغيها وفوق اذنيها في صغيرتين مجدولتين خلف رأسها : « مع امتناني العميق ! »

واذا هي صورة شخصية لوليد مسعود . كانت قد بدأها منذ سنوات ، ولم تنجزها . غير أنها بعد اختفائه عادت إليها ، وببضع ضربات من ريشتها الحاذقة أوجدت صورة من أقوى ما رسمت ، مستعملة ، على طريقتها ، أقل الالوان ، فجاءت مزجاً من تخطيط وتلوين ، وفيها شيء من اسلوب اندريا مانتنيا ، رسام النهضة الايطالي ، الذي كان وليد مولماً به ، لما فيه من صلابة الصخر وحسّه . وكان قد أهدى سوسن ، والله أعلم متى وبأية مناسبة ، كتاباً ضخماً مليئاً برسومه ، درستها بامعان ، وحاولت ان تستوحي اسلوبها - على طريقتها الخاصة .

فرحت بالصورة جداً ، وهتفت : « هائلة ! » وعانقت سوسن

قبل ان تدرك ردة فعلي ، وقبَلْتُها قبله كبيرة على خدِها . كان بارداً .  
ألمس ، كالرخام . وأدهشني أنني أحسست كأنني أقبلت اخوتي ، لا امرأة  
حسبها يوماً عشيقتي ! وتأملت الصورة ثانية ، وسألت : « أين أعلقها ؟ »  
قالت : « في المكتبة . أنها أجمل غرفة في بيتك . »

وفي الحال أحضرت مطرقة ومساراً ، وعبّنا المكان الممكن الوحيد  
لتعليق لوحة - فالكتب تكاد تكسو الجدران كلها - وعلّقناها . واتفقت  
معها على دعوتها مع بعض الأصدقاء الى العشاء عندي بعد يومين او ثلاثة .  
وخطر لي خاطر للذيد : « أريد أن أدعو أيضاً صديقتك مريم - فهي  
لم تترننا من قبل أبداً . »

فقالت : « أعرف اعجابك القديم بها . سأخبرها ... على كل -  
سجل رقم تلفونها ، واتصل أنت بها مباشرة . » وأعطتني الرقم .

وهكذا ، بعد بضعة أيام ، جاءت مريم بصحبة سوسن للعشاء عندي ،  
كما جاء عامر عبد الحميد وزوجته آن ، وجواد حسني وزوجته هالة .  
ودار الحديث من جديد حول وليد ، لأن مكانه كان حقاً خالياً ، ولأن  
كلا منا ، بعد العشاء ، حين انتقلنا الى المكتبة ، كان ينظر الى صورته  
الزيتية فيشعر انه يبتنا مرة أخرى . بل ان جواد وقف أمام اللوحة ،  
يتقرأها بدقة الناقد الفني ( مما لم أكن أعهد فيه من قبل ) ، وردّد :  
« رائعة ، رائعة ! » أكثر من مرة . فتدّ ذلك الفنانة الى المعجب  
بها ، وسأته : « هل رأيت معرضي الأخير ، دكتور جواد ؟ »

لم أسمع جوابه ، وهو يمسك بغليونه الضخم بين أسنانه ، ويشعل ،  
ويطلق سحب الدخان ، لأتني انصرفت بهي الأكبر نحو مريم . غيّر  
انها بقيت يتحدثان وحدهما ليضع دقائق ، بينما أخذ كل منا له مقعداً .  
ثم عادا البنا . وتصورت هالة تنفّس الصعداء لعودة زوجها العالم الوقور  
من تطوّحه الطائش ، ولو لدقيقتين أو ثلاث ، في مسدّاج تردحم

بالمجاهيل ، الى وقار الاستاذ الكبير المتمسك بالعقل والمتعد عن المخاطر .  
جاء جاسم بفناجين القهوة ودار بها علينا ، مع الكؤوس الكبيرة التي  
جعل يصبّ فيها الكونياك واحدة واحدة . وعندها نهضت مريم وبجركة  
من رأسها دفعت شعرها السابل عن وجهها الى كتفها ، والكأس الجميلة  
ييدها كوردة من الجنة ، وتقدمت من رف يحمل عدداً من كتب وليد  
مسعود ، صفت كلها معاً وراحت تخر بأصبعها عليها وتعدّها : « واحد ،  
اثنان ، ثلاثة ، أربعة ... لم أكن أعلم انه كتب هذه الكتب كلها .  
هل قرأتها يا ابراهيم ؟ »

.. « كلها ، وناقشت في كل واحد منها وهو يكتبه . »

.. « وأنت يا عامر ؟ »

.. « قرأت معظمها . انها تنضح بشخصيته التي كنت اعزنها جيداً ،  
فأكاد احزر ما في الكتاب قبل ان اقرأه . أفضلها في نظري « المفرد  
والتعدد والمطلق » . هل قرأته ؟ »

.. « نعم . قد يكون أنضج كتبه . ولكنني فضلت عليه كتابه  
« البشر » ، الذي يتحدث فيه عن طفولته ، على تحوّل لم أعرف بالضببط  
هل هو سيرة ذاتية ، أم محاولة روائية . »

فقال جواد : « انه جزء من سيرته الذاتية . حثته طويلاً على  
كتابته . غير أنه كان قد أصبح لديه ثبات على طفولته . يدور حولها ،  
ويتوقف عندها ، ويكاد لا يتخطاها . »

.. « هل قرأت كتبه كلها ؟ »

.. « طبعاً ، مريم . وأنا الآن أعيد النظر فيها ثانية . أريد ان أصل  
الى نتيجة . على الأقل . حسناً للاشكال مع زوجتي . فهي تقول :  
اكتب كتابك عنه ، وخلصني ! »

استضحكت هالة ، ووضعت ساقاً على ساق ، وقالت : « أريد من

جواد أن ينتهي من هذا الموضوع ، لكي يستطيع التفكير في شيء آخر  
غير وليد ، رحمه الله . »

فدهشت مريم وسألتها : « رحمه الله ؟ لماذا ؟ أتظنين أنه مات ؟ »  
وكانت الدهشة هذه المرة من نصيب هالة : « ألم تمت ؟ اذن أين  
ذهب ؟ »

وكان هذا كافياً لاستئناف الجدل العتيد : أين ذهب ؟ لم تستطع مريم  
أن تؤكد أنه حيّ ، إلا أن حدسها ، قالت ، يوحي بأنه حيّ ، بمعنى  
ما لا تستطيع تفسيره ، وأضافت : « كما هو في هذه الصورة . »  
فهفت سوسن بفرح : « نحن متفقان ! أردت أن تكون الصورة  
تأكيداً مني على حياته - دائماً . »

ونظرت مريم إليّ بعينيها الخضراوين الواسعتين (مريم) ، إذا لم أتزوجك  
هذه السنة ، فلنأكلني كلاب الطرقات ! ) وقالت : « ابراهيم ، أنت  
بحكم أشغالك وصدقاتك تعرف الكثير من الفلسطينيين . هل تعتقد أن وليد  
كان فلسطينياً نموذجياً ؟ »

وقبل أن أجيب ، استدركت ، وهي تهز رأسها لتدفع شعرها جانبا  
عن خدها الأيمن : « العفو ! سؤالي سخيف . ليس هناك من هو  
نموذجي ، ولا سبياً عندما يكون شخصاً غير عادي ، كوليّد . ولكن  
الذي أنساها حوله هو : « هل أثار وليد ما أثار من اهتمام ، من حب  
وربما من كراهية ، بسبب كونه فلسطينياً ، ولكون الفلسطيني يشغل  
حيثاً خاصاً من الضمير العربي اليوم ؟ بالنسبة إليّ ، فإن جوابي هو :  
قطعاً ، لا . »

وخطر لي ، كما لا بد خطر لجواد وعامر ، أنها كأمرأة متهمّة سابقاً  
بجبه ، لا شك أنها تنجده مهماً لأسباب أخرى ، تتعلق بشخصها .

غير أن جواد أصر على أن خلفية وليد ، مولداً وقضية ، جزء هام  
من الموضوع .

لم تأبه مريم كثيراً للجواب ، وقالت : « هذا صحيح ، ولكن إلى  
حد ما فقط . المهم أن وليد أيضاً شيء آخر - شيء فذّ ، يختلف عن  
الناس ، مغاير لكل أحد . هناك الأيديولوجي ، الجماهيري ، الذي  
يريد ، ويستطيع ، أن يكون في القلب من المعمة ، ويريد للعالم كله  
أن يعرف ذلك ، لأنه من حقه . ووليّد لم يكن ذلك . قطعاً . على  
الأقل لا كما عرفته أنا . هناك الرجل الفاعل ، « الاكثيفيست » ،  
المستعد للاقاء القنابل وكتابة المناشير السرية ، وجبك المصائد للعدو ، دون  
أن يتم بأن يعرف العالم عنه ذلك . ووليّد كان فيه الكثير من ذلك :  
لا يقول عنه شيئاً ، ولا يجعل منه حجة لبقائه . انه جزء تلقائي من  
كيانه - أو ناحية واحدة من كيانه : وذلك لأن لبقائه حجة اضافية ،  
تغذي الناحية الأخرى من كيانه ، وهي أيضاً تلقائية وجوهرية . وهنسا  
مزينة هذا الرجل الذي غادركم دون أن يودع أحداً منكم كما ينبغي .  
فإزاء هذا الفاعل ، القلق ، المتسائل ، هناك المتأمل ، الزاهد ، البعيد  
في قراره عن الجنوح ، المغلف بطوايس الأفكار والأحلام . هل كان  
هذان المستويان في حياته متناقضين ؟ من يلدي ؟ مصيبتنا أننا لا نعرف  
الكثير عن حياته . ماذا نقول ، دكتور جواد ؟ »

أجاب : « أنت حقّة . لا أظننا نعرف الكثير عن حياته - أقصد  
الكثير الحالي من الخطأ والوهم . ولو أن من حقنا أن نستنبط الكثير  
من كتبه . »

كانت مريم في تلك اللحظات متجلبة ، ومصممة على ابضاح أمر  
يبدو أنه شغلها كثيراً ، ولا تتمكن من ابضاحه كلياً . قالت وهي  
ما زالت واقفة بجانب الكتب ، ويمناها تعبت بها : « والحقائق نفسها

زئبقية في أكثر الأحيان . ووليد وجد نفسه يسلك طرقاً زئبقية . طرقاً زئبقية ، مثلنا جميعاً - بل أكثر منا جميعاً - متجهاً نحو غابات معقدة غير واضحة ، كانت خليطاً عجيماً من السياسة واللاهوت . ولعله فوجئ بأنها تنهافت بين يديه ، واحدة واحدة ...

انتصب غامر على قدميه ، وأخذ نفساً من سيارته . وسار نحو الصورة الزيتية التي على الجدار ، وركز عينيه فيها . ثم قال : وهو ما زال يقابلها : « لنا أن نشرق أو نغرب في حديثنا عنه . ولكن وليد ، كما أراه الآن ، إنما كان شاعراً يريد أن ينظم القصيدة الرائعة الواحدة التي - التي لا يمكن أن تُنظم ... حياته ، آراؤه ، نهايته . أجزاء من تلك القصيدة التي استحالت عليه ، وها أنت يا مريم . وأنا ، وأنتم جميعاً ، نحاول أن نروي عنه الأبيات القليلة المتناثرة التي نذكرها ، كما كان يفعل رواة الشعراء في الجاهلية ... ولو استطعنا أن نجمعها . ونرجمها ، ونضعها في الكمبيوتر ... » واستدار نحونا .

فقلت ، مفصلاً أخيراً عن الفكرة التي أخذت تلح علي : « لكن الجواب أن وليد مسعود اختطف ، رغمًا عنه . وعندما قاوم ، قتلوه . » صمت قصير . ثم مريم ، بصوت يكاد يكون هماً خائفاً : « ومن يخطفه ؟ »

قلت : « هناك احتمالان . الأول : العدو ، أو عملاء العدو . والثاني : أعداء شخصيون مدفعون بدوافع خاصة . »

فهزت رأسها : « ولكن كيف ، كيف ؟ » وتركت مكانها وجلست في الكرسي الجلدي أمامي .

وقالت آن بالانكليزية : « ارجوك ، تكلم على مهل لكي أفهمك . » قلت : « هذا ما أتصوره قد حدث : بعد أن غادر وليد الرطبة ، واتجه في طريقه غرباً ، نحو الحدود الأردنية السورية ، أدركته سيارة .

ربما كانت هذه السيارة تستقصي أثره منذ أن غادر بغداد . المهم ، ان أصحاب هذه السيارة ، بشكل ما ، جعلوه يتنحي جانباً ويتوقف بسيارته ، وبحجة ما ، طلبوا اليه التزل ، ربما مدعين بأنهم بحاجة الى مساعدة منه لسيارتهم . ووليد ، كما نعرف ، لم يكن ليتردد في الذهاب مع أحد لمساعدته ، مهما شقَّ عليه الأمر . يدفعونه الى داخل سيارتهم ، ويخدرونه ، وينطلقون ، تاركين سيارته على قارعة الطريق بكل ما فيها . ونحن نعلم انها بالفعل وجدت كذلك ، بالضبط مليئة بامتعته ، حتى المسجل فيها كان مفتوحاً . في « أبو الشامات » ، يأخذون جواز سفره من جيبه « ويجرون معاملته مع معاملتهم . وكلما أفاق خدره مرة أخرى ، ولو نصف تخدير ، بحيث يكون أشبه بالصاحي ، ولكنه عاجز عن التفكير وتكرر العملية . عند الحدود السورية اللبنانية . يبدو أنهم أرادوا اختطافه الى بيروت . أرادوا اقتلاع سر ما منه ، فهم يريدونه حيّاً . أو أن عملاء آخرين للعدو يريدونه حيّاً في بيروت ... »

فقلت مريم : « ولكن الشائعات زعمت انهم وجدوه مقتولاً بين الضخور في ظهر البيلدر . أو أنهم وجدوا رجلاً يعتقدون أنه وليد مسعود . هل من المعقول أن يأخذوه كل هذه الطريق الطويلة المهجورة ليقتلوه على مشارف بيروت ؟ »

قلت : « طبعاً لا . ولكن يجئني إلي أن وليد ، والسيارة تصعده الجبل ، بعد عبور شوره بمدة قصيرة ، أفاق ، وربما أبدى انه سيتعاون مع المخطفين إذا لم يؤذوه . وكلما ارتفعت السيارة اشتدَّ صحوه . ففتح الجبل ، وفجأة ، عند أحد المنطفات العليا قبل بلوغهم صوفر ، فتح باب السيارة ، أو استطاع فتح بابها ، وطفر الى الخارج . أو ربما دفع المخطف الذي يجانبه عبر الباب المفتوح ، قاذفاً به ، الى الطريق ... »

وهنا مدَّ جواد يده الى ذراعي يوقفي ، وهو ينفث حلقة بديعة من

دخان الغليون من فمه ، وقال : « ابراهيم ، هل أنت تعيد قصته مع كاظم اسماعيل ؟ »

قلت : « ماذا تقصد ؟ أية قصة ؟ »

قال : « قصة وقعت قبل حوالي خمس عشرة سنة ... لا بأس .

أكمل ، أكمل . العفو . »

قلت : « نحن نعلم أن وليد ، عضلياً ، كان قوياً جداً . ولكن أحد المختطفين - ربما سائق السيارة ، إذا كانوا اثنين فقط - حين توقفت السيارة عند هذا الحادث ، أتصوره ينطلق خارجاً منها ويمسك بوليد ، فيبتاعركون ، وقبل أن يلفتوا أنظار راكبي السيارات القادمة ، أو لأنهم خافوا أن يغلبوا على أمرهم ، أطلقوا النار عليه . وحلوه وقذفوه بين الصخور . أو انه هو الذي هرب قافراً إلى المنحدر . فرموه بالنار . لأن الجثة التي اكتشفت قبل انها كانت مثقبة بالرصاص . ومشوهة الوجه ... وأنا أؤكد لو أن واحداً منّا يراجع سجلات المسافرين في ذلك النهار ، والليل الذي أعقبه ، في أبو النمامات ، ثم في الجديدة ، ثم في المصنع ، لوجد حتماً اسم وليد مسعود . فإذا دقق في الأسماء التي تتكرر معه في نقاط الحدود الثلاث ... »

فقاطعتني هالة ضاحكة : « رواية بوليسية ممتعة ! »

ولكن عامر كان جاداً : « الفكرة هائلة . إلا أن أسماء المسافرين العابرين من هذه النقاط تكون عادة بالملئات . وأكثرها يتكرر . لأن معظمهم مسافرون من الرطبة إلى بروت عبر هذه النقاط بالذات . ولكن الفكرة هائلة . وممكنة . ممكنة جداً ... سؤال واحد ، يا ابراهيم . لماذا يختطفون وليد ، في رأيك ؟ »

قلت : « لأنه كان بالتأكيد عضواً نشيطاً في منظمة فدائية وأنا أعرف ذلك . قبل ذلك بعدة أعوام ، اعتقلوه بيت لحم ثم أبعدهم من

الضفة الغربية ، وكان له نشاط يعود إلى ما قبل ١٩٤٨ . »

دفعت مريم شعرها المترسل عن وجهها ، وقالت : « هذا صحيح . كلنا نعرف ذلك الآن . »

قلت : « هذا ، إذا كان المختطفون من عملاء العدو . أمّا إذا كانوا أعداء ، أو غرماء لوليد ، يتفدون خطة لغرض في أنفسهم ، فلان وليد لم يكن ينقصه الأعداء - مهما يكن السبب . »

فقال مريم : « قد تبدو قصتك مقنعة ، ولكنني لا اصدقها . أسفة يا ابراهيم . لا اصدق كلمة واحدة منها . »

ف نظرت في عينيها الجميلتين . « طبعاً . لأنك نصرّين على أنه ما زال حياً . »

— « جداً ! »

يا لهذه المخلوقة الرائعة الصعبة ! أما زالت تحبّه ، على طريقتها ؟ فلنجتمع ، في الأقل ، على ذلك الحب كلانا !

أردفت مريم : « كلكم تعرفونه معرفة جيدة ، ومع هذا تتوصلون إلى نتيجة لا يمكن أن تتسجم مع ما تعرفونه عنه . حتى الشرط الذي سمعناه قبل أيام في داركم ، يا عامر ، إذا لم يكن تركيبة ، أو خدعة من شيطان مكر ، فإنه لا يورحي إلا بعكس ما ترون . »

قال عامر : « الشرط ؟ إذا أردت رأيي الصريح ، فإنني جعلت أشعر انه يدل على جنون وليد عندما سجله . وفي هذا انا أتفق مع طارق رؤوف ، ولا يهمني أعقدة الأم أو غير عقدة الأم ظاهرة فيه ، الجنون أظهر . »

قلت : « أهذا اذن ما يعتقد الآن طارق ؟ ألم يكن هو - وكذلك كاظم - آخر من رآه ؟ ولكن لا طارق ولا كاظم قال انه لمح جنونا

على وليد عندما رأياه في الرطبة . كان يبدو ضاراً ، هكذا يقولان .  
وأنا أصلاً ، حتى الآن ، لم أفرغ من دهشتي من انهما التقيا به هناك ،  
في تلك الليلة بالذات ... »

وهنا انفجرت ضحكة غريبة من فم عامر : « لن يبقى إلا أن تقول  
انهما هما اللذان اختطفاه ! »

تقصدت ألا أجيب ، وجواد يقول : « مستحيل ، مستحيل ! »  
قلت : « حتى لو كانت هناك دوافع لا نعرفها ؟ »

وبادرني عندها مريم بنظرة خضراء ، نافذة ، زاجرة : « ابراهيم !  
أخذت تهدي ! أي دوافع يمكن أن تكون هناك ؟ وكلهم أصدقاء ...  
أوه . سيأخذنا الوهم في مناهات رهيبية ، إن لم تنتبه . »

قامت وانجهت نحو الكتب . وأخذت تقرأ العناوين بصوت مرتفع .  
وكتبي لم تُرتَّب يوماً وفق أي تصنيف : تخطط العربية منها بالانكليزية ،  
ولا يعرف أحد مكان أي كتاب في المكتبة كلها إلا أنا . قرأت مريم  
مزيجاً من العناوين ، ثم ادارت ظهرها اليها ، وقالت ، موجهة  
الكلام إليّ ( عليّ بالزبد ، أيتها الحبيبة ! ) : المرء حصيلته ثقافته .  
أتوافق ؟ »

استغربت سؤالها . ولكنني أجبت : « أوافق . »

« أي أن فكر المرء هو حصيلته ما يقرأه ، وما يغذي معارفه ،  
ويشحن تأملاته ؟ »

« صح »

« قياساً على كتبك هذه : ثقافتك التي أنت حصيلتها : لا صلة  
لها بالطبقة ، ولا بالأرض ... إذن انت لا صلة لك - »

« كفى ! كفى ! سأخذني وهمك في مناهات رهيبية ان لم أنتبه ،  
كما قلت . ستجعليني بعد لحظتين من أهل المربخ - أنا الذي لم أستطع  
يوماً أن أقتطع طين دجلة عن قدمي ... »

وضحك الجميع ، وكان أصحهم ضحكاً سوسن : « جاءك أخيراً  
من لا تقدر عليه ! »

تريث مريم الى أن خفّ الضجيج ، ثم قالت : « كنا هذا الصباح  
في جدل حول هذا مع بعض الأساتذة . المقولة تتردد رواجاً يوماً بعد  
يوم ، لأنها تلدّ للجهالة ، وهم والحمد لله في ازدياد يوماً بعد يوم .  
المقولة مبينة على ما يبدو في الظاهر أنه سيرورة منطقية : المرء حصيلته  
ثقافته . وبما أن الثقافة مصدرها اليوم الكتب الغربية ، أو الجامعة منهاهجها  
العلمية التي مصدرها الحقيقي هو أيضاً الغرب ، إذن فالمثقف حصيلته  
غربية - أي أنه ، لا صلة لفكره في أعماقه بطبقته وأرضه ، الخ . »

فقاطعتها جواد : « وإذا كان مثقفاً ثقافة عربية دينية تقليدية ؟ »  
أجبت أنا : « سيفولون ، ولا ريب ، انه هو أيضاً حصيلته رجعية ،  
حصيلته فكر سلفي مثالي يستتكف عن الطبقة والأرض ... »  
قالت هالة : « والنتيجة إذن ؟ »

فأجابت مريم بدهاء : « نتيجة هذا المنطق ان الثقافة هي تقطيع لصلات  
الانسان بطبقته وأرضه . أي انها نوع من الحياة . أي ان كتبك هذه :  
يا ابراهيم الحاج نوفل ، ايها المفكر ، الناقد ، الغاضب ، ما هي إلا  
وباء خياني ! »

فصحت : « لنحرقها إذن ! » ورفعت كأسها : « ولنشرّب نخب  
المحرقة الكبرى القادمة ، يوم يصبح اللامثقفون الوطنيين الوحيدين ! »  
ضحك عامر ، ورفع كأسه وأخذ جرعة كبيرة ، ثم مسح شففيه

لبسانه : « أنتم الذين تعيشون بالقلم والكتاب ، لكم فعلاً أن تخافوا هذا . »

نفخ جواد الدخان من غليونته : « هراء ، عامر ، هراء . »

فاسترسل عامر : « ما عليّ إلا أن أنهيكم . كلام كهذا كثيراً ما كان يثار بيني وبين وليد ، كلما أراد نشر كتاب جديد . كنت أقول : أنتم الذين تصرّون على أن تعيشوا بالكلمة ، عليكم أن تتحسّبوا . أما أنا ، ففي مأمن من ذلك كله . »

قال جواد : « لأنك لا تكتب ؟ »

— « بالضبط . أنا لا أكتب ، لا أعبر عن آرائي على ورق . أنتم تناطحون أبواب الجهل ، وقد يحرقون يوماً كتبكم ، ولعلهم يحرقونكم أنتم أيضاً على أكوام منها . أما أنا فأراوغيهم . أنا أعمل فقط . أعمل باستمرار . وأرتب علاقات عمل . ابني عمارات . أقيم مباني حكم ، مباني برلمانات — زائفة أو غير زائفة ، لا يهيجني . أخطط مزارع لتفريخ الدجاج ، أو تناسل الأبقار . أقيم بالمئات مباني المدارس التي قد تتباهى يوماً بأنها ترفض كتب الحضارة لأنها لم تكنها هي . وفي هذه الأثناء : تندفق النقود عليّ من كل ناحية . وهذه النقود أمتنع كما تشاء لي ثقافي ، ولتكن حصيلة ثقافات الشياطين كلها — دون أن أتحديث عنها لأحد . على طريقي الباطنية ! ولن يتعرّض لي ناقد ، لأن النقاد مشغولون عني بكم . أنتم أهل القلم والكلمة ، وهم أصلاً لا يفهمون معنى حقيقة لما أنبئته أو ما أقيمه . أما أنتم ، فكان الله بعونكم . ستكونون الكفرة الجدد ! وكل الكفرة ، سيطرّدونكم ، ويشرّدونكم ، ويحرقونكم ، وجيوبكم خاوية خواء بطونكم ؟ شهداء الحضارة ، كما كان يقول وليد ؟ لا شك . ما اختلفنا . ولكن ما نفع الشهيد لنفسه ، وقد حرّم ما كان به يتغنى ؟ ها ! ها ! ها ! »

قت وصيبت له كأساً أخرى من الكونياك ، قائلاً : « ما كنت أتصورك متشائماً إلى هذا الحد ! »

أخذ الكأس من يدي ، « متشائم ؟ أنا ؟ العياذ بالله ! » واستند نحو جواد . « هل أنا متشائم يا جواد ؟ أنا لا أعرف معنى لهذه الكلمة ، سوى ما أسمعه من الناس — فلا أفهم ماذا يقصدون ، بالضبط . »

فوجهت سؤالاً إلى زوجته بالانكليزية : « آن ، ألا تعتقدين أن عامر متشائم ؟ »

فأجابت : « لا أظن . عامر ، فيتاليست ، قدرتي . يؤمن بكل شيء . »

ولم تستطع مريم ضبط نفسها . « تقصدين ، لا يؤمن بأي شيء . »  
فضحكت آن : « هل من فرق ؟ »

وردت مريم مع كركرة بدعية من الخلق : « أبداً ، ما من فرق . رغم كل ما قد يقوله جواد ، أو إبراهيم . »

وقت لأملاً الكأس لمريم ، لكنها أبعدت كأسها شاكراً ، وأنا أقول : « أنا تعلمت درسي منذ زمان . صديقنا كاظم اسماعيل ، بالحساح من وليد ، جميع مقالاته تحت عنوان « وقت للتحدثي » — أعتقد أنه حوّر العبارة عن أبيات للشاعر اليوت . ولما ألح عليّ وليد بأن أجمع مقالاتي أنا أيضاً في كتاب ، قلت له : وما حاجة المجمع إلى كتاب آخر لن يقرأه ؟ فقال : ولكن الذئاب بحاجة إلى فريسة ! أنبئها تتضور جوعاً ؟ أسألكم بالله ! يريدني فريسة ! فقلت له : لهذا السبب رحلت تحت كاظم على نشر كتابه ؟ فضحك ، ثم قال : ألا ترى أن الأحداث غدت من الضخامة ، بحيث قرّمت كل مواهبنا ازاءها ؟ فواجهنا ما عادت قابلة للكلمة . سحقت الكلمات كلها ...

ولذا ، يا عامر : سأقنّدي بك .  
فانبرت إليّ سوسن : « أنت تقنّدي بعامر -يا ابراهيم ؟ أنت الذي لا تستطيع أن تكفّ عن الكلمات لحظة واحدة ؟ لا أصدقك ! »  
مصيبي أن سوسن . منها ابتعدت عنها ، تثير جزءاً خفياً ، مظلماً .  
في أعماقي . فقلت : « نعم سوسن . لن أكتب بعد اليوم . ولكن سأسجل ما أريد قوله على كاسيتات . فليسمع من عنده الصبر والجلد .  
أما أن أملاً الصفحات لتكون تحت يد كل عامر يستتر على ظهره على حسابي - لا ... »

فقلت سوسن : « الرسم أسلم .  
ولكن جواد تناول زجاجة الكونياك ليصب منها في كأسه ، وهو يقول : « لا الذئاب ولا غير الذئاب ستثني عن الكتاب الذي أكتبه ! »  
وخرج عامر عن صمته ، كعادته ، ليكفر : « يا جاعة ، والله لا أزال أعتقد أنكم لو تتعلمون الغناء ... أو هزّ البطن ... »  
قلت : « فات الألوان ، فات الألوان . »

وترجمنا لزوجة عامر خلاصة ما قلناه ، وضحكنا جميعاً . وبدأ أن سوسن تردّد فتنة كلما تقدم الليل . وازداد الكل بهجة وحبوراً . وكما تقدمت الحيرة بنا ازداد اليقين .

كنت أحذر الإسراف في ما أشرب لكي أبقى على وعيي ومنطقي .  
إزاء مريم ، لأنني صممت على مفاتحتها بما يتلج في صدري والذي قد يفضحني يوماً على غير ما أشتهي . ولذا حين نهضوا جميعاً ليخرجوا إلى سياراتهم ، ورافقتهم إلى الطريق لأودعهم واحداً واحداً ، أخذت مريم جانباً من ذراعها يرفق خلف سيارتها لكي لا تسمعي سوسن .  
وهمت لها :

-- « مريم ، أنتزوجيني ؟ »

لم تندعش الظالمه ولو لثانية واحدة . بل ضحكت ضحكها الآسرة ، وربّيت على خديّ كأني طفلها المحب ، وكوّرت شفّتها نحوي بقبلة موهومة ، وبحلاوة لاذعة قالت : « في يوم آخر يا ابراهيم ، في يوم آخر ! تصبح على خير ! »

تصبحون على خير ، جميعاً ، تصبحون على خير !  
لقد طلع الفجر .

الفجر ؟ إنها عواء الباردة ، الشمس ! وهذه ثلاث كاسيتات قد امتلأت بصوتي . من له الصبر والجلد ، فليسمعها . والله لن أخطئ منها كلمة واحدة على الورق .



( ١٢ )

د. جواد حسني يعبد بالمزيد

بعد أن يقول الأشخاص ما يقولونه ، بعد أن يبرزوا عن تصميم أو غير تصميم ما يبرزونه ، ويخفون عن تصميم أو غير تصميم ما يخفونه ، يبقى لنا أن نسأل : عمن هم في الحقيقة يتحدثون ؟ عن رجل شغل في وقت ما عواطفهم وأذهانهم ، أم عن أنفسهم ، عن اوهامهم واحباطاتهم واشكالات حياتهم ؟ هل هم المرأة وهو الوجه الذي يطل من أعماقها ، أم أنه هو المرأة ووجوههم تتصاعد من أعماقها كما ربما هم انفسهم لا يعرفونها ؟

تنامي الاحداث دونما وقفة كما تنامي الفسائل في ارض سدئية تعاقب عليها الامطار والشموس ، فتكبر وتندخل وتكاثف ، وإذا هي غابة لا تخترق الا في مواضع . الأشجار والادغال سامقة ، يلتف بعضها على بعض ، والبحث سير عسير من خلالها . ولا تكاد نشق طريقنا إلى الطرف الآخر من هذا العالم المكتظ حتى ندرك اننا ، من هذا الاتساع كله ، لم نستضيء الا بفسحة هنا واخرى هناك ، وما طريقنا الا طريق التيه . نتفحص الافق ، نتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، نعود القهقري ، نستدير مرة اخرى ، نتمعن في المعالم والرموز ، نستقرى الآثار : انها غابة من براءة وطيش ، من ايمان وخديعة ، من فعل ولا فعل ، من قاتل ومقتول - العلو من امامكم . البحر من ورائكم ،

ونحن إذ نخترقها حينما يتسنى اختراقها ، نحملها ايضاً معنا ، في اصوات حناجرنا ، في احلام ليلنا ونهارنا نأكل منها في خبزنا ونشرب منها في مائتنا .

وأنا ، إلى ذلك ، لم اخض في بحر الاوراق التي تملأ مكتبي بهديرها الصامت . من الغاية إلى البحر ! السفر في كليهما ، كالسفر داخل المرايا ، مثير ، ومليء بالشراك . ولئن كنت لاكثر من سنة حملت معي الغاية ، فاني الآن احمل البحر ايضاً . لا أنام الاً وانا مرق ، في ساعة متأخرة ، وحالة تحذرنني من التعود على حبوب النوم . غير انها لا تعلم أن سعي في العودة بالمركات إلى اولياتها ، ومضاهاة الجزء بالجزء ، وتحديد الفجوات ، والتفتيش عن الضائعات التي قد تملأها ، وكشف الشايات المتواشجة بدلائلها الشحيحة الظاهرة ، والنفاذ اخيراً إلى تلك المنطقة السحيقة المحكمة السد في الداخل ، حيث تفعل الدوافع دؤوبة كما يفعل النحل دؤوباً في خلاياه - هذه كلها قد باتت ادماني الخفي الذي هو لذتي الحقيقية ، والذي أعجز عن التواصل به مع أحد ، كلما دخلت مكتبي بمفردي ، وأغلقت بابها عليّ دون عائلتي ، دون اصدقائي . دون الناس كلهم . يتوحد الكون في غرفة صغيرة ، مكتظة اكتظاظ الغاية ، ماثجة موج البحر ، وأتوحد أنا فيه . فاتقد واتقذف وأتهاوى في فضاءات مدومة كقطعة من الشمس انتشرت عنها ، وتطلوحت في فضاءات كون مجهول رابع ، رابع . ولا أستطيع أن افصح عن شيء من ذلك الاً بعبارة عاجزة هنا ، وعبارة أعجز هناك .

ولكن الذي لا بد منه في النهاية هو أن أضع شيئاً من ذلك كله ، مها ضؤل ، في كلمات . ومتى كانت الكلمات ثناراً من عصاف ، من لميب ، نشوة ، كتلك التي تأتيني في غيبوبات تنقاذفي ، تحطمني لتعيد تركيبي من جديد ، فتحطمني مرة اخرى ، لتركتني بعدها ، إلى ما

لا نهاية ؟ لو كنت موسيقياً ، لسان الامر عليّ نسيماً . ولكن ليس لي من عدة الاً الكلمات .

وهل كان ذلك كله بسبب من تأملي في حياة وليد مسعود ؟ ألسن مغالياً فيها اذهب اليه ؟ منطقياً ، ربما أنا مغال . اما واقعياً ، حياتياً ، فلا احسني كذلك . ومتى كانت حياتي أو حياة أي انسان أعرفه ، منطقية الاً في الاجزاء الاقل أهمية منها ؟

في الاشهر الاخيرة تحققت امور معينة ، ولن أجازف بالرأي فيما إذا كانت بعضاً من المنطق أو اللامنتطق في حياة الذين أعرفهم . فلنقل انها خليط من هذا وذلك .

كان ابراهيم الحاج نوفل قد أطلق لحيته زمناً ، فطالت جداً ، حتى غدا بسببها شبه الغورو الهندي ، يوحى بقوى نفسية خارقة تتبدى في عينيه الساطعتين وسط وجهه اختفى معظمه بشعر كث امتزج البياض بالسواد فيه بفوضى حيولية . وفجأةً حلتّ لحيته ، وبان وجهه مستديرأ عادياً ، مساوياً من كل قوة . بعدها أطلق شاربه زمناً ، وحفّه ، ولما وجد انه أضاف إلى وجهه « حلاوة مائعة » ، حلقه . ثم عاد وأطلقه ثانية ، وجعله يتهدل على شفتيه العليا ، وانزله على جانبي فمه حتى ذقنه ، فبان جهماً ، صارماً ، حتى الضحكة منه تبدو جهمة وصارمة . وهو إذ يحمل هذا الوجه الجديد ، تزوج سوسن عبد المسادي . بعد ليلة صاخبة في بيتنا ، حدثني فيها عن شقائه بصدد مريم الصفار ، في المساء التالي بالضبط كنت أحد الشاهدين على عقد قرانه على سوسن بنت عبد الهادي محمد ، الثيب ، إلى آخره ، إلى آخره .

وبعد يومين أو ثلاثة كتنا أنا و ... مريم نفسها في المطار الدولي . نودع العروسين الزاهيين إلى روما فلندن . قطعاً لن احاول أن اصف مشاعر مريم أو مشاعر ابراهيم أو مشاعر سوسن ، في تلك اللحظات ،

وهذا يقبل تلك ، وتلك تقبل هذه . على رصيف المطار . كانت سوسن تبكي ، رأيت عينيهما مليئين بالدموع . وكذلك مريم . هسي أيضاً كانت عيناها فائضتين . ابراهيم كان يضحك ضحكاً غريباً . وقال .  
دوماً سباق : « تصوروا لو انني فجأة اصطدمت بوليد في إحدى طرقات روما ؟ ها ، جواد ؟ » قلت : « محتمل جداً » واردفت مغيراً الموضوع : « اعتن بسوسن ، دلتلها . » فقال : « من اجلها ستنذهب إلى فلورنسا . وسنبحث عن رسوم اندريا مانتينيا . » فصطحته سوسن : « وإلى البندقية ، وبادوا ومانتوا وميلانو ... » كانت نضرة ، ريانة ، ودموعها لم تزدجا الا نضارة ورياً . الفاكهة الندية التي اراد ابراهيم التلويح بها أمام أنفي ، ثم اقتطفها لنفسه !

اما مريم فقد حبست دموعها بسرعة . توارى العروسان بين جموع المسافرين ، والتفتت مريم إليّ وقالت : « أفضل ما فعل ابراهيم في حياته أنه تزوج سوسن . »

فقلت بشيء من المكر : « ارجو أن يكون افضل ما فعلت سوسن ايضاً أنها تزوجت ابراهيم . »

تخمنت مريم : « سئرى ، سئرى . » وتلفتت حولها .

سألتها : « أين سيارتك ؟ »

« عاطلة في البيت . جئت بسيارة أجرة . »

« تفضلي معي ، اذن . »

وسرنا في اتجاه سيارتي ، صامتين ، وانسا مخرج بعض الشيء . في السيارة بدت مريم متوترة ، رغم محاولتها بأن توجي إليّ بأنها تخلصت من عبء كان يرهقها . قلت وانا اسرع في الطريق الطويل الخالي : « والآن ، عودة إلى الدوامه نفسها . »

أزجت إليّ نظرة طويلة صامتة ، أحسست بها دون أن التفت التفاته

كاملة . واخيراً قالت : « هل أنت ايضاً في الدوامه ؟ » قلت مازحاً ، وأنا اضغط على زر المسجلة ، فيطلق صوت فيروز في موشع بديع : « إلى حد ما ، إلى حد ما . » ثم اضفت ، يدفعني دافع عجزت عن وقفه : « حدثني ابراهيم الكثير عنك . »  
« هه ؟ »

« تعرفين ابراهيم . فهو لا يستطيع أن يمسك لسانه عن دواخله . »

« ماذا اقول أنا اذن ؟ »

« عن ابراهيم ؟ »

« عن ... اوه ، عن كل شيء . الحياة مرهقة يا جواد . ماذا تريد مني هذه الحياة ؟ لماذا لا تقف عند نقطة رائعة منها ، وعندها تكفّ عن السير إلى الابد ؟ »

كان صوت فيروز مشيراً للشجن ، للحنين ، للذة . قلت : « اتعرفين قصة الحلاج مع الموسيقى ؟ »

« لا . »

« يقال إن احد مريدي الحلاج سمع صوت الناي قادماً من بعيد . فسأل استاذة : ما ذلك الصوت يا مولاي ؟ فاجاب الحلاج : أنه صوت الشيطان وهو ينوح على دمار العالم الذي يتمنى لو يستطيع اتقاذه . والشيطان ينوح ، قال الحلاج ، لأن كل شيء إلى زوال ، وهو يودّ لو يعيد الحياة إلى كل شيء مضي ... ولكن البقاء ليس الا لله وحده . »

« إذن ، جواد ، اعتبرني من بنات الشيطان ، انوح على دمار عالم لا يستطيع اتقاذه . واحاول أن اعيد الحياة اليه كل يوم . مثل هذه المسجاة . تضغط على الزر فتعيد الحياة إلى هذه الانعام اللذيذة كلها . فصحكت : « مريم ، أنت يوسعك أن تسجلي نعماً جديداً كل

٢٠٢

فرغت كفها على عينها دهشة ، ثم دسها في شعرها المتطاير حول وجهها : « أنت أيضاً يا جواد ! وأنت الناتج الآخر على دمار العالم ، تكتب كتاباً عن رجل كان ، ثم مضى ! »

صدرت عني تهدة عميقة وأنا أقول : « كلنا من نفس العشرة ، فيما يبدو . »

ولمحتنا تلقى بظهرها على ظهر المقعد باسترخاء تام ، وتكئء بكوعها الأيمن على نافذة السيارة المفتوحة : « تجربة واحدة عميقة تلغي المستقبل كله ... سأخبرك يوماً بكل شيء . »

في هذه الاثناء كادت القطعية تصبح تامة بين ابراهيم وكاظم اسماعيل ، بعد صداقة طويلة جداً ، ومضطربة جداً . ولولا أن السنين لطفت الكثير من حدة كاظم القديمة في غضبائه ، لرما وجد ابراهيم نفسه يواجه صديقاً ينقلب عليه لا باللفظ فقط ، بل بالضرب . فقد سمع كاظم ( على الأرجح من عامر عبد الحميد ) التأويل المشين بحقه وحق طارق ، الذي اوحى به ابراهيم أكثر من مرة ، للقاء الصديقة بينها وبين وليد في الرتبة عشية اختفائه ، وجاءني هائجاً على نحو لم اكن اتصور أن له قبلاً مثله

« أنجعل مني هذا الكبير الموهوس مختطفاً ، وقاتلاً لرجل كانت لي معه علاقة أخوة لسنوات طوال ؟ ... » هكذا انفجر في بيتنا . وأنا أحاول أن اخفف عنه . « لم أتم لحظة واحدة أمس . لا والله . كيف يستطيع أن ينهني ولو ضحناً بعمل حقير كهذا ؟ حتى لو خطرت له الفكرة الحقاء في ساعة مخمورة ، لكان شرفه يقتضي أن يقتلها في دخيلته حالاً ... ما الذي كان بيني وبين وليد حتى تذهب به الظنون مذهباً كهذا ؟ حتى اعتداء وليد عليّ في تلك الليلة الماطرة - اتذكرها يا

جواد ؟ - قبل سنوات وسنوات - ألم أغفره له ؟ ألم اكتب عنه مقالاً سيقى من افضل ما كتب عنه تلك الأيام ؟ ألم أن ابراهيم تزعر من اساسه بتعلقه بسوسن ، هذه المسكينة المخدوعة بذوي اللحى ، وتصور أنني انافسه فيها ؟ يا أخي ... متى ناقست احداً في امرأة ؟ ما هذا التشنع ، ما هذه الحفاقة ؟ ... »

واستمر على هذه المشاكلة ساعة أو أكثر

كان يؤسه لا يوصف . كان يؤساً معقداً رأيناه في تلك اللحظات كمن بطارد حتى اللهاث الاخير ، ثم يسقط وفي حلقه صيحة اليأس الاخيرة . قبل ذلك بيضعة أيام كان قد نزل إلى السوق كتابه الجديد « وقت للتحدثي » الذي جمع فيه مجموعة مقالات اختارها من خير ما كتب في الاعوام الاخيرة ، وهو كتابه الثاني ( أصدر الاول في أواسط الخمسينات ) . وإذا إحدى المجلات اللبنانية تنقد عمله الذي اعتبره خلاصة لأهم افكار حياته ، تقسداً ساخراً ، موجعاً ، بتوقيع غير معروف ، وأقسم كاظم أن صاحبه ليس الا ابراهيم الحاج نوفل متكرراً وراء اسم مستعار . لم اذكر له ، طبعاً ، أن ذلك التجريح أعاد إلى ذهني تهجمه هو على كل كتاب وليد مسعود قبل خمس عشرة سنة . بل أكدت له أن كتابه مهم ، وسيلقى تحميذاً ، وستكتب فيه دراسات منصفة وجادة ، وتبرز دوره الرائد في الكثير من قضايا الادب ، والثقافة ، الخ . وأكدت له في الوقت نفسه أن ابراهيم لم يكن يعني كل ما يتصور كاظم أنه يعنيه ، وأن هذه العاصفة سوف تبدد قريباً ، ولا يبقى الا الجوهر القديم - جوهر العلاقة الاصلية الحميمة ... إلى آخر ما هناك مما استطلعت أن اتلوع به تجاه يؤسه ، وسخطه .

ثم قلت : « كاظم ، فاجأني بكل هذا ، ولم تدع لي المجال لكي اعنتك . »

وانفجرت شفتاه عن اشتائه بما يشبه التكبيرة اكثر من الابتسام .  
 « أسمعت الخبر اذن ؟ »  
 « قرأته في الجريدة هذا الصباح ... أخيراً ، أصبحت مديس عاماً ! »  
 « نعم ، بعد خراب البصرة . »  
 « انه تقدير لجهودك ، مهما جاء متأخراً . »  
 « صدور كتابي أهم »  
 « وهكذا أنت ، دائماً ! لا ترضى عن شيء ! »  
 « أرجو ألا يشاغب كتابي على وظيفتي الآن ... ولكن عليّ ألا أجانب الحق . إن يكن لتعيني الجديدة اية قيمة ، فهي أنه جاء ، لأول مرة في حياتي ، مؤقتاً توقيتاً جيداً . »  
 « مع ماذا ؟ »  
 « مع زوجي . »  
 قالها بأقل ما يستطيع المرء من إثارة ، أو فرح . بل قالها بمزيج من الحزن والفكاهة . اما انا فذهلت . « زواجك ؟ متى بمن ؟ ما ها التكم على رفيقك القديم يا كاظم ؟ أمن وراء ظهري رحلت ... »  
 بقي ينظر اليّ بمزيج حزنه وفكاهه ، ولا يجيب ، كأنما يؤسه يحج الا يتزحزح عن صدره .  
 « تكلم يا رجل ! من هي المحظوظة السعيدة ، المنكوبة ؟ »  
 ونحولت التكبيرة بغتة الى ضحكة من الحلق . « المنكوبة يا جواد جنان . جنان الثامر . »  
 « هائل ! انت هائل ! لمساذا لم تفعلها من قبل ؟ ولو انا سأصارعك : لم أكن اعتقد ان بينكما أي شبه ... »

« وهل الشبه ضروري ؟ »  
 « فقلت متفلسفاً : « لا ، الحب هو المهم . »  
 « وهل الحب ضروري ؟ »  
 « لا تثختها يا كاظم ! طبعاً ! الحب ضروري . ألم نحبها ؟ ألا نحبها ؟ »  
 « الآن أحبها ، نعم . »  
 « جنان ملأى بالحيوية . ستعيد لك شبابك يا كاظم ، فكفاهك يؤسأ . »  
 « كل شيء يتوقف على جنان . »  
 « وعليك أنت . اجعل لنفسك قدوة من ابراهيم ، عدوك الحميم ! »  
 « لا تذكر اسمه امامي ، ارجوك . »  
 « طيب ، طيب . ألن تطلب اليّ أن أكون احد شهود القرائن ؟ »  
 « طبعاً ، جواد . وهل لي غنى عنك ؟ »  
 نهضت ، وناديت هالة ، أرفأ اليهسا النبا . فأطلقت من حنجرتها الصافية هلهولة بديعة تعلمتها عن امها . ثم قالت : « الحمد لله ! أفتعتك صبيحة أخيراً ! »  
 غير أنه اجاب : « هذه المرة كان عليّ أنا ان أقنع صبيحة ! بالله يا هالة ، هلا اعطيني درساً أو درسين في فهم أسرار النساء ؟ »  
 فقهرته عالياً ، « ماذا ، اتظني خائنة لجنسي ؟ »  
 اما انا فصحت : « سنشرب عليها يا جماعة ! نخب زواجك ونخب اسرار النساء ! »

منطق ؟ لا منطق ؟ خليط من الاثنين ، تتقبله مرغماً أو راضياً عندما تعرف الحقائق ، والخلفيات ، والنوازع .

ولكنني كلما أردت العودة الى المحور الحقيقي لكل هذه الأحداث ( ماذا كان وليد يقول لو علم بهذا الزواج ؟ عاقني القضايا الجائبة . واني لأذكر هذه الساعة قول ذلك الكاتب الذي مات شاباً من العشق : « أعظم السحرة هو ذلك الذي يكون مستعداً لأن يترقى نفسه بالسحر الى حدٍ يعتبر عنده مخلوقات خياله اطيافاً لها ارادتها الذاتية . أليس من الممكن ان تكون هذه حالتنا ؟ » هل رتيتُ نفسي في الاتجاه الآخر، حتى جعلت أرى الاناس الحقيقيين الذين أعاشرهم كل يوم وكأنهم تحولوا الى اطياف من خلق خيالي، فلا أفرق بين ارادتهم الذاتية وإرادتي أنا؟ أليس من الممكن ان تكون هذه حالتي ؟

بعد زواج كاظم بأيام قلائل قررت إقامة حفلة عشاء كبيرة في دارنا على شرفه ، دعوت اليها ، فيمن دعوت ، عامر عبد الحميد وآن ، وطارق وبسميرة ، ووصال .

وصال ، حين دعوتها تلفونياً ، أجابني دون تردد بأنها تعتذر عن المجيء ، دون ذكر أي سبب . غير أنها يوم الحفلة ، قبل موعدها بساعة او اثنتين ، ونحن في غمرة اللامسات الأخيرة من تهيئتها، خابرتها، ولاحظت زوجتي بشيء من الدهشة ان وصال طلبت الحديث اليّ أنا

« هل بإمكانني أن آتي لحفلاتكم هذا المساء ؟ »

« طبعاً ، طبعاً . ستشرف . انت أصلاً مدعوة منذ اليوم الأول. »

« ولكن ، دكتور جواد ، هل تعتقد أنه سيتاح لي ان أتعلم اليك على انفراد ؟ »

« لم لا ؟ »

« شكرآ . »

« هل تعرفين اين متزلنا في حي الجامعة ؟ »

« سأجيء برفقة طارق ، لكي لا أضيع . »

جاءت . ولكنها كانت ضائعة بين المدعويين الكثر . ولأن بيتنا صغير ، لم أتمكن من الانفراد بها ، غير أنني استطعت أن امس لها في غفلة من الآخرين : « لم لا تأتين الينا في يوم آخر ؟ »

ولم تضع وقتاً كثيراً . تلفنت بعد يومين اثنين تستأذن المجيء عصرآ، فرحبت بها . وقلت لخاله : « وصال رؤوف تريد مراجعتي بأمر بهما . وسنجلس في المكتبة وحدنا . »

لم يرق لها ما قلت ، وهزت عطفها وهي تقول : « آه ، هؤلاء الشابات المسكينات ! مشاكهن لا تنتهي ! لا بأس ، على ان تعطيني تقريراً مفصلاً فيما بعد . »

جاءت وصال بسيارتها الصغيرة ، وهي تلبس بنطلوناً من الجيزر الأزرق ، وقيصاً أسود مفتوحاً عند العنق ، يكشف عن قلادة ذهبية ناعمة يتوسطها قرآن من الذهب . أول ما نطقت به ، حالما أغلقت باب المكتبة ، وأنا بعد لم استقر إزاهما على الطرف الآخر من القنفة ، كان « وليد حي ! وليد حي يرزق ! »

« متأكدة ؟ »

« مئة بالمئة . »

تربثت قليلاً . أردت أن يهدأ اضطرابها . يداها الصغيرتان كانتا ترتجفان . أشعلت لها سيكارة وتبينت ان شفعتها ، وراء حمرتها، جافتان . فسألته : « هل رأيته ؟ »

« طبعاً لا . انه في الأرض المحتلة باسم آخر . ربما بشكل آخر . ولا أظن احداً يعرف أين هو بالضبط . »

« كيف عرفت ذلك ؟ لماذا لا يرسل خبراً الى أحد، بطريقة ما ؟ »

- « هذه مصيبي ، دكتور جواد . وأنا اريد اللحاق به . »

كدت أقفز من مقعدي « ماذا ؟ تلحقين به ؟ »

- « نعم ، نعم . اذا كان يسكن كهفاً ، سكنت الكهف معه .. »

- « وصال ، هذه خيالات رائحة . رومانتيكيات . ولكن ألا ترين أن المسألة كلها ، اذا كان وليد حقاً على قيد الحياة ، مسألة رفض كامل ، مسألة انكار للذات ، مسألة ... »

راحت تضرب بمجموع يدها على ركبتيها ، حيث ازرق البطلون أخذ يضرب الى البياض . « أدري ، أدري . فعلها يوماً في صغره ، فلم يفعلها اليوم في كبره . ولكنه في صغره لم يكن له من بريده - »  
- « كانت هناك أمه ، اخوته ، أبوه المهاجر . »

- « دكتور جواد ، الا تعلم أن المرء لا يحقق ذاته الا عندما ينفصل عن امه وأبيه واخوته ؟ »

وخطر لي أنها ما زالت تعيش في كنف أمها وأبيها واخوتها . ولعلها أدركت ما خطر لي ، بل كدت ارى ذلك في اضطراب عينيها الواسعين . غير أنها ، بعد وقفة قصيرة مرتبكة ، استمرت : « وليد يريد أن يقاتل ، على طريقته . فلاكن معه . اقاتل إلى جانبه . »

- « ولكنك تقفزين إلى نتائج لا اعلم إن كان لديك ما يبررها . كيف عرفت انه حي ، وفي فلسطين ؟ أنت لم نجيبني بعد . »

أثنتا هالة بالقهوة ، و « اعتذرت » عن الجلوس معنا بأنها مشغولة بطبخ العشاء ، وخرجت بعد أن ألقت عليّ نظرة عجيلى تقول : « ما بها ؟ »

وراحت وصال في كلام كثير غير متماك ، تصف فيه كيف اتصلت في عمان بعيسى ناصر ، وفي بيروت بخالد أبو مطر ، وأسامة حماد ،

وعبد الرحمن الناظر ، ووو ... اسماء عديدة لا اذكرها ، وكيف انهم كادوا يجمعون على استنتاج واحد ، وهو أن وليد اختفى عن قصد ليضل ملاحقيه ، لكي يستطيع أن يتحرك بحرية خلف خطوط العدو . « إنه يريد أن يتنقم لقتل مروان . على طريقته ، على طريقته المجنونة العنيدة . ويوم يشعر بأنه قد شفى غليله ، سيعود . سترى يا جواد . سيعود . حدثت يوماً بأنه قُتل . كنت أراه رؤيئة العين والرياحات ينصبّ في جسده ، وهو يتلوى ، ويتدحرج ، والرياحات يلاحقه . ولكنني الآن أحس بأنه قهر الموت . لا تبسم ، دكتور جواد . لست مجنونة ، ولا ساذجة إلى الحد الذي قد تتصور . انا احس الآن بأنه حي ، يذكركم جميعاً ، ويضحك . يذكركني ، ويضحك ، ثم يبكي . لأنه يعلم كم يكبت من أجله ... »

أردت ان انادي زوجتي لتدخل علينا وتؤكد لي أنني لست أحلم . فقدت سيطرتي على حواسي : إما اني في غيبوبة من الهلوسة ، ووصال استخرجتها برقية ساحر من بين أوراقى وكتبي - أو أن هذه الحسنة الحسنة الشابة الشقية هي التي اشتدت بها الهلوسة حتى تمكنت من اقحامني في وهما . أخذت أفتح بقناعها ، توفرت الأداة أم لم تتوفر . ارضاء لرغبتها ، بل ربما ارضاء لرغبي أنا . لم لا يكون وليد حياً ؟ لم لا يعود ناسكاً في كهف ، أو مسافراً باسم غريب ، أو راهباً في دير ايطالي أو غير ايطالي - أحد تلك الأديرة الكثيرة التي طالما حدثني عنها ؟ هناك ألف طريقة يعود بها الطائر الى كره . ومن هناك ينطلق الى الفعل ، مهما يكن ، مع زملاء له كثيرين . فلنمطر السماء ماء ، فلنمطر السماء ناراً : انها لن ترهب رجلاً عبر الماء ولم يغرق ، عبر النار ولم



يَحترق . أو انه ما عاد يرهبه أن يفرق أو يحترق . لم يعد كائناً حقيقياً ،  
ربما حتى لنفسه : أما لوصال ، أما لشهد ، أما لعابرة القرات على  
صهوة خيالها الفاجع ، فإنه الحقيقة الوحيدة المؤمنة عبر المسافات ، المتأدية  
عبر القلوات والوديان والجبال . وعلى صهوة خيالها الفاجع حملني معها  
لحظات مذهلة . قلت : « كل شيء ممكن بخصوص هذا الرجل . كل  
شيء ممكن » .

أخلفت وجنتاهما تحمران على نحو عجيب ، حتى خيل لي أنني أرى  
الدم وهو ينتشر وراء أهابها الشفاف ، كأن وردة بيضاء جعلت تتحول  
أمام عيني إلى وردة بلون الشفق . كان وجهها أشبه بوردة كبيرة ،  
مستحيلة ، وشفتاهما المنفرجتان المشدوهتان هما القلب اللاب منها . ومن  
خلال لاهبها قالت :

— « أنت معي اذن ، أنت معي ! »

لم أعرف ماذا أقول . جرفني السيل المنهاوي ، ولكنني فتحت عيني  
بشدة ، فتحتني بشدة عضلية ، مقاوماً السقوط ، متشبثاً بواقع ما أراه  
أمامي من أثاث الغرفة ، من الكتب ، من الحديقة التي أراها خلال  
النافذة . ولم أفلح . بقيت على متن السيل المنطلق وفق مشيته الداخلية ،  
مشية هذه الفتاة التي سلمت إرادتها لقوى زوبعية لا يتحكم بها إلا منطقها  
الغفي الخاص .

وكررت وصال : « أنت معي ، أنت معي ! لا تقل شيئاً  
أرجوك ! »

وفجأة وقفت على قدمي . مستني رعب خاطف ، رعب لعله لم  
يديم أكثر من ثانيتين اثنتين ، إذ شعرت أن ظلاً كبيراً يهوي عليّ أشبه  
بجنائحين أسودين ضخمين يحيطان فوق رأسي ثم يرتفعان وينبلاشيان عبر

سقف الغرفة ، عبر سماء الحديقة . ووجدتني لغير ما سبب أفتح النافذة ،  
كأنني أستنجد بمنقذ قد يأتي من الخارج . وعندما استدرت ، رأيت  
وصال ترقبي مشدوهة بعينين راعيتين ، وشفتين منفرجتين ، ونهادها  
يرتفعان وينخفضان بأيقاع لهاث وتليد عميق .

« أنا معك ! » قلت . « ما كنت أنصوّر أن هناك من يعرف  
وليد مثلي . ولكنني كنت غخطئاً . أنت تعرفينه أكثر مني ، وأحسن  
مني ، وأعمق مني ... »

بقيت ترقبني ووضعها لا يتغير ، وكأنها لم تسمعني . ركزت انتباهي  
في وجهها المشع وسط شعرها الفاحم ، في شكلها القوطي الرابض في  
طرف من المقعد ، في قبصها الأسود المفتوح العنق ، في القرآن الذي  
على صدرها ، في ذراعيها الذهبيتين العاريتين ، في حقيبتها الجلدية البيضاء ،  
في بنطلونها الأزرق ، في حذائها الأحمر الكاشف عن أصابع قدميها ...  
ماذا تريد هذه المخلوقة الجميلة ، بعينيها العليلتين الكحيلتين ، من رجل  
ضمها يوماً إلى قلبه ، ثم وضعها عنه كما وضع عنه كل شيء آخر اقتناه  
أو أحبه ؟ وفجأة عاودني ذلك الخاطر القديم : لماذا لم يتحدثني عنها  
وليد ؟ ما أكثر الناس والأمور التي لم يتحدثني عنها !

لحظات من وهج نوراني مذهل ، ثم انطفأ كل شيء ...

قدمت لها سيكارة ، وأشعلتها لها . عدت إلى مكاني ازامعها، واشعلت  
غليوني . التفتحت حقيبتها بحزم ، وفتحتها . ثم رفعتها بانجماي . « هنا  
أوراق كثيرة قد تهتك . إذا أردت الاطلاع عليها يوماً ... »

قلت : « شكراً ، شكراً . »

وأخرجت عدة رزم من الأوراق المطوية ، وبمجموعة كبيرة من أوراق  
زرقاء صغيرة متناسقة . « احفظها عندك . عدني إلا تقرأها - لمدة

قوة لا تعللها هذه الوقائع لأنها فيض بتأنيب لا يحددهما تشريح . أو فعل ، أو مكان ؟ القرائن لا تنسجم دائماً ، والتناقض قد يظهر في أدق الأجزاء . ولكن من قال إن أجزاء الحياة تناسك منطقياً وتناغياً فيما بينها ؟ وحيثما كانت الحياة صراعاً مستمراً ، وتحدياً مستمراً ، وحباً مستمراً - وهذه كلها تختتم خلق العلاقات التي تتضارب فيما بينها - كان حاصل الأجزاء معاً أكثر من مجرد مجموعها بكثير . وهل كان وليد إلا حاصل حياته وحياته المحيطين به ، حاصل زمانه الخاص وزماننا العام ، في وقت واحد ؟ وأي زمان كان كلاهما ، زمانه وزماننا !

فلأعد إلى الغاية . ولأعد إلى البحر .

طويلة . وإذا طلبت إليك يوماً أن تعيدها إليّ ...

- « فهمت ، وصال : فهمت . لن أمسها إلا يسوم يكون لذلك ضرورة . »

رفعت إليّ عينيها الكحيلتين بنظرة امتنان عجيبة ثم أطفأت سيكرتها في المنفضة ، ونهضت . فنادت هالسة لتأتي وتودعها . فأثت ، وهي تقول : « ما هذا يا وصال ! ألن تبقى للعشاء ؟ ما هذه العجلة ! والله سأزعل . »

فضحكت وصال . « في المرة القادمة سأكون اجتماعية أكثر مما كنت اليوم ... وسأبقى للعشاء . لا شك أنه لذيد ! » ورافقتها أنا وزوجتي إلى سيارتها .

كانت تلك آخر مرة رأيناها فيها . بعد أيام ركبت الطائرة إلى بيروت ، ولم تعد . ولم ادهش . بل كنت أتوقع ذلك : لقد التحقت بحجبة فدائية . وجاءتني منها رسالة تذكر الجهة التي التحقت بها . وأنا الآن في انتظار المزيد من أخبارها . وهل أقول ، وربما أخبار وليد ؟

ها أنا اليوم قد جمعت أوراقي وهيأت ملاحظاتي . وسأبدأ جاداً بدراستي . ترى هل سأبلغ نتيجة قطعية بشأن وليد ؟ هل ثمة نتيجة قطعية في أي حدث في الحياة ، دع عنك حياة إنسان كاملة ؟ عليّ أن أغربل الحقائق والمعطيات ، عليّ أن أعزل عنها التضليلات والتخرصات والأوهام ، عليّ أن أبلغ نهاية ليس فيها إلا أقل ما يمكن من التناقض . ولكنني ، حرصاً على مسؤولية الباحث ، لن أفعل ذلك . حتى التخرصات والأوهام حول رجل ما لها أهميتها : وإلا فلماذا اخترقت ، ومن أين جاءت ؟ هل الوقائع دائماً مادية ومحسوسة ومعقنة ؟ أليس ثمة في بعض الناس

## الفهرس

- ١ - د. جواد حسني يتسلم تركة صعبة ٩
- ٢ - د. جواد حسني يبدأ البحث مستدلاً بشيء من منظور كاظم ٣٩  
اسماعيل وابراهيم الحاج نوفل
- ٣ - عيسى ناصر يشهد موت مسعود الفرحان ، بعد أن عاصر ٨٧  
بعضاً من حياته
- ٤ - وليد مسعود يتذكر النساء في كهف بعيد ١١١
- ٥ - الدكتور طارق رؤوف يتأمل في برج الجندي ١٣٥
- ٦ - وليد مسعود يكتب الصفحات الأولى من سيرته الذاتية ١٧٥
- ٧ - مريم الصفار تعلق بصخرة تسكن أعماقها ١٩٥
- ٨ - وليد مسعود يحترق أمطاراً تتجدد ٢٣٩

- ٢٥١ ٩ - وصال رؤوف تكشف أوراقها
- ٢٩٥ ١٠ - مروان وليد يفتح أم العين مع رفاقه
- ٣٠٥ ١١ - إبراهيم الحاج نوفل ينش الكوامين حتى الفجر
- ٣٦١ ١٢ - د. جواد حسي يعد بالمزيد